

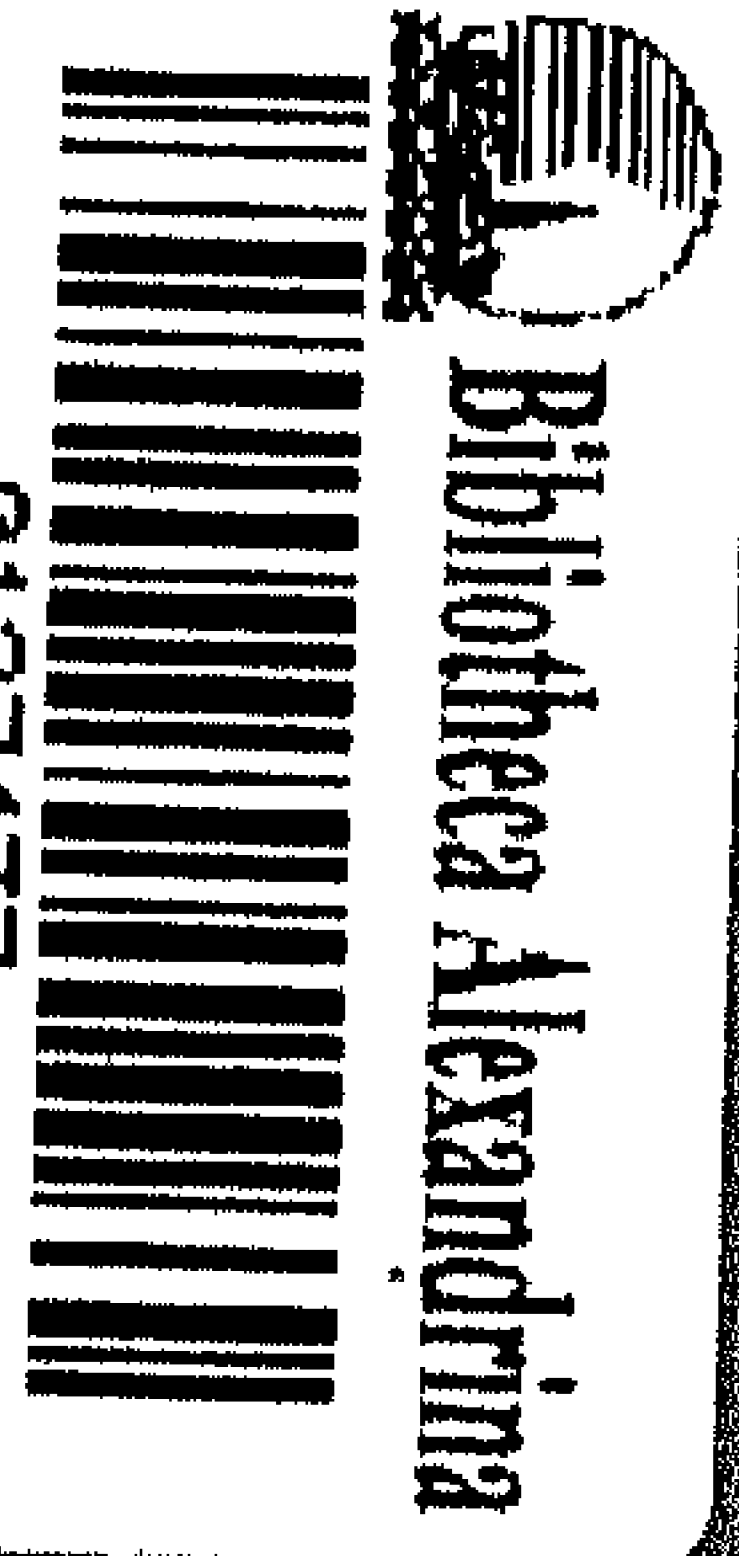
# أمرؤ الشجر العزني

في العصر العباسي

تأليف

نزيل المقدسي

علاء الدين



دار المعارف للملايين



أَمْزَاوَالشِّعْرَالعَرَبِي  
فِي  
الْقَصْرِالْقَبَائِي



# أَمْزاجُ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ فِي العَصْرِ القَبَائِيّ

وهو دراسة تحليلية لأدب ثمانية من أشهر شعراء العرب  
وللجوّ الذي نشأوا فيه

تأليف  
أبي المفضلِ سَيِّ

دار العلم للملايين

## دار العام للملايين

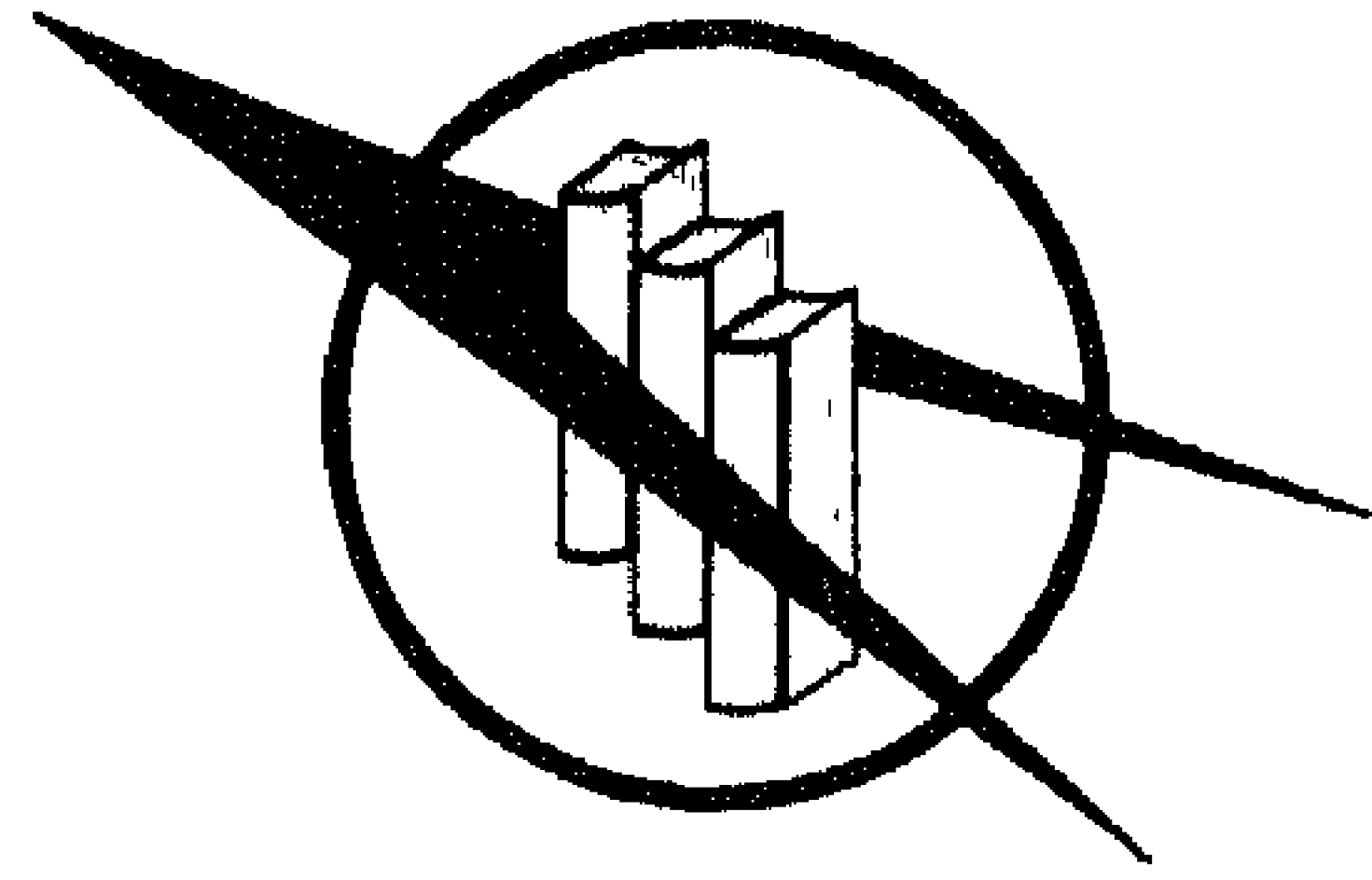
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مكارا الياسن - خلف مكتبة المنلو

ص ب ١٠٨٥ - تلفون ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩

برقيا : ملايين - تليكس ٢٣١٦٦١ ملايين

بيروت - لبنان



## جميع الحقوق محفوظة

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل - سواء التصويرية أم الإليكترونية أم الميكانيكية ، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أي وسيلة أو غيرها وحفظ المعلومات واسترجاعها - دون إذن خطي من الناشر.

الطبعة السابعة عشرة

آب / أغسطس ١٩٨٩

## توطئة

في الغرض من هذا الكتاب .

لدرس الادب طريقتان : الأولى الطريقة الاجمالية ، وهي المتبعة في المدارس الثانوية والاطراف الأدبية العامة . ويراد بها الاطلاع على كل ما أنتجته قرائح الأدباء والعلماء في مختلف العصور . وقد كان المرحوم العلامة جرجي زيدان أول من نظم هذه الطريقة في تاريخ الأدب العربي ، ثم تلاه جملة من الاساتذة والأدباء ، فعنوا بذلك ووضعوا من المؤلفات ما يفي بمحاجات الطلبة والمتأدبين .

والطريقة الثانية التقصي الدقيق ، وهي المتبعة في معاهد البحث الخاصة في الجامعات وسواها . وفيها ينحصر جهد الباحث في وجهة معينة يتقنها - كأن ينصرف مثلاً إلى فرع معين من فروع البلاغة ، أو باب من أبواب الفيلولوجيا ( فقه اللغة ) - أو يقتصر على حياة شخص من أشخاص التاريخ كالمثني أو الغزالي أو ابن خلدون ، أو كتاب خاص من كتب الأدب كالعقد الفريد أو العمدة أو اللزوميات . وبهذه الطريقة يُدرّب الطالب على جمع المعلومات من شتى المصادر ، ويخرج في أصول النقد وسلوك السبيل العلمي في الكتابة . وهنا يشترك الاستاذ والطالب توصلاً إلى هدف واحد هو دقة الاستقراء والنظر في الاصول نظراً لا تشوبه شائبة التغرّض أو المتابعة العمياء .

وبين هاتين الطريقتين طريقة وسطى نطلق عليها اسم « التخصص

الأولي» . وفيها يُعمد إلى فرع واسع من فروع الأدب كالشعر مثلاً ، فيُختار للمتأدّب نخبة من امرائه ، ويُدرس كل منهم درساً وافياً يجمع بين البحث العلمي والتحليل الأدبي جمعاً يمكن المتأدّب من الانتقال بعدئذ إلى درجة التقصّي الدقيق .

وقد حاولنا في هذا الكتاب ان نحقق هذه الغاية فاخترنا الشعر في العصر العباسي ، وتناولنا من امرائه ثمانية فدرسنا عصرهم وشعرهم على الطريقة التحليلية الحديثة ، وقرننا ذلك بذكر أهم المصادر التي يُرجع إليها في دراستهم ، وبطائفة كبيرة من روائعهم الشعرية . فتمّ لنا بذلك غرضان : غرض علمي وهو الجري في ميدان البحث الحرّ ، وغرض أدبي وهو التفقّه بالأدب نفسه .

ونحن نعلم ما سنستهدف له بسبب اختلاف الآراء . فإنّ مقاييس البحث في الأدب ليست مقاييسه في العلوم الطبيعية والرياضية . وإنما نحن نعرض هذه الأبحاث للمتأدّبين المفكّرين ، ولطلاب التخصص الاولي مدرجةً إلى التخصص العالي وسعيّاً وراء الحقيقة العلمية . وإنا لنرحّب بكل انتقاد مبني على الدرس والانصاف وأصول البحث والمنطق .

وقد كان معوّنا في اختيار هؤلاء الثمانية شهرتهم ، وانهم أعمق أثراً من سواهم في تاريخ الشعر العباسي . ولا يعني ذلك انه لا يوجد بين سائر الشعراء من يرتفع الى درجتهم أو من يفوقهم في بعض المناحي ، وإنما يعني انهم يمثلون العصر العباسي أفضل تمثيل ، وفي درسهم درس لذلك العصر ودرس للحركة الأدبية فيه .

وها نحن نتقدم الى العالم العربي بالطبعة السابعة من هذا الكتاب بعد ان بذلنا الجهد في ضبطها وتنقيحها . نفعل ذلك نزولاً عند رغبة كثير من الأدباء والعلماء والأساتذة وحباً بدراسة وافية لهذه السلسلة الشعرية العظيمة التي تعكس لنا العواطف العربية في أخصب العهود الأدبية .



# العوامل السياسية في الخربة العباسية

## نظرة عامة

حكم العباسيون في بغداد خمسة قرون كان عرشهم فيها ملعباً للأهواء والحركات السياسية المختلفة . وقد رأينا تمهيداً لهذا البحث ان نقسم مدة حكمهم أقساماً توضح لنا العوامل التي كانت تعمل فيها والتي أدت أخيراً إلى انحلالها . وهي عند التحقيق خمسة نطلق عليها اسم « أدوار سياسية » .

### الدور الأول - دور القوة المركزية

أي قوة الخلافة . ويمتد من بدء الدولة إلى أواخر حكم المتوكل ، فيشغل نحو قرن من الزمان بلغت فيه الخلافة أقصى قوتها وأزهى مظاهر مجدها . وفي هذا الدور كانت بغداد عاصمة لسلطنة واحدة تمتد من حدود الهند إلى افريقيا ( تونس ) .

### الدور الثاني - دور الجندية

كان الخليفة المعتصم قد نظم من فتيان الاتراك جنداً يعتمد عليه في

حماية العرش . فلما مات المعتصم أصبح نفوذ أمراء الجند شديداً في الخلافة . ولم يكفد يُقتل المتوكل سنة ٢٤٧ هـ حتى أصبح الخليفة في قبضتهم يتصرفون به كما يشاؤون . ويمتد هذا الدور إلى سنة ٣٣٤ هـ . على ان الخلافة بقيت بزعم استبداد الجند محافظة على شيء من رونقها ، وكان لها وزارة وعمّال . ومما يُذكر في هذا الدور ان ديوان الخلافة كان قد نقله المعتصم سنة ٢٢١ هـ إلى سامراً وبقي فيها نحواً من ٥٨ سنة ثم أعيد إلى بغداد .

### الدور الثالث - الدور البويهى ( ٤٤٧ - ٣٣٤ هـ )

وفيه كانت السلطة الحقيقية في أيدي بني بويه « وصارت الوزارة من جهتهم والاعمال اليهم » وأصبح الخليفة لا يملك من المال إلاّ راتباً يتقاضاه . على ان البويهيين كانوا أهل سياسة ودهاء ، فأبقوا للخلافة نفوذها الاسميّ وصاروا يحكمون في الدولة ظاهراً بإمرة الخلفاء . وبقوا كذلك إلى أن ضعفوا ثم زال ملكهم بقيام السلاجقة .

### الدور الرابع - الدور السلجوقي ( ٤٤٧ هـ - ٥٩٠ )

فيه كانت السلطة للسلاجقة ، وهم دولة تركية قويّة عرضت بملكيتها واستولت على الامر في بغداد وضربت باسم سلاطينها النقود وخطب لهم على المنابر . على انهم كانوا كالبويهيين يحافظون على الخلافة ويظهرون التبجيل لصاحبها .

### الدور الخامس - دور الاحتضار

انقرضت دولة السلاجقة من بغداد أيام الناصر ، ولكن الانحلال كان قد تمكّن من جسم المملكة العباسية . فلما ذهب بنو سلجوق لم يبق للخلافة في بغداد سوى بعض انحاء العراق . فكانت الخلافة في طور

الاحتضار ، ولم تزل كذلك حتى جاءها المغول سنة ٦٥٦ هـ فنهبوا بغداد وقتلوا آخر خلفائها ومحو ما كان قائماً من معالمها .

\* \* \*

هذه نظرة عامة نلقيها عن بعد على العصر العباسي . وإنما نحن في ذلك كالواقف على ربوة مشرفة على سهل عامر يسرح نظره في مناحيه العامة ويتبين معالمه الرئيسية دون أن يتغلغل فيه ليطالع على دواخله وخوافيه . وغايتنا من ذلك معرفة الخطط السياسية العامة تمهيداً لدرس حالة العصر النفسية ، وتوصلاً إلى فهم آدابه . فنحن هنا إنما نحاول درس الجو الذي نشأ فيه أدب القوم لا تاريخهم السياسي ، وإلا فالأفضل الرجوع إلى المطولات التاريخية كالطبري والمسعودي وابن الأثير ومسكويه وابن الطقطقي والذهبي وابن خلدون وسواهم ممن خاضوا عباب هذا البحث وجاءوا بالاخبار الوافية .

\* \* \*

ولما ألقينا نظرنا العامة على هذه القرون الخمسة ظهر لنا في حياة الدولة العباسية وما تقلب عليها من غير الدهر ظواهر كبرى تمثل لنا ما نحن بصدده . أهمها ما يلي :

- ١ - التنافس على السيادة بين مختلف العناصر والأعراق .
  - ٢ - ضعف الخلافة وتجزؤها إلى امارات مستقلة .
  - ٣ - الحركات الهدامة الداخلية .
  - ٤ - غارات الروم والافرنج على أطرافها .
- وقد كان يجدر بنا ان نتجاوز ذلك إلى الكلام عن أحوال الممالك الاسلامية ، ولا سيما البلاد العربية بعد سقوط بغداد ، ونربط ذلك بقيام العثمانيين وانتزاعهم الخلافة من العباسيين في مصر ، وما كان من أحوال الادب في أيامهم ، ثم نسوق الكلام إلى حالة الناطقين بالعربية في العصر الأخير ، وما كان لهم من النهضة بعد الحرب الكبرى . وإنما ذلك

خارج عن موضوعنا فنتركه لغير هذا المقام<sup>١</sup> . ونعود الآن إلى الظواهر السياسية الكبرى في العصر العباسي .

## التنافس بين العناصر العرقية وأخصها العربي والفارسي

في الفتوح الإسلامية الأولى وُضع حجر الزاوية لبناء الملك العربي العام. فبعد أن كان معظم العرب في جاهليتهم قبائل متفرقة ضاربة في أجواز الفلاة ، وبعد أن كانت حكوماتهم في العراق والشام وسواهما خاضعة لإحدى الدول السائدة من فرس أو روم أصبحوا في عهد الراشدين دولة واحدة ذات سيادة . فما فيهم حب الفتح والسلطان ووصل إلى أشده في دمشق أيام الامويين ، واستمر على ذلك في بغداد إلى أيام المعتصم . فعصر السيادة العربية لم ينته بغيته<sup>٢</sup> بانتهاء الدولة الأموية بل بقي نحو قرن بعدها. نعم ان عوامل الضعف كانت قد بدأت تعمل في جسم الدولة والخلافة ، ولكن سيادة العنصر العربي لم تهبط إلا تدريجياً وبقي العرب على شيء كبير من القوة والنفوذ طيلة العصر العباسي الأول .

في هذا العصر بلغت الخلافة أوج قوتها ، فكانت بغداد كما كانت دمشق قبلها عاصمة سلطنة مترامية الأطراف لا تقل عن سلطنة رومة في إبان مجدها ، وكان الخليفة العربي الحاكم المطلق يتصرف بشؤون الدولة وأموالها كما يشاء .

أما الروح الفارسية التي كانت تمثل عظمة الفرس الماضية وآمالهم في استرجاعها فقد كانت في أحط دركاتها أيام الامويين ، ولكنها أخذت تلتئم في أواخر حكمهم ، ولم تلبث أن تجسمت بروح الثورة الخراسانية

---

١ راجع كتابنا الجديد «الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث» .

يقودها أبو مسلم الخراساني لنصرة العباسيين . وعرف العباسيون ذلك للفرس فاتكلوا عليهم في الادارة والوزارة ، ولذا رأينا نفوذهم يتعاضم ورأينا التنافس بينهم وبين العرب يشتد . وعلى ذلك يعدّ الجاحظ دولة العباسيين أعجمية خراسانية ودولة بني مروان عربية أعرابية وفي أجناد شامية<sup>١</sup> . وقال ابن خلدون : « كان بنو امية يستظهرون في حروبهم وولاية اعمالهم برجال العرب مثل عمر بن سعد وعبدالله بن زياد والحجاج بن يوسف والمهلب بن ابي صفرة وخالد القسري وابن هُبيرة وبلال بن ابي بردة ونصر بن سيار وأمثالهم . وكذا صدر من دولة بني العباس كان الاستظهار فيه أيضاً برجال العرب . فلما صارت الدولة للانفراد بالمجد وكسب العرب عن التطاول للولايات صارت الوزارة للمعجم والصنائع من البرامكة وبني سهل وبني طاهر وسواهم<sup>٢</sup> .

على ان العباسيين الاولين كانوا أصحاب بطش وقوة ، فإنهم مع اتكالمهم على الفرس لم يستسلموا لهم ، بل أبقوا للخلافة العربية جلالها . يدلك على ذلك ما فعله المنصور بأبي مسلم حين خشي منه الطغيان<sup>٣</sup> ، وكذلك ما فعله الرشيد بالبرامكة حين أخذته الغيرة من تعاضمهم واثبة دولتهم<sup>٤</sup> ، والمعتمم بالأفشين لطمعه أو لأنه على ما قيل كاتب بعض أمراء المعجم وأحب أن ينقل الملك اليهم<sup>٥</sup> : بل كانت سياستهم حفظ التوازن بين المضرية واليمنية والخراسانية منعاً لاستبداد فريق بالدولة<sup>٦</sup> . وكانت جيوشهم مؤلفة من عرب وفرس ثم جاء المعتمم فقطع عن هؤلاء المال وجعل جنده من الاتراك .

١ البيان والتبيين ( تحقيق السندوبي ) ٣ - ٢١٧ .

٢ مقدمة ابن خلدون ( بيروت ) ١٨٣ راجع هنا قصيدة المهلي في رثاء المتوكل ، العقد ( المطبعة

الجمالية ) ( ١٣٣١ ) ٢ - ١٨٦ .

٣ المسعودي ( باريس ) ٦ - ١٨٣ .

٤ المقدمة ١٦ و ١٧ الفخري ( مصر ١٣١٧ ) ١٩٠ .

٥ مختصر الدول لابن العبري ( ١٨٩٠ ) ٢٤٢ واليعقوبي ( ليدن ) ٢ - ٥٨٢ .

٦ ابن الاثير ، حوادث ١٥١ .

ومما يدل على هذا التنافس بين العنصرين ، العربي والفارسي ، مدائح الشعراء الذين نبغوا في ذلك العصر . فاذا اعتبرت أهم شعرائه تجدهم في أول الامر يتسابقون إلى باب الخليفة ويتنافسون في مدحه ، ثم تجدهم يتحولون إلى أمراء الدولة من عرب و فرس . ويزداد هذا التحول مع الزمن إلى العنصر الاخير . فقد نبغ بين أيام المأمون والمعتضد ثلاثة من أكبر شعراء العرب هم أبو تمام والبحتري وابن الرومي ، وكان أكثر مديح الاول ( وهو أقدمهم ) في المعتصم وبعض كبار العرب كأبي سعيد الثغري والقاضي أحمد بن دؤاد وخالد بن يزيد ومالك بن طوق وأبي دؤيب العجلي . ومدح الثاني المتوكل واختص به ، ومع ذلك كانت مدائحه في كبار الدولة من الفرس تفوق مدائحه في أمراء العرب . أما ابن الرومي فليس له في الخلفاء شيء يذكر ، وأهم ممدوحيه من الاعاجم كآل وهب وآل طاهر وأمثالهم . وسيأتي تفصيل ذلك في كلامنا عن الشعراء وأحوال ممدوحيههم .

ولو تحريّت الاسباب التي آلت إلى وهن العرب - وهم أصحاب الخلافة - ومنافسة الأعاجم لهم في الرئاسة والادارة ، ثم تغلبهم عليهم لرأيت من أهمها - عدا انقسامهم بين يمنية ومضرية - تناحرهم على الامر بين عباسية وعلوية ، بل العباسيون انفسهم لم يكونوا يداً واحدة ، فراجت بينهم سوق الاغتيال والدسائس والفتن : من ذلك قتل المنصور لعنه عبدالله<sup>١</sup> ، وفتنة الامين والمأمون ، وثورة ابراهيم بن المهدي عم المأمون وطلبه الخلافة ، وما كان من قتل المتوكل وغير ذلك من الحركات السياسية التي أوهنت قوى العنصر السائد ، ومهدت السبيل لانحلال عصبية .

\* \* \*

بدأ نفوذ الفرس في الدولة العباسية منذ نجاح الخراسانيون في الدعوة لبني

١ ابن الاثير ، حوادث ١٤٧ .

العباس ومبايعة السفّاح . وقد ظلت كفة العرب وكفة الفرس متكافئتين حتى انتصرت خراسان مرة أخرى وجلس المأمون على العرش . فتعاظم نفوذ الفرس جداً وما زال كذلك حتى بلغ أوجه أيام عضد الدولة البويهبي الذي قبض على زمام الأمر في بغداد ، فتحول الأمر بعد ذلك إلى نزاع بين الفرس والترك انتهى بقيام السلاجقة كما سيذكر في حينه . ولم يبق للعرب في الدولة من قوة تذكر إلا في بعض امارات حكموها ، كماارة بني حمدان في حلب و امارة بني الاغلب في تونس ، وسواهما من الامارات التي ستذكر في كلامنا على تجزؤ الدولة العباسية .

### ضعف الخلافة

#### وتجزؤها الى امارات مستقلة

كانت خلافة الراشدين زعامة دينية دنيوية والدين فيها أقوى وأظهر ، وأصبحت في عصر السيادة العربية ( العصر الاموي و صدر العصر العباسي ) ملكاً عظيم الشأن واسع الاطراف ذا قوة مركزية عظيمة . فلما انقضى هذا العصر ، وفسدت عصبية العرب التي كانت ركن القوة الحربية في الدولة ، أخذت الخلافة تتحول تدريجياً من سلطة ملكية مسيطرة إلى زعامة دينية مستضعفة . قال ابن خلدون : ثم تغلب المعجم الاولياء على النواحي وتقلص ظل الدولة ، فلم تكن تعدو أعمال بغداد حتى زحف الديلم اليها وملكوها وصار الخلائف في حكمهم ، ثم انقرض أمرهم وملك السلجوقية فصاروا ( أي الخلفاء ) في حكمهم<sup>١</sup> .

وجاء في الفخري قول صاحبه واصفاً دولة بني بويه : « فدونخت الأمم واذلت العالم واستولت على الخلافة ، فعزلت الخلفاء وولتتهم ،

---

١ المقدمة ١٥٥ .

واستوزرت الوزراء وصرفتهم ، واهبت لأحكامها أمور بلاد العجم والعراق ، واطاعتهم رجال الدولة بالانفاق<sup>١</sup> . وكذلك كان السلاجقة كما ذكر ابن خلدون ، على ان هذه الدول المسيطرة لم تتطاول إلى مقام الخلافة فكانوا يدينون بطاعة الخليفة تبركا<sup>٢</sup> . وكانوا على ما ذكر القلقشندي مع غلبتهم على أمر الخلفاء ينتصرون على متعلقات الملك في الجهاد والتصرف بالاموال ، ويكفون أمر الولايات إلى الخليفة يباشرها بنفسه فتكتب عنه المهود والتقاليد على ما يشهد به الموجود من انشاء الصابي وغيره<sup>٣</sup> .

وقد وصف صاحب كتاب الفخري هذه الحالة أحسن وصف إذ قال : « ثم طرأت عليها ( أي على الدولة العباسية ) دول كدولة بني بويه وفيها كبشهم وفحلهم عضد الدولة ، ودولة بني سلجوق وفيها مثل طغرل بك ، وكذلك الخوارزمشاهية وفيها مثل علاء الدين ، وجريدة عسكره مشتملة على اربعمئة الف مقاتل ... » إلى أن يقول : « ولم تقوَ دولة على ازالة ملكهم ومحو أثرهم بل كان الملك من هؤلاء المذكورين يجمع ويحشد ويحجّر العساكر العظيمة حتى يصل إلى بغداد . فاذا وصل التمس الحضور بين يدي الخليفة ، فاذا حضر قبل الارض بين يديه . وكان قصارى ما يتمناه ان يولّيه الخليفة ، ويعقد له لواءً ويخلع عليه<sup>٤</sup> . فمن كل ذلك نستنتج ان هؤلاء الملوك كانوا يتصرفون بأمر الدولة كما يشاؤون إلا انهم كانوا يظهرون التبجيل لصاحب الخلافة فيقدمونه ويقبلون يديه ويتبركون به ، وهم في الواقع أصحاب الأمر ليس للخليفة منه شيء ، وإنما كانوا يفعلون ذلك لما كان للخلفاء من المنزلة الدينية في نفوس الناس .

\* \* \*

ولم يكد يدخل القرن الرابع الهجري حتى ضعفت الحكومة المركزية في

١ الفخري ( مصر ١٣١٧ ) ٢٥٠ .

٢ المقدمة ٢٠٨ .

٣ صبح الاعشى ( المطبعة الاميرية - مصر ) ١١ - ٧٣ .

٤ الفخري ١٢٤ .



بغداد جداً ولم يبقَ للخلافة من نفوذ فعلي في المملكة . فكانت خلافة الرازي ، وبلاد فارس في يد بني بويه ، والموصل وديار بكر وديار ربيعة ومصر في يد بني حمدان ، ومصر والشام في يد محمد بن طغج ثم في أيدي الفاطميين ، وخراسان والبلاد الشرقية في أيدي السامانية . وثمة امارات أخرى ، واليك ذلك ببعض التفصيل :

#### الامارات المستقلة في بلاد فارس

وقد نشأت وانقرضت في مدد مختلفة بين سنة ٣٠٥ هـ و ٤٣٤ هـ وهي :

الطاهرية في خراسان      الصفارية في فارس  
السامانية في ما وراء النهر      الساجية في اذربيجان  
الزيارية في جرجان

أما الامارة الفارسية الكبرى فقد مر ذكرها وهي البويهية ( ٣٢٠ هـ - ٤٤٧ ) ويرجع نسب ملوكها إلى أبي شجاع بويه بن فناخسرو من ولد يزدجرد آخر ملوك الفرس<sup>١</sup> . نشأت في بلاد الديلم وأخذت بالتقدم حتى استولت على بلاد فارس ثم استولت على بغداد وأصبح لها الامر والنهي في العراق وفارس . وكان الخليفة يعيش في ظلها من إقطاع يعينه له الملك البويهي<sup>٢</sup> . وهذه الدولة شيعية لكنها لم تتعرض للخلافة العباسية ( وهي سنّية ) بل أبقتها على حالها وأبقت للخلفاء حق اصدار المراسيم والخلق . وهذا كبيرهم عضد الدولة لما استولى على بغداد وعلى شؤون الدولة ، لم يرَ بدأ من تعظيم الخلافة<sup>٣</sup> مع انه لا يعتقد باطناً بحق العباسيين فيها . وقد زوج الخليفة ابنته ونرضه ان تلد ذكراً فيجعله ولي العهد وتكون الخلافة في ولده<sup>٤</sup> .

١ ابن العبري ٢٧٩ .

٢ ابن العبري ٢٩١ .

٣ مسكويه - تجارب الأمم ( مصر ١٩١٥ ) ج ٢ ص ٣٤٤ .

٤ مسكويه ج ٢ - ٤١٤ .

## الامارات التركية

ومنها الطولونية في مصر والشام ٢٥٤هـ - ٢٩٢ .

الانخيدية في مصر والشام ٣٢٣هـ - ٣٥٨ .

الغزنوية في خراسان وافغانستان ثم الهند ٣٥١هـ - ٥٨٢ .

قال ابن خلدون وقد بلغت هذه الدولة من العز المبالغ العظيمة<sup>١</sup> .  
اما الامارة التركية الكبرى فهي السلجوقية . وقد نشأت أولاً في  
تركستان ثم جمع جدهم سلجوق عشيرته ونفر بهم من بلاد الترك إلى بلاد  
المسلمين ، فلما دخلها أظهر الاسلام وعلى ذلك نشأ أولاده . وما زال  
أمرهم يعظم حتى ملك طغرل بك ( وهو أول سلاطينهم ) بلاد العجم وكان  
قيامه في خلافة القائم العباسي ، ثم تقدم إلى بغداد بدعوة من القائم لينصره  
على تآثر اسمه البساسيري<sup>٢</sup> . فاستولى عليها وخطب له بالسلطنة على منابر  
بغداد وذلك سنة ٤٤٧هـ . وتولى خلفاؤه الأمر بعده ، وما زالوا يسوسون  
الامور في بغداد حتى ضعف أمرهم . ثم زالت دولتهم في خلافة الناصر  
سنة ٥٩٠هـ وكان السلاجقة في إبان مجدهم أصحاب شوكة عظيمة .  
وهم عدّة فروع امتد سلطانهم من افغانستان إلى البحر المتوسط . ولما  
ضعف أمرهم استبد عمّاهم ( الاتابك ) بالاحكام في اماراتهم المختلفة ،  
ولم يبق لهم بعد ذهاب دولتهم في بغداد وغارة المغول على المملكة العباسية  
إلا آسيا الصغرى . فقد حفظوها حتى جاء الاتراك العثمانيون فاستولوا عليها  
وأسسوا على انقراض السلاجقة سلطنتهم العظيمة ، ثم لم يعتمدوا ان أصبح  
سلاطينهم خلفاء العالم الاسلامي ودخلت أكثر البلدان العربية في حوزتهم .  
ولهم تاريخ خاص لا يدخل في بحثنا هذا .

## الامارات العربية

نشأ في الدولة العباسية بضع امارات عربية مستقلة ، على انها - إذا

١ ابن خلدون ( تصحيح الهوريني ) ٤ - ٣٦٠ .

٢ ملك هذا التآثر الامر حيناً في بغداد ودعا فيها للفاطميين .

استثنيت العلوية والادريسية منها -- كانت جميعها تخطب للخليفة العباسي وتعدّه الزعيم الاسلامي الاكبر . ومنها :

الادريسية - في مراكش ١٧٢ هـ - ٣٧٥ وكانت معادية للعباسيين .  
الاعلبيّة - في تونس ١٨٤ - ٢٨٩ امراؤها من تميم .  
المجدانية - في حلب ٣١٧ - ٣٩٤ شيعية وامراؤها من تغلب اشهرهم سيف الدولة ممدوح المتنبّي .  
المزيدية - في الحلة ٤٠٣ - ٥٤٥ وهم من بني أسد .  
العقيلية - في الموصل ٣٨٦ - ٤٨٩ دولة مصرية .  
المرداسية - في حلب ٤١٤ - ٤٧٢ وهي مصرية وامراؤها من بني كلاب .  
على ان أهم الدول العربية التي نشأت في أثناء العصر العباسي اثنتان ، الفاطمية والاندلسية . واليك كلمة وجيزة في كل منهما :

#### الدولة الفاطمية ( ٢٩٦ هـ - ٥٦٧ )

وهي علوية اسماعيلية . بذلك يقول ابن خلدون<sup>١</sup> وابن الاثير<sup>٢</sup> وابن الطيّق<sup>٣</sup> ويشك غيرهم في أصلها العلوي .  
وكان بدء أمرها في افريقيا أيام المقتدر العباسي ، ثم انتقلت ( في ٥٣٥٨ هـ ) إلى مصر وبقيت هناك حتى أزالها صلاح الدين الايوبي ٥٦٧ هـ . وهذه الدولة عظيمة الشأن ، تختلف عن سواها من الدول التي نشأت أيام العباسيين انها قرنت الملك بالدين فنشأت خلافة تزاحم الخلافة العباسية . وقد تبسّطت فاستولت على افريقيا ومصر وسوريا والحجاز ، وبعبارة ابن خلدون : « قاسمت العباسيين شقّ الأبلمة » ، ثم أخذت بالانحدار وما زالت كذلك حتى استولى صلاح الدين على مصر . فلما مات العاضد ( آخر خلفائها ) قطع صلاح الدين الخطبة للفاطميين وحوّلها إلى العباسيين .

١ ابن خلدون ٤ - ١١ .

٢ ابن الاثير ( ليدن ) ٨ - ١٨٧ .

٣ الفخري ٢٣٧ .

وللدولة الفاطمية يد على الأدب العربي ، فهم الذين انشأوا الجامع الأزهر ، وكانوا ينشطون العلماء والأدباء بالعطف عليهم واقتناء المكتبات الكبرى وفتح أبوابها لهم .

### الدولة الأموية الأندلسية ( ١٣٨ - ٥٤٢٨ هـ )

تبدأ بعبد الرحمن الداخل ( حفيد هشام بن عبد الملك بن مروان ) الذي فرّ من وجه العباسيين إلى أفريقيا ، ثم تمكّن من دخول الأندلس والاستيلاء عليها . وما زال الملوك من آلّه يتوارثون الحكم فيها حتى قام عبد الرحمن الناصر فبلغت به الدولة الأموية في الأندلس أوجها ، وهو أول من طمع بالخلافة من أمراءها فلقتب بأمر المؤمنين<sup>١</sup> . قال مسكويه فعل ذلك لما ضعف أمر الأمة ووهت أركان الدولة العباسية وتغلّبت القرامطة والمبتدعة على الأقاليم<sup>٢</sup> . وقد ازدهرت في أيامه الأندلس أيّما ازدهار ، وبقيت كذلك أيام ابنه الحكم المستنصر . ثم أخذت دولة بني أمية تضعف وأخذ الفساد يستولي على خلافتهم ، فتجزّأت وأصابها ما أصاب الدولة العباسية من ضعف العرش واستبداد الأمراء باماراتهم المختلفة . ولهذا الدولة تاريخ خاص خارج عن تاريخ الدولة العباسية ، وقد نشأ فيها من الآداب والعلوم والفنون ما يقتضي سِفراً خاصاً . وانما ذكرناها في عرض هذا البحث زيادة للايضاح وتتمة للكلام على الدول العربية التي انفصلت عن الخلافة العباسية .

\* \* \*

ومن الامارات المشهورة التي كان لها شأن يذكر في الخلافة العباسية الدولة الكردية المعروفة بالايوبية ( ٥٦٤ - ٦٤٨ هـ ) وأشهر ملوكها مؤسسها السلطان صلاح الدين الذي اشتهر بوقائعه مع الصليبيين .

١ ابن خلدون ٤ - ١٢٢ .

٢ تجارب الامم ج ٢ - ٦٠ .

## تأثير هذا التجزؤ في الادب العربي

وكان من نشوء هذه الدول في العالم الاسلامي ان الأدب تحوّل عن بغداد إلى مراكز أخرى . فكان الخليفة الراضي الذي بويع ٣٢٢ هـ آخر خليفة دوّن له شعر ، وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزها وخدمته وحجّابه تجري على قواعد الخلفاء المتقدمين<sup>١</sup> . ومعنى ذلك ان العرش العباسي لم يعد الموثل الاكبر للأدب والأدباء ، وانه نشأ في الامارات المستقلة حواضر زاحت بغداد في الشعر والعلم . نذكر من ذلك بلاط سيف الدولة في حلب ، وتلك الحلقة الأدبية التي كانت تحيط به مثل ابن خالويه وابن نباتة وأبي فراس والمتنبي والنامي والفارابي والسري الرفاء والخالديين ، وبلاط آل بويه ومن كان يتصل بهم كابن العميد والصابي والصاحب ابن عباد ، وامراء سامان وما كان لهم من عطف على العلم والعلماء .. وقس على ذلك سائر الامارات في مصر والعراق والاندلس وفارس والمغرب ، فان اللغة العربية ظلت إلى أيام العثمانيين لغة الأدب والدين والسياسة في أكثر الممالك الاسلامية . وكان الامراء من عرب وغير عرب يتنافسون في العطف على الأدباء والعلماء ، وفي جمع الكتب وخدمة العلم . وأظهر من فعل ذلك من غير العرب الملوك الايوبيون في اماراتهم المختلفة<sup>٢</sup> . وهذا التنافس على الأدب يفسّر لنا تلك الظاهرة التاريخية الغريبة - استمرار الأدب العربي مع ضعف العرب وذهاب السيادة من أيديهم . واليك بعض أمثلة من رجال العلم في ذلك العصر توضح لك ما نحن بصدده :

ابن سينا الطبيب الفيلسوف توفي ٤٣٨ هـ . كان في بخارى في خدمة نوح بن منصور الساماني وفي خوارزم عند مأمون ابن مأمون .

١ الفخري ٢٥٢ .

٢ زيدان - تاريخ آداب اللغة ٣ - ١١ .

البيروني - الفلكي المشهور توفي ٤٣٠ هـ . كان في الهند وأقام مدة في خوارزم وقد قدم بعض كتبه للسلطان محمود الغزنوي .

الجوهري - صاحب الصحاح توفي ٣٩٨ هـ . كان في نيسابور وقد ألف كتابه لأبي منصور البشيري .

ابن فارس - اللغوي المشهور توفي ٣٩٠ هـ . ألف كتابه الصحاح للصاحب بن عباد .

ابن دريد صاحب الجهرة والمقصورة توفي ٣٢١ هـ . صحب ابن ميكال أمير فارس وألف له بعض كتبه .

المسعودي - المؤرخ المشهور توفي ٣٤٦ هـ . نشأ في بغداد وطاف البلدان ثم استقر في مصر .

مسكويه (أو ابن مسكويه) - المؤرخ والمفكر توفي ٤٣١ هـ . صحب ابن العميد وخدم بني بويه .

ابن البيطار - النباتي المشهور وكان في خدمة الملك الكامل الايوبي . وأمثال هؤلاء الاعلام كثيرون لا يتسع المقام لذكرهم . اما المدن التي شاركت بغداد او زاحمتها في الادب والعلم فنذكر منها - القاهرة وحلب ودمشق وقرطبة واشبيلية والقيروان وخوارزم ونيسابور وبخارى . ومن الامراء الذين اشتهروا بميلهم إلى الأدب وعطفهم على العلماء ركن الدولة البويهبي ومنصور الساماني وشمس المعالي قابوس ومحمود الغزنوي والعزير والحاكم الفاطميان ، وصلاح الدين الايوبي وغيرهم .

### الحركات الهدامة الداخلية

كانت الدولة العباسية منذ نشأتها مرتعاً خصباً للثورات ، وتاريخها وثيق

الارتباط بها . وهذه الثورات تظهر في مظهرين كبيرين : حركات الخوارج والحركات العلوية .

### حركات الخوارج

ويرجع تاريخها كما هو معروف إلى أيام صيفين والتحكيم . من ذلك الحين ظهر الخوارج وأنشأوا حزباً معادياً للخلافة فحاربوا الامام علياً بعد أن كانوا قبلاً من أنصاره . ولهم مع الامويين وقائع مشهورة ، وقد كانوا من أشد الاخطار على دولتهم حتى قهرهم الحجاج بن يوسف والمهلب ورجاهما فضعف أمرهم وتشتتوا في أنحاء مختلفة ، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك حتى خلافة المنصور العباسي . ففي أيامه خرجوا في عُمان بقيادة زعيمهم شيبان بن عبد العزيز ، ولكن المنصور أرسل لمحاربتهم جيشاً قوياً فهزمهم وقلّ جيوشهم .

ولما كانت خلافة المتمد - والعرش العباسي في حال اضطراب من جراء المستبدين به - عادوا إلى حركاتهم فخرجوا في ولاية الموصل بقيادة مساور بن عبد الله ، وتمكنوا سنة ٢٥٥ هـ . من دخول الموصل والاستيلاء على كثير من أنحاء العراق . وبلغ من أمرهم أن زحفوا على بغداد نفسها ، لكن جيوش الخليفة ردّتهم فتراجعوا . وأقام مساور في الموصل حتى اغتيل سنة ٢٥٨ هـ ، ولم يبق للحركة الخارجية بعد ذلك من قوة سياسية في العراق . على انها بقيت في الجزيرة العربية وفي افريقيا تحت اسم الأباضية ( وهي فرع منها ) قوة لا يستهان بها . ثم اعتراهم الوهن فتضعفت أحوالهم ، ولم يلبثوا ان انسحبوا من معترك الجهاد السياسي والحربي .

### الحركات العلوية

وهي إما ثورات قام بها آل البيت أنفسهم خروجاً على الخلافة القائمة

---

١ وأخبارهم متفرقة في أمهات كتب التاريخ العربي : ومن الكتب الحديثة مختصر تاريخ الخوارج لمحمد شريف سليم ، والخوارج في الاسلام ، بيروت ( مكتبة المعارف ) ، وسواها .

أو حركات هدامة مؤسسة على المبدأ العلوي . وقد بدأت الأولى ( ثورات الأئمة ) منذ انتزع الأمويون الملك من آل البيت . ومنها قيام الحسين إلى الكوفة ومقتله في كربلاء ، وما تبع ذلك من دعوات وثورات طيلة الحكم الأموي ، كثورة المختار في العراق ثم الثورة الخراسانية ، وكانت علوية في أول الأمر ثم تحولت إلى العباسيين .

ولما قام العباسيون وانفردوا بالملك دون العلويين رجع النزاع إلى ما كان عليه بين الشيعة والخلفاء . فتحركت الشيعة حركات عدتها العباسيون عصياناً ، كخروج النفس الزكية في المدينة أيام المنصور ، وخروج يحيى ابن عبد الله في الديلم أيام الرشيد ، ويحيى بن عمر بن يحيى في الكوفة أيام المستعين ، وظهور الكوكبي بقزوين وطرده آل طاهر<sup>١</sup> . لكن الخلفاء تمكنوا من الثائرين وقتلوهم .

وفي بدء خلافة المأمون ( وذلك قبل أن يقدم من خراسان إلى بغداد ) كثرت حركات الشيعة حتى رأى أن يعهد بالأمر بعده لعلي الرضا<sup>٢</sup> ، ولكن استياء العباسيين وموت علي الرضا ، حالاً دون ذلك . ثم كثر خروجهم في الحجاز واليمن والعراق وفارس وتتابعت دعواتهم . وهم ، ولئن لم يستطيعوا تقويض العرش العباسي ، فقد أحدثوا فيه اضطراباً شديداً كان من جملة الأسباب التي أدت إلى انحلال الدولة . ولا يخفى أن الخلافة الفاطمية التي ذكرناها آنفاً كانت من ثمار الحركات العلوية ومن أشدّ الضربات على الخلافة العباسية .

\* \* \*

أما الحركات الهدامة المؤسسة على المبدأ العلوي فقد قامت بها هيئات منظمة أحدثت تأثيراً كبيراً في الدولة العباسية ، وأهمها حركات الزنج والقرامطة والحشاشين ( الباطنية ) .

١ الطبري ، أخبار سنة ٢٥١ .

٢ ابن خلدون ٤ - ٩ .



## الزنج

حوالى منتصف القرن الثالث الهجري في أيام الخليفة المعتمد قام رجل اسمه علي بن محمد يدعي النسب العلوي . فاستمال اليه قلوب العبيد من الزنج بالبصرة ونواحيها وأفسدهم على مواليتهم حتى اجتمع اليه منهم ومن سواهم خلق كثيرون ، وما لبث حتى عظم شأنه واشتدت شوكته . واتفقت له حروب وغزوات نُصر بها ، فتفاقم شره ، وانبتت عسكره السودان في البلاد العراقية والبحرين والأهواز . وفي ٢٥٧ هـ أغاروا على مدينة البصرة فنهبوا وأحرقوها وأحدثوا فيها فظائع ذكرها ابن الرومي في قصيدة ستذكر في حديثنا عن هذا الشاعر . وكانت بينهم وبين جنود الخلافة حروب عظيمة دامت سنين كثيرة وذهب فيها الوف من القتلى ولكنها انتهت سنة ٢٧٠ هـ بقهرهم وتحرير البلاد من شرهم . وكان قائد العباسيين الاكبر في حروبهم الموفتق اخا الخليفة المعتمد . ومن كبار رجاله موسى بن بغا ، وابراهيم بن المدبر ، وابو العباس ابن الموفتق ، وسواهم ممن يرد ذكرهم في مدائح الشعراء<sup>١</sup> .

## القرامطة

كان ابتداء ظهورهم سنة ٢٧٨ هـ بسواد الكوفة ، وقد قاموا يدعون لآل البيت . وقوي أمرهم هناك ثم ظهر منهم جماعة في البحرين وعاثوا في البلاد ينوون البصرة . فحاربهم عمال العباسيين ولكن القرامطة انتصروا عليهم واستفحل أمرهم في العراق ، فانضم اليهم جموع من اعراب الشام وهاجموا دمشق . وكان بينهم وبين عامل الطولونيين فيها وقائع شتى . وما زال أمرهم يتعاضم ونفوذهم يتسع في العراق والشام والجزيرة العربية حتى أمست طرق الحج بأيديهم فصاروا يعتدون على الحجاج . وفي سنة ٣١٧ هـ

١ لزيادة الاطلاع راجع ابن خلدون ٤ ص ١٨ - ٢٢ ، الفخري ٢٢٧ ، الطبري في اخبار سنة ٢٥٥ و ٢٦٧ الخ ...

دخلوا مكة فنهبوا أموال الحجاج وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، ثم اقتلعوا الحجر الأسود من الكعبة وحملوه إلى هجر فبقي عندهم اثنتين وعشرين سنة . قال ابن الاثير فلما بلغ ذلك الخليفة الفاطمي المهدي كتب إلى زعيمهم أبي طاهر ينكر عليه ذلك ويلومه ويلعنه ويقيم عليه القيامة ويقول : « قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والالحاد بما فعلت ، وان لم تردّ على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم ، وتردّ الحجر الاسود إلى مكانه ، وتردّ كسوة الكعبة فأنا بريء منك في الدنيا والآخرة . » فلما وصله هذا الكتاب أعاد الحجر الاسود واستعاد ما أمكنه من الاموال .

وبقي أمرهم الشغل الشاغل لولاة الامر في بغداد أكثر القرن الرابع الهجري ، وانك لتعرف مبلغ ما أحدثوه في نفوسهم من كتاب كتبه الصابىء على لسان الخليفة<sup>١</sup> . ثم ضعف أمرهم وتفرّقوا في البلاد<sup>٢</sup> .

### الحشاشون

وهم من الباطنية . ظهوروا أولاً في ساوه أيام ملكشاه السلجوقي فناضلهم أولو الامر لكنهم لم يستطيعوا قهرهم . فلما مات ملكشاه استفحل أمرهم في أصبهان . وفي ٤٩٣ هـ استولى زعيمهم ومؤسس فرقتهم الحسن بن الصباح على قلعة الموت وهي من نواحي قزوين وجعلها مقر الحكم الاسماعيلي ، منها تصدر الأوامر إلى كل النواحي . وكان يدعو للخليفة الفاطمي بمصر . وفي ٤٩٨ هـ ظهر أمرهم في الشام فتملكوا حصن افامية وقطعوا الطرق . وأخذت شوكتهم تتعاضم حتى كانت سنة ٥٢٠ هـ فاستولوا على بانياس ثم على أماكن أخرى وكان بطشهم شديداً بالمسلمين والافرنج الصليبيين ، وكان دأبهم اغتيال الامراء والزعماء . وبما يدلّك على شدة شكيمتهم ان

١ واجع رسائله ( المطبعة المئانية ١٨٩٨ ) ٢٤٦ .

٢ واجع بعض أخبارهم في ابن خلدون ٤ ص ٨٤ - ٨٨ و ص ٣٠٩ و ٤٥٧ .

صلاح الدين الايوبي حاربهم في الشام ثم رأى ان يصلحهم .  
وقد ظلوا أصحاب قوة وبطش وظلّ نفوذهم عظيماً من تركستان إلى  
البحر المتوسط حتى أواخر الدولة العباسية وقيام دولة التتر ، فهاجمهم  
هولاكو في العراق وخرّب قلاعهم وأغار عليهم في الشام الملك الظاهر  
ملك مصر . وهكذا خضدت شوكتهم وتشتتوا شرادهم في الاقطار الاسلامية  
وذلك بعد أن اضطربت لهم ملوك المسلمين والصليبيين نحواً من قرن  
ونصف .

والباطنية التي ينتمي اليها الحشاشون تعضد المذهب الشيعي فكانت لذلك  
من أكبر أنصار الدولة الفاطمية ، ومن أفعال العوامل دينياً وسياسياً في  
تقويض سلطة الدولة العباسية .

### العوامل الهدامة الخارجية ومنها غارات الروم

كانت بلدان الشرق الادنى المتاخمة لبحر الروم قبل الفتح الاسلامي  
جزءاً من مملكة الرومان الشرقية ( بيزنطية ) . فلما حدث الفتح الاسلامي  
تقلّص ظلّ الروم أمام العرب الفاتحين . فاحتل العرب مصر وسوريا  
وانتزعوا جزءاً من الاناضول وبقي أكثره تابعاً للروم لأن العرب لم يستقرّوا  
هناك . ولتأخّذ الاناضول لسوريا والجزيرة العراقية نشأ بين الفريقين منذ  
المئة الأولى الهجرية حروب متواصلة كان النصر فيها سجالاً . ففي أيام  
معاوية مثلاً توغلت جيوش العرب حتى القسطنطينية ثم تراجعت<sup>١</sup> ،  
واضطر معاوية سنة ٣٢ هـ أن يصلحهم على مئة الف<sup>٢</sup> . وفي أيام عبد الملك  
هجم الروم على سوريا فبلغوا حماه وقنسرين والعواصم ثم هاجموا السواحل  
حتى خضع لهم قسم من الجبل . قال البلاذري وصالح عبد الملك الروم ،

١ الطبري ٥ - ٢٨٨٨ وابن خلدون ٢ - ٢٢٨ .

٢ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

بعد موت أبيه وطلبه الخلافة ، على شيء كان يؤديه اليهم<sup>١</sup> . وفي أيام سليمان بن عبد الملك عاد العرب فهاجموا القسطنطينية<sup>٢</sup> . وبقي الحال على هذا المنوال بين الروم والمسلمين أكثر أيام العباسيين . ولا يتسع المقام هنا لذكر الوقائع أو لتعداد المدن والحصون التي كانت تتداولها أيدي الفريقين . على انه لا بد من القول انه كان لهذه الحروب أثر كبير في الأدب العربي . يكفي أن نشير هنا إلى ما سنذكره من روائع أبي تمام والبحثري والمنتبي في انتصارات المعتصم والمتوكل وسيف الدولة . ولم تنج الممالك الاسلامية من خطر الروم الذين كانوا يواصلون الغارات من الشمال حتى استقر الاثر في الاناضول وحالوا دون تقدم الروم نحو الجنوب .

### غارات الصليبيين

وبينما كان الروم يتهددون الدولة العباسية من الشمال الغربي ، وكان السلاجقة يوطدون نفوذهم في عاصمتها ، اتفق الافرنج على اكتساح الشام وما اليها بحجة انتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين . وهكذا بدأت الحروب الصليبية وأخذ الاوروبيون يواصلون الغارات على الانحاء الساحلية من سوريا وفلسطين ومصر .

\* \* \*

ويتمد عصر الحملات الصليبية من ١٠٩٦ م - ١٢٩١ م وقد كانت الخلافة العباسية في أوائله متفككة العرى ، والفاطميون في مصر يتربصون الفرص للايقاع بها . وكانت سوريا - المعترك العام يومئذ - قد خرجت من حكم الدولة السلجوقية الرئيسية وأصبحت أمارات يتنازعها اتابكهم وخلفاء مصر . فاغتم الافرنج تلك الفرصة وغزوها أولاً عن طريق الروم ثم عن طريق البحر ، ولم يعتموا أن احتلوا القدس وأسسوا فيها مملكة لاتينية

١ فتوح البلدان ١٨٨ .

٢ ابن الاثير ، في حوادث سنة ٩٨ .

بقيت نحو قرن ونصف ( ١١٠٠ م - ١٢٤٣ م ) . ولم يكتفوا بذلك بل مدوا نفوذهم على القسم الغربي من سوريا إلى ما وراء انطاكية ، فأسسوا الامارات المختلفة وابتنوا القلاع الحصينة ، ساعدهم على ذلك تنازع الحكم في البلاد وضعف الخلفاء في بغداد والقاهرة ، ولكن الصليبيين كانوا من عناصر وبلدان شتى ، فنشبت بينهم منازعات كثيرة أدت أخيراً إلى فشلهم وخروجهم من البلاد<sup>١</sup> .

ومن كان له اليد الطولى في خضد شوكة الافرنج صلاح الدين الايوبي ملك مصر وأخوه الملك العادل ، ووقائعهما مع الصليبيين في مصر والشام مشهورة . ولصلاح الدين وآله في الأدب العربي أثر كبير يظهر في المدائح التي نالوها من شعراء زمانهم . نذكر منهم ابن الساعاتي<sup>٢</sup> وابن النبيه وابن قلانس وابن مفرج النابلسي وابن التعاويذي ( وقد ذكره ابن خلكان ذكراً خاصاً في سيرة صلاح الدين وذكر بعض مدائحه ) . ناهيك بالرسائل التي كان يتبارى بها منشئو ذلك الزمان وأشهرهم القاضي الفاضل وعماد الدين الاصفهاني وضياء الدين ابن الاثير<sup>٣</sup> .

وبرغم ما كان بين الشرق والغرب في خلال تلك الحروب من العداء المستحرق والنزاع المستمر ، خرج الفريقان من غمارها بفوائد اجتماعية أدبية عظيمة . وربما كانت فائدة الغربيين أعظم ، فانهم رجعوا عن الشرق العربي وقد اقتبسوا من حضارته يومئذ ما كان له أثر كبير في حياتهم الاجتماعية .

### والخلاصة

إن الدولة العباسية لم يكدمضي عهد خلفائها الثانية الأول حتى ظهرت

---

١ قال ابن الجوزي في مرآة الزمان ج ٨ ص ٢٤٨ أخبار سنة ٥٨٢ هـ وفيها ظهر الخلاف بين الفرنج وتفرقت كلمتهم وكان لسعادة الاسلام .

٢ نشرنا ديوانه في جزأين عن نسخ خطية فريدة فليراجع .

٣ راجع أخبار صلاح الدين في مرآة الزمان للجوزي ج ٨ ص ٢٧ - ٢٨٠ في أخبار سنة ٥٨٩ هـ وراجع الكلام على الرسائل في تطور الاساليب النثرية للمؤلف، وفي ما نشره من رسائل ابن الاثير .

ففيها عوامل الفساد التي أدت إلى انحلالها . وهذه العوامل داخلية وخارجية فالداخلية هي :

- ١ - ضعف السلطة المركزية لتسلط المستبدين بها من عجم وأتراك .
  - ٢ - استقلال الامارات المختلفة وتنازعها .
  - ٣ - عوامل الفتن والثورات من خوارج وعلوية .
- والخارجية : غارات التتر من الشرق ، وغارات الروم والصليبيين<sup>١</sup> من الغرب . وهناك عوامل أخرى يرجع فيها إلى المطولات التاريخية .

---

١ من أراد التوسع في الحروب الصليبية فليراجع من بين المصادر الكثيرة :  
- مرآة الزمان للجوزي ج ٨ .  
- ما ورد في الجزء الخامس من ابن خلدون .  
- أخبار الصليبيين في دوائر المعارف ولاسيا البريطانية والاسلامية .  
- كتاب *The Crusaders in the East* للمؤرخ ستيفنسن (Stevenson)  
- رسائل الكتاب أيام صلاح الدين في صبح الأعشى .

# تطور الحياة الاجتماعية

في العصر العباسي

## الحضارة في فجر الاسلام

من المعلوم ان بلاد العرب لم تكن في زمن الجاهلية خلوأ من حضارة ما . وفي القرآن الذي هو نص تاريخي صادق نجد الدليل على ذلك في ذكر المتاجر البرية والبحرية والشركات والاحتكارات والشورى والصنائع والكتابة والملاهي والنقود وبعض المعارف . فإذا اضفت ذلك إلى ما نقله المؤرخون من أخبار اليمن وقريش والامارات العربية القديمة في العراق وحوران وقدمر وسواها ، عرفت انه كان للعرب قبل الاسلام اتصال بالعمران السائد يومئذ . فلما جاء الاسلام وحدثت الفتوح ازداد هذا الاتصال وتنظّم ، وكان له بعد ذلك آثاره المعروفة .

بيد ان الروح الدينية كانت في فجر الاسلام قوية جداً ، فوقفت بهم قليلاً عن الأخذ بأسباب الرخاء الحضري ، وكان لها أثر بيتن في تنظيم حكومتهم الأولى ، حتى كان بعض امرائهم الأولين يسلكون مسلك التقشف ويشددون في تنفيذ أحكام الدين يلبسون الخلق المرقّع من الاثواب ويتجافون عن أطايب الطعام ويسيرون في الاسواق كعامّة الناس . والشواهد على ذلك

نشأ فيهم عثمان ( أي الأمويين ) كانوا أقل اهتماماً بأمور الدين والآخرة منهم بأمور الدنيا ، فكان مهمهم الفتح وجمع المال ،<sup>١</sup> . ولعل الاصبوب ان نقول ان التحرج الديني ضد الحضارة والرفاهية أمر غير طبيعي فلا يلبث ان يزول . وهكذا كان بعد الحكم العمري ، برغم ان بعض الصحابة والتابعين ظلوا على سنة عمر .

### الدولة الاموية

ولما انتقل مركز الخلافة إلى الشام خطا العرب إلى الامام في سبيل الحضارة السياسية والاجتماعية . « وكان معاوية مؤسس الدولة الاموية أول من أقام الحرس والشُرط والبوابين في الاسلام وارخى الستور ، ومُشي بين يديه بالحرايب وجلس على السرير والناس تحته »<sup>٢</sup> . وقد ظهر على معاوية الميل إلى محاكاة الاعاجم في ابتهتهم منذ كان عاملاً على الشام . ذكر ابن خلدون انه لما لقي معاوية عمر بن الخطاب عند قدومه إلى الشام في ابته الملك وزيته من العديد والعمدة استنكر ذلك وقال : « أكسروية يا معاوية ؟ » فقال : « يا أمير المؤمنين اننا في ثغر تجاه العدو ، وبنا إلى مباحاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة »<sup>٣</sup> .

وبعد ان كانوا في المدينة لعهدهم الاول يحسبون التجافي عن الرفه والرخاء واجباً دينياً صاروا لما استقر ملكهم في الشام يتأنقون في أسباب الحياة الحضرية ، فلبسوا الحلل المزركشة وأقاموا الابنية الفاخرة ، وانصرفوا إلى القلائل منهم إلى الملاهي . ولم ينحصر ذلك في دمشق بل نراه في كثير من الحواضر كالكوفة والبصرة والمدينة ومكة . ومن البديهي ان يُقبل الخاصة ومن يليهم من العامة على ما يقبل عليه امراؤهم ، حتى ان بعض أبناء

١ Moh. et la fin du monde 58

٢ اليعقوبي ٢ - ٢٧١ الفخري ٧٨ .

٣ المقدمة ٢٠٣ .



نشأ فيهم عثمان ( أي الأمويين ) كانوا أقل اهتماماً بأمور الدين والآخرة منهم بأمور الدنيا ، فكان مهمهم الفتح وجمع المال ،<sup>١</sup> . ولعل الاصبوب ان نقول ان التحرج الديني ضد الحضارة والرفاهية أمر غير طبيعي فلا يلبث ان يزول . وهكذا كان بعد الحكم العمري ، برغم ان بعض الصحابة والتابعين ظلوا على سنة عمر .

### الدولة الاموية

ولما انتقل مركز الخلافة إلى الشام خطا العرب إلى الامام في سبيل الحضارة السياسية والاجتماعية . « وكان معاوية مؤسس الدولة الاموية أول من أقام الحرس والشُرط والبوابين في الاسلام وارخى الستور ، ومُشي بين يديه بالحرايب وجلس على السرير والناس تحته »<sup>٢</sup> . وقد ظهر على معاوية الميل إلى محاكاة الاعاجم في ابتهتهم منذ كان عاملاً على الشام . ذكر ابن خلدون انه لما لقي معاوية عمر بن الخطاب عند قدومه إلى الشام في ابته الملك وزيته من العديد والعمدة استنكر ذلك وقال : « أكسروية يا معاوية ؟ » فقال : « يا أمير المؤمنين اننا في ثغر تجاه العدو ، وبنا إلى مباحاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة »<sup>٣</sup> .

وبعد ان كانوا في المدينة لعهدهم الاول يحسبون التجافي عن الرفه والرخاء واجباً دينياً صاروا لما استقر ملكهم في الشام يتأنقون في أسباب الحياة الحضرية ، فلبسوا الحلل المزركشة وأقاموا الابنية الفاخرة ، وانصرفوا إلا القلائل منهم إلى الملاهي . ولم ينحصر ذلك في دمشق بل نراه في كثير من الحواضر كالكوفة والبصرة والمدينة ومكة . ومن البديهي ان يُقبل الخاصة ومن يليهم من العامة على ما يقبل عليه امراؤهم ، حتى ان بعض أبناء

١ Moh. et la fin du monde 58

٢ اليعقوبي ٢ - ٢٧١ الفخري ٧٨ .

٣ المقدمة ٢٠٣ .

الصحابة واحفادهم أصبحوا من أكثر الناس استمتاعاً بالملاهي .  
ومن أمثلة ذلك عبد الله بن جعفر بن ابي طالب فقد تشاغل بالغناء  
والجوارى حتى عيب عليه سعيه في هدم مروءته . ومنهم الوليد بن عتبة  
أخو عثمان بن عفان فقد شهد عليه أهل الكوفة انه صلتى بهم الصبح  
ثلاث ركعات وهو سكران ، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب حده عمرو  
ابن العاص بمصر لشرب الخمر . ومنهم الوليد بن عثمان بن عفان ، وحفيده  
العرجي الشاعر ، وابن ابي عتيق حفيد ابي بكر ، وغيرهم من أبناء  
الصحابة الذين اقتضت السياسة الاموية منهم من الاشتغال بالسياسة  
فاندفعوا في سبيل اللهو والمجون<sup>١</sup> . وصار اللهو الشغل الشاغل لبعض  
المترفين حتى في مناسك الحج<sup>٢</sup> . وهذا الاقبال من الامراء ومن دونهم  
على الدنيا كان له بلا شك تأثير كبير في تنشيط الصناعة والتجارة والادب ،  
فأقبل على دمشق وسائر الحواضر العربية عدد من الصناع والمغنين والجوارى  
والشعراء مما زاد حركة الاعمال وأحدث فيها حالة اجتماعية لم يعهدها  
الراشدون .

ومع كل ذلك بقيت للبداءة نزعة في نفوس الأمويين . فلم يكن امراؤهم  
برغم سياستهم التي كانت ترمي إلى تعظيم البيت الأموي يترفعون عن  
معاشرة رعاياهم ومخالطتهم والسماح لهم بالكلام عندهم . فقد نقل عن  
الوليد بن يزيد والفهر أخيه انها لما مات معبد ( المغني المشهور ) مشيا بين  
يدي سريره حتى أخرج من دار الوليد<sup>٣</sup> . وكان عبد الملك أول خليفة منع  
الناس من الكلام عند الخلفاء وتقدم فيه وتوعد عليه<sup>٤</sup> . ولا غرابة فقد

١ و ٢ راجع أخبارهم في ما يلي :

- الكامل للبرد ( مصر ١٣٠٨ ) ١ - ٣٩٢ و ٣٩٣ .

- العقد ( بولاق ) ٣ - ٤٠٦ و ٤٠٧ والنويري ( دار الكتب المصرية ) ٤ ص

١١٣ - ١١٩ .

٣ الاغاني ( دار الكتب ) ١ - ٣٧ .

٤ البيان والتبيين ( ص ) ٢ - ١٩٢ .

كان بعضهم يكلّمه بما لا يُكلّم به الملوك ، كما روى الجاحظ عن رجل من بني مخزوم وكان زُبيرا . قال دخل على عبد الملك فقال له عبد الملك : « أليس قد ردّك الله على عقبيك ؟ » فقال : « أو من ردّ اليك فقد رد على عقبه ؟ » فاستحى وعلم انه قد اساء<sup>١</sup> . ودخل كثير على يزيد بن عبد الملك يسأله عن معنى بيت للشّماخ فاستحمله وأخرجه<sup>٢</sup> . ويثبت ذلك انهم كانوا حتى أيام الوليد يسمّون خلفاءهم بأسمائهم . قال اليعقوبي : « كان الوليد يقول لا ينبغي لخليفة أن يناشده ولا يكذب ولا يسميه أحد باسمه . » وعاقب على ذلك<sup>٣</sup> . وعن ابن خلدون انهم تجافوا عن ألقاب التعظيم مع الغضاضة والسداجة لأن العروبة في منازعتها لم تفارقهم حينئذٍ ، ولم يتحول عنهم شعار البداوة إلى شعار الحضارة<sup>٤</sup> ، وقال : كانت اعطيتهم أكثرها الابل أخذاً بمذاهب العرب وبدواتهم ، ومثلهم كان عمالهم .

وقد نقل ابن خلدون حديث الحجاج ووليمته في اختتان بعض ولده ، قال فاستحضر بعض الدهاقين يسأله عن ولائم الفرس فقال شهدت بعض مرازية كسرى وقد صنع لأهل فارس صنيعاً أحضر فيه صحاف الذهب على أخونة الفضة ، اربعاً على كل واحد ، تحمله اربع وصائف ، ويجلس عليه اربعة من الناس . فاذا طعموا أتبعوا اربعتهم المائدة بصحافها ووصائفها . فقال الحجاج ، وقد علم انه لا يستقل بهذه الابهة ، يا غلام انحر الجزر<sup>٥</sup> . ويظهر مما ذكره في موضع آخر ان نظامهم الحربي ظل بدوياً فكانت أسفارهم لحروبهم وغزواتهم بظعونهم وسائر حللهم واحيائهم من الأهل والولد<sup>٦</sup> . ومع ما درّته الفتوح عليهم من مال وما مهّدت لهم

١ البيان والتبيين (س) ٣ - ٢٦٧ .

٢ البيان والتبيين (س) ٢ - ١٩٦ .

٣ اليعقوبي ٢ - ٣٤٨ .

٤ المقدمة ٢٢٨ .

٥ المقدمة ١٧٤ .

٦ المقدمة ٢٦٨ .

من سبيل الحضارة لم يخرجوا خروجاً تاماً عن منازع البادية في حياتهم .  
إلاّ أنهم توسعوا كثيراً في الملاهي فتنظمت في الامصار المختلفة حركة  
الغناء واللعب على الآلات ، ونشأت في المدن المختلفة ولا سيما مدن الحجاز  
مجالس خاصة وحلقات خاصة من مغنين ومغنيات اتخذت الغناء مهنة ترتزق  
بها . وقد بلغ ذلك منهم حتى صار فيهم دور خاصة للملاهي والمطالعة .  
جاء في كتاب الاغاني ان عبد الحكيم بن عمرو الجُمَحي اتخذ بيتاً في  
المدينة فجعل فيه شطرنجات ونردات وقيرقات ودفاتر فيها من كل علم ،  
وجعل في الجدار أوتاداً فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ، ثم جرّ  
دفتره فقرأه ، أو بعض ما يلعب به فلعب به مع بعضهم<sup>١</sup> . وإذا قابلت  
ذلك بما كانت عليه المدينة أيام أبي بكر وعمر مثلاً تجد فرقاً كبيراً في  
اتجاه الافكار نحو الملاهي .

أما في دمشق - عاصمة الدولة يومئذ - فقد كان الخلفاء أنفسهم إلا  
القليل منهم ينفشون هذه الحركة . وكان يزيد بن معاوية أول من سن  
الملاهي في الاسلام من الخلفاء وآوى المغنين وشرب الخمر<sup>٢</sup> . واشهرهم  
في ذلك سليمان بن عبد الملك ، ويزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد<sup>٣</sup> . وفي  
أيامهم كثرت الملاهي ولم تنحصر في الخاصة بل تعدتها إلى العامة ، فنشأت  
طبقة من المتخصصين في صناعة الطرب كان لهم اتباع يدربونهم على  
الغناء والآلات تدريباً فنياً . وظهر في الحجاز جماعة من المغنين بلغوا  
من الشهرة مبلغاً عظيماً - منهم :

ابن مسحج ( مكي ) وابن مُحَرز ( مكي ) وطُويس ( مدني ) وابن  
سُريج ( مكي ) ومَعبد ( مدني ) وجميلة ( وكانت معلمة القينات في  
المدينة ) وعَزّة الميلاء وحُنين والفريض واضرابهم ممن تجد أخبارهم بالتفصيل

١ الاغاني ( بولاق ) ج ٤ - ٥٢ .

٢ الاغاني ١٦ - ٧٠ .

٣ المستطرف ( بولاق ) ٢ - ١٨٨ .

في كتب الادب<sup>١</sup> .

وقد رافق تقدم الغناء في هذا العصر تقدم الشعر الغزلي ، ولا غرو فهما ربيبا عاطفة واحدة . ومن الشعراء الذين عرفوا بالغزل والتشبيب وما إلى ذلك من لهو ومجون :

الاحوص وهو مدني من الأوس .

يزيد بن الطيثرية وهو شاعر بدوي .

نُصيب مولى عبد العزيز بن مروان وقد اشتهر أيضاً بالغناء .

عمر بن ابي ربيعة وهو مشهور ، واختص شعره بوصف النساء وحاله

معهن .

العرجي وقد مرّ ذكره وكان شغوفاً باللهو والصيد والتشبيب .

ومن طبقتهم كثيرون لا يتسع لهم المقام<sup>٢</sup> .

ومن مظاهر التطور الاجتماعي أيام الامويين نشوء دور التعليم وازدياد عدد المتعلمين . فقد كان العرب في أول أمرهم أميين ، إلاّ أفراداً قلائل بلغوا في الحجاز أول الدعوة الاسلامية سبعة عشر شخصاً<sup>٣</sup> . ثم أخذ عدد القراء والكتبة يتزايد : قال ابن خلدون : « لما جاء الملك للعرب وفتحوا الامصار وملكوا الممالك ونزلوا الكوفة والبصرة واحتاجت الدولة إلى الكتابة استعملوا الخط وطلبوا صناعته وتعلمه ، وتداولوه فترقت الاجادة به<sup>٤</sup> . »

وطبيعي أن تتقدم القراءة والكتابة ، وان ينشأ في مساجد الخواضر حلقات تعليمية ويكون فيهم معلمون لصبيانهم . وقد ورد ذكر معلم

---

١ راجع كتاب الاغاني، ج ١ - ١٥٢، ج ٣ - ٨٤، ج ٧ - ١٤٤ وأماكن أخرى فيه . ونهاية

الارب للنويري ( دار الكتب المصرية ) ج ٤ ص ٢٣٢ - ٢٩٠ .

٢ وتجدهم في الاغاني ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، ووفيات الاعيان وسواها .

٣ البلاذري ( ليدن ) ٤٧١ .

٤ المقدمة ( بيروت ) ٤٢٠ .

الكتاب في شعر جرير إذ قال : « هذي دواة معلّم الكتاب » .  
وفي أخبار الوليد بن عبد الملك انه مرّ بمعلّم صبيان يعلم  
جارية<sup>١</sup> الخ ...

وذكر الجاحظ أمثال الناس عن المعلمين . وفي دفاعه عنهم جعلهم  
ثلاث طبقات : مؤدبي أولاد الملوك ، ومؤدبي الخاصة ، ومعلمي كتاتيب  
القرى . وذكر بضعة من كبار المؤدبين في العصر الاموي مثل الجهني  
والشعبي وعبد الصمد الأعلى وكميت بن زيد وقيس بن سعد وعطاء بن  
ابي رباح وعبد الحميد الكاتب والحجاج بن يوسف ، يوم كانت يعلم في  
الطائف<sup>٢</sup> . وبعبارة أخرى فرّق بين الاساتذة المؤدبين وبين معلمي الكتاتيب  
الذين لم يبلغوا مكانة في العلم والتأديب . وقال ان أمثال العامة قد تصدق  
على بعض هؤلاء لا على الطبقة الأولى التي ينتمي اليها كبار العلماء والفقهاء  
وقادة الافكار .

وقد نقل ابن قتيبة وصايا بعضهم لمعلمي العصر الاموي فلتراجع<sup>٣</sup> .  
ويدلك على انتشار التعليم في هذا العصر نشاط حركة النسخ والتدوين :  
ذكروا انه في معركة صفّين رفع نحو خمسمئة نسخة من القرآن<sup>٤</sup> . ومع  
انه لم يصلنا شيء يذكر مما دوّن في هذا العصر فلا شك ان التدوين سابق  
للعصر العباسي . ومن أدلة ذلك نقلهم الدواوين الاميرية إلى اللغة العربية .  
ويحدثنا اليعقوبي ان زياد بن ابيه كان أول من دوّن الدواوين ووضع  
النسخ للكتب<sup>٥</sup> .

وفي هذا العصر بدأت حركة النقل والترجمة ، وأول من فعل ذلك

١ البيان والتبيين (س) ٢ - ١٦٤ .

٢ البيان والتبيين (س) ٢١٠ .

٣ عيون الاخبار ( دار الكتب ) مج ٢ - ١٦٦ .

٤ المسعودي ( باريس ) ٤ - ٣٧٨ .

٥ اليعقوبي ٢ - ٢٧٩ .

خالد بن يزيد . ففي الفهرست لابن النديم نقل له الكيمياء رجل اسمه اسطفان<sup>١</sup> . ويقول ابن النديم ان سالماً كاتب هشام نقل بعض رسائل ارسطو وذكر كتباً في مواضيع مختلفة دوّنت في هذا العصر .

فما مرّ نستنتج ان احتكاك العرب بسواهم أحدث فيهم ميلاً إلى الاخذ عنهم ، فزاد فيهم عدد المتعلمين وكثر الاقبال على القراءة والكتابة وأصبح كثير من المساجد مراكز تعليمية للعلوم اللسانية والدينية .  
على ان المدارس لم تكن قد تنظمت تماماً وذلك :

- ١ . لعدم توفر الادوات الكتابية واتقانها .
- ٢ . لقصر مدة الامويين ولانشغالهم بالحروب والفتن .

\* \* \*

وبقي الامر كذلك حتى قام العباسيون وانتقلوا إلى بغداد ، ثم انصرفوا إلى العلوم والمدارس فتنظمت أسباب التعليم والتدوين والتصنيف ، وحدثت تلك الحركة الفكرية المشهورة .

فالعصر الاموي عصر انتقال اجتماعي تطورت فيه نوعاً عادات العرب ومعارفهم ، ودخل اللغة كثير من المصطلحات الادارية والاجتماعية والعلمية التي لم يكن للجاهلية عهد بها<sup>٢</sup> .

---

١ الفهرست (ل) ٢٤٢ و ٢٤٤ .

٢ راجع أمثلة ذلك في تاريخ اللغة العربية لزيدان ص ٢٠ - ٣٠ .

## مضارة العصر العباسي

في هذا العصر بلغ التطور الاجتماعي أوجه ويظهر ذلك في ما يلي :

- ١ - نشوء قومية عربية جديدة .
  - ٢ - عمران بغداد وسواها من الحواضر .
  - ٣ - اتساع الثروة وترف الخاصة .
  - ٤ - النهضة الفكرية العامة .
- ولنشرح كلا من هذه الظواهر الاجتماعية بالتفصيل .

### نشوء قومية عربية جديدة

وأساس هذا النشوء :

- ١ - انتشار العرب في الامصار بعد الفتح .
- ٢ - امتزاجهم عن سبيل الزواج بعناصر أخرى .
- ٣ - تعرب الامم المغلوبة .

خرج العرب من جزيرتهم فاتحين فانتشروا في الاقطار التي افتتحوها وأنشأوا فيها معسكرات صارت بعدئذ حواضر عامرة كالبصرة والكوفة والانبار والقيروان، كما أسسوا عدداً من المدن المعروفة كواسط وبغداد والقاهرة. وكانوا في أول أمرهم يرحلون في أثر الفتوح قبائل وعشائر فيقيمون في



الامصار ويتحضرون . والظاهر ان هذه الهجرة إلى البلدان المغلوبة كانت من سياسة القادة والامراء . فقد ذكر البلاذري مثلاً ان ابا عبيدة رتب ببالس ( بناحية حلب ) جماعة من المقاتلة وأسكنها قوماً من العرب الذين كانوا بالشام فاسلموا بعد قدوم المسلمين ، وقوماً لم يكونوا من البعوث نزعوا من البوادي من قيس<sup>١</sup> . وذكر ان مسلمة بن عبد الملك أسكن مدينة الباب في الخزر اربعة وعشرين الفا من أهل الشام<sup>٢</sup> ، وان هرثمة اختط الموصل وأسكنها العرب<sup>٣</sup> . وقال المقدسي كانت تدعى أولاً خولان حتى وصل بها العرب عمارتهم ومصرها<sup>٤</sup> . وقد سبق هذه الهجرات الاسلامية الاولى إلى الامصار المجاورة لبلاد العرب هجرات قديمة ؛ يدلنا على ذلك انه قبل الاسلام وجدت امارات وقبائل عربية في العراق وسوريا وفلسطين كاللخمين والغساسنة والتدمريين والانباط وسواهم . وكثير من هؤلاء القبائل تحضّر واصطبغ بصبغة البلاد الدينية والاجتماعية .

واستمر الامر على ذلك شطراً من الدولة العباسية . فقد بنى المنصور ملطية من ثغور الروم ( وكان قد رتب فيها معاوية رابطة من المسلمين ثم خرجت ) واسكن فيها الوفاً من أهل الجزيرة<sup>٥</sup> . وفي أيام المهدي غزا الحسن بن قحطبة بلاد الروم بجيش مؤلف من أهل خراسان والموصل والشام وامداد اليمن ومطووعة العراق والحجاز ، وبنى طرطوس ( وكانت قد خربت ) ومصرها<sup>٦</sup> . وبما يشعر بسياسة التمهير هذه انه لما أراد المأمون غزو الروم قال : « اوجّه إلى العرب فآتي بهم من البوادي ، ثم أنزلهم كل مدينة افتتحها حتى أضرب إلى القسطنطينية . » على ان الاجل لم يمهل ان

١ البلاذري ١٥٠ .

٢ البلاذري ٢٠٧ .

٣ البلاذري ٣٣٣ .

٤ أحسن التقاسيم ( ليدن ) ١٣٩ .

٥ البلاذري ١٨٧ .

٦ البلاذري ١٦٩ .

يتم هذا الفتح<sup>١</sup> .

ومن ذلك تحرك العصابات في الامصار المختلفة كربيعة ومضر أيام الوليد في خراسان ، والقيسية واليمانية أيام المأمون في مصر ، ولخم وجذام سنة ٢٥٧ هـ في فلسطين . ناهيك بمن كان قد رحل من العرب إلى افريقيا والاندلس .

وإلى انتشار العرب بعد الفتوح واستقرارهم في الامصار يشير ابن خلدون في قوله : « وكان قد وقع في صدر الاسلام الانتماء إلى المواطن فيقال جند قنسرين وجند دمشق وجند العواصم ، وانتقل ذلك إلى الاندلس . ولم يكن ( ذلك ) لاطراح العرب أمر النسب وإنما كان لاختصاصهم بالمواطن بعد الفتح حتى عرفوا بها وصارت لهم علامة زائدة على النسب . ثم وقع الاختلاط في الحواضر مسع العجم وغيرهم وفسدت الانساب بالجملة وفقدت ثمرتها من العصبية فاطرحت ، ثم تلاشت القبائل ودثرت العصبية بدثورها وبقي ذلك في البدو كما كان<sup>٣</sup> .

وإذا نظرت إلى هذا الامتزاج من جهة أخرى وجدت ان الجزيرة العربية لم تكن مركز الملك العربي إلاّ نحواً من ربع قرن . ثم تحول الأمر إلى دمشق فبغداد . ونشأت على اثر ضعف الخلافة في بغداد حواضر لامارات مستقلة . ومعنى ذلك من الوجهة الاجتماعية ان العنصر العربي الفاتح استقر قسم كبير منه بعد الفتح خارج الجزيرة حتى قدر بعضهم من دخل سوريا منه بنحو ربع مليون<sup>٤</sup> . ولا نستطيع ان نجزم بصحة هذا العدد ولكننا لا نشك ان الفتح سهّل للعرب الانتشار والاستقرار في البلاد التي افتتحوها ، ولا يعقل أن يحدث ذلك دون امتزاج أو احتكاك قوي بالامم الأخرى . ففي الشام كان الروم والسريان واليهود ، وفي العراق الاراميون

١ اليعقوبي ٢ - ٥٧٣ .

٢ راجع اليعقوبي ٢ - ٣٩٩ و ٥٦٧ و ٦٢٣ .

٣ المقدمة ١٣٠ .

٤ La Syrie - Lammens 119 - 120

والفرس ، وفي مصر الاقباط ، وسواهم في سوى ذلك . وقد اتصل العرب بهذه الامم اتصالاً وثيقاً واختمروا بثقافتهم وحياتهم الاجتماعية . وكان أكثر امتزاجهم بالفرس - أولاً لاسراع هؤلاء باعتناق الاسلام ، وثانياً لما كان لهم من التأثير السياسي بعد أن أصبحت بغداد عاصمة الخلافة .

وإذا تحريت ذلك من الوجهة اللغوية اتضح لك وجه الامتزاج - فان أكثر الالفاظ المقتبسة إما يونانية أو فارسية . على ان اليونانية راجعة<sup>١</sup> بالاكثـر إلى حياة اليونان العلمية والفلسفية دلالةً على ان الامتزاج كان على هذا السبيل<sup>١</sup> . اما الالفاظ الفارسية فمعظمها اجتماعي . وقد تحرينا أكثر من مئة لفظة فارسية الاصل فوجدنا معظمها من باب المأكل والمشرب والملبس والمفرش والملهي ومن الادوات المنزلية والصناعية وما إلى ذلك ، مما يدل على شدة تأثيرهم من حياة الفرس الاجتماعية<sup>٢</sup> .

وإذا نظرت إلى البلدان العربية اليوم وجدت في الفاظها المعربة الحديثة قياساً منطقياً لما حدث في الماضي . فأكثر الفاظها العلمية مقتبسة عن لغات أوروبا الحديثة . اما الاجتماعية ففي العراق تكثر منها المقتبسات الفارسية والتركية ، وفي سوريا الايطالية والافرنسية ، وفي مصر التركية والاوروبية . وما وجود هذه الالفاظ إلا دلالة على احتكاك سكانها بالامم التي اقتبسوا عنها . وذلك ما حدث للدولة العربية في بغداد وسواها . وهذا الامتزاج اللغوي الاجتماعي طبيعي بين الشعوب تتبادل فيه الالفاظ كما تتبادل السلع . فكما ان العرب أخذوا أولاً عن الفرس والروم والسريان والاقباط الذين استقروا بينهم كثيراً من الفاظهم ومصطلحاتهم ، عاد هؤلاء فأخذوا من العربية ما لا يمكن حصره هنا ، ولا سيما الفرس الذين أصبحت

١ تجد كثيراً من هذه الالفاظ في الكتب الطبية والعلمية لذلك العهد .

٢ راجع المقتبسات الاعجمية في «شفاء الغليل» للخفاجي وفي «المعرب» للجواليقي و«الالفاظ المعربة» لادي شير وسواها .

انفاظ لغتهم مزيجاً من الفارسية القديمة والعربية . وكذلك أخذ غيرهم كالأتراك والاسبان . وكل ذلك دليل على تبادل أسباب الحياة الاجتماعية . ويكون الاقتباس عموماً على أحد سبيلين :

١ - الامم المغلوبة من الامم الغالبة .

٢ - اللغات المتأخرة في نوع من أنواع الحضارة من اللغات المتقدمة فيه .

### الامتزاج بالزواج

ولم تقف عملية المزج في الاقطار الاسلامية عند هذا الحد ، بل تعدتها إلى ما هو أعمق ، فقد اختلط الجنس العربي بسواه عن طريق الزواج - اختلط أولاً بالامم التي اعتنقت الاسلام من فرس وترك وبربر وسواهم ، ثم بالامم الاخرى عن طريق السبايا والجواري لعين دوراً مهماً في تاريخ الاسلام الاجتماعي . وقد كان الامويون أولاً يتعصبون على أبناء الاماء ولا يستخلفونهم . فقد أنسب عبد الملك علي بن الحسين لتزوجه جارية ، وعيّر هشام زيد بن علي بن الحسين بقوله : أنت الذي تنازعك نفسك في الخلافة وأنت ابن أمة<sup>١</sup> . ولما زوّج ابراهيم بن النعمان بن بشير الانصاري يحيى بن حفصة مولى عثمان بن عفان ابنته على عشرين الف درهم قال قائل يعيره<sup>٢</sup> :

لعمري لقد جلّلت نفسك خزيةً وخالفت فعل الاكثرين الاكارم  
ولو كان جدّك اللذان تتابعا ببدري لما راما صنيع الألائم

على ان ذلك لم يمنع حتى بعض الخلفاء الامويين من التزوج بالاماء . فكانت أم يزيد بن الوليد فيروزا شامي ابنة شيرويه<sup>٣</sup> ، وام يزيد بن

١ المسعودي ٥ - ٤٦٨ .

٢ كامل المبرد ( لبيك ) ج ١ - ٢٧١ .

٣ عن الجاحظ ( راجع رسائل الجاحظ ، مطبعة السعادة مصر ص ٥١ ) .

عبد الملك شاهفريد بنت فيروز ابن كسرى<sup>١</sup> ، وكانت جدة مروان بن محمد كردية . أما بنو العباس فكثير ذلك بينهم ، حتى كان كثير من خلفائهم ابناء اماء<sup>١</sup> . منهم المنصور والرشيد و ابراهيم بن المهدي والمأمون والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمقتدر والمكتفي والمستضيء والناصر . وقس على ذلك سائر الطبقات التي اختلط فيها الدم العربي بسواه اختلاطاً واسع النطاق .

### تعرب الامم المغلوبة

من هذه الامم من تعرب تعرباً جزئياً وقتياً كفارس والاندلس مثلاً ، ومنها من تعرب تعرباً كلياً دائماً كمصر والشام والعراق وشمالى افريقيا . وقد حدث هذا التعرب فيها تدريجياً - بدأ منذ الفتوح الأولى وقبلها بهجرة العرب واشتد بنشر الاسلام ، ثم بتحول دواوين الحكومة أيام الأمويين ، وبما كان للعرب أو للمسلمين من امتيازات في المملكة الاسلامية . وأخذت حركة التعرب تتقدم مع الايام حتى استقرت العربية في هذه الاقطار . والمشاهد ان ذلك جرى في الاقطار السامية الاصل أو التي تمت إلى الساميين بنسب متين ، أما في سواها فلم يكن إلاّ جزئياً كما ذكرنا ، ولوقت معين . فلما زالت شوكة العرب زالت الصبغة العربية عنهم وبقي اثرها في لسانهم ومدنيتهم . وهكذا نشأ في الاقطار الاسلامية العربية ( ما نسميه اليوم بالشرق العربي ) قوميات شتى ، تجمعها جامعة معنوية قوية هي جامعة اللغة والثقافة . وليس من نسميهم اليوم ابناء العرب ( خارج الجزيرة العربية ) إلاّ مزيجاً من عناصر شتى اصطبغت بالصبغة العربية وارتبطت بتاريخ العرب وميراثهم الأدبي . وهذا الامتزاج القومي اللغوي التاريخي أثر في الادب العربي تأثيراً بيتناً ، فكثرت فيه المقتبسات الاجنبية ، واختمرت

١ تاريخ التمدن الاسلامي ( لزيدان ) ٤ - ١٥٣ .

فيه الحياة الفكرية اختاراً أدى إلى نشوء الحضارة العربية المعروفة في القرون الوسطى .

### حضارة بغداد عاصمة العباسيين

كانت بغداد في أيام الفرس قرية يقوم بها سوق لهم ، فأغار عليها المثنى فانتسفها<sup>١</sup> ، ثم لم تلبث بعد ان اختارها المنصور العباسي مركزاً لدولته وبنى فيها مدينته ، حتى زخرت بالعمران وأصبحت من أعظم العواصم في القرون الوسطى . وإنما نحن نذكرها هنا ذكراً خاصاً لعلاقتها الكبيرة بالشعراء الذين ندرس حياتهم وشعرهم ، ولأنه فيها تتجلى الحضارة العربية في أبهى ظواهرها .

وقدمرنا بنا في عرض كلامنا عن «العوامل السياسية في الدولة العباسية» ما كان من تنازع العناصر المختلفة في بغداد ، وان أهمها ثلاثة :

- ١- العرب : ويمثلهم البيت المالك وبعض الامراء والعمال .
- ٢- الفرس : ويمثلهم الوزراء والكتبة ومعظم رجال العلم ثم امراء الديلم المتغلبون .

٣- الاتراك : وكان منهم امراء الجند ثم السلاجقة ورجالهم .  
ففي بغداد التقت عناصر شتى وأجناس كثيرة تتنافس على السيادة والرزق وكان لهذا التنافس أثره في أحوالها الاجتماعية . ولما كانت هذه المدينة عاصمة الخلافة والدولة ، ولا سيما في القرنين الأولين من العصر العباسي ، كان من الطبيعي ان تتدفق فيها أموال الاقاليم عن طرق شتى أهمها : الجباية والمصادرة والتجارة والزراعة . ولنتناول كلا منها بقليل من الاسباب .

### الجباية والمصادرة

بلغت رقعة المملكة العباسية في ابان قوتها حداً عظيماً من الاتساع

١ مرصد الاطلاع ( ليدن ) ١ - ١٦٣ .

فكان يجبي اليها مما وراء النهر إلى المغرب الأقصى . قيل وقد حسب خراج الروم للمعتصم فبلغ أقل من ثلاثة آلاف الف . فكتب إلى ملك الروم : « ان أحسن ناحية ، عليها أحسن عبيدي ، خراجها أكثر من خراج أرضك »<sup>١</sup> . وإذا صححت هذه الرواية لم يكن المعتصم مبالغاً ، فقد ترك لنا قدامة بن جعفر قائمة مسهبة في الخراج لعهد المعتصم يبلغ مجموعها أكثر من ٣٣٨ مليون درهم<sup>٢</sup> . وأحصى ابن خلدون الخراج أيام المأمون وفصله اقليمياً اقليمياً فاذا مجموعهم يزيد على الأربعمئة مليون درهم<sup>٣</sup> . وكان الخلفاء في صدر الدولة العباسية مطلقين التصرف بالاموال والارواح ، تجبى اليهم الاموال الطائلة فينفقونها في رجاها وحاشيتهم وملاهيهم ، ويختزنون منها ما يرونه لحين الحاجة . فان المنصور خلف لابنه المهدي ما يزيد عن ٦٠٠ مليون درهم و ١٤ مليون دينار<sup>٤</sup> . وخلف الرشيد نحو ٩٠٠ مليون درهم<sup>٥</sup> . هذا مع كل ما اشتهر به من السخاء والاسراف ، حتى قال الطبري عنه انه لم يُرَ خليفة اعطى منه<sup>٦</sup> . وكانت غلة أمته الخيزران في العام ١٦٠ مليون درهم . أما عمال الخلفاء ووزرائهم فكانوا يحصون الاموال الطائلة ويتبارون في انفاقها . فقد بلغت عمالة الفضل ابن سهل أيام المأمون على ما رواه الطبري نحو ثلاثة ملايين درهم ، ووهب الفضل بن يحيى البرمكي الف الف درهم لمحمد بن ابراهيم العباسي<sup>٧</sup> . والبرامكة مشهورون بكرمهم وورعائهم ، وكانوا أصحاب الدولة والمجد حتى نكسبهم الرشيد واستصفى أموالهم . على ان الكرم والغنى لم ينحصرا فيهم .

- 
- ١ أحسن التقاسيم للمقدسي ( ليدن ) ٦٤ .
  - ٢ تاريخ التمدن الاسلامي ٢ - ٥٦ .
  - ٣ المقدمة ١٧٩ - ١٨١ .
  - ٤ السعودي ٦ - ٢٣٣ .
  - ٥ ابن الاثير ٦ - ٧٦ والطبري جم ٣ - ٧٦٤ .
  - ٦ الطبري جم ٣ - ٧٤١ .
  - ٧ الفخري ١٥١ .

ومن يراجع أخبار الوزراء والعمال يدهش لكثرة ما كان يصلهم من المال ، وما كانوا ينفقونه في سبيل مآربهم وملذاتهم . جاء في « سراج الملوك » للطرطوشي ان العامل ( أي الحاكم ) أيام عمر بن الخطاب كان راتبه مع معاونيه ٦٠٠ درهم في الشهر<sup>١</sup> ، فصار العمال أيام الامويين يتقاضون الرواتب الكبيرة . على انهم لم يبلغوا عموماً مبلغ زملائهم في العصر العباسي . ولم يكن هذا المال عن طريق الجباية المشروعة فقط بل كان للمصادرة شأن كبير في العصر العباسي . والمصادرة مال يقبضه السلطان من الوزير وهذا من المال ، والعمال من الرعية .

وقد بلغت في الدولة العباسية ان انشأوا لها ديواناً خاصاً . وأخبار بني العباس حافلة بذكر المصادرات ، وكذلك أخبار وزراءهم وعمّالهم . من أمثلة ذلك قائمة ما قبضه ابن الفرات وهي انموذج لأنواع المصادرة ومقاديرها ويبلغ مجموعها ملايين الدراهم<sup>٢</sup> . وقد نال ابن الفرات من ذلك ما نال سائر الكبراء . فقد قال عن نفسه : تأملت ما صار إلى السلطان من مالي فوجدته عشرة آلاف ألف دينار ، وحسبت ما أخذته من الحسين بن عبد الله الجوهري بن الجصاص فكان مثل ذلك . واليك أمثلة أخرى مما يرويه اليعقوبي : سخط المتوكل على الفضل بن مروان وقبض ضياعه وأمواله ونفاه ، ثم رضي عليه ورده ، وسخط على احمد بن خالد المعروف بأبي الوزير فاستنصى ماله ثم رضي عليه . ولما سخط على الكتاب قال لاسحق ابن ابراهيم انظري رجلين أحدهما لديوان الخراج ، والآخر لديوان الضياع ( المصادرة ) ، ثم يذكر ما فعله هذا الخليفة بإيتاخ التركي وهرثة عامل مصر ، ويقول : « ووجهه بالحسين بن اسماعيل مكان عمه محمد بن ابراهيم ، وأمره أن يعذبه حتى يستخرج الاموال التي صارت اليه ، فعذب حتى مات . » وفي مكان آخر يذكر قبضه ضياع ابن ابي دؤاد وأمواله ، وانه

١ سراج الملوك (١٢٨٩) ٢٢٥ .

٢ راجع عصر المأمون للرفاعي ١ - ٤٣١ .



أحضر إلى بغداد فلم يقيم قليلاً حتى مات<sup>١</sup> . وفي الفخري أمثلة كثيرة -  
على هذه المصادرات . منها مصادرة المعتمد للوزير أبي الصقر بن بلبل ،  
وام المقتدر لكاتبها ابن الخصيب ، وابن الفرات لابن مقلة على مئة ألف .  
قال وفي أيام المقتدر وأيام وزيره أبي القاسم كثرت المصادرات ولم ينج  
الوزير نفسه منها فصادره الخليفة وأبعده . وأعجب من ذلك ما فعله القاهر  
بأمّ المقتدر . فقد عذبها وصادر منها مئة وثلاثين ألف دينار<sup>٢</sup> . هذا  
عدا ما صادره الاتراك والديلم وكثير من الوزراء وكبار العمال مما لا يسعه  
هذا المقام<sup>٣</sup> .

وكانت هذه الأموال الوفيرة ينفق أكثرها في بغداد فليس من الغرابة  
ان نسمع عن كثرة البذخ والسخاء في دوائر الخلفاء والأمراء<sup>٤</sup> . وقد تناول  
زيدان في تاريخ التمدن الاسلامي<sup>٥</sup> نفقات الدولة العباسية ، وبعد ان  
بحث فيها بأسهاب ونقل ما نشره فون كريم عن أحمد بن محمد الطائي ،  
وما اشترطه هذا على نفسه ان يقدمه من ضمانه لبيت المال ( وفيه ما كان  
ينفقه بيت المال أيام المعتضد ) ، وجد ان مجموع النفقات كانت نحو  
مليونين ونصف مليون دينار في السنة ، باعتبار سبعة آلاف دينار لكل  
يوم . فاذا حسبنا ان النفقات كانت متقاربة أيام المأمون والمعتصم والمعتضد  
وأخرجنا ذلك من معدل ارتفاع الجباية كما أوردها ابن خلدون وقدامة ،  
استنتجنا ان نحواً من ٣٠٠ مليون درهم كانت تبقى في بيت المال يتصرف  
بها الخليفة كما يشاء . فهل يستغرب أو ينكر بعد هذا دفعهم ( حتى في  
أيام ضعفهم ) الوف الدنانير للشعراء والمغنين والعلماء ، أو في سبيل الجواري

---

١ تاريخ اليعقوبي ج ٢ من ٥٩٢ - ٥٩٧ .  
٢ كتاب الفخري في أخبار المقتدر والقاهر .  
٣ راجع أمثلة ذلك في تجارب الامم لسكويده في أخبار سنة ٣٥٠ و ٣٦١ .  
٤ راجع مثلاً لذلك بذخ المتوكل - المسعودي ٧ - ٢٢٨ .  
٥ ج ٢ - ص ٦٥ - ٧٢ .

وسائر الملاهي التي اشتهروا بها وزاجت سوقها في زمانهم ؟ وايضاحاً لذلك ننقل بعض أمثلة من بذخهم .

### ملابس الموفق والمكتفي

اشتهر هذان الخليفتان بكثرة ما جمعا من الاثواب وبكثرة التأنق في الملابس حتى كان للموفق ستة آلاف ثوب من جنس واحد<sup>١</sup> ، وكان للمكتفي من الاثواب ما يبلغ عشرات الالوف<sup>٢</sup> .

### جواهر المقتدر واسرافه

كانت خزانة الدولة في أيامه مترعة بالجواهر ، من جملتها الياقوت الذي اشتراه الرشيد بثلاثمئة الف دينار ، والدرة اليتيمة التي كان وزنها ثلاثة مثاقيل إلى غير ذلك من الجواهر النفيسة ، ففرقه المقتدر وأتلفه في أيسر مدة<sup>٣</sup> . ولا عجب فقد كان له احد عشر الف خادم من الروم والسودان وهم بمثابة حاشيته وحرسه .

### بذخ ام جعفر وام المستعين

ذكر المؤرخون انه كان لأم المستعين بساط فيه نقوش على أشكال الحيوانات والطيور أجسامها من الذهب وعيونها من الجواهر ، وقد قدروا قيمته بنحو ١٣٠ الف دينار<sup>٤</sup> . وذكر ابن خلكان ان ام جعفر البرمكي كانت في أيام عزها تمشي ووراءها اربعمئة وصيفة ، وقد يكون في ما ذكروه مبالغة ولكنه يشير إلى غنى وافر وبذخ عظيم .

١ الفخري (١٣١٧) ٢٢٨ .

٢ راجع تفصيل ذلك في تاريخ التمدن الاسلامي ٥ - ١٠٧ .

٣ الفخري ٢٣٤ .

٤ المستطرف (بولاق) ١ - ١٩١ .

### الهادي والرشيدي والوائق ومطربوهم

قيل ان الهادي أعطى ابراهيم الموصللي في يوم واحد ١٥٠ الف دينار<sup>١</sup> .  
وغنى ابن معرز في حضرة الرشيد بأبيات مطلعها « وأذكر أيام الحمى  
ثم انثني » فاستخف الرشيد الطرب وأمر له بمئة الف درهم ، وفعل مثل  
ذلك لدحان الاشقر<sup>٢</sup> . وهبات هذا الخليفة لندمائيه وشعرائه أكثر من ان  
تحصى هنا . واقتدى الواثق بجده فوهب اسحق وقد غنى في حضرته ،  
مئة الف درهم<sup>٣</sup> .

### الولائم والافراح والمساكن

ذكروا ان المال الذي أنفق يوم زفاف بوران إلى المأمون على القواد  
فقط بلغ نحواً من خمسين الف الف درهم<sup>٤</sup> .  
وذكر صاحب التكملة ان ابا الفضل الشيرازي عمل دعوة أنفق فيها  
الف الف درهم ووهب فيها جواربي وغلماناً وضياعاً الخ...  
وفي يوم زفاف ابنة القاسم بن عبيد الله إلى أحمد ابن المكتفي أنفق  
ما يزيد على عشرين ألف دينار<sup>٥</sup> .  
أما المساكن فنكتفي منها بذكر دار الوزير ابن الفرات التي أنفق عليها  
مئتي الف دينار ، ومثلها على ما قيل دار ابن مقلة<sup>٦</sup> .

\* \* \*

وإنما هذه أمثلة قليلة سقناها على ما قد يكون فيها من مبالغة لنوضح ما نحن  
بصدده من توفر المال لدى الخاصة ولا سيما قبل انحلال الدولة . وفي اخبار العباسيين

١ الاغاني ٥ - ٦ .

٢ المستطرف ٢ ص ١٨٢ - ١٨٤ .

٣ المستطرف ٢ - ١٨٥ .

٤ الطبري جم ٣ - ١٠٨٣ وتزيين الاسواق للانطاكي ٣ - ١١٧ .

٥ صلة الطبري آخر أخبار سنة ٣٠٦ .

٦ صلة الطبري أخبار سنة ٣١٨ .

ورجالهم مما تجده في تضاعيف كتب الادب والتاريخ ما يملأ صفحات عديدة . ولم يكونوا ليستطيعوا القيام بهذه النفقات الطائلة وهذه الالبته العظيمة (مهما كان مبالغاً فيها) لولا تدفق الاموال عليهم من الاقاليم المختلفة ، وقد بقي لهم حتى في أيام ضعفهم وخروج السلطة من أيديهم حظ وافر من المال . فان البويهيين لما استولوا على الامر ببغداد عيّنوا راتباً للخليفة خمسة آلاف درهم كل يوم<sup>١</sup> . وفي سنة ٣٣٤ هـ عيّن للمطيع الفاسي درهم<sup>٢</sup> ، وهو مبلغ كبير إذا قيس برواتب الحكام . ولم يكن ما يقبضه الخليفة المستضعف يومئذ إلا شيئاً يسيراً بالنسبة إلى ما كان يتقاضاه صاحب الامر وعماله . وهذه الاموال الطائلة كان ينفق أكثرها في بغداد ، وكان نصيب الادب منها وافراً . ولما تجزأت الدولة إلى امارات مستقلة لم يتغير الحال كثيراً على الادباء والعلماء وارباب الفنون ، إذ أصبحت حواضر هذه الامارات تنافس بغداد في الغنى والبنخ والانفاق على العلم والادب ، وان لم تبلغ ما بلغته العاصمة الكبرى في إبان مجدها .

### العمران التجاري والزراعي

لم تكن بغداد مركزاً للخلافة والسلطنة فحسب بل كانت مركزاً كبيراً للتجارة أيضاً ، وساعدها على ذلك مركزها الجغرافي على نهر كبير صالح للملاحة وانها في نقطة وسطى بين الشرق والغرب . والمعروف ان المسلمين كانوا في العصر العباسي سلاطين البحار تمخر سفنهم إلى سومطره وزنجبار وكلكتا وجزائر الهند والصين<sup>٣</sup> ومدغسكير ، وتجوب البحر المتوسط إلى الأندلس وسواها . وقد تركوا أثر تفوقهم التجاري في المصطلحات التي

١ ابن الاثير ، أخبار سنة ٣٣٤ .

٢ تجارب الامم ، أخبار ٣٣٤ .

٣ ترجم مؤخرأ في روسيا كتاب صيني يرجع إلى القرن الحادي عشر معظمه عن تجارة الصين مع العرب - راجع كتاب ذويمير A Moslem Seeker After God p. 30 وفيه انه وجد مسكوكات كوفية في اسكندنافيا ترجع إلى القرن الحادي عشر .

اقتبستها لغات الغرب عنهم مثل :

Garracca	حرّاقة	Cable	حبل السفينة
Tarif	تعريفة	Admiral	امير البحر
Musline	موصلين	Arsenal	دار الصناعة
Damask	دمقس		

وما أشبه من الالفاظ التي دخلت أوروبا عن طريق التجارة<sup>١</sup> .  
ويوازي أساطيلهم التجارية في الأهمية قوافلهم البرية التي كانت تحمل  
المتاجر من كل الجهات ، وقد ذكر المقدسي في أحسن التقاسيم أنواع  
التجارات من الاقاليم المختلفة وأهمها :

من الهند	الياقوت والاماس والعقاقير والارز
من البحرين	اللؤلؤ
من ايران	المنسوجات
من مصر	الحصر والقباطي والقراطيس
من البصرة	الزجاج والخزف
من الصين	المسك والكافور
من تركستان والاندلس وبلاد الصقالبة وسواها	الرقيق الابيض
من السودان	الرقيق الاسود

وغير ذلك من المتاجر الواسعة التي لا يتسع المقام لذكرها . ولا شك انه  
كان لبعضهم يدٌ كبرى في التجارة . فان جوهرياً من الكرخ ساومه  
يحيى البرمكي على سفظ من الجواهر بمبلغ سبعة ملايين درهم<sup>٢</sup> . وقد  
عُرف من كبار التجار آل الجصاص ( مر ذكرهم في باب المصادرة ) -

١ راجع كتاب فون كريمر The Orient Under The Caliphs Tr. Bukhsh 362

٢ راجع المقتطف ، ديسمبر ١٩٣٠ ص ٥٣١ .

والشريف عمر - ذكر ابن الاثير ان دخله السنوي كان الفي الف وخمسة الف درهم . وكانت ثروات بعض تجار المراكب في البصرة تقدر بالملايين . وقد دفعت التجارة بعضهم إلى أقصى البلاد : ذكر المقري ان علي بن بندار البرمكي قدم الاندلس تاجراً سنة ٣٣٧ هـ . وأمثال هذا التاجر كثيرون ممن كانوا يرحلون من الشرق إلى الغرب وبالعكس . وكان لبغداد نصيب وافر من ذلك ، تعكسه لنا بعض قصص الف ليلة وليلة ، فهي وإن تكن أساطير لا صحة لها فإنها تمثل روح العصر الذي بلغت فيه بغداد والبصرة أوج حضارتها التجارية .

أما الزراعة فقد كانت أيام العباسيين على درجة عظيمة من الارتقاء . فانهم على ما يُستدل من أخبارهم جعلوا همهم احتقار الانهر وانشاء الجسور والترع ، حتى جعلوا ما بين دجلة والكوفة سواداً مشتبكاً غير مميّز تخترقه انهار الفرات<sup>٢</sup> . وقد ذكر المؤرخ مسكويه في عرض كلامه عن عضد الدولة تلافيه بغداد بالعمارة بعد ان خربت لكثرة الفتن والمصادرات والاضطرابات . قال : « وكان ببغداد انهار كثيرة ( ذكر منها نحو عشرة بعضها من دجلة وبعضها من الدجيل ) فاندفنت مجاريها وعفت رسومها » . ثم ذكر مصالح السواد وتعمير القناطر على انهاره وحماية مزارعه وما بلغ بهمة عضد الدولة من العمران بعد الخراب<sup>٣</sup> . وفي كل ذلك إشارة إلى عهد زراعي راق عرفته بغداد والعراق عموماً أيام زهو الخلافة .

ومثل ذلك في كتاب القاضي ابي يوسف إلى هارون الرشيد كما نقله فون كريمير في كتابه ، « الشرق تحت حكم الخلفاء<sup>٤</sup> » . فان ابا يوسف يذكر من واجبات الحاكم تعمير الاقنية للري وتنظيف الانهر التي تحمل المياه من الفرات والدجلة إلى السواد ، وما إلى ذلك من الجسور والسدود والقناطر

١ نفع الطيب (بولاق) ٢ - ٧٢٢ .

٢ الاضطخري (طبعة بريل) ٨٥ .

٣ تجارب الامم ، أخبار سنة ٣٦٩ .

٤ النسخة الانكليزية ٢٣٨ (ترجمة Bukhsh)

والملاحة . ويؤيد ما ذكرناه من هذا العمران الزراعي ان ارتفاع الخراج من السواد أيام المعتصم ( كما في قائمة قدامة بن جعفر ) بلغ من القمح والشعير نحو ثلث ارتفاع الاقاليم كلها ، أي حوالي ١١٥ مليون درهم ، وبقي على هذه النسبة إلى أواسط القرن الثالث الهجري ( راجع قائمة ابن خرداذبة ) . وليس ذلك دليلاً على ثقل الجبايات فقط ، ولكن على عمارة الأرض أيضاً وتمكّن الناس من القيام بما يتطلب منهم للدولة . ولم ينحصر هذا العمران الزراعي في السواد العراقي ، بل نراه أيام العباسيين في أقاليم أخرى كخراسان ومصر وسواهما .

فبالتجارة والزراعة ، وبما كان يجبي إلى بغداد أيام عزّها ، توفرت فيها أسباب العمران حتى فاقت سواها وأصبحت عروس الحواضر في القرون الوسطى ، أو كما قالت دائرة المعارف الاسلامية ( في كلامها عن بغداد ) « انها بلغت في أيام زهوها المقام الاول بين المدن في العالم المتمدن يومئذ . » وقد زارها أيام المستنجد السائح اليهودي بنيامين الطليطلي وقال عنها ( ولم تكن يومئذ في ابّان مجدها ) : « انها أفخر مدن العالم لا يقابلها إلا القسطنطينية <sup>١</sup> » . وزارها الرحالة ابن جبّير الاندلسي سنة ٥٧٠ هـ أي في أواخر العصر العباسي وقال عنها : « واما حماماتها فلا تحصى عدّة : ذكر لنا أحد اشياخ البلد انها بين الشرقية والغربية نحو الالفى حمام وكذلك مساجدها لا يأخذها التقدير ، والمدارس فيها نحو الثلاثين ، وما فيها من مدرسة الاّ ويقصر القصر البديع عنها ، وأعظمها واشهرها النظامية . » إلى أن يقول : « فشان هذه البلدة أعظم من أن يوصف وأين هي مما كانت عليه - هي اليوم داخلة تحت قول حبيب ( ابي تمام ) :

لا انتِ انتِ ولا الديار ديار خفّ الهوى وتولّت الاوطار <sup>٢</sup> »

ويحق لابن جبّير ان يقول ذلك متأسفاً نادباً عمران بغداد . فقد ذكر

١ ١٢٤ Coke; Bagdad the City of Peace ( London 1927 )

٢ رحلة ابن جبّير ( مصر ) ٢٠٧ و ٢٠٨ .

الخطيب البغدادي بغداد في أيام المأمون وقال : « كان فيها خمسة وستون الف حمام<sup>١</sup> . ويظهر لنا في ذلك بعض المبالغة ، ولكنه فيها كان ، فهو يدل على عظمة المدينة واتساع عمرانها حتى لقد قُدّرت مساحتها بنحو ستة عشر الف فدان ، وعدد سكانها بنحو مليون ونصف أو أكثر<sup>٢</sup> . ولم ترتق هذا الارتقاء العظيم في مدة لا تتجاوز الستين سنة إلا لأنها كانت مركز دولة تسيطر على أقاليم وشعوب تضارع ما كانت عليه الدولة الرومانية في عنفوان قوتها . ويؤيد ذلك ما نجده من وصف أقاليمها في كتب الاضطخري وابن حوقل والمقدسي وابن جبير وابن خرداذبة وقدامة وسواهم من أرباب الرحلات وكتّاب الخراج .

### بعض صور اجتماعية يعكسها الأدب العباسي

١ - كثرة الجوّاري والغلمان : من نتائج المال والترّف في العصر العباسي اقتناء الجوّاري والغلمان . وكان في بغداد - كما كان في البصرة وسواها من الحواضر الكبرى - سوق لبيع الرقيق من عبيد واماء : حكى عن ابي دلّامة الشاعر انه مرّ بنخّاس يبيع الرقيق فرأى عنده من كل شيء ، فانصرف مهموماً ودخل على المهدي فأنشده قصيدة منها :

ان كنت تبغي العيش حلواً صافياً فالشعر أعزّ به وكن نخّاساً<sup>٣</sup>

وذكر الاصفهاني انه كان للرّشيد زهاء الفتي جارية<sup>٤</sup> ، وعن المسعودي كان للمتوكل اربعة آلاف جارية<sup>٥</sup> . ولم يقصّر الفاطميون في مصر عن العباسيين في بغداد . فقد كان في قصر أخت الحاكم بأمر الله ثمانية

---

١ نقل ذلك زيدان عن ابن خلدون وعن سير الملوّك ، ( راجع تاريخ التمدن الاسلامي ، ج ٢ - ١٩٠ ) .

٢ تاريخ التمدن الاسلامي ٢ - ١٩٢ .

٣ الأغاني ٩ - ١٢٨ ( في أخبار ابي دلّامة ) .

٤ الأغاني ٩ - ٨٨ ( في أخبار عليّة ) .

٥ مروج الذهب ٧ - ٢٧٦ .



آلاف جارية<sup>١</sup> . ومثل هؤلاء ملوك الاندلس وسواهم . على ان ذلك لم ينحصر في قصور الملوك والامراء ، بل تعداهم إلى منازل الخاصة وارباب اليسار من تجار وملاكين وعلماء ، ومن يليهم من طبقات الشعب . وكانت أثمان الجواري تختلف من عشرات الدنانير إلى الألوف . وقد يبلغ الشغف ببعض الامراء ان يدفع مئات الالوف من الدراهم في سبيل احدا من . وكانوا يتهادون الجواري ، فقد أهدى طاهر إلى المتوكل هدية فيها ٢٠٠ وصيفة ووصيف<sup>٢</sup> ، بل كانت الامراة أحيانا تهدي زوجها بعض الجواري كما فعلت زبيدة مع الرشيد<sup>٣</sup> . وقد بلغ اهتمامهم بتشريف الجواري والعلمان وتعليمهم مبلغا عظيما إذ كان ذلك يزيد اثمانهم ويعود بالربح على المتجدين بهم .

ومع اننا نجد في العصر العباسي بعضا من النساء الراقيات علما وثقافة ، واننا نجد في كتب التاريخ شواهد على انه كان يتاح للفتاة ان تتعلم كالفتى ، لا نجد الأدب العباسي يعكس لنا من حالة المرأة ما يجعلها في مقام رفيع : نخذ الشعر مثلا تجده من هذا القبيل نوعين : الهزلي والجدّي . فالهزلي كشعر ابي نواس وأضرابه أكثره مقرون بحياة الجواري اللواتي كن يُشترين ويتهادى بهن<sup>٤</sup> ، وهو يصور لنا عبث الشباب الماجن . أما الجدّي كشعر المعري فتشائم ينظر إلى المرأة في المنزل نظرة سوداء ، ولعله متأثر مما بلغته من التأخر الاخلاقي بعد ان زاحمتها التجارية فاعتقلت وحبيل بينها وبين الرقي العلمي والادبي . ويظهر ذلك في الادب المنشور كما يظهر في الشعر ، ولا يستثنى من هذا الحكم إلا قلائل لا يبني عليهن حكم عام .

ومما يذكر هنا ما بلغه بعضهم من التهلك والانحطاط الاخلاقي

١ خطط المهريزي (مصر ١٣٢٤) ج ٢ - ٢٣٣ .

٢ المسعودي ٧ - ٢٨١ .

٣ الأغاني ١٦ - ١٣٧ (في اخبار دنانير) .

الاجتماعي ، حتى صاروا يستخدمون الغلمان كالجواري ، ومن ذلك نشأ غزل المذكّر كما نراه في شعر بعض من مهتكي ذلك العصر .

٢ - مجالس الشرب والغناء : توفرت في الحواضر ولا سيما بين الخاصة في بغداد مجالس الشرب ، ولم تكن تخلو منها قصور الحكام . وكانت بعضهم يتذرع إلى ذلك - على مناقضته لأوامر الدين - بأن الشرع حلت نبيذ التمر . وعليه بنى ابن خلدون دفاعه عن الرشيد إذ قال : « وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق ، وفتاويهم فيها معروفة . وأما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه بها ولا تقليد الاخبار الواهية فيها » . إلى أن يقول : « وحال ابن اكثم والمأمون في ذلك حال الرشيد ، شربهم إنما كان النبيذ ، ولم يكن محظوراً عندهم » . على أن شرب الخمر على أنواعها كان شائعاً كما يتبين من درس الشعر العباسي ، وكذلك مجالسة الندماء والمغنين والقيينات . ولم يكن ذلك بدعة في الدولة العباسية ، فقد سبقهم إلى ذلك الامويون ، وأخبار يزيد والوليد وسليمان وغيرهم كافية للدلالة على ما ذكرناه . فبعد أن كانت المسلمون أيام الراشدين يتحرّجون من الخمر ريعاقبون شاربها ، أصبحوا بعد ذلك يرون في بعض خلفائهم وزعمائهم ما يسهل لديهم معاقرتها - نعم ظلت الشريعة نافذة في حد السكارى ، ولكن ذلك لم يمنع الناس من تعاطي المسكر وارتياح الحانات . ومهما كان من المبالغة في ما ينقلونه عن الهادي والرشيد والامين والواثق والمتوكل ، ومن جرى مجراهم من الملوك أو نادمهم من الشعراء والمغنين ، فاجماع أكثر المؤرخين على شربهم الخمر وبلوغ بعضهم من ذلك درجة التهلك ، حتى روى الأبيشيحي ان الواثق كان يرقد في المكان الذي يشرب فيه ، ويرقد معه ندماً<sup>١</sup> . وكان الشراب عادة مقروناً بالغناء ، ففي كل مجلس طرب عند الخاصة يحضر اولو الفن

١ المقدمة ١٨ .

٢ المستطرف للابشيحي (بولاق) ٢ - ١٨٧ .

فيغنون أو يرقصون ، ويشرب الحاضرون ، ويقضون وقتهم على ذلك .  
ومن أمثلة ذلك ما نقله ابن الاثير عن الأمين انه أمر يوماً قيّمة جواريه  
ان تهييء له مائة جارية فتصعد اليه عشراً عشراً بأيديهن العيدان يغنين  
بصوت واحد<sup>١</sup> . وكتب الادب ملأى بأخبار المغنين والمغنيات ، وما كان  
يبذل لهم من الاموال الطائلة ، وسنمّ بشيء من ذلك في كلامنا عن  
الشعراء .

٣ - نشوء حركة زهدية مضادة لترف العصر : وسنتكلم عنها في  
غير هذا المقام .

٤ - التأنق في الفنون الحضرية : ويدخل تحتها تشييد المنازل ونسج  
الثياب والمفروشات وطهو الطعام وبناء المراكب وصنع الآلات الموسيقية ،  
وما إلى ذلك من أسباب الحضارة . وقد بلغت البلدان الإسلامية من ذلك  
في العصر العباسي مبلغاً عظيماً : يدلّك على ذلك وصف القصور والمساجد  
التي كان يبنيها الملوك والامراء في الحواضر الكبرى ، مما يعكسه لنا الشعر  
العربي في ذلك العصر كما سترى عند كلامنا عن الشعراء . وكذلك وصف  
الولائم والرياش وسائر أسباب الحضارة الصناعية .

ذكر ابن خلدون انه كان للملوك دور في قصورهم لنسج أثوابهم تسمى  
دور الطراز ، وكان القائم عليها ينظر في أمور الصنّاع فيها وتجهيز  
آلاتهم واجراء أرزاقهم<sup>٢</sup> . ولما احتكّ الصليبيون بالشرقيين وجدوا في  
رقي الشرق الصناعي والاجتماعي والزراعي ما حداهم إلى اقتباس كثير من فنونه  
وعوائده ، وقد رجعوا إلى أوروبا يحملون معهم من الشرق ما كان له  
تأثير في نهضة أوروبا الاجتماعية في القرون الوسطى : كتربية دود الحرير  
وصناعة النسيج والسجاد والسكر والزجاج والخزف والبارود ، وما إلى ذلك

١ ابن الاثير ، ٦ - ٢٠٦ ( في سيرة الامين ) .

٢ المقدمة ٢٦٧ .

ما تجده مفصلاً في المباحث الخاصة عن الحروب الصليبية<sup>١</sup> .

٥ - انتشار المدارس والعلوم : ذكرنا قبلاً ان الأمية كانت سائدة في العرب قبل الاسلام ، وانهم أخذوا بعد ذلك يخطون في سبيل الثقافة ، وما عتموا ان أنشأوا حلقات العلوم الدينية واللغوية في المساجد والكتاتيب البسيطة في القرى . ولما استقر الامر للعباسيين زادت حركة التعليم والتثقيف وتنظمت دور العلم في الامصار المختلفة ، ولا سيما في بغداد ومصر : قال المقرئزي : « والمدارس مما حدث في الاسلام ولم تكن تُعرف في زمن الصحابة ولا التابعين وإنما حدث عملها بعد الاربعمئة من سني الهجرة<sup>٢</sup> » ثم يذكر بعض المدارس المهمة ، ويتناول مدارس مصر خاصة فيصفها مدرسة مدرسة . ولا شك ان المقرئزي يعني بالمدارس هنا مؤسسات تعليمية خاصة توقف لها الاوقاف والاموال ، وتجري على نظم معينة كالنظامية في بغداد ، ودار العلم والازهر في مصر ، والا<sup>٣</sup> فان التعليم سابق للدولة العباسية ، ولكنه لم ينتظم إلا<sup>٤</sup> بعد القرن الرابع الهجري . وأهم مراكز التعليم في العصر العباسي : بغداد ودمشق ومصر والكوفة والبصرة وقرطبة والقدس ، يليها حلب وطرابلس ومدائن كثيرة من امصار مختلفة<sup>٥</sup> .

\* \* \*

من أسباب الرقي العلمي في هذا العصر تلك الحركة الكبيرة - أعني سر... النقل العلمي عن اليونان والفرس والهنود التي عرفت أهل العربية بالعلوم الكونية القديمة وأخرجت منهم بعدئذ مشاهير في الطب والفلسفة والفلك والرياضيات والجغرافيا وسواها .

ولما كنا قد خصصنا الفصل التالي للبحث في هذه الحركة

١ راجع دائرة المعارف البريطانية تحت Crusades

٢ المقرئزي ( مصر ١٣٢٦ ) ج ٤ - ١٩٢ .

٣ راجع هنا القائمة التي فظها خليل طوطح في كتابه :

The Contribution of the Arabs to Education p. 23.

- الفكرية فاننا نجتزئ هنا بالاشارة اليها وبذكر ظواهرها العامة وهي :
- ١- تنافس الامراء في العالم الاسلامي على بناء المدارس والكليات والسخاء عليها .
  - ٢- نمو حركة النسخ والتدوين وازدياد عدد الكتب وانتشارها .
  - ٣- انشاء المكتبات العامة والخاصة .
  - ٤- حظوة العلماء والادباء لدى الملوك والامراء .
  - ٥- الرحلات العلمية من الافدلس إلى الشرق وبالعكس .
  - ٦- المذاهب الفكرية المختلفة ونشاط أربابها في الدفاع عنها .
  - ٧- اختار العقلية العربية بالعلوم الطبيعية والفلسفية .
- كل ذلك أحدث في العصر العباسي تجديداً ظاهر الأثر في الشعر الذي يمثل تأثر الأمة بما يحيط بها من أسباب العمران .

---

١ راجع مقدمة ابن خلدون في صناعة الوراقة .

## مجاري الحركة الفكرية

ليس للحركة الفكرية في أمة من الأمم منبثق خاص تتدفق منه تدفق ينبوع من جوانب التلال . بل هي كسيول الأودية تمدّها المياه القليلة المتحدّرة من هنا ومن هناك فلا تلبث أن تصير عجاجة شديدة الشكيمة . كذلك حياة العرب الفكرية كثيرة الأصول متشعبة الروافد ، وهيئات ان نحاول الآن البحث عن كل أصل وكل رافد منها فانها متصلة بظلمات يتيه فيها الاستقراء العلمي والقياس المنطقي . فما تاريخها الذي نبسطه هنا إلا وصف اجمالي للمجاري الكبرى التي تمثل لنا طور البلوغ في حياة الناطقين بالعربية .

على اننا لا نرى مندوحة عن القاء نظرة إلى الماضي العريق في القدم لنطلع على بعض العوامل الرئيسية التي كان لها يد في ترقية هذه الحركة الفكرية العربية ، فنربط الماضي بالحاضر ربطاً يسهل لنا فهم مبادئها والنظر في رجالها ، ما أخذوا وما أعطوا . وذلك ما حدانا إلى ان نجعل كلامنا في مبحثين رئيسيين :

- ١ - المصادر الرئيسية التي استمدت منها العربية مجاريها الفكرية .
- ٢ - وصف بعض المجاري الكبرى مما له أثر يذكر في الادب العربي .

## في المصادر الرئيسية

وهو يتناول ما استمدّه العرب من فلسفة اليونان من الحركات الفكرية في الهند وإيران ، وهو بحث واسع نلخصه لطلاب الادب فيما يلي استناداً إلى مراجع تذكر في حينها .

## المصدر اليوناني

كان الجو الذي ظهرت فيه النهضة العربية ( الاسلامية ) مشبعاً بالنظريات اليونانية . فمنذ أغار الاسكندر على آسيا زاحفاً إلى الهند ، أخذت العلوم اليونانية تنتشر في الشرق<sup>١</sup> ، وتخمّر عقول المفكرين بمبادئ الفلاسفة الذين أنجبته بلاد اليونان . ولما نهض الرومان ومدّوا رواقهم على شاطئ البحر المتوسط — على البلدان التي ورثها خلفاء الاسكندر — قضوا على سيادة العنصر اليوناني السياسية ، لكنهم لم يقضوا على مدنيّة اليونان ، لأن الرومان أنفسهم كانوا يعدّون اليونان أساتذة لهم في العلم والحضارة . فكان في العالم الروماني مركزان كبيران للحركات الفكرية : أثينا في الغرب ومجرى الفلسفة فيها أدبي اجتماعي ، والاسكندرية في الشرق ومجرى الفلسفة فيها ديني روحي<sup>٢</sup> . وكان طلاب العلم يقصدون هذين المركزين للتبحر في العلوم والفلسفة ، حتى الرومان أنفسهم كانوا يؤمنونها لهذه الغاية<sup>٣</sup> .

وفي أوائل القرن السادس للميلاد اشتد اضطهاد الحكومة الرومانية على مفكري اثينا الذين كانوا يتشيعون للتعاليم اليونانية القديمة ( الوثنية ) ، فاضطر هؤلاء إلى هجرة الاوطان والضرب في رحاب الارض ، ولسان حالهم ينشد :

١ — 363 Huart, Histoire des Arabes ( Paris 1913 ) 2

٢ Alexander - Short Hist. of Philosophy 117

٣ Mosheim, Ecclesiastical Hist. ( 1832 ) 1 — 77

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلي متعزلاً  
فساقتهم الاقدار إلى بلاط كسرى انوشروان ، ذلك العاهل الفارسي المحب  
للعلم والفلسفة ، فانزلهم على الرحب والسعة ، ولم يعتموا أن أحدثوا  
في بلاده حركة فكرية جديدة ظهر آذيتها في مدرستي نصيبين  
وجنديسابور<sup>١</sup> . ولكنها لم تلبث أن ضعفت لرجوع هؤلاء المفكرين  
إلى بلادهم .

وكأنما قدر لغير فارس أن تكون الصلة بين الشرق والغرب ، وهذا  
الفخر الذي فات العنصر الفارسي انقلب إلى العنصر السرياني ( السوري )  
الذي عرف الشرقين بفلسفة اليونان وعلومهم . ففي أوائل القرن السابع  
للميلاد كانت بلاد العرب تتمخض بمولود جديد — بمدنية دينية مركزها  
الحجاز ، حتى إذا ترعرعت وامتد سلطانها واستولت على سوريا ومصر  
وسواها من بلدان البحر المتوسط ، استقرت قطلب غير الفتح المادّي  
من أسباب التقدم والحضارة . فانصرفت إلى تحصيل العلم والفلسفة  
واتخذت ادلتها في ذلك وأساقذتها مفكري اليونان الذين كانت تعاليمهم  
كما ذكرنا قد ملأت العالم المتمدن شرقاً وغرباً ، ولا سيما تعاليم فيثاغورس  
وافلاطون وارسطو . ذكر ابن القفطي ان خمسة هم اساطين الحكمة ،  
وهم ابيدقليس وفيثاغورس وسقراط وافلاطون وارسطوطاليس<sup>٢</sup> . ولا شك  
ان الاخيرين أشدهم علاقة بحياة العرب .

قلنا انه كان في العالم القديم قبل الاسلام مركزان رئيسيان للعلم والفلسفة  
هما اثينا والاسكندرية ، على انها لن يكونا الوحيدين . ففي القرن الخامس  
للميلاد كان للعلم والفلسفة بضعة مراكز أهمها ، عدا اثينا والاسكندرية ،  
القسطنطينية وانطاكية وروما والرها ( اورفا ) وهي في القسم الشمالي الغربي

١ Les penseurs — 42 ( N. Y. 1922 ) Arabic Thought  
de l'Islam 111 — 7

٢ القفطي ، أخبار الحكماء ٦٠ .



من الجزيرة ، ونصيبين في شمالي الجزيرة ، وجنديسابور في بلاد فارس ، وحرّان . وكان للفلسفة اليونانية الحظ الاوفر في هذه المراكز العلمية ، إذ على فلاسفة اليونان كان المعوّل في الطبيعيات والإلهيات والرياضيات . قال موسيم في كلامه عن العلم والفلسفة في القرن الخامس بعد الميلاد<sup>١</sup> : « كان طلاب الشرائع يؤمّون بيروت ، وطلاب الطبيعيات والكيمياء يؤمّون الاسكندرية . وقد اشتهر معلمو القسطنطينية والرّها والاسكندرية في فن التعليم . على ان أساتذة البيان والشعر والفلسفة وسواها من الفنون لم ينحصروا في هذين المركزين بل انتشروا في كل الجهات وأنشأوا لأنفسهم نوادي ومدارس » .

فالشرق الادنى قبل الدعوة الاسلامية كان تحت تأثير الروح اليونانية الفلسفية . نعم ان تلك الروح كانت تتباين مظاهرها بالنسبة إلى أماكن ظهورها ، ففي مدارس القسطنطينية اليونانية ، وفي مدرسة حرّان الصابئية ، ومدرسة جنديسابور الفارسية ، والرّها السريانية ، وفي مدرسة الاسكندرية الوثنية كان الفكر اليوناني سائداً ولكن سيادته كانت على درجات متفاوتة .

في هذا الجو اليوناني نشأت حياة العرب الفكرية مستمدة من الشرق روحها وعواطفها الدينية التي يعكسهم لنا الشيخ السجستاني بقوله : « ان الشريعة مأخوذة من الله عزّ وجلّ بواسطة السفير بينه وبين الخلق من طريق الوحي وباب المناجاة وشهادة الآيات وظهور المعجزات . وفي أثناءها ما لا سبيل إلى البحث عنه والغوص فيه ، ولا بدّ من التسليم المدعوّ اليه ، وهناك يسقط لِمَ ويبطل كيف الخ...<sup>٢</sup> » ومستمدة من الغرب نظرياتها الفلسفية ومبادئها العلمية المبنية على المنطق والنواميس الطبيعية . وقد دخلت هذه النظريات إلى الآداب العربية عن طريق النقل أو الترجمة وكان لها

١ - 380 - Ecc. Hist, 1 - Mosheim

٢ الفهرست (ل) ٢٤٣ .

في حياة العرب الفكرية تأثير بعيد المدى . ومن المعلوم أن نقل العلوم أو الفلسفة بدأ منذ العصر الاموي<sup>١</sup> ، على ان العصر الاموي لم يتسع لتقدم هذه الحركة ، فلما انتقلت الخلافة إلى بغداد أخذت حركة النقل تنمو نمواً سريعاً ، وزادها نشاطاً تنظيم بيت الحكمة في بغداد والاهتمام بطلب الكتب العلمية من بلاد الروم<sup>١</sup> . وبرعاية الخلفاء ولا سيما المأمون أخذ جماعة من ( السريان ) يترجمونها الى العربية ، وقد اشتهر منهم جماعة كانوا من أركان النهضة العلمية في ذلك الحين ، وتبعهم سواهم حتى بلغت الترجمة أوجها في القرن الرابع الهجري . ومن أراد الاطلاع على أسماء النقلة والكتب التي نقلوها فليراجع كتاب الفهرست لابن النديم فإنه جمع فأوعى . وقد تناول النقل الطب والرياضيات والفلك وأصناف العازم الفلسفية .

ولم تقف النهضة عند هذا الحد بل أخذ العلماء من الناطقين بالعربية يدرسون هذه المنقولات ويشرحونها ويصنّفون الكتب في موضوعاتها ، وتوسعوا في بعض الفروع الى درجة بعيدة فجاءوا بما يذكر لهم في تاريخ الفكر العام .

ومع ان أكثر الناقلين عن اليونانية والسريانية كانوا من السريان وأكثر المصنفين يمتّون بانسابهم الى غير العرب ، فإن اللسان العربي كانت الأداة التي استعملت في النقل والتصنيف ، فأصبح لغة العلم والثقافة في ظلمات القرون الوسطى ، وتسرب اليه كثير من الالفاظ الجديدة والمعاني الجديدة مما يعكسه لنا الشعر والنثر في العصر العباسي .

ولعلنا لا نخطيء اذا قلنا ان الذين تأثروا من أبناء العربية بالفكر اليوناني كانوا فرقتين : فرقة اعتمدت فلاسفة اليونان ، ولا سيما ارسطو ، فشرحت أقوالهم وانصرفت الى درس نظرياتهم استكشافاً لأسرار الحكمة وسعياً وراء

---

١ الفهرست (ل) ٢٤٣ وأخبار الحكماء ١١٩ .

البحث العلمي ، وهؤلاء هم المعروفون بالفلاسفة كالفارابي وابن سينا وابن رشد وأضرابهم . وفرقة اعتمدت نظرياتهم وأساليبهم في النضال الروحي أو الكلامي وهم المتكلمون الذين سيمر بنا شيء من أقوالهم وآرائهم .

فلنتقدم من هنا إلى ذكر شيء عن المصادر الشرقية التي استمد منها العرب كثيراً من حركاتهم الفكرية .

### المصدر الفارسي

قال الأستاذ جاكسون استاذ اللغات الايرانية الهندية في جامعة كولومبيا سابقاً : « ان فتح المسلمين لفارس أشبه بفتح النورمان لانكلترا . وما معركة القادسية ونهاوند إلا مثال لمعركة هاستنغس<sup>١</sup> . وكأنه بذلك يعني ان العرب وان كانوا اخضعوا فارس وحكموا العنصر الفارسي ، لم يستطيعوا ان يقتلوا الروح الفارسية الفكرية فبقيت متقدة في صدور الشعب تظهر كلما سنحت لها فرصة . ولا شك ان الآداب العربية ربحت شيئاً كثيراً من الفرس ، يدلّك على ذلك العدد الكبير من رجالها الذين هم من أصل فارسي . قال ابن خلدون في مقدمته<sup>٢</sup> : « ان حملة العلم في الملة الاسلامية أكثرهم المعجم ... وكان صاحب النحو سيبويه والفارسي ، والزجاج من بعدها ، وكلهم عجم في انسابهم ، وكذا حملة الحديث . وكان علماء أصول الفقه كلهم عجم كما يعرف ، وكذا حملة علم الكلام ، وكذا أكثر المفسرين . ولم يبق بمحفظ العلم وتدوينه إلا الاعاجم وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم : « لو تعلق العلم باكتاف السماء لناله قوم من أهل فارس . » ولم يزل ذلك في الامصار ( أي حمل المعجم للعلم ) ما دامت الحضارة في المعجم وبلادهم من العراق وخراسان وما

١ Jackson, Early Persian Poetry ( N. Y. 1920 ), p. 14

٢ المقدمة ٥٤٣ و ٥٤٤ .

وراء النهر . فلما خربت تلك الامصار وذهبت منها الحضارة ذهب العلم من المعجم ، ا هـ . والذي يحقق النظر في علاقة المعجم بالعرب سياسياً ودينياً وفكرياً لا يستطيع إلا أن يرى ان التيار الفكري من قبل المعجم كان قوياً في حياة العرب ، واطهر ما يكون ذلك فيما يلي :

١ - في ان الاقطار المعجمية هي الحقل الذي نمت فيه بذور الشيعة وبانتشار الشيعة بين المعجم اكتسبت اللغة العربية كثيراً من العواطف والافكار الفارسية . قال الدكتور مور أستاذ التاريخ الديني في جامعة هارفرد سابقاً : « ان ما نراه من الغلو والتعصب عند بعض الطوائف الشيعية ناشيء بلا ريب عن أن كثيراً من أتباع زرادشت انضوا إلى الاسلام تحت لواء الشيعة » . وفي ذلك إشارة إلى ما تسرب إلى اللغة العربية من ديانة المعجم القديمة بانضمام المجوس إلى الاسلام وتعريبهم .

٢ - في ان زعماء الحركة الفكرية العربية أكثرهم من المعجم ، وقد تقدمت الإشارة إلى ما ذكره ابن خلدون من ذلك . ونزيد هنا ان ملوك بني ساسان ، ولا سيما كسرى انوشروان الذي سبق الدعوة الاسلامية بقليل من الزمن ، كانوا قد اهتموا جداً باحياء العلوم والآداب الإيرانية ، وان العرب أنفسهم كانوا ينظرون إلى المعجم نظرهم الى قوم متقدمين عليهم في الحضارة والعلم ، وعندهم لكسرى المذكور مقام فريد . وكان في البلاد المعجمية قبل الاسلام مراكز مهمة للعلم أهمها جنديسابور حيث التقت تحت رعاية العرش الفارسي الفلسفة الهندية بالفلسفة اليونانية ، وقد مرّ الكلام على هذه المدرسة في كلامنا عن المصدر اليوناني .

٣ - في الكتب التي نقلت عن الفارسية . ذكر ابن النديم ما يزيد على اربعين كتاباً أكثرها يرجع الى أصل فارسي ، والباقي كُتِب تحت رعاية

الفرس<sup>١</sup> . ومن أهم ما تسرّب من الفرس الى حياة العرب الأدبية الرسائل أو الكتب التي تبعت في الفلسفة الأدبية ككتاب مسكويه « أدب العرب والفرس » . قال العلامة الروسي انوستانوف ان هذا الكتاب يرجع الى أصل فارسي . وكذلك كتاب الادب لابن المقفع وكتب أخرى في هذا الباب . ومن أراد معرفة أسمائها فليراجعها في الترجمة الانكليزية لكتابه : « تأثير ايران في آداب العرب »<sup>٢</sup> .

وقد ذكر الفهرست أسماء الذين نقلوا من الفارسية الى العربية ، فخص منهم هنا ابن المقفع المشهور وآل نوبخت - موسى ويوسف ابني خالد - ابا الحسن علي بن يزيد التميمي - حسن بن سهل الفلبي - البلاذري - جبلة بن سالم كاتب هشام - اسحق بن زيد - عمر بن قريظان وسواهم<sup>٣</sup> . ولو ان المقام يقتضي الاسهاب في ذكر أعمالهم وشرح ما نقلوه لذكرنا هنا الكتب التي نقلوها كتاباً كتاباً ولكن ذلك ليس غرضنا هنا .

٤ - في العلاقة الجغرافية والتاريخية التي تراها بين الفرس والجاهلية . من ذلك ان مملكة الحيرة العربية كانت مركز النفوذ الفارسي بين عرب الجزيرة ، وان ذلك اقتضى أن يكون بين الجنسين احتكاك أدبي اجتماعي . وما يشير الى هذا الاحتكاك ما ذكره القفطي<sup>٤</sup> عن الحارث بن كلدة طبيب العرب ان أصله من ثقيف من أهل الطائف وقد رحل الى فارس وأخذ الطب عن أهل تلك الديار من أهل جنديسابور وغيرها . ومن يدري انه لم يكن غير الحارث من عرب الجاهلية الذين رحلوا الى فارس في طلب العلم ؟ وهذه الصلة الادبية لم تنقطع بظهور الاسلام فان

١ الفهرست (ل) ٣١٣ - ٣١٦ .

٢ Iranian Influence on Moslem Lit. ( Tr. Nariman ٢ 1918 ) p. 53

٣ الفهرست ٢٤٤ .

٤ أخبار الحكماء ١١٣ .

انتشار العرب بالفتح في الاقطار الفارسية جعل احتكاكهم بالفرس أشد مما كان قبلاً . ومع ان القسم الكبير من كتب الفرس ذهب بعد المحلل دولتهم فقد حافظ المجوس على عدد مهم منها بقي في الدولة العباسية الى أيام عبد الله بن طاهر الذي أطلق يد التلف فيها<sup>١</sup> . والذي يدقق في تاريخ فارس يرى ان الآداب والعلوم والتقاليد الوطنية الفارسية بقيت سالمة بعد الفتح الاسلامي في الولايات الشرقية والجنوبية كخراسان وفارس ، ويدلنا على ذلك ان خراسان كانت بؤرة الحركات السياسية التي أدت الى اسقاط الامويين .

أما ولاية فارس ( وهي في جنوبي ايران ) فقد كانت حصن المجوس . هناك حُفظت كتبهم ومعتقداتهم الدينية والفلسفية وكان بعض مؤرخي العرب يرجعون اليهم<sup>٢</sup> . وقد وصف جغرافيو العرب كالاصطخري وابن حوقل والمقدسي وياقوت واليعقوبي تلك البلاد وصفاً يدل على ان المجوس ( اتباع زرادشت ) كانوا ينعمون بالحرية الدينية في ولاية فارس ، وانهم كانوا لا يزالون محافظين على الشيء الكثير من الكتب الفارسية القديمة .

وهنا لا يسعنا الا أن نذكر « الشعوبية » وهي جماعة من أصل عجمي كانت طبعاً تتعصب للعجم وتفضلهم على العرب . ولا شك انها كانت من حملة الروح الفارسية الى اللغة العربية ، وكذلك كانت الزنادقة الذين كانت يتتهم بمذهبهم بعض من أكابر الادباء والشعراء كبشار وابن المقفع وسواهما . وكانت الزنادقة تطلق بالاكثر على المجوس أو الثنوية<sup>٣</sup> ، أي على اتباع زرادشت أو اتباع ماني الحكيم وكلاهما فارسيان .

---

١ - 347 I ( 1928 ) Lit. Hist. of Persia Browne,

٢ Iranian Influence 21, 25, 26

٣ عن لسان العرب والقاموس .

## المصدر الهندي

يصعب تعيين السبيل الذي جرى فيه الفكر الهندي إلى نفوس الناطقين بالعربية ولكن مما لا ريب فيه انه كان للفلسفة والعلوم الهندية تأثير شديد في تكوين الفلسفة العربية . وقد تقدم معنا ان مدرسة جنديسابور كانت قبل الاسلام ، وخصوصاً في أيام كسرى انوشروان ، مركزاً علمياً التقت فيه علوم الهند بعلوم اليونان ، ومنه حمل الشيء الكثير إلى العرب . ونلح شيئاً من العلاقة الفكرية بين الهند وأمم الشرق الأدنى قديماً في ما القاه سكرتير المتحف التجاري في فيلادلفيا على الجمعية الفلسفية الاميركية حيث يقول ان الهنود كانوا يرسلون سفراء إلى سلوقية وانطاكية واسكندرية وغيرها ، وكان هؤلاء السفراء أيضاً دعاة دينيين<sup>١</sup> . على ان احتكاك العربية بالعقلية الهندية لم يبلغ كاله إلا بعد الاسلام ، فان امتداد العرب بالفتح قرّب العناصر الهندية من العناصر السامية العربية وجعل بينها علاقة كبيرة في التجارة والعلم والدين .

من أيام بني أمية إلى أيام محمود بن سبكتكين ( أواخر القرن الرابع للهجرة ) كان الفتح الاسلامي باباً لتسرّب المبادئ الفلسفية الهندية إلى نفوس العرب . وقوام الفلسفة الهندية التي ظهر أثرها في تاريخ الفكر العربي الزهد والفناء الروحي ، وقد انتشرت هذه المبادئ الروحية بانتشار البوذية في ولايات ايران الشرقية واحتكاكها هناك بالاسلام بعد الفتح<sup>٢</sup> . وإذا اعتبرنا ما أخذه افلاطون وفيثاغورس من فلسفة الهنود يحق لنا أن نقول ان شيئاً من فلسفة الهنود وتعاليمهم وصل إلى العرب عن طريق اليونان أيضاً .

وفي الفهرست لابن النديم ذكر الكتب الهندية المشهورة والذين نقلوا

---

١ Early Communication Between China and the Medit. ( 1921 )

٢ Moore, Hist. of Religion 447

منها إلى العربية، ومنها كتب الطب والخرافات والأسمار والاحاديث، والتوهم أو السحر، والمواعظ والحكم، ومنها كتاب ملل الهند واديانها<sup>١</sup>. وجاء فيه نقلاً عن الكندي: «حكى بعض المتكلمين بأن يحيى بن خالد البرمكي بعث برجل إلى الهند ليأتيه بعقاقير موجودة في بلادهم وان يكتب له أديانهم فكتب له هذا الكتاب». قال محمد بن اسحق: «الذي عني بأمر الهند في دولة العرب يحيى بن خالد وجماعة البرامكة، واهتمامها بأمر الهند واحضارها علماء طبها وحكائها<sup>٢</sup>». ويذكر الجاحظ عن لسان أبي الأشعث أن يحيى بن خالد اجتلب أطباء الهند مثل منكه وبازيكر وقلبرقل وسندبار وفلان وفلان<sup>٣</sup>.

والخلاصة أن تجرى الفكر العربي له روافد ثلاثة كبرى، اليونان وهو أهمها ثم الفرس والهند، وأن ما اكتسبه العقل السامي العربي من هذه المصادر غير السامية أيقظ فيه حركة قوية ظهرت ثمارها الفلسفية والعلمية في إبتان التمدن الاسلامي. وسنشير إلى كل من هذه المصادر في سياق كلامنا على المجاري الرئيسية في حياة العرب الفكرية.

## المجاري الفكرية العامة

للمحركة الفكرية عند العرب ثلاثة مجاري كبرى: الفلسفة والكلام والتصوف. وغاية الفلسفة التوصل إلى المبادئ الأولى عن طريق العلم، وأصحابها في الغالب اتباع اليونان، وتجد لهم في الشعر العربي نفثات تم على آرائهم كقصيدة ابن سينا في النفس التي يقول فيها<sup>٤</sup>:

١ الفهرست (ل) ٣٠٥ و ٣١٥ - ٣١٧.

٢ الفهرست ٣٤٥.

٣ البيان والتبيين (س) ١ - ٩٠.

٤ راجعها في دائرة المعارف للبستاني تحت: ابن سينا.



هبطت اليك من المهل الأرفع  
محجوبة عن كل مقلّة عارفٍ  
وصلت على كره اليك وربما  
أنفت وما ألفت فلما واصلت  
وأظنها نسيت عهداً بالحمى  
ومنها :

فلائي شيء أهبطت من شاهقٍ  
إن كان أهبطها الاله لحكمة  
إذ عاقها الشرك الكثيف فصدّما  
فكأنها برقٌ تالتق بالحمى  
سامٍ إلى قعر الحضيض الأوضع  
طويت عن القطن اللبيب الأروع  
قفصٌ عن الأوج الفسيح الأرفع  
ثم انطوى فكأنه لم يلمح

وفي الشعر العربي كثير من الاشارات الفلسفية والاضاع العلمية التي كانت شائعة في العصر العباسي .

كقول ابي القاسم الاصفهاني يصف حماماً في دار صديق له ١ :  
ودخلت جنّته وزرت جحيمة  
والبشّر في وجه الغلام نتيجة  
لقدّمت ضياء وجه المالك  
وقول ابي علي المهندس ٢ :

تقسّم قلبي في محبة معشرٍ  
بكل فتى منهم هواي منوط  
كان فؤادي مركز وهم له  
محيط وأهوائي لديه خطوط

ولم ينحصر ذلك في أقوال العلماء والفلاسفة بل تعدّاهم إلى أهل الادب ،  
كقول المتنبي مشيراً إلى اختلاف المفكرين في مصير النفس :  
تخالف الناس حتى لا إتّفاق لهم إلا على شجبٍ والخُلف في الشجب

١ القنطي ٢٢٤ .

٢ القنطي ٢٦٧ .

فقيل تخلّص نفس المرء سالمةً وقوله ذاكرًا فلاسفة الاقدمين :

من مبلغ الأعراب اني بعدها  
وسمعت بطليموس دارس كتبه  
ولقيت كلّ الفاضلين كأنما  
وقول المعري في عالم الافلاك :

العالم العالي برأي معاشر  
زعمت رجال ان سياراته  
وقوله - أركان دنيانا غرائب أربع  
وقوله - في مصير الروح :

قد قيل ان الروح تأسف بعدما  
ان كان يصحبها الحجب فلعلها  
أو لا فكم هذيان قوم غابر  
وللمعري كثير من النفثات الفلسفية وسترى ذلك في حينه .

ولو تحرّينا جميع ما دخل الشعر العربي من هذا الباب لعرفنا ما كان  
للفلسفة والعلوم الطبيعية من التأثير في الأدب . وقد كنا نود ان نثبت هنا  
زبدة الآراء الفلسفية التي اقتبسها العرب عن سواهم ولا سيما عن افلاطون  
وأرسطو والافلاطونية الجديدة . ولكننا نكتفي هنا بالإشارة اليها ونحيل  
المتعمق إلى مصادرها الرئيسية .

أما الكلام فنجار شتى نخص منها بالذكر المعتزلة والأشعرية .

## المعتزلة

ظهر الاسلام فاعتنقه العرب وامتد بالفتوح الأولى إلى غير العرب ، ولم

يكن كل الذين اعتنقوه وقاموا بفروضه ونوافله في درجة واحدة من خلوص الايمان والاعتقاد ، بل كان شأنهم في ذلك شأن المسيحيين أيام قسطنطين الكبير . فان انقلاب الدولة الرومانية بغتة من الوثنية إلى المسيحية ليس بدليل على ان كل الذين دانوا يومئذ بالدين الجديد استأصلوا من أعماق نفوسهم مبادئ مذاهبهم الأولى ، بل بقي بعضهم محافظين باطناً على معتقدات غير مسيحية لم تلبث أن ظهرت في تاريخ المسيحية واشتد خطرهما على المبادئ الحقيقية ، حتى كان ما كان من الاصلاح ، وما نجم عنه من التطورات الجديدة .

هكذا الاسلام اعتنقه كثيرون ممن بقي في نفوسهم أثر من غيره ، ولكن ذلك الأثر لم يظهر إلا بعد ان صلح له الجو ، ولا سيما بعد ان خرجت الدولة العربية تدريجياً من بساطتها الأولى إلى حياة الحضارة والعلم . هذه أمور ليس بالهين إقامة الدليل التاريخي عليها لأنها من قبيل العوامل الخفية التي ندركها بالاجتهاد والاستنتاج ، ولكن لا بد من ذكرها قبل التبسط في الحقائق الراهنة . والذي لا جدال فيه انه في الدولة الأموية بدأت تبشير حركة فكرية لم تعهد في أيام الراشدين ، وما ذلك إلا لأن العقل كان قد بدأ يستنير بأنوار جديدة . وصحب هذه الاستنارة تطورات فكرية - منها حركة المعتزلة التي نحن بصددنا . وأول معتزليٍّ حسب النص التاريخي هو واصل بن عطاء وكان من أتباع الحسن البصري ، ثم أخذ مذهبه في الانتشار حتى بلغ ابطانه في أيام المأمون العباسي ، ولكنه عاد إلى التقهقر والضعف حتى قضي عليه ، ولم يعد إلى الظهور كمذهب خاص .

والمعتزلة ، على اضطراب كثير من نظرياتها ، تحاول اخضاع النظريات الدينية لحكم العقل . وهي بلا ريب نتيجة منطقية لاحتكاك الفلسفة بالدين . فقد جاء الاسلام وتعاليمه واضحة ونصوصه محدودة ، وهي مبنية كسائر النصوص الدينية على التسليم لله والايان بوحيه المنزل . ولم يخامر قلوب المؤمنين الأولين شك فيها ولا شغلهم بحث عن أسرارها ، فلم يهمهم ازاء

تقوَاهم البسيطة الخالصة من شوائب الريب ان يحكّموا النقد العقلي في كل ما آمنت به قلوبهم واطمأنت اليه نفوسهم - وتلك مزية الايمان الراهن . وانك إذا استقصيت أخبار الدعوات الدينية وجدته من الصفات الملازمة للدعاة الأولين . فلما لعبت في الجو الاسلامي رياح الفلسفة ، وتسرب إلى العقول شيء من نظريات الحكمة اليونانية<sup>١</sup> ولا سيما المشائية شرع المفكرون يبحثون ويقيسون ويقولون علامَ ولمَ ؟ فقادهم ذلك إلى مسائل أبعدتهم عن بساطة المعتقد المبني على التنزيل<sup>٢</sup> . من هذه المسائل - مسألة خلق القرآن ومسألة صفات الله ، وحرية الارادة ، وقدم العالم وكيفية المعاد وما شاكل . وقد رفض المعتزلة أزلية القرآن وجعلوه مخلوقاً<sup>٣</sup> ، وكان من أهم أنصارهم في ذلك المأمون وأمره مشهور .

وكذلك نفوا الصفات الالهية وهي العلم والحياة والقدرة والارادة والسمع والبصر والكلام . قال ابن خلدون في كلامه عن المعتزلة : « فقصوا بنفي صفات المعاني لما يلزم على ذلك من تعدد القديم بزعمهم<sup>٤</sup> ذلك لأنهم نظروا إلى الصفات كموجودات يلزم عنها تحديد وجود الله المطلق وهذا عندهم منافي للاحكام العقلية » .

على ان منهم من لم ينكر صفات الله وانها سرمدية بل ذهب مذهب العلاف ( المتوفى ٥٢٣هـ ) في ان صفات الله ليست بشيء خارج عن جوهر الله بل هي اشكال يتشكل فيها ذلك الجوهر . وكان يقول ان علم الله هو الله ، وان قدرة الله هي الله<sup>٥</sup> . فالارادة مثلا ليست صفة خارجية يتصف بها الخالق بل هي صورة أخرى لعله ، وهكذا جميع الصفات

١ راجع الكلام عن النظام في كتاب الفرق بين الفرق للبغدادي ١١٣ . وعن الجاحظ في الملل والنحل للشهرستاني .

٢ نقد العلم والعلماء ٩٠ ( مصر ١٣٤٠ ) والبغدادي ٩٤ .

٣ مقدمة ابن خلدون ٤٦٤ وفلسفة ابن رشد ٥٧ .

٤ راجع مقدمة ابن خلدون تحت : علم الكلام .

٥ نقد العلم والعلماء ٨٨ .

مظاهر مختلفة لجوهر واحد . وقد زاد على ذلك أحد أئمتهم ابراهيم النظام المتوفى ٢٣١ هـ ، فقال ان الله لعلمه السرمدى بالخير لا يريد غيره - ان ارادة الله هي علمه . فالمطلق عندهم ( الله ) لا يوصف بنفي ولا اثبات ، فلا يقال هو واحد أو أكثر . ولا يوصف بالقدم عندهم غير الله . ومع ان بعضهم أثبتوا لله أحوالاً أربعة هي العالمية والقادرية والحيثية والموجدية ، فقد فرقوا بين الثبوت والوجود بالذات وقالوا انها موجودات غير موجودة<sup>١</sup> : فكانهم يعنون بذلك ان هذه الصفات حالات تظهر فيها الذات لصفات زائدة عليها . وهذا قريب من مذهب ابي هاشم الجبائي المتوفى ٤٢١ هـ ، إذ جعل لجوهر الله أحوالاً شتى يظهر فيها . ومع ان هذه الاحوال لا توجد بنفسها ولا تتصور بدون الجوهر فهي تمتاز عنه وبها يعرف الجوهر<sup>٢</sup> . ومنهم من يذهب إلى أن الله يعلم جمل الأشياء ولا يعلم تفاصيلها وانه لا يقدر ان يخلق الذات ، وإنما هو قادر أن يخرجها من العدم إلى الوجود<sup>٣</sup> .

فالمعتزلة في ذلك تخالف الصفاتية ، أي التي تثبت الصفات لله . والارادة عندهم حرة ، وقد فسّر الجاحظ ( وهو معتزلي ) الارادة بأنها حال من أحوال المعرفة ، وحرية العمل أو الارادة أن يعرف العمل من فاعله . فالانسان عند المعتزلة مخير لا مسير ، وهو مسؤول عن أعماله ، وانه على اكتسابه يترقب العقاب والثواب<sup>٤</sup> .

ويضادهم في ذلك الجبرية . وهم يقولون لا علة ولا معلول في الأشياء التي تراها أو نشعر بها ، لأن كل شيء مسبب مباشر عن الله . فاذا نعست فالنعاس وُضع فيّ بعمل خاص من الله ، وإذا كتبت فتحرك القلم و ارادة الكتابة وما يتعلق بها قد اتصلت بي رأساً من الله . فلا

١ شرح تهذيب الكلام ١١١ .

٢ الملل والنحل للشهرستاني هاشم ابن حزم ( مصر ١٣١٧ ) ١ - ١٠٢ .

٣ نقد العلم والعلماء ٨٨ .

٤ فلسفة ابن رشد ١٠٥ .

دافع لما يريد الله ، وما الانسان إلا واسطة لتنفيذ ارادة الله<sup>١</sup> . وعلى ذلك الأشاعرة الذين يذهبون إلى ان الله يخلق كل عمل . وزاد عليهم الباقلاني تطرفاً بقوله بل الله يحدد كل شيء ( حتى اللون مثلاً ) كل لحظة . فما يفعله الله الآن وما يخلقه قد يجيء في اللحظة التالية ما يناقضه - كل شيء ، كل عمل ، كل حركة في الكائنات متوقف مباشرة على ارادة الله .

هذه التعاليم التي تُرجع كل شيء إلى ارادة الله مباشرة تبرز لنا شريعة القضاء والقدر في أعظم مظاهرها . وليست المعتزلة على ذلك ، لأن القول بحرية الارادة وبمسؤولية الانسان يناقضه . وحيثهم انه لو كان العبد غير خالق لأفعاله الاختيارية لكان القول بالثواب والعقاب لغواً .

### قديم العالم

وهذه المسألة نراها في كل نظام فلسفي ، فالفلسفة المادية مثلاً تجعل العالم قديماً ( أي ازلياً لا بداية له ) والروحية تجعله محدثاً . وواضح ان الدين والكلام يذهبان إلى حدوث الكون بقدرة الخالق المبدع المريد . فما قول المعتزلة في هذا الشأن ؟ قال ابن رشد في كلامه عن المعتزلة<sup>٢</sup> : « واما المعتزلة فانه لم يصل الينا من كتبهم في هذه الجزيرة ( الاندلس ) شيء نقف منه على طريقهم في هذا المعنى ويشبه ان يكون طريقهم من جنس طرق الاشعرية » . فكأنه يقول ان المعتزلة والاشعرية سيان في نظرهما إلى قدم العالم . فانهم وسائر المتكلمين سواء في هذا الصدد ، إلا ان نظرهم إلى الله غير نظر أهل السنة . فهم أميل إلى جعله مصدراً للعقل الفعال الذي تفيض منه عوالم النفس والطبيعة . وهذا يجعل الجنة والخلود والجحيم في نظرهم غير الأحوال المحسوسة التي يصورها الدين . ولا ريب

١ الشهرستاني هامش ابن حزم ١ - ١١٠ .

٢ راجع فلسفته ٤٥ .

ان للفلسفة اليونانية تأثيراً ظاهراً في مبادئهم ، فالقول في أزلية صفات الله وتفسيرهم تلك الصفات بأنها هي نفس جوهر الله أو انها اعراض لجوهر واحد ، وقول شيخهم النظام ان النفس مجسم الجسد وعلى شكله تتخلل دقائقه كما تتخلل الزبدة دقائق اللبن ، مأخوذ من قول ارسطو في المادة وصورتها . وقول معمر السلمي في صفات الله يقنود إلى القول بالشمول ( أي ان الله والعالم واحد ) الذي هو أثر من آثار الافلاطونية الجديدة مصبوغ بالصبغة الهندية . واما نظرية بعضهم ان الله لمعرفته الكلية بالخير لا يستطيع ان يريد غيره لعباده فيقرب ان يكون نفس ما علم به الرواقيون<sup>١</sup> . وللنظام رأي في الخلق يكاد يكون نفس الافلاطونية الجديدة .  
والخلاصة ان الاعتزال مبدأ فكري يحاول ان يستنير بالعقل ويُخضع كل شيء لأحكامه ، لكنه أراد ان يجمع بين العقل والنقل متمسكاً بكليةها فلم يوفق تماماً ، ولذلك كثر اضداده ومنتقدوه .

## الأشعرية

وهم ينتسبون إلى أبي حسن الأشعري المتوفى ٩٥٣ م ، وكان من تلامذة المعتزلة في بغداد ولكنه لم يبق كذلك بل انقلب عليهم وصارت فرقته أشد الفرق في مناضلتهم<sup>٢</sup> ، واليك بعض أوجه النضال بين الفرقتين .

### في ماهية الله

كان الجمهور من المؤمنين ينظرون إلى ما ذكره الكتاب المنزل عن أعضاء الله الجسدية كاليد والعين والاذن نظراً حرفياً . أما المعتزلة فاتخذت

١ راجع النظامية في الفرق بين الفرق ١١٣ والبشمية ١٦٩ .

٢ ابن خلكان ١ - ٣٢٦ .

ذلك من قبيل التأويل ، فقالوا لا يد حقيقة لله وإنما هي إشارة إلى قوته وبسطته ، وهكذا فسروا سائر الاعضاء . فقام الأشعري وعلّم ان الله لا يمكن رؤيته في الآخرة وان له سمعاً وبصراً ويدين ووجهاً الخ ، ولكن ماهية تلك الاعضاء خارجة عن معقول الانسان أو هي وراء العلم<sup>١</sup> .

### المصاد

ذهبت المعتزلة إلى ان الدليل العقلي هو الهادي الذي يهديننا إلى معرفة ما وراء الطبيعة<sup>٢</sup> ، وان حالة النفس من عذاب أو نعيم إنما هي حالة عقلية لا جسدية . فقال الأشعري بل العقل لا يستطيع الهداية ، فما علينا إلا التصديق والايان بالوحي المنزل وان الامور التي ذكرها الكتاب كجلوس الله على العرش والحوض والموقف والفردوس والملاكين المنكر والنكير وما شاكل - كل ذلك حقيقة راهنة لا صور خيالية كما يدعي المعتزلة .

### صفات الله

وفي هذا الباب يسلك الأشعري مسلكاً وسطاً بين السنة والمعتزلة فهو يقول بصفات الله وقدّميتها على ان تلك الصفات اشكال أو تكيّفات لجوهره ، فلا هي عين ذاته ولا هي غيرها<sup>٣</sup> .

### رأيه في القرآن

سلك في ذلك مسلكاً أصبح معولّ أهل الكلام ، وهو ان القرآن

١ الشهرستاني هامش ابن حزم ١ - ١٣١ و ١٣٢ .

٢ راجع مناقشات ابن تيمية في ذيل فلسفة ابن رشد ٨ .

٣ أو كما يقولون هي منه بنسبة الواحد إلى العشرة فهو ليس بالعشرة ولا غيرها .



كلام نفسي قديم غير مخلوق ، وإنما المخلوق هو الصور اللفظية لذلك الكلام النفسي .

### الجبر والاختيار

( القضاء والقدر وحرية الإرادة ) . ليس عند الأشاعرة من إرادة حرة . فالله ( القديم الأزلي ) عندهم هو المطلق المدبّر لكل حركة - خالق الانسان واعماله وما الانسان إلا آلة في يد الله ، مسيراً عقلاً وجسماً بإرادته الإلهية ، وليس له من عمل إلا الكسب - وهو كما في القاموس « تعلق قدرة العبد وإرادته بالفعل المقدور » أي تطبيق إرادة الله على العمل . وهذا طبعاً يقود إلى الاعتقاد بأن الله خالق الخير والشر ، وهو مخالف لمبدأ النظام المعتزلي القائل بأن الله لا يستطيع ان يريد غير الخير ، وان الخير والشر يدركها الانسان بالعقل وعلى ذلك فهو مسؤول عن أعماله .

ومبدأ الأشعرية ينفي نظام السببية المادية ، لأنه يجعل الله علة كل شيء ، صغيراً كان أم كبيراً ، جسدياً أم عقلياً . فإذا مسست النار مثلاً لم تحرقك النار لأن الحرق من طبيعتها ، بل لأن الله يخلقه عند مسك إياها . وعليه لا يستغرب أو لا يستحيل ان يجعلك تشعر بالبرودة عند مسك النار . لان نوع الحس راجع رأساً إلى إرادته فما العجائب اذن بخوارق لنظام الكون ، بل هي من أعمال الله غير المألوفة عندها .

قلنا ان المبدأ الأشعري معوّل أهل الكلام . والنضال الذي احتدم بين الأشعرية والمعتزلة انتهى بانتصار الاولى ، ولم ينقض القرن الرابع للهجرة حتى انقضى معه عصر المعتزلة .

### التصوف

تباينت الآراء في أصل هذه الكلمة فذهب بعضهم إلى انها من صفاء النفس ، وهو قول المتصوفة . وقال غيرهم بل هي من أصل يوناني معناه

الحكمة . على ان ابن خلدون يرى كما يرى كثيرون غيره ان اشتقاق اسمهم من الصوف<sup>١</sup> .

كان المؤمنون الأولون من الصحابة والتابعين معروفين بالقناعة عاكفين على الصلاة والعبادة معرضين عن زخرف الدنيا وزينتها ، فلما تقدم المسلمون في الحضارة ومالوا إلى الترف في العصر الأموي وما بعده ، نشأت بين أهل الدين حركة مرماها الرجوع إلى بساطة الايمان الاولى ونبذ الشهوات العالمية . على ان هذه الحركة لم تكن إلا توطئة للتصوف الحقيقي الذي عرف بعدئذ . فإنا نراه في ابان نظاماً روحياً خاصاً يمت بشيء من القرابة إلى أنظمة روحية سابقة . فما هي هذه الانظمة ؟ قال المستشرق فون كيريم<sup>٢</sup> ان اصل الصوفية عربي يرجع إلى نظام الزهد والتنسك الذي كان شائعاً في المسيحية قبل الاسلام . والدليل على ان عرب الجاهلية احتكوا بزهاد المسيحيين وعرفوهم ، ما ورد في أشعارهم عنهم .

والذي يظهر لنا ان في كلام فون كيريم بعض الحقيقة لا كلها . فقد يكون نساك المسيحية المثال الذي تحداه متصوفو الاسلام ، ولكن النظام اللاهوتي الصوفي لا يقف عند ذلك ، بل يرجع إلى مصادر يونانية وهندية وفارسية . فالافلاطونية الجديدة التي مر ذكرها آنفاً كانت قد ختمت الحركة الفكرية الشرقية بكثير من المبادئ اللاهوتية ، ومنها التجسد ، وعودة النفس الى أصلها ( العقل الفعال أو الله ) . أما الاثر الهندي في التصوف فتراه واضحاً في فكرة الاتحاد الروحي . فالفلسفة الهندية تُعلّم ان الروح الاعظم والعالم المادي واحد ( وحدة الوجود ) وكل ما في العالم يجري من ذلك الروح واليه يعود - هو الموجود الساطع الذي يرى في قرص الشمس

١ راجع المقدمة الصوفية لابن الوردى ومقدمة ابن خلدون ٤٦٧ ودائرة المعارف البريطانية تحت Sufism . ويظهر ان لبس الصوف قديم في الاسلام فقد ذكره ابن قتيبة في عيون الاخبار وارجعه إلى زمن الحسن البصري .

٢ 185 ( 1922 ) O'leary, Arabic Thought

كما يرى في عين الانسان . هو النور الوضاء الذي يضيء في السماء  
وفي الارض وفي نفس الانسان ، وهو الذات العاقلة الخالدة  
السعيدة .

على ان الرجوع إلى الروح الأعظم يقتضي فهم اسفاره المقدسة  
( الفيدا ) وممارسة الطقوس والعبادات الخاصة ، ولا سيما مراسيم التقوى  
والتوبة . وإنما يطهر العقل من كل فساد بممارسة الفضيلة من غير النظر  
إلى ثواب . ولا يستحق الاتحاد بالروح الأعظم ( برهما ) الا الذي  
يتصف بالصفات التالية :

- ١ - التمييز بين ما يبقى وما يفنى .
- ٢ - عدم الاكتراث لثواب أو مسرة .
- ٣ - الحصول على السكوت التام وضبط النفس .
- ٤ - الرغبة في الخلاص .

فهناك شبه بين الاتحاد الصوفي والفناء الهندي « النرفانا » ، ولكن  
الاختلاف بينها بيّن ، لأن الاول يقضي باستقلال ذاتية النفس في الوجود  
الأعظم ، وان يكن قد توغل بعضهم في القول بالوحدة<sup>١</sup> ، والثاني يقول  
بتلاشيها . وسترى في شرح الصوفية بعد أن فيها أثراً كبيراً من التعاليم  
الهندية التي كانت منتشرة في بلاد العجم والهند قبل الاسلام ، والتي  
جعلت للتصوّف صبغة غير الصبغة الزهدية التي عُرِف بها أتقياء المسلمين  
الأولين . هؤلاء لم يؤسسوا لاهوتاً جديداً ولا خرجوا عن نصوص القرآن  
في ماهية الله وحالة النفس بعد الموت .

أمّا الأثر الفارسي فقد ذهب بعضهم إلى انه يرجع إلى المانوية  
والمزدكية اللتين كان للزهد فيها شأن يذكر<sup>٢</sup> . ولعل أهم أثر فارسي  
في الصوفية وفي سواها من الحركات الفكرية في الاسلام ان الذين قاموا

١ راجع مقدمة ابن خلدون ٤٧٢ و ٤٧٣ .

٢ Arabic Thought, p. 190

بهذه الحركات أكثرهم من أهل فارس ، فهم ورثة العقلية الفارسية التي كانت قد تأثرت من تعاليم الهند ومن تعاليم الزعماء الروحيين ، كإبي الحكيم وسواه . وماني ثنوي ، وخلاصة تعليمه كما شرحه ابن النديم<sup>١</sup> : ان للكون مبدأين : النور والظلمة ، ولكل من هذين المبدأين أجزاء ، وباشتباك الأجزاء النورانية بالأخرى حدث الكون ، فالخلاص ( أو السعادة ) قائم على تطهير العالم من أجزاء الظلمة المشتبكة بأجزاء النور . وسيظهر أثر ذلك في الصوفية .

يؤخذ من تعاليم أئمة المتصوفين ان نقطة الدائرة في نظامهم هي الوحدة<sup>٢</sup> أي اتحاد النفس بالله . وهذا المبدأ يوافق المبدأ الهندي كما مر معنا ، والمبدأ اليوناني ( الأفلاطونية الجديدة ) ، إلا انه يختلف عن هذا بأن الحصول على الوحدة لا يتوقف بالأكثر على العقل بل على التقوى وقع الشهوات . قال الجنيد البغدادي : « التوحيد معنى تضحل فيه الرسوم وتندرج العلوم ويكون فيه الله كما لم يزل »<sup>٣</sup> . وأخذ عنه الحلّاج المتوفى ٣٠٩ هـ وذهب مذهب الغلاة من الشيعة ، وقال بالحلول أي حلول الله في الأجسام وبالتناسخ ، وقد قُتل بافتاء أكثر علماء عصره<sup>٤</sup> .

وفكرة الحلول ظاهرة تماماً في كلام إبي زيد البسطامي وهو أول من قال بالفناء<sup>٥</sup> ، أو الذي خطا الخطوة الأولى من التصوف إلى الحلول<sup>٦</sup> . ومن مبادئهم ان الله هو الموجود الحقيقي - لا وجود حقيقي سواه ( أفلاطونية ) ، ولكن في الإنسان نفساً عاقلة هي صورة معكوسة عن

١ الفهرست (ل) ٣٢٧ - ٣٣٨ .

٢ ابن خلدون ٤١٣ .

٣ الرسالة القشيرية ( مصر ١٣٣٠ ) ١٣٥ .

٤ ابن خلسكان ، ١ - ٢٠٦ وابن النديم ، ١٩٠ .

٥ دائرة المعارف البريطانية تحت Sufism

٦ Nichelson, Lit. Hist. of Arabs, p. 390

نفس الله ، وهي قادرة ان تقترب من الحقيقة الالهية . وبما انه لا وجود حقيقي لغير الله فمعرفة الله لا تحصل بواسطة مادية ( بالكسب أو الدليل ) بل بإلهام روعي ، ان هذا الالهام يحصل في حالة التجرد عن الدنيا . ومع انه لا وجود حقيقي لغير الله نجد هذا الوجود ممتزجاً بغير الحقيقي . وهذا الامتزاج أساس العالم المادي ( قابل ذلك بالمانوية ) . فالشر نتيجة لازمة لامتزاج هذين الوجودين . وغاية النفس الاتحاد بالله ، وكل ما يساعد على بلوغ هذه الغاية فهو صالح ، وكل ما يحول دونها فهو شرير ( وبهذا تتفق جميع الاديان والمذاهب ) . وهذا الشوق إلى الاتحاد بالحقيقة الالهية هو الحب الذي يتغنى به الصوفيون ، ويعملونه أساس ايمانهم ( راجع اشعار ابن الفارض أكبر شاعر متصوف عند العرب ) .

ومن أكبر المتصوفين عند العرب محيي الدين بن العربي المتوفى سنة ٦٣٨ هـ . كان أولاً من أتباع ابن حزم المشهور . واما في تصوفه فيظهر مبدأ الحلول والوحدة تمام الظهور . فمن أقواله في الله :  
« فلذلك قال تعالى أنا عند ظن عبدي بي - أي لا أظهر له إلا »  
في صورة معتقده فان شاء اطلق وإن شاء قيد . فإنه المعتقدات تأخذه الحدود وهو الاله الذي وسعه قلب عبده ، فان الاله المطلق لا يسه شيء ، لأنه عين الاشياء وعين نفسه . والشيء لا يقال فيه يَسَعُ نفسه ولا يسعها ، ٢٥١ .

ومن شراح ابن العربي عبد الرزاق المتوفى ٧٣٠ هـ ، وهو يقول ببحرية الارادة لأن النفس البشرية عنده فيض من روح الله ، فهي تشارك الله في القدرة على الاختيار ، وان العالم على أحسن ما يمكن أن يكون ، وان الاشياء ستفنى أخيراً في وجود الله الكائن الحقيقي الوحيد . ويقسم البشر

١ فلسفة ابن رشد ٤٤ ومقدمة ابن خلدون ( التصوف ) .

٢ خاتمة كتاب « نصوص الحكم » لابن العربي .

إلى ثلاثة أصناف وهم :  
العالميون - أي محبّو الذات الذين تدور حياتهم حول نفوسهم وهؤلاء  
لا يكثرثون للدين والمبادئ الروحية .  
العقليون - وهم أهل الفكر الذين يرون الله بنور العقل في مظاهر  
الوجود .  
الروحانيون - وهم الذين يرون الله بالكشف أي بإلهام روعي يوافيهم  
من الحضرة الربانية .

\* \* \*

والخلاصة ان الصوفية بدأت مظهرأ من مظاهر الورع الديني ، ولكنها  
انتهت في غيالاتها بتعاليم بعيدة عن تعاليم السنة . ومحور مذهبهم الكشف  
الرباني بالتجرّد عن العالم وبالحب الالهي . وقد علق عليهم من تعاليم الهند  
والروم الوحدة والحلول والفناء في وجود الله ، على انهم تبادوا في مسألة  
الكشف والكرامات إلى حد ان بعضهم صار يستعمل لذلك طرق الشعوذة  
والسحر والتدليس .

من أراد التوسع في درس الحركة الفكرية في هذا العصر فليراجع :

Browne, Lit. Hist. of Persia	برون
Le Dogme et la Loi	كولدزير
O'Leary, Arabic Thought	اوليري
Carra du Veau, Les Penseurs de l'Islam	كارا دي فو
Nichelson, The Mystics of Islam	نكلسون
الملل والنحل	- ابن حزم
الملل والنحل	- الشهرستاني
الفرق بين الفرق	- البغدادي
نقد العلم والعلماء	- ابن الجوزي
المقدمة	- ابن خلدون
	دوائر المعارف المختلفة

## القسم الثاني

### الشعر في العصر العباسي



مزاياه - أمراؤه (دراسات تحليلية وانتقادية) - المختار من دواوينهم

## بحث تمهيدى

في

خصائص الشعر العباسي

إذا وازنت بين الشعر القديم والشعر المولّد فلا شك انك تجد في الاخير اثر التقدم ظاهراً للعيان ، على ان ذلك لم يبلغ به مبلغاً يخرج به عن المناهج التي اختطها الاقدمون . خذ الوصف مثلاً فانك تجده عريقاً في الشعر يرجع إلى ما قبل الاسلام . على انه كان قديماً ينحصر في البداوة وما يشاكلها ، فصار - بعد ان اتسع الأفق العمراني لدى المسلمين ، وبعد ان طما ببحر الرفه على بغداد وسواها من حواضر العصر العباسي - يتفنن في نعت أسباب الحضارة كالقصور والبرك والجنائن والولائم والجيوش والمراكب . ومثل ذلك تفتنه في الخمر وأنواع الغزل والمديح ، وما إلى ذلك من ضروب النظم . ولا ينكر ان المولدين فاقوا الاقدمين في ذلك ، ولكنهم لم يبتدعوا أساليب جديدة أو مواضيع جديدة تجوّز لنا ان نقول ان الشعر طرأ عليه في زمانهم تطور كبير .

والشعر نوعان رئيسيان : وجداني وموضوعي . فالوجداني يدور على نفس الشاعر - على تأثره من أمرٍ ما ، واظهار ذلك التأثر بالكلام المنظوم .



ومن ذلك مدحه لأميره ، أو تفزله بفتاته ، أو هجاؤه لعدوه ، أو وصفه لما تقع عليه عينه ، أو تحريضه على ما يشعر بصلاحه .

أما الموضوعي فيدور على شيء خارج عن نفسه - على صفات يتخيلها أو يراها فيما حوله من ظواهر الطبيعة أو النظر في حياة الانسان ، وما إلى ذلك من المواضيع الاخلاقية والادبية التي تمثل للجمهور ما يشعر به في الحياة ، أو تحملهم على أجنحة الخيال إلى ما وراء المحسوسات ، فتشير فيهم حب الجمال وتدفعهم في سبيل الكمال .

وأنت إذا رجعت إلى معظم دواوين الشعر في العصر العباسي ، ثم دقت في المقاييس الأدبية التي وضعها علماء البلاغة ونقّدة الشعر أمثال قدامة والاصفهاني والآمدي والعسكري والشعالي والجرجاني وابن الاثير واضرابهم ، رأيت ان التجدد الشعري في العصر العباسي لم يتعدّ في الاغلب صناعة الشعر ، وانه منحصر في الوجداني منه . وهو يظهر لنا في ثلاثة مظاهر :

(١) رقة العبارة .

(٢) التفنن في المعاني .

(٣) التوفّر على البديع اللفظي .

وقد يضاف اليها التوسع في المصطلحات اللفظية .

على انه من الانصاف ان نقول ان الشعر المولّد يمثل لنا أيضاً تجديداً في الناحية الروحية من الشعر ، ناحية الزهد والورع والاصلاح - وتلك حركة خاصة سنتناولها في غير هذا المقام .

### رقة العبارة

وحكمنا من هذا القبيل اجمالي لا حصر فيه . فلا العهد القديم يتفرّد بخشونة الاسلوب وضخامة الالفاظ ، ولا المولّد بالنعومة والسلامة وعدوبة العبارة . ومن البيّن ان العبارة كثيراً ما تتوقف على الموضوع . فالشاعر

القديم ( بدويًا كان أم حضريًا ) إذا تغزل أو رثى أو تأمل جاء بالرقيق  
الناعم ، كقول عروة يصف ما فعل به الوجد :

جعلت لعرّاف اليامة حكمه      وعرّافِ نجدٍ ان هما شفياني  
فقالا نعم نشفي من الداء كله      وقاما مع العواد بيتدران  
فما تركا من رُقِيّةٍ يعلمانها      ولا سلوةٍ الا وقد سقياني  
فما شفيا الداء الذي بيّ كله      ولا ذخرا نصحا ولا ألواني

وقول عمر بن ابي ربيعة من قصيدته المشهورة في فتاته نُسَم :

وبتّ اناجي النفس أين خباؤها      وكيف لما آتي من الامر مصدرُ  
فدلّ عليها القلب ريتا عرفتها      لها وهوى النفس الذي كاد يظهرُ  
وقول ابي ذؤيب في رثاء بنيه :

والنفس راغبة إذا رغبتّها      وإذا تُردّت إلى قليل تنفعُ  
وإذا المنية أنشبت اظفارها      القيت كل تيمة لا تنفعُ

إلى ما يجري مجراه من الشعر العذب الذي لا يمكن حصره هنا . فإذا  
تعديت ذلك إلى ما يختص بعميشة الاعراب ووصف منازلهم وأدواتهم  
أصبح الشعر خشنا متوعراً ، كالذي تجده في صفات الطلول والجبال  
والقسيّ وأوابد القفر ، وما إلى ذلك مما يعجّ به الشعر القديم .

وكذلك الشعر المولد تجده في أدوار تختلف باختلاف مواضعه وأحوال  
قائله . فمنه الذي يسيل عذوبة ويبلغ الدرجة العليا من الاناقة ، وسيمر  
بنا كثير منه . ومنه ما يمتّ بنسب متين إلى العهد القديم ، تقرأه فتجد  
فيه عنجبية البداوة وتوعرها كقول ابن دريد يصف حصانه :

ومشرف الاقطار خاطٍ نحضه      حابي القصيرى جُرْشعٌ عرد النّسا<sup>١</sup>  
سامي التليل في دسيعٍ مُفعم      رحب اللّيان في أمينات العجى<sup>٢</sup>

١ حصان مرتفع الجوانب ضخم شديد العصب .

٢ مرتفع العنق واسع الصدر قوي الارساع .

ومنها في وصف حاله :

ما خلتُ ان الدهر يثني علي  
ارمتق العيش علي برضٍ فان  
في كل يومٍ منزل مستوبل  
وقول المعري في سقط الزند :

لعلّ نواها ان تريع شطونها  
إذا ما أنخنا حرّة فوق حرّة  
وان يتجلّتي عن شمس شطونها<sup>٢</sup>  
بكي رحمة الوجناء فيها وحينها<sup>٣</sup>

وللمعري ولا سيما في شعر شبابه كثير من هذا الضرب .

ومثله أبو تمام ؛ وسنتناول ذلك في دراسته وتحليل شاعريته ، وانما نكتفي  
هنا بأبياته التالية في وصف قتال حدث في الشتاء :

لقد انصمتَ والشتاء له وجهٌ يراه الرجال جهماً قَطوباً  
سَبَرَاتٍ<sup>٤</sup> إذا الحروب أبيخت هاج صنتبرها فكانت حروباً  
فضربتَ الشتاء في أخدعيته ضربة عاودته قوداً رَكوباً

وهذا أبو نواس وهو في طبيعة المولدين ديباجة ورونقاً لا يخلو شعره  
أحياناً من النزعة الأعرابية كقوله :

إنّا اليك من الصليق فداسم طلعَ النجادَ بنا وجيفُ الأينق  
يتبعن مائة الملائمة كأنما ترنو بعيني مُقلة لم تفسرق  
وسنرى ذلك في درس شعره .

فنحن إذن في نعمتنا الشعر المولد بالركة لا ننفي الخشونة البدوية من

١ الكدى الصخور .

٢ راع رجع . شطون بعيد . شطون دجون .

٣ حرة أي ناقة كريمة . حرة أرض سوداء . الوجناء الناقة . الوجين الأرض الغليظة .

٤ سبرات غدوات باردة . أبيخت خمدت .

٥ ناقة مضطربة الاعضاء .

بعضه ، ولا فحصر النعومة والسلامة فيه . على اننا برغم ذلك نجد ان التطور الاجتماعي قد انشأ في العصر العباسي جوّاً حضرياً رائقاً ، ففضى على الفاظ وتعابير وانشأ عوضها ما هو أشد ملائمة لروح العصر . ومن ذلك ميل الادباء عن اسلوب النظم القديم . وهو كما وصفه ابن قتيبة : « ان يبتدىء الناظم بذكر الديار والدمن والآثار فيشكو ويبكي ويخاطب الربع ويستوقف الرفيق ... ثم يصل ذلك بالنسيب فيشكو شدة الشوق وألم الوجد والفراق ثم يرحل ويشكو النصب والسهر وسرى الليل وانضاء الراحلة الخ » . ومع ان هذا الميل إلى التجدد لم يكن شاملاً ، فان له اثراً بيتاً في المباحث النقدية التي عني بها علماء الشعر في ذلك العصر . ويوضح لنا ذلك ما ذكره ابن زشيق يصف الحالة الشعرية في زمانه ، أي في القرن الخامس الهجري ( وقد سبقه إلى ذلك نقدة الشعر منذ القرن الثالث ) - قال :

« وليس بالمحدث من الحاجة إلى أوصاف الإبل ونعوتها والقفار ومياها وحمر الوحش والبقر والظلمات والوعول وما بالاعراب وأهل البادية ، لرغبة الناس في هذا الوقت عن تلك الصفات ، وعلمهم ان الشاعر إنما يتكلفها تكلفاً ليجري على سنن الشعراء قديماً ، ... إلى ان يقول : « والاولى بنا في هذا الوقت صفات الخمر والقيان وما شاكلها وما كان مناسباً لها ، كالكوؤس والقناني والاباريق وتفتاح التحيمات وباقات الزهر ، إلى ما لا بد منه من صفات الحدود والقدود ... ثم صفات الرياض والبرك والقصور وما شاكل المولدين » .

وله في العمدة مقابلة جيدة بين طريقة القدماء وطريقة المولدين في « باب المبدأ والخروج والنهاية » ، فلترجع هناك <sup>٣</sup> .

١ الشعر والشعراء ( مصر ١٣٣٢ ) ص ٧ .

٢ العمدة ( مصر ١٩٢٥ ) ٢ - ٢٢٧ .

٣ العمدة ١ ص ١٤٥ - ١٦١ .

ومن دلائل التجدد اللفظي في العصر العباسي ظهور النقد البياني الذي جعل أساس البلاغة في الالفاظ السهولة والحلاوة والجزالة . وأمثلة ذلك ما جاء لأبي هلال العسكري في كتابه «الصناعتين» إذ قال : « فإذا كان الكلام قد جمع العذوبة والجزالة ، والسهولة والرصانة ، مع السلاسة والنصاعة ، واشتمل على الرونق والطلاوة ، وسلم من حيف التأليف ، وبعد عن سماجة التركيب ، وورد على الفهم الثاقب قبله ولم يردّه ، وعلى السمع المصيب استوعبه ولم يمجته . والنفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ وتقلق من الجاسي البشع ... والفهم يأنس من الكلام بالمعروف ويسكن إلى المألوف » إلى آخر كلامه<sup>١</sup> . ومثل ذلك قول الجرجاني : « واما رجوع الاستحسان إلى اللفظ فلا يكاد يمدو نطقاً واحداً وهو ان تكون اللفظة بما يتعارفه الناس في استعمالهم ويتداولونه في زمانهم ، ولا يكون وحشياً غريباً أو عامياً سخيفاً »<sup>٢</sup> .

ولا ينكر ان «النقد البياني» لم يصبح فنّاً ذا قواعد مرعية إلاّ في القرن الرابع الهجري وما بعده ، بيد ان الروح النقدية التي تمثل التطور الصناعي في الشعر قديمة ترجع إلى أوائل العصر العباسي .

### التفنن في المعاني

ويعنون بالمعاني الشعرية ضروب التمثيل والتشبيه والاستعارة . أما التمثيل فيراد به أن يعمد الشاعر إلى حكمة عقلية ادركها الناس بالفطرة أو عرفوها بالاختبار ويسبكها في قالب لفظي جميل ، كقول المتنبي :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم      وتأتي على قدر الكرام المكارم  
وتعظم في عين الصغير صغارها      وتصغر في عين العظيم العظام

١ كتاب الصناعتين ( الاستانة ١٣٢٠ ) ٤١ .  
٢ أسرار البلاغة ( تصحيح رشيد رضا ١٣٢٠ ) ٣ .

والمثل في الشعر العربي كثير ، وقد تفتنوا في العصر العباسي ، فتركوا لنا من أقوالهم جواهر غالية . ويكثر ذلك في شعر ابي العتاهية وابي تمام وابن الرومي والمتنبي والمعري واضرايهم ، وسنلمّ بالكثير منها عند درسنا هؤلاء الشعراء ، وهو داخل عند الجرجاني في قسم المعاني المعقولة .. ويقابله عند ذلك الإمام القسّم التخييلي ، وهو كما قال : « مفنّن المذاهب كثير المسالك لا يكاد يُحصّر إلا تقريباً ولا يحاط به تقسيماً وتبويباً ، ثم انه يجيء طبقاتٍ ويأتي على درجات . فنه ما يجيء مصنوعاً قد تُلطّف فيه واستعين عليه بالرفق والحدق حتى أعطي شهاً من الحق وغشّي رونقاً من الصدق <sup>١</sup> ، ... الى أن يقول : « وجلة الحديث الذي أريده بالتخييل هنا ما يثبت فيه الشاعر أمراً هو غير ثابت أصلاً ويدعي دعوى لا طريق الى تحصيلها ويقول قولاً يخدع فيه نفسه ويربها ما لا يرى <sup>٢</sup> ، ومع انه يخرج الاستعارة من هذا الحد ترى معظم أمثله تدور على ضروب من التشبيه والاستعارة والمجاز .

ولابن الأثير في المثل السائر بحث ضافٍ في توليد المعاني بسط فيه المراد بسطاً وافياً ، وخلصته <sup>٣</sup> : ان المعاني على ضربين ، ما ينتزع من شاهد الحال ، وما ينشأ من غير شاهد الحال ، واليك أمثلة ذلك :  
فمن القسم الأول :

بكروا وأسروا في متون ضوامرٍ      قيدت لهم من مربط النجّار  
لا يبرحون ومن رآهم خالهم      أبدأ على سفر من الاسفار  
وهذا المعنى ( أي تشبيه المصلوبين بالفوارس الراكبين ولا يبرحون مكانهم ) استخلصه أبو تمام من رؤية بعض الثائرين على الخليفة الممتصم مصلوبين على أخشاب عالية .

١ راجع أسرار البلاغة ٢١٦ .

٢ أسرار البلاغة ٢٢٣ .

٣ المثل السائر ( بولاق ) ١٨٧ - ١٩٧ .

مثال ٢ :

وزائرتي كأنّ بها حياةً      فليس تزور إلا في الظلام  
بذلت لها المطارف والحشايا      فعافتها وباتت في عظامي  
كأنّ الصبح يطردها فتجري      مدامعها بأربعة سِجّام

شعّر المتنبي بالحمّى ، وشاهد كيف كانت تزوره ليلاً وتدبّ في جسمه ، وكيف كانت تهبط صباحاً ويبتلّ جسمه بالعرق من جراء ذلك ، فوصفها كزائرة ذات حياة لا تزور حبيبها إلا ليلاً ، وتخيل الصبح يطردها فتعطل لذلك مدامعها .

مثال ٣ :

ضربت لسيف الدولة خيمة عظيمة ، فهبت ريح شديدة فسقطت ، وكان المتنبي حاضراً فقال في ذلك :

أيقده في الخيمة العُدلُ      وتشمل من دهرها يشملُ

الى أن يقول :

رأت لون نورك في لونها      كلون الغزالة لا يغسلُ  
وان لها شرفاً باذخاً      وانّ الخيام بها تخجلُ  
فلا تنكرن لها صرعة      فمن فرح النفس ما يقتل

فانظر كيف جعل سقوطها مسبباً عن شدة ما نالها من الفخار والزهو ثم ساق الكلام الى قوله :

ولما أمرت بتطنيبها      أشيع بانك لا ترحل  
فما اعتمد الله تقويضها      ولكن أشار بما تفعل

فجعل تقويض الله لها تكديباً لما أشيع عند تطنيبها من انك لا تنوي غزواً لمدو . وقد أجاد المتنبي في انتزاع هذا المعنى والبأسه ثوب المجاز والخيال .

ومن القسم الثاني ( أي المعاني المبتكرة من غير شاهد حال ) قول علي  
ابن جبلة مادحاً :

تكفل ساكن الدنيا حميداً      فقد أضحت له الدنيا عيالا  
كان أباه آدم كان أوصى      إليه ان يعولهم فعالا

أراد أن ينعت بمدوحه بالكرم العظيم الشامل ، فجعل العالم عياله وتخيل  
ان آدم ابا البشر أوصاه بإعالتهم ففعل .

وقول أبي تمام يمدح اميراً أقام على بابه حاجباً يمنع الناس :  
يا أيها الملك النائي برؤيته      وجوده لمراعي جوده كئيب  
ليس الحجاب بمقص عنك لي املاً      ان السماء تُرجى حين تحتجب  
وقوله في الحاسد والمحسود :

واذا أراد الله نشرَ فضيلة      'طويت' ، اتاح لها لسان حسود  
لولا اشتعال النار فيما جاورت      ما كان يُعرف طيبُ عرف العود

ومثل ذلك في الحسن قول ابن الرومي :

كل امرئ مدح امرءاً لنواله      واطال فيه فقد أساء هجاء  
لو لم يقدر ثم بعد المستقى      عند الورود لما اطال رشاه

ومن لطيف المعاني قول ابن بقيّ الافندلسي :

بأبي غزالاً غازلتُه مقلتي      بين العذيب وبين شطبي بارق  
حق اذا مالت به سنة الكرى      زحزحته شيئاً وكان معانقي  
ابعدته عن أضلع تشاقه      كي لا ينام على وساد خافق

وأمثلة ذلك كثيرة في الشعر المولّد . واذا تأملتها تجد أكثرها أو كلها  
من قبيل التفنن في المجاز والتشبيه ، ولعلّ للأخير النصيب الاوفر مما  
يدخل في باب المعاني . وقد خصه ابن رشيق بالذكر اذ قال : « ان  
المعاني انما اتسعت لاتساع الناس في الدنيا وانتشار العرب بالاسلام في أقطار



الارض ، فمضّروا الامصار وحضّروا الحواضر وتأنقوا في الملابس  
والمطاعم ، وعرفوا بالعيان عاقبة ما دلّتهم عليه بداهة العقول من فضل التشبيه  
وغيره . وانما خصصت التشبيه لأنه أصعب أنواع الشعر وأبعدها متعاطى<sup>١</sup> .  
وقال في موضوع آخر يقابل المحدثين بالقدماء : « واذا تأملت ذلك تبين  
لك ما في اشعار جرير والفرزدق وأصحابها من التوليدات والابداعات  
العجيبة ، ثم أتى بشار بن بُرد وأصحابه فزادوا معاني ما مرّت قط  
بخاطر جاهلي ولا مخضرم ولا اسلامي . والمعاني أبدأ تتردّد وتتولد ،  
والكلام يفتح بعضه بعضاً<sup>٢</sup> . ولم يرد ابن رشيق بالمعنى الشعري غير  
ما ذكرنا من التصرف في وجوه الصناعة المعنوية وأهمّها عنده التشبيه .  
والذي يطالع دواوين كبار الشعراء في العصر العباسي ، ويقابلها بما نُظّم في العهد  
الاموي وما قبله ، يجد صحة ما ذهب اليه ابن رشيق وسواه من تفوّق المولّدين  
في ذلك . ولا نظن الا ان هذه المعاني التخيلية أخذت تتضاءل بعد عصر الشعر  
الذهبي ، وقد ضعفت جداً بعد القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد  
وبقيت كذلك الى أواخر القرن التاسع عشر ، ثم أخذت بالانتعاش على  
يد شعراء القرن العشرين .

### التوفر على البديع اللفظي

وما يقال عن رقة العبارة واختراع المعاني ، من حيث ان المولّدين فاقوا  
بها الاقدمين ، يقال عن البديع اللفظي - فقد جعلوا الاخير فناً معروفاً  
وجروا فيه الى الغاية . وأنواع البديع كثيرة وقد ألّفت فيها كتب تدارسها  
الطلاب في كل جيل . وأول من صنّف فيها عبد الله بن المعتز الشاعر المشهور  
( في القرن الثالث الهجري ) فجعل منها بضعة عشر نوعاً ، ثم قدامة بن  
جعفر فجمع منها نحو عشرين ، وجاء العسكري في القرن الرابع فجعلها

١ العمدة ٢ - ١٨٣ .

٢ العمدة ٢ - ١٨٥ .

خمس وثلاثين . ثم أخذ البيانيون والبديعيون يتفننون فيها حتى بلغت ما يزيد على المئة والخمسين . وأصبح للبديع في أواخر القرن العباسي سيطرة كبيرة لا على الشعر فقط بل على النثر أيضاً ، كما يتضح من الرسائل الديوانية والادبية في القرنين السادس والسابع .

على ان المولدين لم يبتكروا البديع ابتكاراً بل توسعوا فيه حتى بزوا سواهم : قال العسكري في كتاب الصناعتين ردّاً على الذين يعزون فضل ابتكاره للمحدثين ( أي أدباء العصر العباسي ) : « فهذه أنواع البديع التي ادعى من لا روية ولا رواية عنده ان المحدثين ابتكروها وان القدماء لم يعرفوها ، وذلك لما أراد ان يفخّم أمر المحدثين ، لأن هذا النوع إذا سلم من التكلف وبريء من العيوب كان في غاية الحسن ونهاية الجودة »<sup>١</sup> . والعسكري كما مر بنا من أهل القرن الرابع الهجري ، وكان الشائع في زمانه على ما يفهم من دفاعه ، ان ادباء العصر العباسي هم الذين ابتكروا أنواع البديع فنفي ذلك وقال بوجودها في الشعر القديم . وذلك معلوم ، ولكنه لا ينفي ان هذا الفن الكلامي لم ينظّم ولم ينضج إلا في العصر العباسي . ولا نعرف عصرأ بلغ فيه ولوع المنشئين والشعراء بالبديع اللفظي كذلك العصر . فمنذ أيام مسلم وابي تمام إلى أيام ابن الفارض وصفي الدين الحلّي تجدد ولع الناس بالبديع يزيد مع الاجيال . وبقي كذلك إلى أيام ابن معتوق ثم إلى مستهل النهضة الاخيرة ، ولم يقض عليه غير ما أصاب الادب في أواخر القرن التاسع عشر للميلاد وفي القرن العشرين من التطور اللفظي والخيالي .

ولا يتسع المقال لذكر كل أنواع البديع اللفظي والتمثيل عليها ، بيد انه لا بدّ من القول ان الطباق والجناس هما الركنان الاساسيان وعليها يحوم أكثر الشعراء ، ويليهما رد العجز على الصدر ، والعكس ، والترصيع فسائر الانواع .

١ الصناعتين ٢٠٤ .

وقد تناول ابن رشيق أمر المقابلة بين القدماء والمحدثين فقال : « ان المحدثين أكثر ابتداءً لأن الملك الاسلامي عظم في أيامهم » . وأكثر النقاد يقولون ذلك ، ويعنون به ان اتساع الحضارة فتح للشعراء أبواباً جديدة للمعاني ، كأوصاف الخمر والنساء والغلمان والغناء وسائر أسباب اللهو والقصف ، وان ذلك انشأ في نفوس البعض شعوراً معاكساً مال بهم إلى الزهد والتصوف وانكار الملذات - وفي ذلك ما فيه .

على اننا عند التحقيق نجد ان هذا التجدد في المعاني انحصر بالاكثـر في مجاري البديع لم يتمدّها إلى الفنون الخيالية العليا المبنية على معرفة أوسع في الكون والانسان ، وعلى نظرات أدق في الطبيعة وال عمران . ولم تكن الاشعار الروحية والادبية عموماً تأملات فلسفية في الحياة ، بل خطرات تأتي في سياق وعظ أو انتقاد ، أو لغير ذلك من المناسبات .

#### التوسع في المصطلحات اللفظية

وهذا باب واسع يعسر الخوض فيه هنا ، وهو بمباحث تاريخ اللغة وتطورها أولى . على ان الناظر في تطور الشعر المولّد لا يسعه إلاّ أن يقف قليلاً عند هذه الظاهرة الادبية العامة ، وهي تمثّل أمرين : ١ - اختلاط العرب بالأعاجم . ٢ - الميل إلى التحرر من بعض القيود اللغوية . أما الاول فقد مرّ معنا في الكلام عن تطور الحياة الاجتماعية ، فلا لزوم لاعادته . ويكفي هنا أن نقول ان هذا الاختلاط كان له أثره في الالفاظ الشعرية : قال الجرجاني في الوساطة ، « ان المحدثين قد اتسعوا فيه حتى جاوزوا الحد لما احتاجوا إلى الإفهام ، وكانت تلك الالفاظ أغلب على أهل زمانهم وأقرب من أفهام من يقصدون ، وقد أفرط ابو نواس حتى استعمل زنمرده - ويازبنده - وباريكنده الخ » .

ومن ذلك لابن الرومي شير وهي الاسد في الفارسية - زرياب أي ماء الذهب - الدوشاب وهو النبيذ الاسود - الكوش أي الأذن . والمعري

١ الوساطة ( تصحيح أحمد الزين ) ٣٥١ و ٣٥٢ .

فرزان وفرازين وبياذق من أسماء الشطرنج - والزيج والاسطرلاب من أدوات الفلك وبعض الفاظ عامية مثل آرا بمعنى نعم وأمثالها .  
وقد كان القدماء يستعملون الفاظ المعجم عند الحاجة ولكنهم لم يبلغوا من ذلك ما بلغه المولدون<sup>١</sup> . وعن الجاحظ : « كان الشاعر يتملح بها على عادة بعض الشعراء في ذلك الزمان<sup>٢</sup> » .

\* \* \*

وأما الخروج عن نصوص اللغة فما يلفت النظر وقد اشتهر بذلك بعضهم كالمتنبي وابن الرومي فمن كلام الاول قوله :  
ادلت له                      بدل ادلته من  
اخاطره في روعي              بدل اراهنه  
فريص                          جمع فرائص  
يتفارسن                      أي كل يطلب افتراس الآخر  
فرد رجل                      أي رجل واحدة  
الحدور والجلوب والتروك وما يشاكل هذه الصيغ  
العلم المبرح ( ولعلته أول من وصف العلم بالتبريح )  
النطق                      أي اللسن  
وعشرات مثلها تجدها في تضاعيف ديوانه<sup>٣</sup> .  
ومن أمثلة الثاني :

مفاتش - يزندقون - الاشربات - الأذهاب - هجيج - نهارك انهر -  
الايام الاطاول - العلاجم - اللعباء جمع لاعب ، وكثير غيرها .  
وليست هذه الظاهرة شاملة ولكنها تكاد تكون عامة في العصر العباسي ،

١ المصدر السابق .

٢ البيان والتبيين (س) ١ - ١٣١ .

٣ راجع ما أنكره العلماء من شعره في كتاب الوساطة للجرجاني ٣٢٩ - ٣٦١ .

ولها أسباب لا تدخل في بحثنا الآن . ويدخل فيها المصطلحات والمسميات الجديدة التي نشأت بتقدم الحضارة . ولا شك ان هذا التجدد اللفظي بدأ في اللغة منذ أقدم عهودها وجرى فيها مع الزمن ، حتى كانت النهضة العلمية الاجتماعية في العصر العباسي ، فظهر فيها بمظهر كبير ، كما ظهر في نهضتنا العلمية الحديثة . ومع تخرج الشعر في المحافظة على الأوضاع اللغوية الصرفية لم يستطع التخلص من تأثير الأوضاع الأجنبية ، كما تشهد بذلك النصوص الشعرية في كل زمان .

## امراء الشعر المولد

ابو نواس - ابو العتاهية - ابو تمام - البحتري - ابن الرومي - المتنبي -  
المعري - ابن الفارض



يختلف الباحثون في من المقدم من شعراء العصر العباسي . ولا سبيل  
الآن إلى البحث في اختلافاتهم والنظر في أسبابها فلكلّ نظره الخاص ،  
ولكل آراء يدعمها بحجج مقبولة . على اننا قد اخترنا منهم لدراستنا  
التحليلية هؤلاء الثمانية ، وهم بلا جدال من الطبقة الاولى بين  
المولدين .

وقد كان معولنا في اختيارهم شهرتهم ، وانهم أعمق أثراً من سواهم  
في تاريخ الشعر العباسي . ولا نقصد بذلك انه لا يوجد بين سائر الشعراء  
من يرتفع إلى درجتهم أو يفوقهم في بعض المناحي كأبي فراس مثلاً أو  
الشريف الرضي ، بل انهم يمثلون العصر العباسي أفضل تمثيل ، وفي  
درسهم درسٌ لذلك العصر والروح الشعرية العامة فيه .

# أبو نواس

الحسن بن هاني

ولد بين ( ١٤١ و ١٤٥ ) هـ - وتوفي بين ( ١٩٦ و ٢٠٠ ) هـ  
حوالي ( ٧٦٠ - ٨١٦ ) م



مصادر دراسته - بيئته - ميله الشعوبي - مقامه الادبي - شخصيته الشعرية

. مصادر دراسته

- ١ - ابن قتيبة توفي سنة ٢٧٦ هـ ( ٨٩٠ م ) الشعر والشعراء ، المطبعة العمومية ، مصر ١٨٩٨ ليدن ١٩٠٢
- ٢ - ابن المعتز توفي ٢٩٦ هـ ( ٩١٠ م ) طبقات الشعراء ، نشره عباس اقبال ، ١٩٣٩ ص ٨٧ - ٩٩
- ٣ - الطبري توفي سنة ٣١٠ هـ ( ٩٢٢ م ) تاريخ الرسل والملوك ، ليدن ١٨٧٩ - ١٩٠١
- ٤ - الاصفهاني توفي سنة ٣٥٦ هـ ( ٩٦٧ م ) الاغاني ، بولاق ج ١٨ ، ومتفرقات في ج ٦ و ١٦
- ٥ - الجرجاني توفي سنة ٣٦٦ هـ ( ٩٧٦ م ) الوساطة ، صيدا ١٢٣١
- ٦ - المرزباني توفي سنة ٣٨٤ هـ ( ٩٩٤ م ) الموشح ، مصر ، ١٣٤٣ ، من ص ٢٤٢
- ٧ - ابن النديم توفي سنة ٣٨٥ هـ ( ٩٩٥ م ) الفهرست ، ليبسك ص ١٦٠
- ٨ - ابن شرف القيرواني توفي سنة ٤٦٠ هـ ( ١٠٦٩ م ) اعلام الكلام ، ص ٢٢ - ٢٣
- ٩ - الخطيب البغدادي توفي سنة ٤٦٣ هـ ( ١٠٧١ م ) تاريخ بغداد مج ٧ ، من ص ٤٣٦
- ١٠ - ابن عساكر ٥٧١ هـ ( ١١٧٦ م ) تهذيب التاريخ الكبير مطبعة روضة



- الشام ١٣٣٢ ، ج ٤ ص ٢٥٤ - ٢٧٩
- ١١ - الانباري توفي سنة ٥٧٧ هـ ( ١١٨١ م ) طبقات الادباء من ص ٩٦
- ١٢ - ابن خلكان توفي سنة ٦٨١ هـ ( ١٢٨١ م ) وفيات الاعيان (ميري)  
ج ١ ص ١٨٩ - ١٩٢
- ١٣ - ابن منظور توفي سنة ٧١١ هـ ( ١٣١١ م ) اخبار ابي نواس ( مصر  
١٩٢٤ - )
- ١٤ - النويري توفي سنة ٧٣٣ هـ ( ١٣٣٣ م ) نهاية الارب ( دار الكتب المصرية  
١٩٢٥ ) ٤ - ص ١١٩ - ١٢٣
- ١٥ - طاش كوبري زاده توفي سنة ٩٦٨ هـ ( ١٥٦١ م ) مفتاح السعادة  
( حيدر آباد )
- ١٦ - البغدادي توفي سنة ١٠٩٣ هـ ( ١٦٨٢ م ) خزانة الادب ( بولاق )  
١ - ١٦٨ .
- وفي مواضع شتى من الكامل للمبرد ، والعمدة لابن رشيق ، والفخري  
لابن الطقطقي ، وزهر الآداب للحصري ، ومختصر مقدمة الشعر لابن  
منقذ ، ومعاهد التنصيص للعباسي ( تجد زبدة الاخيرين في ذيل ديوان  
مسلم للمستشرق دي غويه Goezi ) .
- وقد ترجم له مؤرخو الآداب المتأخرون كالبستاني في دائرة المعارف ،  
وزيدان في آداب اللغة ، وسواهما .
- ومن تناوله في دراسات نقدية طه حسين في حديث الاربعاء ، وعباس  
مصطفى عمار في كتابه ( ابو نواس حياته وشعره ) وعمر فروخ في كتابه  
( ابو نواس ) .

## بيئته وعناصر شخصيته

ولد شاعرنا في خوزستان من بلاد العجم ، وانتقل به ذوو أمره وهو طفل إلى البصرة فنشأ فيها . ويظهر ان اياه مات وتركه صغيراً في كفالة أمه ، فسلمته إلى عطّار ليتعلم عنده مهنة العطار . ولا نعرف شيئاً كثيراً عن عهده « العطّاري » ، فان التاريخ يتخطى ذلك سريعاً ويبرزه لنا في صحبة الشاعر والبة بن الحباب . ثم لا نلبث أن نراه حوالى الثلاثين من عمره ، وقد استقرّ في بغداد ومدح الرشيد واتصل ببلاطه . ويقول ابن رشيقي انه كان نديم الامين طول خلافته<sup>١</sup> . أما كتاب الفخري فينقل لنا انه كان من شعراء الفضل بن الربيع المنقطين اليه<sup>٢</sup> . وليس من تناقض بين القولين : فان الفضل كان حاجب الرشيد ومن رجال دولته والوزير المقرب في دولة الامين ، فقد يكون اتصل به أولاً ثم نادى الامين ومدحه . وتوفّي في الفتنة قبل قدوم المأمون من خراسان .

نشأ ابو نواس في العصر الذهبي للخلافة العباسية - عصر القوة والرخاء . وقد رأينا في كلامنا عن تطور الحياة الاجتماعية كيف كانت بغداد في ذلك العصر ، من حيث غناها وعمرائها وبذخ المترفين فيها . ومن يطالع أخبار الامراء والوزراء ومن اليهم من أرباب الغنى ، وكيف كانوا يتمتعون بأسباب الحضارة من عبيد وجوار وقصور ، ويسترسلون في

١ الممددة ج ١ ص ٢٢ .

٢ الفخري (مصر ١٣١٧) ١٩٢ .

سبل اللهو من شرب وغناء ورقص ، يعرف شيئاً عن الجو الذي وجد فيه شاعرنا والذي أثر في اخلاقه ايّما تأثير .  
طُبع ابو نواس على الظرف والمجون ، وأوقعته الاقدار في صحبة ابن الحباب ، فأخذ عنه مذهبه في الشعر والحياة . وكان الشعر آتئذ في أيدي عصابة من أهل الاسراف والخلاعة ، نذكر منهم مطيع بن إياس - حماد عجرد - مسلم بن الوليد - داود بن رزين - الواسطي - الحسين ابن الضحاك - الفضل الرقاشي - عمر الوراق - الحسين الخياط - علي ابن الخليل - اسماعيل القراطيسي وأمثالهم . وفي القراطيسي يقول الاصفهاني : « كان مألفاً للشعراء فكان ابو نواس وابو العتاهية ( طبعاً قبل تزده ) ومسلم وطبقتهم يجتمعون عنده ويقصفون ويدعو لهم القيان وغيرهن من الغلمان <sup>١</sup> » .

في عصابة كهذه العصابة وقع شاعرنا . وليس شعره لدى التحقيق إلا مرآة لحياته وأحوال معاصريه . ولقد بلغ من التادي في عبثه وتهتكه ان صار مثلاً في ذلك .

روى الحُصري « انه لما خلع المأمون أخاه الأمين ووجه بطاهر بن الحسين لمهاربته كان يعمل كتباً بعيوب أخيه تقرأ على المنابر بخراسان . فكان مما عابه به ان قال انه استخلص رجلاً شاعراً ماجناً كافراً يقال له الحسن بن هاني ، استخلصه ليشرب معه الخمر ويرتكب المآثم ويهتك المحارم » ، ثم يقول : « ويقوم بين يديه رجل فينشد اشعار ابي نواس في المجون <sup>٢</sup> » . واننا لنظلم أبا نواس إذا حصرنا حياته وأدبه في هذه الدائرة التي وضعت فيها كتب المأمون . فقد كان غير ذلك ( كما سنذكر في كلامنا عن مقدرته اللغوية ) ولكن المجون غلب عليه ، وصرف في سبيله مواهبه .

١ الاغاني ج ٢٠ ص ٨٨ .

٢ زهر الآداب ( شرح زكي مبارك ) ج ٢ - ١١١ .

قال ابو عبد الله الجَمَّاز يصف ابا نواس<sup>١</sup> :  
« كان أظرف الناس منطقاً ، وأغزرهم أدباً وأقدرهم على الكلام ،  
وأسرعهم جواباً ، وأكثرهم حياة » . وبعد أن يصف شكله ولونه  
يقول :

« كان فصيح اللسان ، جيد البيان ، عذب الالفاظ ، حلو الشائل ،  
كثير النوادر ، وأعلم الناس كيف تكلمت العرب ، راوية للاشعار علامة  
بالاخبار ، كان كلامه شعر موزون » .

كان الرجل واسع المعرفة - متصلاً بحياة عصره السياسية والفكرية  
ولكن انصرافه إلى الخمر واسترساله في الموبقات حالاً دون أن يترك لنا  
أثراً أدبياً كبيراً في غير سخائف الحياة .

#### ميله في أدبه إلى الشعبوية

قد تعجب من هذا الزعم بعد ان عرفت انه كان يلزم الفضل بن  
البريع والأمين بن الرشيد ، وهما معقد العصبية العربية في ذلك الوقت .  
ولكن لا عجب فأبو نواس كما مر معنا من أم فارسية ، وقد ولد في بلاد  
فارس ، ونشأ لا تُعرف له عصبية واضحة في العرب . وهم ينسبونه إلى  
قبيلة حَكَمَ اليمنية فيقولون الحكمي ، ولكن ابن منظور صاحب أخباره  
يقول : « كان ابو نواس دعياً يخلط في دعوته<sup>٢</sup> » اي انه لم يكن ثابت  
الانتساب إلى أصل من الاصول ، فهو تارة يدعي النسب الياني ، كقوله  
في حديث له مع الخمار :

فلما ان رأى زقّي أمامي تكلم غير مذعور اللسان  
وقال أمن تميم؟ قلت كلاً ولكنني من الحيّ الياني  
وتارة يهجو اليمنية كقوله في هجاء هاشم بن حُديج وهو كِندي من

١ زهر الآداب ١ - ٢٠٤ .

٢ أخبار ابي نواس ١٦ .

صميم اليمن :

يا هاشم بن حُدَيْج لو عددتَ أبا مثل القلمس لم يعلق بك الدنس والقلمس أحد رؤساء كنانة ، وهي من غير اليمن كما هو معروف . وفي هذه القصيدة يعدد كرماء نزار الذين يفتخر بهم ، ويستغرب ذلك ممن له عصبية شديدة في اليمن . ونقل ابن منظور « انه كان يتنزّر ويدّعي للفرزدق ، ثم انقلب على النزارية وادعى انه من « حاء وحكم » فزجره يزيد بن منصور الجميري خال المهدي وقال له : « انت خوزي ( أي من خوزستان ) فما لك وحاء وحكم » ، فقال : « انا مولى » فتركوه . وقال بعضهم لبعض انه ظريف اللسان غزير العلوم ، فدعوه ، وبهذا الولاء يتعصب لنا ويكيد عنا ويهجو النزارية ، فكان كما قالوا . وكان يكنى أولاً بأبي فراس فعدل عن ذلك واكتنى بأبي نواس تشبهاً بكنية ذبي نواس ، كما كانت اليمن تكني وقيل غير ذلك<sup>١</sup> . ويذكر في محل آخر انه كان في دعاويه يتماجن ويعبث ويخفي اسمه واسم أمه لتلاهيجه ، وذلك مشهور عنه . والمذكور من أمره انه كان مولى الحكميين يفتخر باليمن ويمدحهم لذلك ، ويمدح العجم ويذكرهم لأنه منهم<sup>٢</sup> .

فما ذكر آنفاً نستدل ان أبا نواس كان من أصل وضيع وانه كان ينتسب إلى الحكميين بالولاء . والأمر الراهن انه فارسي يأخذ إخذ الشعوبية في الاستخفاف بالحياة العربية . ويزيدنا ثقة بذلك انه كان يأخذ العلم عن أبي عبيدة ويمدحه ويذم الاصمعي<sup>٣</sup> . وإلى ذلك ذهب ابن رشيقي إذ يقول : « وكان شعوبي اللسان وما أدري ما وراء ذلك ، وإن في اللسان وكثرة ولوعه بالشئ لشاهداً عدلاً لا تردّ شهادته<sup>٤</sup> » . ويروي له

١ أخبار أبي نواس لابن منظور ٣٧ وخزانة الادب ١ - ١٦٨ .

٢ أخبار أبي نواس لابن منظور ٤٧ . وقد عده الجاحظ ( في كتاب الموالى ) من الموالى - راجع

العقد ٣ - ٢٦٩ .

٣ مفتاح السعادة ١ - ٩٣ .

٤ العمدة ج ١ - ١٥٥ .

ابن عبد ربه أبياتا ويقول انه قالها على مذهب الشعوبية<sup>١</sup> . ونقل الطبري ان الرشيد حبسه لهجائه قريش<sup>٢</sup> . وانك لتلمس في شعره استهزاءه بالعرب كقوله :

عاج الشقيّ على رسمٍ يسائله      وبتّ اسأل عن ختارة البلد  
يبكي على طلل الماضين من أسدٍ      لا درّ درّك قلّ لي من بنو اسد  
ومنّ تميم ومن قيس ولفتهما      ليس الأعراب عند الله من احد  
سخرية أليمة تظهر فيها شعوبيته الشعرية . وهو يكثر من هجائه الاعراب والاعرابيات ، ولا سيما إذا قابل حالهم بحضارة الفرس الغابرة كقوله :

دع الرسم الذي دثرا      يقاسي الريح والمطرا  
وكن رجلا أضاع العلم      في اللذات والخطرا  
ألم ترّ ما بنى كسرى      وسابور<sup>٣</sup> لمن غبرا  
منازه بين دجلة ( م )      والفرات أخصها الشجرا  
لأرضٍ باعد الرحمن      عنها الطلح والعشرا<sup>٤</sup>  
ولم يجمع مصاديها      يرايبعا ولا وحرأ<sup>٥</sup>  
ولكن حور غزلانٍ      تراعي بالفلا بقرا  
فذاك العيش لا سيّد<sup>٥</sup>      بقفرتها ولا وبرا<sup>٥</sup>  
إذا ما كنت بالاشياء      في الاعراب معتبرا  
فانك ايّما رجلٍ      وردت فلم تجد صدرا

ويأخذ من هنا بدم أهل البادية رجالا ونساء . وشعره يمجّ بما يدل على شغفه بتاريخ الفرس وأناقة الحضرة ، وتفوره من الحياة البدوية التي

١ راجع المقدم ٢ - ٨٧ .

٢ الطبري ( ليدن ) جم ٣ - ٩٥٩ .

٣ من أشجار القفر .

٤ الوحر من العطاء ( كالحراذين وسام ابرص ) .

٥ السيد : الذئب ، والوبر : حيوان اصفر من السنور .

كان يتغنى بها الاقدمون . ومن ذلك أيضاً قوله :

دع الملقى يبكي على طلّله<sup>١</sup>      واخلّ عَوْفاً يقول في جمّله  
وقل لكلثوم<sup>٢</sup> المفضل بالشعر      يطيل الإعراض عن حبله  
واغدُ على اللهو غير متّددٍ      عنه فهذا أوان مقتبله  
أما ترى جدّة الزمان وما      ابدع فيها الربيع من عمله  
وافى وجوه الزمان غاديةً      عند اقتراب الشتاء من أجله  
فاشرب على جدّة الزمان فقد      وافى بطيب الهوى ومُعتدله  
من قهوةٍ تُذكّر السرورَ وتُنسي الهمَّ      عند اعتراض مشتكله

وقوله :

لقد جُنّ من يبكي على رسم منزل      ويندب أطلالاً عفونَ يجرولِ  
فان قيل ما يبكيك قال حمامة      تنوح على فرخٍ باصوات مُعولِ  
تذكرني حيّاً حلالاً بقفرةٍ      وآخيةً<sup>٢</sup> شُجّت بيْفهر وجندل<sup>٢</sup>

ومما يشعر بميله إلى الفرس وانحرافه عن مذاهب العرب قوله من

قصيدة :

دع الاطلال تسفيها الجنوبُ      وتبكي عهد جدّتها الخطوبُ  
وخلّ لراكب الوجناء ارضاً      تُحثّ بها النجبية والنجيب  
ولا تأخذ عن الأعراب لهواً      ولا عيشاً فميشهمُ جديب

ثم يصف خشونة عيشهم ويقابل ذلك بصفاء العيش في الحضارة والتمتع

بالخمر ، إلى أن يقول :

فهذا العيش لا عيش البوادي      وهذا العيش لا اللبن الحليب

١ هو العتابي الشاعر المشهور .

٢ آخية أي عود دقيق يوضع بين حجارة الحائط لتشد إليه الدابة ، والفهر الحجر ، وكذلك الجنديل .

فأين البدو من إيران كسرى وأين من الميادين الزروب

\* \* \*

كان النضال في عصره مستحراً بين المحافظين والمجددين - بين الذين يرون التمسك بمقاييس الشعر القديمة ، وبين الذين يرومون استبدالها بمقاييس أخرى ، فوقف إلى جانب هؤلاء . على انه لم يفعل ذلك في كل شعره ، وسرى انه تابع المحافظين حيناً وجرى معهم بعض الاحيان في سبلهم المعهودة .

قلنا إن أبانواس كان يأخذ في شعره إخذ الشعوبية . وعلى ذكر الشعوبية نقول انها حركة قام بها في صدر الدولة العباسية جماعة من المنتمين إلى أصل فارسي ، وغايتهم تعظيم الفرس وحضارتهم ومقاومة ما كان قد نشأ في نفوس العرب ( ولا سيما أيام الأمويين ) من روح التفوق والاستئثار بالمجد . وقد قام من الفريقين جماعة يناضلون عن مذهبهم ويرمون خصومهم بأليم سهامهم . نذكر من الفريق العربي ابن قتيبة والجاحظ وابن دريد ، ومن الفريق الشعوبي . ابا عبيدة وسهل بن هرون والبيروني وجمزة الاصفهاني ، ولقد كان لهذه الحركة السياسية الاجتماعية تأثير ملموس في الأدب ، وقد اشرنا إلى تأثيرها في أبي نواس .

#### مقامه الأدبي واسلوبه الشعري

ذكرنا سابقاً انه كان واسع المعرفة متصللاً بحياة عصره الفكرية . وفي شعره ما يُشعر باطلاعه على آراء الفلاسفة والمتكلمين . على ان أهم ما يذكر له هنا تبخّره في العلوم اللغوية والاسلامية ، حتى قال الجاحظ : « ما رأيت رجلاً أعلم باللغة من أبي نواس وأفصح لهجة مع بجانب الاستكراه »<sup>١</sup> . وقال بعض الرواة : « كان أقل ما في أبي نواس قول الشعر وكان فحلاً راوية عالماً »<sup>٢</sup> . وقال عن نفسه : « ما قلت الشعر

١ أخبار أبي نواس لابن منظور ٦ .

٢ أخبار أبي نواس لابن منظور ٥٣ .



حتى رويت لستين امرأة من العرب غير الخنساء ، فما ظنك بالرجال ؟  
واني لأروي مئة ارجوزة لا تعرف <sup>١</sup> .

ولقد تزول دهشتنا واستنكارنا ذلك إذا عرفنا ان أساتذته كانوا من  
مشاهير العلماء والمحدثين . منهم ابو زيد الانصاري وابو عبيدة ابن المثني  
وعبد الواحد بن زياد وازهر السمان ويحيى القطان . ومنهم خلف الأحمر  
الذي لزمه مدة غير يسيرة <sup>٢</sup> . ولم يكتف بذلك بل قصد بادية بني أسد  
وأخذ اللغة عن أعرابها <sup>٣</sup> وقد روى عنه جماعة من أدباء ذلك العصر  
وعلمائه .

أما النظم فيشهد بعلو كعبه فيه كبار أهل العربية . حدثت الأمدى عن  
المبرد قال : « ما تعاطى الشعر أحد من المحدثين أحذق من ابي نواس » .  
وحكى ابن الجراح عن ابن عكرمة عامر الضبي عن ابن السكيت ان  
ابا عمر الشيباني قال : « لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الارفاث لاحتججت  
بشعره لأنه كان يُحْكَمُ القول ولا يخلطه <sup>٤</sup> » . ولابن الاعرابي وابي عبيدة  
وابن خالويه شهادة كهذه الشهادة <sup>٥</sup> . وإذا علمت ان الرواة وعلماء اللغة  
لم يكونوا يحتجون بما بعد العصر الاموي علمت منزلة شاعرنا في نفوسهم .  
وقد نقل عن العتابي قوله : « والله لو أدرك هذا الخبيث الجاهلية  
لما فضلت عليه أحداً <sup>٦</sup> » . ولكي تعرف شيئاً عن نفسية اللغويين في  
ذلك العصر ونظرهم إلى المحدثين ننقل لك عن الحصري القصة التالية <sup>٧</sup> :

١ أخبار ابي نواس لابن منظور ٥٤ .

٢ ابن منظور ٢٣ و ٢٧ .

٣ ابن منظور ١٢ .

٤ ابن منظور ص ٢ و ٥٨ .

٥ راجع هذه الشهادات أيضاً لحزرة الاصفهاني في مقدمة ديوان ابي فراس ( مصر ) .

٦ ابن منظور ٥٧ .

٧ زهر الآداب ١ - ٢١٨ .

كان أبو عبد الله بن زياد الاعرابي يطمئن على أبي نواس ويعيب شعره ويضعفه ويستلينه . فجمعه مع بعض رواة شعر أبي نواس مجلس ، والشيخ لا يعرفه . فقال له صاحب أبي نواس : أتعرف أعزك الله أحسن من هذا ، وأنشده شعراً ، فقال : لا والله . فلن هو؟ قال : للذي يقول :

رسم الكرى بين الجفون محيلُ      عفى عليه بكأ عليك طويل  
يا ناظراً ما اقلعت نظراته      حتى تشحط بينهن قاتل

فطرب الشيخ وقال له : ويحك لمن هذا؟ فوالله ما سمعت أجود منه لقديم ولا لحدث؟ فقال : لا أخبرك أو تكتبه ، فكتبه . فقال : للذي يقول :

ركب تساقوا على الاكوار بينهم      كأس الكرى فانتشى المسقي والساق  
ساروا فلم يقطعوا عقداً لراحلة      حتى اتاخوا اليكم قبل اشراق  
من كل جائلة الطرفين ناجية      مشتاقه حملت اوصال مشتاق

فقال : لمن هذا ، وكتبه . فقال : للذي تدمته وتعيب شعره أبي علي الحكمي . فقال الشيخ : اكرم علي ، فوالله لا أعود لذلك أبداً . وهذه القصة إذا صحت تدل على تعصب « الأعرابيين » ( أي الميالين إلى شعر الاعراب ) على المحدثين كأبي نواس واضرابه .

وكان اسحق بن ابراهيم الموصل ينعصب على أبي نواس ويقول : « هو يخطيء » ، وكان اسحق في كل أحواله ينصر الاوائل ، فكنت أنشده جيد أقوال أبي نواس ، فلم يحفل به ، لما في نفسه . فأنشدته :

وخيمة ناطور برأس منيفة      تهم يدا من راحها بزليل

فكان على أمره . فقلت : والله لو كانت لبعض أعراب هذيل لجمعتها أفضل شيء سمعته قط<sup>١</sup> .

والغريب ان ما أصاب ابا نواس من تعصّب اسحق أصاب اسحق نفسه من تعصب أهل اللغة<sup>١</sup> . وهذا التعصب تجده في كل عصر وفي كل جيل .

فمن كل ما ذكر يؤخذ ان ابا نواس كان من كبار أهل اللغة وما منعهم من الاحتجاج بقوله الا إرفائه وانه من المحدثين . وقد وصف اسلوبه الفني بالسلاسة وبعده عن التكلف . قال محمد بن داود الجراح : « كان ابو نواس أجود الناس بديهة وارقتهم حاشية ، لسناً بالشعر يقوله في كل حال ، والرديء من شعره ما حفظ عنه في سكره<sup>٢</sup> » . ومثل ذلك قول ابن رشيق : « لم يكن يؤثر التصنع ولا يراه فضيلة لما فيه من الكلفة ، وإنما يجيء بالشعر على سجيته<sup>٣</sup> » . وقد انحى ابن عبد ربه على المبرد باللائمة لسوء ما اختاره من شعر ابي نواس ، وقال : « قلما يأتي له بيت ضعيف لرقه فطنته ، وسبوطه بنيته ، وعدوبة الفاظه . وكل أشعاره الحمريات بديعة لا نظير لها » . ونقل ما ذكره الجاحظ في كتاب الموالي من ان ابا نواس أقدر الناس على الشعر واطبعهم فيه<sup>٤</sup> . على ان ابن شرف القيرواني يخالف من تقدم ويصف شعر ابي نواس بالضعف وانه نافس<sup>٥</sup> عند العوام كاسد عند النقاد<sup>٥</sup> .

ومع ما في أقوال هؤلاء العلماء مما يهمننا في درس شاعرنا لا نستطيع أن نعتد عليها كل الاعتماد ، لأنهم كثيراً ما يكيلون الكلام جزافاً ، وكثيراً ما يدفعهم إلى القول نكتة في شعر أو جمال وصف في عبارة . ولسنا نرى آراءهم - على صحة الكثير منها - مستندة إلى دراسة نقدية يصح قبولها . فلا بدّ إذن من الرجوع إلى ديوان الشاعر والتحقيق فيه . وقد

١ راجع حديثه مع الاصمعي في ابن عساكر ٢ - ٤٢٤ .

٢ عن حمزة الاصفهاني مقدمة الديوان ( مصر ١٨٩٨ ) .

٣ العمدة ١ - ٢٠٠ .

٤ راجع تفصيل ذلك في العقد ٣ - ٢٦٨ و ٢٦٩ .

٥ راجع تفصيل ذلك في اعلام الكلام ( مصر ١٩٢٦ ) ٢٢ .

ظهر لنا منه ان ابا نواس يقف في شعره موقفين متناقضين : موقف المقلد وموقف المجدد . ففي فئة من قصائده يسير على سنن القدماء ، حتى كأنه أحدهم . وفي فئة أخرى ينزع إلى التجدد ، فينكر الاساليب القديمة ، ويدتها ويجاول القضاء عليها . ولنتقدم إلى تأييد ذلك بأدلة من ديوانه :

### الموقف الأول

وفيه ( كما ترى في أكثر شعره المدحي والرثائي ) يتكلف الاسلوب الأعرابي ، فيقف في مدحه على الطلول ، ويركب النياق ، ويقطع الهواجل ، ويأتي بمتوعر الالفاظ ، مما يدل على سعة معرفته بأوابد اللغة وانه متأثر من محفوظاته الواسعة . وربما كان موقفه هذا هو الذي حمل الشيباني وسواه من علماء اللغة على التنويه بمقدرته اللغوية واحلاله المحل الرفيع بين أربابها . قال من قصيدة يمدح بها الرشيد :

يا حبذا سفوان <sup>١</sup> من متربّع	ولربما جمع الهوى سفوان <sup>١</sup>
وإذا مررت على الديار مسلماً	فلغير دار أميمة الهجران
انّا نسبنا والمناسب ظنة	حق رُميت بنا وانت حصان <sup>١</sup>
لما نزعنا عن الغواية والصبأ	وخذت بي الشدنية المذعان <sup>٢</sup>
سبط <sup>٢</sup> مشافرها دقيق خطمها	وكان سائر خلقها بفيان
واحتازها لون جرى في جلدها	يقق <sup>٢</sup> كقرطاس الوليد هجان

ثمّ يصل على هذه الناقة إلى المدوح ويعدد فضائله .

وله من قصيدة في مدح الأمين :

أقول والعيس تعرّوري الفلاة بنا  
صُعر الأعتة من مثني ووحدان

١ نسبنا أي تغزلنا في الشعر .

٢ الشدنية المذعان أي الناقة السلسة الرأس .

لذات لوثٍ عفرناةٍ عذافرةٍ      كأن تضبيرها تضبير بنيان<sup>١</sup>  
يا ناق لا تسألني أو تبلغني ملكاً      تقبيل راحته والركن سيّان  
وقال يمدح العباس بن عبد الله بن ابي جعفر المنصور من قصيدة  
مطلعها : « ايها المنتاب من عفره » :

ذا ومغبرٌ نخارمه<sup>٢</sup>      تحسرُ الابصار عن قُطره<sup>٢</sup>  
لا ترى عين البصير به      ما خلا الآجال من بقره  
خاض بي لُجَّيْهِ ذو جرّز<sup>٣</sup>      يُفعم الفضلين من ضفره<sup>٣</sup>  
يكثي عشونه زبداً      فنصيلاه إلى نخره<sup>٤</sup>  
ثم يعمّ الحجاج به      كاعتام القوف في عُشره<sup>٥</sup>  
كل حاجاتي تناولها      وهو لم تنقص قسوى أشره  
ثم ادناني إلى ملك      يأمن الجاني لدى حُجره  
ومثل ذلك ارجوزته في الفضل بن الربيع وأولها « وبلدة فيها زور »  
وهي طويلة يصف ركوبه ورحيله إلى المدوح في عدة أبيات منها :

عسفتها على خطر      وغرر من الغرر  
ببازل حين فطر      يهزه جنّ الأشر<sup>٦</sup>  
لا متشكّ من سدر      ولا قريب من خور<sup>٧</sup>  
كأنه بعد الضمر      وبعدهما جال الضفر

- 
- ١ ذات لوث أي ذات شدة . عفرناة شديدة كالاسد . تضبيرها أي اكتناز اللحم فيها .  
٢ يصف اتساع الصحراء ويريد بمغبر الخارم أي قفر كالح الطرق تكمل الابصار دونه .  
٣ و ٤ ذو جرّز أي جبل مكتنز اللحم شديد . الضفر جمع ضفار وهو حزام الرجل . العثون :  
الذقن . النصيل ، الحنك .  
٥ الحجاج ، ما حول العين . والقوف القشر . والعشر شجر . ومعنى الابيات : قطعت إلى المدوح  
صحراء واسعة لا يسكنها غير البقر الوحشي وكنت ممتطياً جملاً لقي من المشاق والحرم ما لقي وهو  
مع ذلك لم يزل في نشاطه حتى بلغت به إلى ملك ... الخ .  
٦ البازل الجمل الذي طلع نابه . جن الاشر عنقوان البطر .  
٧ السدر تحير النظر من شدة الحر . والخور الضعف .

## وانجّ فيّ فحسراً جاب رباغ المثغراً<sup>٢</sup>

وكلها على هذا المنوال .

فأنت ترى في كل هذه القصائد محاكاة للشعراء الاعراب من وصف ناقة أو فرس يركبها توصلاً إلى أميره . وربما كان يقصد ذلك أحياناً تعزيزاً لمركزه الأدبي بين أدياء ذلك العصر . قال ابن رشيق بعد أن ذكر أن المولّد كان يتكلّف ذلك ليجري على سنن الاقدمين : « وقد صنع ابن المعتز وأبو فواس قبله ، ومرت معها في تلك الطرايق ما هو مشهور في اشعارهم<sup>٣</sup> . »

ويظهر ذلك في رثائه لاستاذه خلف الاحمر ، ولراويته ابي البيداء الرباحي . فمن رثائه للأول :

لا تثل العصمُ في الهضاب ولا	شغواء تغذو فرخين في لجف <sup>٤</sup>
تحنو بجؤشوشها على ضرم	كقعدة المنحني من الخرف <sup>٥</sup>
ولا شَبوب باتت تؤرّقه	النثرة منها بوابل قصف <sup>٦</sup>
غدا كوقف الهلوك ، ينهت	القطقط عن منبتيه والكتف <sup>٧</sup>
وفي مرثاته لأبي البيداء يقول :	
هل نخطى حنقه عفر بشاهقة	رعى باخيافا شتاً وطبّاقا <sup>٨</sup>
أو لقوة أمّ انهمين في لجف	شبيهتها شفا خطمٍ وآماقا <sup>٩</sup>
أو ذو شياهِ اغنّ الصوت ارّقه	وبلّ سرى ماخض الودقين غيداقا
أو ذونحائض اشباه اذا نسقت	مناسجا وثنت ملطاً واطبّاقا

١ أي جرى فأعيا .

٢ حمار وحش قتي .

٣ العمدة ٢ - ٢٢٧ .

٤ - ٧ الشغواء العقاب . الجؤشوش الصدر . الضرم فرخ العقاب . الشبوب الثور . النثرة اسم لثلاثة كواكب . القطقط المطر . وقف الهلوك أي أسوار الغانية شبه به للملاسته .

٨ عفر أي رعل . والشث والطباق نباتان .

٩ لقوة عقاب . ام نهمين أم فرخين . اللجف سرة الوادي . وما يلي وصف لبعض حيوانات القفر .

شتون حتى إذا ما صيفن ذكرها      من منهل موردأ فاشتقن واشتاقا  
يؤمّ عيناً بها زرقاء طامية      يرى عليها لجين الماء اطراقاً<sup>١</sup>  
زار الحيام ابا البيداء مخترماً      ولم يغادر له في الناس مطراقاً<sup>٢</sup>

إلى آخر هذه الابيات وهذا الكلام الاعرابي القحّ . تأمل ذكره في  
الثناء للعفر ترعى الشثّ والطباق ، والقوة أمّ الانهيمين في لجف عال ،  
والوبل الغيداق الماخض الودقين والشغواء تحنو بجؤشوشها على ضرم ، والشعوب  
( الثور ) ينهفت الققطط عن كتفه فترى ان شاعرنا الظريف خرج هنا  
عن « حضارته البغدادية » إلى خشونة البداوة ، ولم يكتب بمجاراة الأولين  
في ألفاظهم بل أخذ إخذهم في تشابيههم وصورهم الشعرية . ولا نرى  
تعليلاً منطقياً لذلك إلا ان نقول : ان ابا نواس ، على ميله إلى الاسلوب  
الحضري الجديد وعلى كرهه للاعراب وحياتهم ، لم يتحرر حالاً من  
اسلوبهم إما لشدة ما علق في ذهنه من محفوظات الشعر القديم ، أو ليثبت  
للرواة واللغويين مقدرته في اللغة . والذي يطالع ديوانه بتدقيق ويعارض ذلك  
بآراء العلماء فيه يرى متانة النظم وحسن الصناعة في مدائحه ومراثيه ، ولكنه  
لا يراه هناك ذا شخصية شعرية مستقلة - في هذا الموقف من شعره  
يظهر لنا الشاعر مقيّداً بقيود الزمان خاضعاً لاحكام العادة سائراً في مجرى  
« التقليد » العام . وإنما ابو نواس ابو نواس في موقفه الثاني .

### الموقف الثاني

وهو مجلى عواطفه الطبيعية ووجدانه الحقيقي . وأكثر ما يكون ذلك في  
مجالس اللهو والسرور . وقد صدق إذ قال عن نفسه : « لا أكاد أقول  
شعراً جيداً حتى تكون نفسي طيبة وأكون في بستان مؤنق وعلى حال ارتضيها  
من صلة أو وصل أو وعد بصلة . وقد قلت وأنا على غير هذه الحال

١ مركباً بعضه فوق بعض .

٢ مطراق ، نظير .

أبياتاً لا أرضاها ١ : :

فالشاعر الذي يجيء بالوصف الشائق والظرف الساحر ، فيجري الكلام من قلمه بلا كلفة ولا تصنع ، إنما يتجلى لنا عندما يجاري طبيعته ، كما يتجلى أبو نواس في خمرياته وملاهيته . هنا يترك التحذلق والتنطّس ويرسل عواطفه عبارات رائعة كقوله :

أترك الاطلال لا تعباً بها      انها من كل بؤس دانيه  
واشرب الخمر على تحريمها      انما دنياك دارٌ فانيه  
من عقار من رآها قال لي      صيدت الشمس لنا في باطيه

وقوله :

وخمار أنخت اليه رحلي      إناخة قاطن والليل داج  
فقلت له اسقني صهباء صرفاً      إذا مزجت توقد كالسراج  
فقال فان عندي بنت عشر      فقلت له مقالة من يناجي  
أذقنيها لأعلم ذاك منها      فأبرز قهوة ذات ارتجاج  
كأن بنان مُمسِكها اشيمت      خضاباً حين تلمع في الزجاج

فشاعرنا في هذا الموقف يخرج عن الطريقة القديمة ، طريقة الوقوف على الطول وقطع المفاوز وتجتشم الاهوال توصلًا إلى مدح المقصود ، وعلى ذلك قوله :

صفة الطول بلاغة القدم      فاجعل صفاتك لابنة الكرم  
ولما سجنه الخليفة على اشتهاره بالخمر وأخذ عليه ان لا يذكرها في شعره قال :

أعير شعرك الاطلال والمنزل القفرا      فقد طالما أزرى به نعتك الخمرا  
دعاني إلى نعت الطول مسلطاً      تضيق ذراعي ان اردة له امرا  
فسمعا أمير المؤمنين وطاعة      وان كنت قد جشمتني مركباً وعرا

١ ابن منظور . ٥٥ .



« فهو يجاهر بأن وصفه الاطلاق والفقير إنما هو خشية الامام والا  
فهو عنده فراغ وجهل<sup>١</sup> » .

ولم يكن ابو نواس على علو كعبه في وصف الخمر ومجالسها نسيج  
وحده في ذلك . فقد تقدمه في الجاهلية والاسلام من وصف الخمر وأحوال  
شاربيها ، نذكر منهم الاعشى وعدي بن زيد ، ثم الاخطل والوليد بن  
يزيد . والذي يراجع اشعار الوليد يرى بينها وبين اشعار ابي نواس من  
أوجه الشبه ما يحملنا على الحكم بأن شاعرنا تأثر بطريقة الوليد . بل قد  
ذهب أبو الفرج الاصفهاني إلى أبعد من ذلك فقال : « انه سلخ معاني  
الوليد فجعلها في شعره وكررها في عدة مواضع<sup>٢</sup> » . ولتبيان ما نذهب اليه  
من تأثر ابي نواس بطريقة الوليد ننقل للأخير الابيات التالية ونترك  
للقارئ مقابلتها بالشعر النواصي ، وهي على حد قول الاصفهاني تنبىء  
عن نفسها<sup>٣</sup> . قال :

اصدع شجيّ الهموم بالطربِ	وانعم على الدهر بابنة العنبِ
واستقبل العيش في غضارتهِ	لا تقف منه آثار مُعتقِبِ
من قهوة زانها تقادُها	فهي عجوزٌ تعلو على الحِقَبِ
أشهى إلى الشرب يوم جالوتها	من الفتاة الكريمة النسبِ
فقد تجلّت ورقّ جواهرها	حتى تبدّت في منظرٍ عجبِ
فهي بغير المزاج من شرّ	وهي لدى المزج سائل الذهبِ

وللوليد اشعار كثيرة في الخمر والغزل تتلمس فيها روح شاعرنا وطبقته  
من مولّدي العصر العباسي<sup>٤</sup> .

\* \* \*

ومع انصراف ابي نواس للعبث النسائي والغلماني لا نجد له في ذلك

١ العمدة ١ - ١٥٥ .

٢ و ٣ الاغاني ٦ - ١١٠ .

٤ راجع الاغاني ٦ ص ٩٨ - ١٣٦ .

من جمال الشعر ما يضارع شعره الحمري . فغزله ، على عذوبته أحياناً وظرفه ، متخنتت ضعيف . ولعله في الغزل الغلاني أصدق عاطفة منه في النسائي ، على انه في كليها لا يحلو لنا غير الفرائز الحيوانية السفلى التي تمّ عن تحرق شهواني يصل إلى درجة الاسفاف أحياناً وشتان ما بينه في ذلك وبين كبار شعراء الغزل من عذريين وغير عذريين . ففي اشعار هؤلاء قد تجد ما يثير فيك عواطف النفس ، ويربك جمال الحب ، ويصور لك المرأة تصويراً يروقك أو يستهويك . أما في غزل شاعرنا النواصي فلا ترى غير جوارٍ مهتكات وغلان فاسدين ، وأرصاف تدل على ما بلغه بعض القوم يومئذٍ من الانحطاط الاجتماعي .

أما خمرياته فتدل ، برغم ما يشوبها أحياناً من سوء المجون ، على خفة روح عرف بها ابو نواس في عصره . وقد وصفه بعض معاصريه بقوله : « بأنه كان أظرف الناس منطقاً . مليح الكلمة حسن الاشارة فصيح اللسان عذب الالفاظ حلو الشائل » . حتى قيل : « ولم يكن شاعر في عصره إلاّ وهو يحسده لميل الناس اليه وشهوتهم لمعاشرته » . ويقرن هذه الخفة الروحية بجمال فنّي يستهوي القارىء ، ويستثير فيه حاسة الطرب والاعجاب .

اتبعه إلى حانة وانظر كيف يدخلها مع رفاقه خفية . ( والحانات عادة في ضاحية منزوية وأصحابها من اليهود والنصارى ) ها هو يلاطف صاحبها وقد تكون من اسمع النساء ، فيداعبها ويسترق منها قبلة أو يربت على ظهرها ، وفي يده الدنانير يضعها أمامها ، ويستخفها إلى تقديم أفضل الخمر الممتقة . ثم انظر كيف يقودك معه إلى قبو قديم تحت الحانة فيريك نسيج المنكبوت على الدنان ، ثم يريك الخمار وقد ضرب بالمبزل بعضها فخرجت الخمر صباء مشرقة تطرد الظلام .

فجاء بها زيتية ذهبية فلم نستطع دون السجود لها صبوا

ولست أشك أن الشاعر يصف حوادث واقعية في غراته الخمرية ،  
وان أكن أميل إلى الاعتقاد انه أحياناً يخترع الحديث إبهاجاً لزملائه . وفي  
كلتا الحالتين ترى شعر أبي نواس الحقيقي وترى تدفق شعوره الصريح .  
واليك تلخيص خمرية أخرى توضح ما نقصد اليه :

وليلة مظلمة قصدت ورفاقاً لي إلى بيت خمار ، فأخذنا نسير من  
زقاق إلى زقاق حتى وصلنا اليه وقد هجع هو وأهل بيته . قرعنا الباب  
فاستيقظ مذعوراً وتوجس شراً من ادلاجنا في مثل تلك الساعة فلم يشأ  
أن يجيبنا بل :

تناوم خوفاً ان تكون سعاية      وعاوده بعد الرقاد وجيب  
ولما دعونا باسمه طار خوفه      وأيقن انّ الرجل منه خصيب  
وبادر نحو الباب سعيًا ملبّيًا      له طرب بالزائرين عجيب

ثم فتحه هاشمًا منحنياً أمامنا ، وهو يقول مرحباً بالكرام . وجاء  
بالمصباح فقلنا له : أسرع ، لم يبق من الليل إلا بقية قليلة . هات لنا خمرك  
الطيبة :

فأبدى لنا صهباء تم شبابها      لها مرح في كأسها ووثوب  
فلما اجتلاها للندامى بدا لها      نسيم عبيرٍ ساطع وهيب

ثم جاءت جارية بيدها ميزهر فأخذت تغني لنا ونحن نشرب . وما  
زلنا على هذي الحال ، كأس تذهب وكأس تجيء ، حتى غنت لنا  
« سرى البرق غربياً فحنّ غريب ، ففاضت مدامع العشاق منا وأمسينا  
بين مسرور بنشوة الخمر وبالك من شدة الهوى ، حتى لاح الصباح  
وقد غابت الشعرى المبور وأقبلت      نجوم الثريا بالصباح تؤوب

\* \* \*

ولنسمعه يقص علينا بلسانه الخاص حديث زيارة أخرى الى بعض هذه  
الحانات ، ويصف لنا الخمار وامراته وميزانها الغشوم وخرها المعتقة ،

وكيف حمل الخمر إلى رفاق كانوا ينتظرونه في بستان ، فأقاموا ردها  
من الزمن يتمتعون النفس بين الرياحين بعيدين عن أعين الرقباء  
والحاسدين . قال :

إذا خطرت منك الهوم فداورها بكأسك حتى لا تكون هوم  
إلى قوله :

فشمّرت أثوابي وهرولت مسرعاً      وقلبيّ من شوق يكاد يهيم  
إلى بيت خمار افاد زحامه      له ثروة والوجه منه بهيم  
وفي بيته زقّ ودنّ ودورق      وباطية تروي الفتى وتسليم  
ودهقانة ميزانها نصب عينها      وميزانها للمشتري غشوم  
فاعطيتها صفراً وقبّلت رأسها      على انني فيما أتيت مُلّيم  
وقلت لها هزّي الدنان قديمةً      فقالت نعم اني بذاك زعيم

وبعد أن تحضر له الخمر من قبر قديم عتقت فيه يقول :

فرحتُ بها في زورق قد كتمتها      ومن أين للمسك الزكيّ كتوم  
إلى فتية نادمتهم فحمدتهم      وما في نِدامي ما علمت لثيم  
فتمتعت نفسي والندامى بشرها      فهذا شقاء مرّ بي ونعيم  
لعمري لأن لم يغفر الله ذنبها      فانّ عذابي في الحساب أليم

ولو سألت نفسك ما الذي يستخفك في حديث كهذا - حديث الخمر  
والعبث والمجون لصعب عليك الجواب ، ولكنه في الحقيقة مستتر في  
تضاعيف الابيات - هو هذه الحفة الروحية في الشاعر - هذا الظرف  
الادبي الذي كان يجيبه إلى الناس . ولو انه كان غير ذلك - لو كان  
سمح الروح واللسان ، لاستثقلته ولاشمازت نفسك من استماع أحاديثه .

شخصيته في شعره

ليس لأبي نواس في غير شعره الطبيعي ( الغزلي والطردي والخمري )

شخصية خاصة . وقد مرت بنا صورته في غزله ، وانه هناك يجلو لنا ضعف النفس والنزعات البهيمية السافلة . أما طردياته فاراجيز تصف الكلاب والفهود وطيور الباز ، وما إلى ذلك من أسباب الصيد والطرود . وهو فيها شاب مرح يتنعم بقوة الشباب وعشرة أهل الرخاء ، ويقرن ذلك بجمال في الوصف ورشاقة في التعبير . وإليك مثالين من طردياته قال :

لما تجلّى الليل وابيض الأفق<sup>١</sup> وانجاب ستر الليل عن وجه الطرق<sup>١</sup>  
 باكرني سهل الهيّا والخلق<sup>٢</sup> ندب<sup>٢</sup> إذا استندبته شهم لبق<sup>٢</sup>  
 يدعو إلى الصيد ألا قلت انطلق<sup>٣</sup> بأكلب غُضف صحيححات الحدق<sup>٣</sup>  
 من اصفر اللون ومبيض يقق<sup>٤</sup> كأنما اذناه من بعض الخرق<sup>٤</sup>  
 لو يلصق الخد باذن لالتصق

وقال ينمت كلباً اسمه خلاب لسعته حية فمات :

يا بؤس كلبى سيد الكلاب قد كان اغناني عن العقاب  
 وكان قد اجزى عن القصاب وعن شرابي جلب الجلاب<sup>٤</sup>  
 يا عين جودي لي على «خلاب» من للظباء العفر والذئاب<sup>٥</sup>  
 خرجت والدنيا إلى تباب به وكان عدتي ونابي  
 اصفر قد خرّج بالملاب كأنما يدهن بالزرياب<sup>٥</sup>  
 فبينما نحن به في الغاب اذ برزت كالحة الانياب  
 رقشاء جرداء من الثياب لم ترع لي حقاً ولم تحابي  
 فخرّ وانصاعت بلا ارتياب كأنما تنفخ من جراب

١ أي بدا النهار على الطريق .

٢ باكرني صديق شهم الخ .

٣ الغضف : المسترخية الأذان من الكلاب .

٤ جلب الجلاب أي العبيد .

٥ الزرياب ماء الذهب . والملاب طيب يشبه الزعفران .

لا أبتُ ان أبتِ بلا عقاب حتى تذوقني أوجع العذاب  
وكل طردياته على هذا النمط ، يصف فيها ما كان يتسلّى به أهل  
الرخاء من صيد الغزلان وسواها . وهي صورة رشيقة للبيئة التي كان يعيش  
فيها الشاعر .

\* \* \*

قلنا انه في غزل ابي نواس تتجلى لنا « بهيميته » ، وفي طردياته  
مرحه وترفه . على ان في شخصيته شيئاً أعمق من ذلك ننفذ اليه من خلال  
اقداحه ومجالس سكره . ففي شعره الخمرى يقرن البهيمية والمرح بتشاؤم  
قامم يذهب بأناقة الحياة ويحرّدها من كل قيمة وجمال . وانك إذا دقت  
في تحليل شعره لتتعرّف به إلى نفسيته الحقيقية تجده - على حبه للحياة -  
مستخفّاً بها . فهو من طلاب اللذة السانحة ينصرف إلى الملاهي ليخدر  
أعصابه فلا يرى آلام الحياة ومتاعها قال :

غدوت إلى اللذات منتهك الستر وافضت بنات السرّ مني إلى الجهر  
وهان عليّ الناس فيما أريده بما جئت فاستغنيت عن طلب العذر  
رأيت الليالي مرصّات لمدي فبادرت لذاتي بمبادرة الدهر

وقد نقل المرزباني القصة التالية عن الجّاز قال :

كنت عند ابي نواس . قال ( ابو نواس ) اسمع ابياتاً حضرت . قلت  
ها ، فأنشدني :

وملحة باللوم تحسب اني بالجهل أوثر صحبة الشطّار  
بكرت عليّ تلومني فأجبتها اني لأعرف مذهب الابرار  
فدعي الملام فقد أظمت غوايتي وصرفت معرفتي إلى الانكار  
ورأيت إتياني اللذاذة والهوى وتعجلاً من طيب هذي الدار  
أحرى واحزم من تنظر آجلٍ علمي به رجمٌ من الاخبار

١ أهل الخبث والدهاء .

ما جاءنا أحدٌ يخبر انه في جنةٍ من مات أو في نار  
 فلما بلغ إلى هذا البيت قلت له : يا هذا ان لك أعداء ، وهم  
 ينتظرون مثل هذه السقطات ، فأتق الله في نفسك ودع الافراط في  
 المجون ، واكتمها . قال : لا والله ، لا اكتمها خوفاً ، وان قضي شيء  
 كان . فمني الخبر إلى الفضل بن الربيع ، ثم إلى الرشيد ، فما كان  
 بعد هذا إلا اسبوع حتى حبس<sup>١</sup> .  
 ومن قوله :

أعاذلَ اقصري عن بعض لومي فراجي توبتي عندي يخيب  
 تعيرني الذنوب وأي حرٍ من الفتيان ليس له ذنوب  
 غرّيت بتوبتي ولججت فيها فشقتي الآن جيبك لا اتوب

هذه هي روح ابي نواس يرى الدهر واقفاً له بالمرصاد - يرى الموت  
 نهاية كل شيء فيقول لنفسه : وما نفع الحياة وماذا نجد فيها غير الشقاء ؟  
 ويشعر بقوته وشبابه فيثب إلى غمار المسرات الزائلة ويخوض فيها  
 وهو يقول :

طربت إلى الصنج والمزهر وشرب المدامة بالاكبر  
 والقيت عني ثياب الهدى وخضت بجهوراً من المنكر  
 واقبلت اسحب ذيل المجون وأمشي إلى القصف في مزر

ولا يقف عند الاستخفاف بقيمة الحياة بل يقرنه باستخفاف بنواهي  
 الادب والشريعة كقوله :

ولاح لحاني كي يجيء ببدة وتلك لعمرى خطة لا اطيعها  
 لحاني كي لا أشرب الخمر انها تورث وزراً فادحاً من يذوقها  
 فما زادني اللاهون إلا لجانةً عليها لاني ما حيت رفيقها  
 أأرفضها والله لم يرفض اسمها وهذا أمير المؤمنين صديقها

١ الموشح ٢٧٨ .

فنحن وان لم نسكن الخلد عاجلا  
وقوله :

وما بي من عشق فابكي على الهجر  
فذاك الذي اجري دموعي على النحر  
فما نهى عنها بكيت على الخمر  
أعزّر فيها بالثانين في ظهري  
بكيت وما أبكي على دمنٍ قفر  
ولكن حديثاً جاءنا عن نبينا  
بتحريم شرب الخمر والنهي جاءنا  
فأشربها صرفاً واعلم انني

ولم يقل هذا الاستخفاف فيه تقدّمه نحو المشيب ، فمثله لا يقف  
عن اعتبار أو نظر في العواقب بل عن ضعف أو كلال . اسمه يذكر  
أيام الشباب ، وكأنك تشعر بأسفه ان الدهر لم يبق له غير القوة على  
معاورة الخمر :

كان الشباب مطيّة الجهل  
كان الجمال إذا ارتدبت به  
كان المشفع في مآربه  
والباعثي والناس قد رقدوا  
والأمري حتى إذا عزمت  
فالآن صرت إلى مقاربة  
والراح أهواها وان رزأت  
ومحسّن الضحكات والهزل  
ومشيت اخطر صيت النعل<sup>١</sup>  
عند الفتاة ومدرك التبل<sup>٢</sup>  
حتى أبيت خليفة البعل  
نفسى أعان يدي<sup>٣</sup> بالفعل  
وحططت عن ظهر الصبار حلي<sup>٣</sup>  
بئلى المعاش وقللت فضلي

إلى ان يقول :

فاعذر أخاك فانه رجل مرنت مسامعه على العذل

\* \* \*

ولكن هل ادرك الشاعر ما يتوخاه من الدنيا ؟ نحن هنا أمام مسألة

١ الصيت شديد الصوت .

٢ التبل أي الثار .

٣ المقاربة ترك الغلو وقصد السداد .



عقلية لا يسعنا الاغضاء عنها . والجواب عليها يتناول أحد أمرين :

١ - ان الحياة اثن ما في أيدينا ، وان سعادتها قائمة على تفهم قيمتها الحقيقية والسعي لادراكها .

٢ - أو ان الحياة مهزلة لا قيمة لها ، وما على العاقل الا ان يتناساها بالانغماس في الملذات الدنيوية .

ولسنا الآن في مقام يمكننا من تحليل هاتين النظريتين تحليلاً فلسفياً وافياً ، على انه لا بد من القول ان الاولى منها نظرة جدية الى الحياة ، نظرة إلى جمالها الحقيقي وفرصها الثمينة ، وان الثانية نظرة استخفاف بها وانصراف الى سخائفها .

في الاولى يحاول الانسان ان يسعى نحو مرمى عالٍ قد لا يحصل عليه ، ولكن السعادة كل السعادة في هذا السعي المتواصل ، وبعبارة أخرى في شعور الانسان بالتقدم نحو المثل العليا . وفي الثانية يمتلك الانسان خور العزيمة فيقف فشلاً ويحاول ان يستر فشله بمخدرات الحياة الباطلة . ومن أفضل الامثلة على ذلك ما تراه في رباعيات عمر الخيام من ميل الشاعر المفكر الى نسيان الوجود وآلامه بالخمير . ولعلّ الخيام تأثر بشعر ابي نواس ومذهبه ، وجرفه تيار التشاؤم إلى هذه الحياة السلبية . وانك لتجالس ابا نواس في مجالس لهوه فتسمع قهقهته ونكاته ، ويطربك ظرفه وجمال حديثه ، وتمعجبك خفة روحه بين أقداحه وندمائه ، ولكنك تستشفّ من وراء ذلك مرارة وتشاؤماً ، ربما كانا سبب عبثه بحقائق الحياة واسترساله في اسباب الملامية . ولا يظهر ذلك في ابّان قوته وريمان شبابه ظهوره بعد ان اضعفه الدهر وحط عن ظهر الصبار حله كما قال . ذلك الاستخفاف الذي عرف به وهو في نشاط العمر تحوّل أيام الضعف إلى اسفٍ مؤلم ، لا عن تقوى ولكن عن شعور بالفشل . كان يشرب الخمر ويقول غير مبالٍ :

الراح شيءٌ عجيبٌ انت شاربهُ فاشرب وان حملتك الراح أوزارا  
يا من يلوم على حمراء صافية صرّ في الجنان ودعني اسكن النارا  
ثم خدت فيه قوة الشباب وفارقتهُ أيام الهناء والرخاء فرأى ماضياً  
متهتكاً وفرصاً ضائعةً ونفساً شائبةً بالمعاصي فصاح آسفاً :

دبّ فيّ الفناء سفلاً وعلواً واراني اموت عضواً فعضوا  
ليس من ساعة مضت لي الا نقصتني بمرها بي جزوا  
ذهبت جدتي بطاعة نفسي وتذكرت طاعة الله نضوا  
لهف نفسي على ليالي وأيامٍ تمليتهنّ لعباً ولهوا  
قد أسأنا كل الاساءة فاللهمّ صفحاً عنّا وغفراناً وعفوا

قابل هذه الابيات بما ذكرناه سابقاً وقابلها بقوله :

ردّا عليّ الكأس انكما لا قدريان الكأس ما تجدي  
خوفتاني الله ربكما وكخيفتيه رجاؤه عندي  
لا تعذلا في الراح انكما في غفلة عن كنه ما تسدي  
ان كنتما لا تشربان معي خوف العقاب شربتها وحدي

وقوله من قصيدة :

ألم ترني ابحت الراح عرضي وعضّ مرأشف الظبي المليح  
وأني عالم ان سوف تنأى مسافة بين جثماني وروحي

وانظر كيف تحوّل اشره إلى ضعف واستخفافه إلى شعور بالفشل .  
وقد ذهب بعضهم انه كان يقترف ما يقترف اتكالا على الله ، ويستشهدون  
على ذلك بقوله :

لا تحظر العفو ان كنت امرءاً حرجاً فان حطركه بالدين إزراء

وقوله :

حق إذا الشيب فاجاني بطلمته أقبح بطلمة شيب غير مبخوت

عند الغواني إذا ابصرن طلعته  
فقد ندمت على ما كان من خَطَل  
ادعوك سبحانك اللهم فاعف كما  
أو قوله من قصيدة :

بادر شبابك قبل الشيب والعار  
وحثث الكاس من بكر لابكار  
إلى قوله :

فذاك قبل نزول الشيب عادتنا  
لكننا نرتجي غفران غفّار  
إلى آخر ما نراه من كلامه الزهدي . وليس ذلك بأدلّ على التوبة  
وحب التزهد والتجدد مما هو على الشعور بالضعف والخور والخوف .  
جاء في الاغاني عن محمد بن ابراهيم الصوفي قال :

« دخلنا على ابي نواس نعوده في علقته التي مات فيها ، فقال له علي  
ابن صالح الهاشمي : يا أبا علي ، أنت في أول يوم من أيام الآخرة وآخر  
يوم من أيام الدنيا ، وبينك وبين الله هنات ، فتب إلى الله عزّ وجل .  
فبكى ساعة ثم قال ساندوني ساندوني . ثم قال أخوّف بالله عزّ وجل ،  
وقد حدثني حماد بن مسلم عن زيد الرقاشي عن انس بن مالك ، قال :  
قال رسول الله ( صلعم ) : لكل نبيّ شفاعة ، واني اختبأت شفاعتي لأهل  
الكبائر من امتي يوم القيامة . أفتراني لا أكون منهم ؟ »

هذا الشعور بفشل الاباطيل هو الذي كان يدفع شاعرنا في أواخر أيامه  
إلى الندم والتحسر ، وقد صدق الجرجاني إذ قال : « فلو كانت الديانة  
عاراً على الشعر ، وكانت سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر ، لوجب  
ان يمحي اسم ابي نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا عدت  
الطبقات » .

على انه لا يجوز ان نحصر الحكم على فنّ الشاعر في منطقة الشرائع

الروحية والاجتماعية التي اتفق عليها المصلحون والمهذبون . فالشعر لا يتقيد بذلك ، وما جماله قائماً فقط على ما فيه من عبر وارشاد ، بل على ما يتجلّى فيه من شعور وحياة . الادب فنّ تتجلى فيه خوالج النفس ، وعلى هذا التجلّي تتوقف منزلة الشاعر الفنية .

نعم ان ابا نواس لم يزهد لتجدد في طبيعته ، بل مات كما عاش . وقد ترك لنا شعراً يحفظ لا لسمو عواطفه ، ولكن لخفة روحه ، وجمال صنعته ، ولتمثيله الخلاب لحياته وحياة بيئته .

## المختار من شعر أبي نواس

١ — خمرياته ومجالس لهوه

وداوني بالتي

دع عنك لومي فإن اللوم اغراء      وداوني بالتي كانت هي الداء  
صفراء لا تنزل الاحزان ساحتها      لو مستها حجرٌ مسته سرّاء

\* \* \*

قامت بباريقها والليل معتكرٌ      فلاح من وجهها في البيت لألاء<sup>١</sup>  
فارسلت من فم الابريق صافية      كأنما اخذها بالعين اغفاء  
رقت عن الماء حتى ما يلائها      لطافةٌ وجفان شكلها الماءُ  
فلو مزجت بها نوراً لمازجها      حتى تسوّدَ انوارٌ واضواءُ  
دارت على فتية دار الزمان بهم<sup>٢</sup>      فما يصيبهمُ الا بما شاءوا  
لتلك ابكي ولا ابكي لمنزلة<sup>٣</sup>      كانت تحلّ بها هند واسماءُ<sup>٣</sup>  
حاشا لدرة ان تسبني الخيام لها<sup>٤</sup>      وان تروح عليها الا بئل والشاءُ<sup>٤</sup>

١ قبل هذا البيت بيت محذوف يصف به فتاة ساقية .

٢ وفي رواية — دان الزمان لهم .

٣ أي أنا ابكي عليها لا على الطول البالية .

٤ درة ، كناية عن الحبيبة .

فقل لمن يدعي في العلم فلسفة<sup>١</sup>      حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء<sup>١</sup>  
لا تحظر العفو إن كنت امرءاً أحرجاً      فان حظركه في الدين إزراء<sup>٢</sup>

### لها مرح في كأسها

دع الربع ما للربع فيك نصيب<sup>٣</sup>      وما ان سبتني زينب<sup>٤</sup> وكعب<sup>٥</sup>  
ولكن سبتني البابلية انها      لمثلي في طول الزمان سلوب  
جفا الماء عنها في المزاج لأنها      خيال لها بين العظام ديب  
إذا ذاقها من ذاقها حلتقت به      فليس له عقل يعد أديب<sup>٢</sup>  
وليلة دجن قد سررت بفتية<sup>٣</sup>      تنازعها نحو المدام قلوب  
إلى بيت خمار ودون محله<sup>٣</sup>      قصور منيفات لنا ودروب<sup>٣</sup>  
فقزح من إدلاجنا بعد هجمة<sup>٤</sup>      وليس سوى ذي الكبرياء رقيب<sup>٤</sup>  
تناوم خوفاً ان تكون سعاية<sup>٤</sup>      وعاوده بعد الرقاد وجيب  
ولما دعونا باسمه طار دعره<sup>٤</sup>      وايقن ان الرجل منه خصيب  
وبادر نحو الباب سعياً ملبياً<sup>٤</sup>      له طرب بالزائرين عجيب  
فاطلق عن نأبيه وانكب ساجداً<sup>٤</sup>      لنا وهو فيما قد يظن مصيب  
وقال ادخلوا حبيبتكم من عصابة<sup>٤</sup>      فمزلكم سهل لدي رحيب  
وجاء بمصباح له فأناره<sup>٤</sup>      وكل الذي يبغي لديه قريب  
فقلنا أرحنا هات ان كنت بائعاً<sup>٤</sup>      فان الدجى عن ملكه سينيب  
فابدى لنا صباه تم شبابها<sup>٤</sup>      لها مرح في كأسها ووثوب  
فلما اجتلاها للندامى بدا لها<sup>٤</sup>      نسيم عبير ساطع وهيب  
فجاء بها تحدو بها ذات مزهر<sup>٤</sup>      يتوق اليها الناظرون ريب<sup>٥</sup>

١ تعريض بالنظام احد رؤساء المعتزلة المتوفى ٤٢٣ هـ، والمعتزلة تشدد التكبير على مرتكبي المعاصي .  
٢ أديب نعت عقل أي ليس له عقل أديب يعد في العقول .  
٣ كانت الحانات عادة في محلات بعيدة عن أعين الناس .  
٤ ذو الكبرياء أي الله ذو الكبر . والادلاج السير ليلاً .  
٥ أي مغنية تحمل عوداً . والريب المطيبة أو المنعمة .

فما زال يسقينا بكأس مجدة  
وغننى لنا صوتاً بحسن ترجع  
فمن كان منا عاشقاً فاض دمه  
فمن بين مسرور وباكٍ من الهوى  
وقد غابت الشعرى العبور واقبلت  
تؤلتي واخرى بعد ذلك تؤوب  
«سرى البرق غربيتاً فحنّ غريب»  
وعاوده بعد السرور نجيب  
وقد لاح من ثوب الظلام غيوب  
نجوم الثرىا بالصباح تثوب

### وحسبك ضوءها مصباحا

ذكر الصبوحَ بسحرة فارتاحا  
أوفى على شرف الجدار بسدفة  
بادرُ صباحك بالصبوح ولا تكن  
ان الصبوح جلاء كل مخمّر  
وخدينٍ لذات معلّل صاحبٍ  
نبتته والليل ملتبس به  
قال ابغني المصباح قلت له اتد  
فسكبت منها في الزجاج شربة  
من قهوة<sup>٢</sup> جاءتك قبل مزاجها  
صهباة تفترس النفوس فما ترى  
شكّ البزال<sup>٣</sup> فؤادها فكأنما  
عمرت يكاتمك الزمان حديثها  
فاشاع من اسرارها مستودعا  
فاتتك في صور تداخلها البلا  
فكأنها والكأس ساطعة بها

وأملته ديك الصباح صياحا  
غرداً يصفق بالجنح جناحا<sup>١</sup>  
كمسوفين غدوا عليك شحاحا  
بدرت يديه بكأسه الاصباحا  
يقتات منه فكاهة ومزاحا  
وأزحت عنه نقابه فانزاحا  
حسي وحسبك ضوءها مصباحا  
كانت له حتى الصباح صياحا  
عطلا فألبسها المزاج وشاحا  
منها بهنّ سوى السبات جراحا  
اهدت اليك بريحتها تفتحاحا  
حتى إذا بلغ السامة باحاحا  
لولا الملامة لم يكن ليباحا  
فازالهنّ واثبتت الأشباحا  
صبح تقارب امره فانصاحا

١ بسدفة أي قبيل الفجر .

٢ القهوة من أسماء الخمر .

٣ حديدة يفتح بها الدن .

## روحان في جسد

ما زلت استلُّ روح الدنَّ في لُطفٍ واستقي دمه من جوف مجروح  
حتى انثنت ولي روحان في جسدي والدنَّ منطرح جسماً بلا روح

### لا جفَّ دمع الذي يبكي على حجر

عاج الشقيّ على رسم يسائه وعجت اسأل عن خمارة البلدي<sup>١</sup>  
يبكي على طلل الماضين من أسدي لا درَّ درَّك قل لي من بنو اسد  
ومنّ تيمُّ ومن قيسٌ ولفمها؟ ليس الاعاريب عند الله من احد  
لا جفَّ دمع الذي يبكي على حجرٍ ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد  
كم بين ناعت خمرٍ في دساكرها وبين باكٍ على نُؤيٍ ومنتضدٍ<sup>٢</sup>  
دع ذا عدمتك واشربها معتقة صفراء تفرق بين الروح والجسد  
من كف مضطمر الزنار معتدل كأنه غصن بانٍ غير ذي أودٍ  
أما رأيت وجوه الارض قد نضرت وألبستها الزرابي نثرة الاسد<sup>٣</sup>  
حاك الربيع بها وشياً وجللها بيانع الزهر من مثنى ومن وحّد  
واستوفت الخمر احوالاً مجرّمة وافترَّ عيشك عن لذاتك الجدد  
فاشرب وجد بالذي تحوي يداك لها لا تدخر اليوم شيئاً خوف فقرٍ غد  
يا عاذلي قد أتني منك بادرة فان تغمّدها عفوي فلا تعدّ  
لو كان لومك نصحاً كنت أقبله لكن لومك موضوعٌ على الحسد

### تفتّر عن در

خفيت عليك محاسن الخمر أم غيرتكَ نواب الدهر

١ يريد بالشقي هنا الشاعر الذي يبكي على الطلول .

٢ ما أعظم الفرق بين من يصف الخمر ومواطنها وبين من يبكي على الآثار . والنؤي الحفرة حول الخيمة . والمنتضد المقام أو ما نضد من متاع الخيمة .

٣ نثرة الاسد اسم لثلاثة كواكب ، يريد بذلك أن مطرها البس الارض بسطاً من الازهار .



فصرفت وجهك عن معتقة<sup>١</sup>      تفترّ عن درّ<sup>٢</sup> وعن شذرا<sup>١</sup>  
يسعى بها ذو غنّة غنج<sup>٣</sup>      متكحلّ اللّحظّات بالسحر  
ونسيت قولك حين تشربها      فتزول مثل كواكب النّسر<sup>٢</sup>  
« لا تحسبنّ عُنُقار خابية<sup>٤</sup>      والهمّ يجتمعان في صدر»

### اقنا بها

ودارِ ندامي عطّلوها وادلجوا      بها أثر<sup>١</sup> منهم جديد ودارم<sup>١</sup>  
مساحب من جر الزقاق على الثرى      واضغاث ريحان جنبي ويابس  
ولم ارَ منهم غير ما شهدت به      بشرقي<sup>٣</sup> ساباط الديار البسابس<sup>٣</sup>  
حبست بها صحبي فجدّدت عهدهم      واني على امثال تلك لحابس  
اقنا بها يوماً ويومين بعده      ويوماً له يوم الترحّل خامس  
تدار علينا الراح في عسجدية<sup>٤</sup>      حبتها بأنواع التصاوير فارس<sup>٤</sup>  
قرارتها كسرى وفي جنباتها      مهى قدّريها بالقسي<sup>٤</sup> الفوارس  
فللخمر ما زُرّت عليه جيوبها      وللماء ما دارت عليه القلائس

### اجدت ابا عمرو فجود لنا الخمر

وفتيانِ صدق قد صرفت مَطِيّتهم      إلى بيت خمار نزلنا به ظهرا  
فلما حكى الزنتار ان ليس مسلما      ظننا به خيراً فظنّ بنا شرّاً  
فقلنا على دين المسيح ابن مريم؟      فاعرض مزوراً وقال لنا هُجرا  
ولكن يهودي<sup>١</sup> يحبّك ظاهراً      ويضمّر في المكنون منه لك الغدرا

١ الشذر قطع الذهب .

٢ كوكب النسر اسم نجم ، أي فتغيب في الفم غياب ضوء النجم وراء الأفق .

٣ ساباط مكان بالمداين ، وهذه الابيات قبلت في مجلس هو هناك ( زهر الآداب للحصري ،

٣ - ١٧٥ ) .

٤ عسجدية أي كأس ذهبية عليها صور فارسية .

فقلت له ما الاسم قال سمّوأل  
ومما شرّفتني كنية عربية  
ولكنها خفت وقلّ حروفها  
فقلنا له عجباً بظرف لسانه  
فأدبر كالمزورّ يقسم طرفه  
وقال لعمرى لو نزلتم بغيرنا  
فجاء بها زيتية ذهبية  
خرجنا على ان المقام ثلاثة  
عصابة سوء لا ترى الدهر مثلهم  
إذا ما دنا وقت الصلاة رأيتهم

ولكنني أكنى بعمرى ولا عمرا<sup>١</sup>  
ولا اكسبتني لا ثناء ولا فخرا  
وليس كأخرى إنما جعلت وقرا<sup>٢</sup>  
اجدت ابا عمرو فجوّد لنا الخمر  
لأرجلنا شطراً واوجهننا شطرا  
للمناكم لكن سنوسعكم عذرا  
فلم نستطع دون السجود لها صبرا  
فطابت لنا حتى اقمنا بها شهرا  
وان كنت منهم لا بريئاً ولا صفرا  
يحثونها حتى تفوتهم سكر

### رضيت من الدنيا بكأس وشادن

غدوت على اللذات منتهك الستر  
وهان عليّ الناس فيما اريده  
رأيت الليالي مرصداً لمديّتي  
رضيت من الدنيا بكأس وشادن  
مُدام ربت في حِجر نوح يديرها  
صحيح مريض الجفن مُدن مباعده  
كان ضياء الشمس نيط بوجهه  
إذا ما بدت ازرار جيب قميصه  
فاحسن من ركض إلى حومة الوغى  
فلا خير في قوم قدور عليهم

وافضت بنات السرّمني إلى الجهر  
بما جئت فاستغنيت عن طلب العذر  
فبادرت لذاتي بمبادرة الدهر  
تحيّر في تفصيله فطّين الفكر  
عليّ ثقيل الردف مطّم الخصر  
يميت ويحيي بالوصال وبالهجور  
وبدر الدجى بين الترائب والنحر  
تطلّع منه صورة القمر البدر  
واحسن عندي من خروج إلى النحر<sup>٣</sup>  
كؤوس المنايا بالمتقّفة السمر

١ أي أدعى ابا عمرو وليس لي ولد بهذا الاسم .

٢ وليست كالكنية الأخرى الثقيلة .

٣ ذاك عندي أفضل من جهاد الحرب وأفضل من أن اخرج إلى نحر الذبائح .

تحياتهم في كل يوم وليلة ظنبي المشرفيات المزيرة للقبر

### واهتدى ساري الظلام بها

يا شقيق النفس من حركم  
فاسقني البكر التي اختمرت  
ثُمَّ انصت الشباب لها  
فهي لليوم التي بُزلت  
عُتقت حتى لو اتصلت  
لاحتبت في القوم ماثلة  
فرعتها بالمزاج يد  
في ندامى سادة زُهري  
فتمشيت في مفاصلهم  
فعلت في البيت إذ مزجت  
واهتدى ساري الظلام بها

نمتَ عن ليالي ولم أنم<sup>١</sup>  
بخمار الشيب في الرحم<sup>٢</sup>  
بعد ما جازت مدى الهرم  
وهي تيرب الدهر في القيدم  
بلسانٍ ناطقٍ وفم  
ثم قصت قصة الامم<sup>٣</sup>  
خلقت للسيف والقلم  
أخذوا اللذات من أمم<sup>٤</sup>  
كتمشتي البرء في السقم  
مثل فعل الصبح في الظلم  
كاهتداء السفر بالعلم<sup>٥</sup>

### فهذا شقاء مر بي ونعيم

إذا خطرت منك الهموم فداوها  
أدرها وخذها قهوة بابلية  
ولا عرفت ناراً ولا قدير طابخ

بكأسك حتى لا تكون هموم  
لها بين بصرى والعراق كروم  
سوى حرّ شمس إذ تهيج سموم

١ حكم اسم القبيلة التي كان ينتمي إليها .

٢ لهذا البيت عدة تفاسير منها: ان خمّار الشيب هو نسج العنكبوت الذي حول الدن . وقد كنى عن الدن بالرحم . ومنها ان الشيب اشارة إلى ما يعاود الكرم من الوبر الابيض . والكرمة رحم الخمر على الهجاز .

٣ أي جلست القرفصاء وأخذت تقص عليهم أخبار الاقدمين .

٤ من أمم أي من أقرب الطرق .

٥ كما يهتدي المسافرون بإعلام الطريق .

لها من ذكيّ المسك ريح زكيّة  
 فشمّرت أثوابي وهرولت مسرعاً  
 إلى بيت ختار افاد زحامه<sup>١</sup>  
 وفي بيته زرقٌ ودنٌ ودورق  
 فأزقاه سود وحرٌّ دنانه  
 ودهقانة<sup>٢</sup> ميزانها نصب عينها  
 فأعطيتها صُفراً وقبّلت رأسها  
 وقلت لها هزّي الدنان قديمة<sup>٣</sup>  
 الست تراها قد تعفّت رسومها  
 ذخيرة دهقان<sup>٤</sup> حواها لنفسه  
 فقلت بكم رطل<sup>٥</sup>؟ فقالت باصفر  
 فرحت بها في زورق قد كتمتها  
 إلى فتية نادمتهم فحمدتهم  
 فتمتعت نفسي والتدامي بشربها  
 لعمري لئن لم يغفر الله ذنبها  
 ومن طيب ريح الزعفران نسيمٌ  
 وقلبي من شوق يكاد يهيم  
 له ثروة والوجه منه بهيم  
 وباطية تروي الفتى وتُسِّم  
 ففي البيت حبشان لديه وروم  
 وميزانها للمشتري غشوم<sup>٦</sup>  
 على انني فيما اتيت مُلِّم  
 فقالت نعم اني بذلك زعيم  
 كما قد تعفّت للديار رسوم<sup>٧</sup>  
 إذا ملك اخنى عليه غشوم  
 فحزت زقاقاً وزرهن<sup>٨</sup> عظيم  
 ومن أين للمسك الزكيّ كتوم  
 وما في نِدامي ما علمت لئيم  
 فهذا شقاء مرّ بي ونعيم  
 فانّ عذابي في الحساب أليم

### فسلها بالروح والريحان

لا تخشعن<sup>١</sup> لطارق الحداث  
 أو ما ترى ايدي السحائب رقت  
 من سوسن غض القطاف وأخزم  
 وجني<sup>٢</sup> ورد يستبيك بحسنه  
 وادفع همومك بالشراب القاني  
 حلل الثرى ببدايع الريحان  
 وبنفسج وشقائق النعمان  
 مثل الشموس طلعت من اغصان

١ افاده أي أربحه مالا .

٢ دهقانة أي سيدة وهي البائعة هنا .

٣ هذا البيت وما بعده يصف قدم هذه الخمرة وانها كانت محفوظة لدهقان في دنان نسج عليها  
 العنكبوت لسيجه فأصبحت لا يميز أحدهما من الآخر .

٤ الدهقان كلمة فارسية معناها رئيس الاقليم .

حمراً وبيضا يُجتنين وأصفرأ  
كعقود ياقوت نُسْظمن ولؤلؤ  
ومن الزبرجد حولهن ممثلاً  
فاذا الهموم تعاورتك فسلبها  
وملوتنا ببدايع الألوان  
اوساطهن قلائد العقيان  
سِمْطاً يلوح بجانب البستان  
بالراح والريحان والندمان

### ديني لنفسي ودين الناس للناس

إني عشقت وما بالعشق من باس  
ما لي وللناس لم يلحونني سفها  
ما للعداة إذا ما زرت مالكتي  
الله يعلم ما تركي زيارتكم  
ولو قدرت على الاتيان جئتكم  
وقد قرأت كتاباً من صحائفكم  
ما مرّ مثل الهوى شيء على راسي  
ديني لنفسي ودين الناس للناس  
كأنّ أوجههم تطلّى بأنقاس<sup>١</sup>  
الا نخافة اعدائي وحراسي  
سعيّاً على الوجه أو مشياً على الراس  
لا يرحم الله الا راحم الناس

### نشقى ويلتذ خيالانا

إذا التقى في النوم طيفانا  
يا قرّة العين فما بالنا  
لو شئت إذا احسنت لي نائماً  
يا عاشقين التقيا في الكرى  
كذلك الاحلام غرارة  
عاد لنا الوصل كما كانا  
نشقى ويلتذ خيالانا  
اتمت احسانك يقظانا  
فأصبعا غضبي وغضبانا  
وانما تصدق أحيانا

ومن أقواله في جنان :

غضبت لهوى في الكتاب كثير  
كتب الكتاب على خلاف ضميره  
لا والذي ان شاء صيرنا معاً  
قالت أراد خيانتني وغروري  
فالمحو فيه لكثرة التغيير  
فاداك من حزن هناك سروري

١ انقاس جمع نقس وهو الحبر الاسود .

ما كان ذلك لما أتى من قولها  
 كتبت يميني والدموع سواكب  
 فالحو من قبَل الدموع وإنما  
 مني ولا للسهو والتقصير  
 صفة اللسان بما يكنّ ضميري  
 تجري دموع العاشق المهجور

وقال :

أين الجواب وأين ردّ رسائلي  
 فددت كفي ثم قلت تصدّقوا  
 ان كنت مسكيناً فجاوز بابنا  
 يا ناهر المسكين عند سؤاله  
 قالت ستنظر ردّها من قابل  
 قالت نعم بحجارة وجنادل  
 وارجع فما لك عندنا من تائل  
 الله عاتب في انتهار السائل

## ٢ — من مدائحه واوصافه

وهو لا يخرج في معظمها عن مذاهب الشعراء المتقدمين

### قال يمدح الأمين

يا دارُ ما فعلت بك الأيام ؟  
 عَرِمَ الزمان على التدين عهدتهم  
 أيامَ لا أغشى لأهلك منزلاً  
 ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم  
 وبلغت ما بلغ امرؤٌ بشبابه  
 وإذا المطيِّ بنا بلغن محمداً  
 قرّبنا من خير من وطىء الثرى  
 ضامتكِ والايام ليس تضام  
 بك قاطنين ، وللزمان عُرَام  
 الا مراقبةً عليّ ظلام  
 وأسمت سرح اللهوح حيث اساموا  
 فاذا عَصارة كل ذلك إثم  
 فظهورهن على الرجال حرام  
 فلها علينا حرمة وذمام

١ نهز بالدلو أي ضرب بها الماء لتمتليء . ومعنى البيت انه شارك الغواة في لهومهم وماشاهم في ضلالهم .

رَفَعَ الحِجَابَ لَنَا فَلَاحَ لِنَاظِرٍ ۚ  
مَلِكٍ إِذَا عَلِقَتْ يَدَاكَ بِجِبِلِهِ  
فَالْبَهْوُ ۙ مُشْتَمِلٌ بِبَدْرِ خِلَافَةٍ  
أَنَّ الَّذِي يُرْضِي إِلَاهَهُ بِهَيْدِهِ  
مَلِكٌ إِذَا اعْتَسَرَ الْأُمُورَ مَضَى بِهِ  
فَسَلِمْتَ لِلْأَمْرِ الَّذِي تَرْجَى لَهُ  
قَمَرٌ تَقَطَّعَ دُونَهُ الْأَوْهَامَ  
لَا يَمْتَرِيكَ الْبُؤْسُ وَالْإِعْدَامَ  
لِبَسِ الشَّبَابَ بِنُورِهِ الْإِسْلَامَ  
مَلِكٌ تَرْدَى الْمَلِكَ وَهُوَ غَلَامٌ  
رَأَى يَفْلُ السِّيفِ وَهُوَ حَسَامٌ  
وَتَقَاعَسْتَ عَنْ يَوْمِكَ الْإِيَامَ

### وقال يمدح الفضل بن الربيع

وعظمتك واعظة القتير  
ورددت ما كنت استعير  
فالآن صرت إلى النهى  
هذا وبجر تنائف  
للجن فيه حاضرا  
قاربت من مبسوطه  
لأزور صفو الله في الـ  
يا فضل جاوزت المدى  
انت المعظم والمكبر  
فاذا العقول تفاظنتك عرضن في كرم وخير<sup>٨</sup>

- 
- ١ البهو البيت المقدم امام البيوت ويراد به هنا قصر الخلافة .
  - ٢ القتير الشيب أو أوله ، والابهة العظمة والبهجة والكبر والنخوة .
  - ٣ النهى العقل . وبلوت اختبرت .
  - ٤ التنائف جمع تنوفة وهي المفازة .
  - ٥ الحاضر من معانيه الحي العظيم . والسمير المسامر ولا يكون إلا بالليل .
  - ٦ العنتريس الناقة الغليظة الوثيقة . والعيسجور الناقة السريعة .
  - ٧ من الكرم متعلق بصفو . والخطير الرفيع .
  - ٨ تفاظنتك تصورتك بفطنة . والخير ( بالكسر ) الكرم والشرف .

وإذا العيون تأملتك صدرت عن طرف حسير  
 ما زلت في عقل الكبير وانت في سنّ الصغير  
 حتى تعصرت الشبيبة واكتسبت من القتير<sup>١</sup>  
 عفّ المداخل والمخارج والغريزة والضمير  
 والله خصّ بك الخليفة فاصطفاك على بصير  
 فاذا آلت بك الامور كفيته قسّم الامور<sup>٢</sup>  
 من قاس غيركم بكم قاس الثماد على البحور<sup>٣</sup>  
 أين القليل بنو القليل من الكثير بني الكثير  
 قوم كفوا ابناء مكة نازل الخطب الكبير  
 فتداركوا جزر الخلافة وهي شاسعة النصير<sup>٤</sup>  
 لولا مقامهم بها هوت الروابي من ثبير

ومن لطائفه قوله يصف بعض سفن الأمين

سخر الله للأمين مطايا لم تسخر لصاحب المهراب<sup>٥</sup>  
 فاذا ما ركبه سرن برّاً سار في الماء راكباً ليث غاب<sup>٦</sup>  
 اسداً باسطاً ذراعيه يعدو اهت الشّدق كالح الانياب<sup>٧</sup>  
 لا يعانیه باللجام ولا السوط ولا غمز رجله في الركاب  
 عجب الناس إذ رأوه على صرة ليث يمرّ مرّ السحاب

- ١ تعصرت أي عصرت مرة بعد مرة . والقتير الشيب .
- ٢ الآت بك الامور : استودعك إياها . والقسم جمع قحمة وهي المهالك والمصاعب .
- ٣ الثماد الماء القليل .
- ٤ الجزر قطع الشاة المذبوحة ، أي تداركوا الخلافة من التجزؤ .
- ٥ صاحب المهراب هو سليمان الحكيم .
- ٦ كان للأمين ثلاث من السفن المعروفة بالحراقات لركوبه خاصة وهي الليث والعقاب والدلفين .
- ٧ هو ظاهر في هذه الابيات .
- ٧ اهت الشّدق أي واسعه .



سَبَّحُوا إِذْ رَأَوْكَ سَرْتِ عَلَيْهِ كَيْفَ لَوْ أَبْصَرُوكَ فَوْقَ الْعُقَابِ  
ذَاتِ زَوْرٍ وَمَنْسَرٍ وَجَنَاحِينَ تَشْتَقُّ الْعُبابُ بَعْدَ الْعَبَابِ  
تَسْبِقُ الطَّيْرَ فِي السَّمَاءِ إِذَا مَا اسْتَعْجَلُوها بِجِيئَةٍ وَذَهَابِ  
بَارِكِ اللَّهُ لِلْأَمِينِ وَأَبْقَا هـ وَأَبْقَى لَهُ رِداءَ الشَّبَابِ  
مَلِكٌ تَقْصُرُ الْمَدَائِحُ عَنْهُ هَاشِمِيٌّ مَوْفَّقٌ لِلصَّوَابِ

### وقوله متظارفاً يخاطب الفضل

أَنْتَ يَا ابْنَ الرَّبِيعِ أَلْزَمْتَنِي النَّسْكَ وَعَوَّدْتَنِيهِ وَالْخَيْرَ عَادَهُ  
فَارْعَوِي بَاطِلِي وَأَقْصِرْ حَبْلِي وَتَبَدَّلْتُ عَفَّةً وَزَهَادَهُ  
لَوْ تَرَانِي أُذْكَرْتَ بِالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ فِي حَسَنِ سَمْتِهِ أَوْ قِتَادِهِ<sup>١</sup>  
الْمَسَابِيحِ فِي ذِرَاعِيٍّ وَالْمَصْحَفِ فِي لَبْتِي مَكَانَ الْقِلَادِهِ  
فَادْعُ بِي لِأَعْدَمْتَ تَقْوِيمَ مِثْلِي وَتَفْطَنُ لِمَوْعِدِ السَّجَادِهِ  
تَرِ إِثْرًا مِنَ الصَّلَاةِ بِوَجْهِ تَوْقِنِ النَّفْسِ أَنَّهَا مِنْ عِبَادِهِ  
لَوْ رَأَاهَا بَعْضُ الْمَرَاثِينِ يَوْمًا لِاشْتَرَاهَا يُعَدُّهَا لِلشَّهَادَةِ  
وَلَقَدْ طَالَمَا شَقِيتُ وَلَكِنْ أَدْرَكْتَنِي عَلَى يَدَيْكَ السَّعَادَةَ

وله مدائح مشهورة في العباس بن عبيد الله، وابن أبي جعفر المنصور،  
وفي الخصب بن عبد الحميد المرادي أمير خراج مصر. فلتراجع في  
ديوانه .

### من شعره الجدي

وهو يمثل شعوره وقد عجز وسمم حياة الخلاعة والمجون

### إذا امتحن الدنيا لبيب

أَيَا رَبِّ وَجْهٍ فِي التَّرَابِ عَتِيقِ - وَيَا رَبِّ حَسَنٍ فِي التَّرَابِ رَقِيقِ -

١ الحسن البصري وقتادة امامان معروفان من أهل القرن الاول .

ويا رب حزم في التراب ونجدة      ويا رب رأي في التراب وثيق  
أرى كل حيّ هالكاً وابن هالك      وذا حسب في الهالكين عريق  
فقل لقريب الدار انك ظاعن      إلى منزل نائي المحل سحيق  
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت      له عن عدوٍّ في ثياب صديق

### وعليك القصد

نخلٌ جنبيك لرامٍ      وامض عنه بسلامٍ-  
متٌ بداء الصمت خير      لك من داء الكلامٍ-  
ربما استفتحت بالمزح مغاليتي الحمامٍ-  
ربّ لفظ ساق آجا      لَ نيام وقيامٍ-  
إنما السالم من أجم فاه بلجامٍ-  
فالبس الناس على الصحة منهم والسقامٍ-  
وعليك القصد ان القصد ابقى للجمام¹  
شبت يا هذا وما      تترك اخلاق الغلامٍ-  
والمنايا آكلات      شاربات للأنامٍ-

### كأني لا أعود

ألم ترني أبعتُ اللهو نفسي      وديني واعتكفت على المعاصي  
كأني لا أعود إلى معاد      ولا أخشى هنالك من قصاص

### فاني قد شبت²

ايا من بين باطية وزقٍ      وعودٍ في يدَي غان مغنسي  
إذا لم تنه نفسك عن هواها      وتحسن صوتها فاليلك عني

١ أي اعتدل ان الاعتدال ابقى للقوة .

٢ وتروى هذه الايات ايضاً لأبي المتاهية .

فاني قد شبت من المعاصي ومن إدمانها وشبعن مني  
ومن اسوا واقبح من لبيب يرى متطرباً في مثل سني

وقال يرثي نفسه وقد شارف الموت

دب فيّ الفناء سُفلاً وعلوا وأراني اموت عُضواً فعضوا  
ليس من ساعة مضت لي الاّ نقصتني برّها بي جزوا  
ذهبت جدّتي بطاعة نفسي وتذكرت طاعة الله نضوا  
لهف نفسي على ليالي وأيام تملّيتهن لعباً ولهوا  
قد أسأنا كل الاساءة فاللهمّ صفحاً عنا وغفراً وعفوا

---

١ النضو الثوب البالي ، اي بعد ان اصبحت عاجزاً .



# ابو العتاهية

اسماعيل بن القاسم

١٣٠ - ٢١١ او ٢١٢ هـ  
( ٧٤٨ - ٨٢٨ م )



مصادر دراسته - كلمة في نسبه واتهامه بالزندقة - حياته الادبية - رسالته  
الشعرية - مقابلته بأبي نواس - شاعريته - حسناته وسيئاته الفنية

## مصادر دراسته

- طبقات الشعراء لابن المعتز ( ١٩٣٩ ) ص ١٠٥ - ١٠٨  
الشعر والشعراء لابن قتيبة ( لندن ) ص ٤٩٧ - ٥٠١  
مروج الذهب للمسعودي ج ٢ في أخبار المهدي والرشد  
الاغاني ( بولاق ) ج ٣ ص ١٢٦ - ١٨٣  
ج ٦ ص ١٨٦  
ج ٨ ص ٢٤  
ج ١٦ ص ١٤٩ - ١٥٠  
الموشح للعرزباني ص ١٥٤ - ٢٦٣  
زهر الآداب للحصري ج ٢ ص ٣٥ - ٣٩  
العمدة ( هندية ) ٢ - ١٠٦  
تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ( مصر ) ج ٦ ص ٢٥٠ - ٢٦٠  
وفيات الاعيان ج ١ ص ١٠٠ - ١٠٣  
مقدمة ديوان ابي العتاهية ، رواية النمري ( طبع الآباء اليسوعيين ، بيروت )  
وأخبار متفرقة في الكامل والفهرست والعمدة وغيرها .

## نسبه ونشأته

في كل عصر وفي كل قطر ، إذا كثرت أسباب الفنى والترف ، نشأ في المجتمع البشري مجريان متطرفان ، الاول مجرى العبث والخلاعة ، والثاني مجرى الحرص والتكشف .

في الاول ترى المسترسلين في الموبقات والشهوات الجارين مع الاهواء إلى أقصى الغايات ، وفي الثاني ترى الذين عافت نفوسهم ملذات الدنيا ، فنكّبوا عنها إلى زوايا الزهد ينعون إلى الناس زخارفها ، ويدعونهم إلى نبذها والنظر إلى ما وراءها . وكما يمثل ابو نواس في عصره الفئة الاولى ويعكس لنا حياتهم وعواطفهم ، يمثل زميله ومعاصره ابو العتاهية الفئة الثانية ويعكس لنا في ديوانه عواطف المتطرفين من الروحانيين والاخلاقيين .

\* \* \*

نشأ شاعرنا في الكوفة ، حتى اذا نضجت صناعة الشعر فيه أمّ بغداد فاتصل ببلاط العباسيين ومدح المهدي والهادي والرشيد ، ومات في خلافة المأمون وقد بلغ الثمانين . وقبل البحث في شعره نذكر نقطتين لم يوضحها مؤرخوه تمام الايضاح وهما نسبه وزندقته . فقد ذكر بعض المؤرخين وتبعهم المستشرقان نكلسون وهوار<sup>١</sup> ان ابا العتاهية عربي الاصل . واذا راجعت ما أورده الاصفهاني وابن خلكان ومن نقل عنها رأيهم يتفقون على نسبه إلى عنزة بالولاء . ففي الاغاني عن محمد بن موسى قوله : « ولاء ابي العتاهية من قبل ابيه لعنزة ، ومن قبل أمه لبني زهرة<sup>٢</sup> » .

Nicholson, Lit. Hist. 296 - Huart. Hist. of Ar. Lit. 74 ٦

٢ الاغاني ٣ - ١٢٧ .

ولعلّ في اسم بلدته التي ولد فيها ما حداهم الى ذلك القول ، فقد ولد في « عين التمر » وهي على ما ذكروا بلدة في الحجاز . والحقيقة ان في العراق بلدة تعرف بهذا الاسم <sup>١</sup> . والاصح ان تكون هي مسقط رأس الشاعر . فانه نشأ في الكوفة والكوفة وعين التمر كلاهما من سقي الفرات . ومما قد يؤيد صحة هذا القول ان بعضهم كان يتهمه بالزندقة <sup>٢</sup> ، ولم يكن يُتّهم بها عادة الا الذين يمتّون بنسب الى الفرس . ولم يكن ابو العتاهية شديد التمسك بنسبه فكان طول حياة يزيد بن منصور الحِميري يدّعي انه مولى لليمن وينتفي من عنزة . فلما مات يزيد رجع الى ولاته الأول <sup>٣</sup> ، وما ذلك فعل من ينتسب نسباً صريحاً الى العرب .

أما زندقته واتهامه بمذهب الفلاسفة فليس في شعره ما يثبتها ، ولم يذكره ابن النديم في جملة شعراء الزنادقة الذين عاصروا ابا العتاهية . وكل ما رأينا من هذا القبيل ان قوماً من أهل عصره كانوا ينسبون الى القول بمذهب الفلاسفة ويحتجّون بأن شعره انما هو في ذكر الموت دون الآخرة <sup>٤</sup> وهو ليس بصحيح . وقد توهم المستشرق كولدزيهر من البيت التالي :

إذا أردت شريف الناس كلّهم فانظر الى ملك في زي مسكين

ان الشاعر ينوّه بفضله بوذا . والحق ما ذكره نكلسون من ان ذلك لا يراد به غير وصف التقى الزاهد ، دون الاشارة الى شخص خاص <sup>٥</sup> .  
ومما نسب فيه الى الزندقة الابيات التالية <sup>٦</sup> :

١ ابن خلكان ١ - ١٠٠ ومعجم البلدان لياقوت .

٢ ابن قتيبة ( ليدن ) ٤٩٧ .

٣ الاغانى ٣ - ١٤١ .

٤ الاغانى ٣ - ١٢٦ ، راجع ايضاً وفيات الاعيان تحت ترجمة ابن المعتز .

٥ Lit. Hist. of the Arabs 297

٦ ابن قتيبة ( ليدن ) ٥٠١ .



اذا ما استجزت الشك في بعض ماترى فما لا تراه الدهر أمضى واجوز

\* \* \*

وقوله في عتبة ١ :

يا رب لو انسينيها بما في جنّة الفردوس لم انسها

\* \* \*

ان المليك وآك احسن خلقه ورأى جمالك

فحذا بقدرة نفسه حور الجنان على مثالك

وليس في هذه الابيات عند التحقيق غير مبالغات خيالية قد تجري على لسان المؤمن لتقرير أو إيضاح معنى شعري . ونقلوا عن الصولي قوله بالجوهرين المتضادين كالتنوية ، وقوله بالجبر وما شاكل ٢ . وقد جاراهم العلامة زيدان فقال في تاريخه : « وكان ابو العتاهية سوداوي المزاج كثير التردد في أمر الدين فتقلب على اطوار شتى شأن الذين يجلّون أنفسهم من قيود الدين وينظرون فيه نظر الناقد ٣ ، . على ان الناظر في شعره لا يجد فيه غير رجل متزيّ بزي الفقراء متغنّ بأناشيد الزهد . وليس فيه أثر لنظر نقدي في الكون أو لنزعة فلسفية في الدين .

### حياته الأدبية

تظهر لنا حياة ابي العتاهية في مظهرين : حياة الغزل والمنادمة ، وحياة الوعظ والتكشف . فقد اجمع المؤرخون على ان شاعرنا كان في أول أمره يعيش كسائر شعراء عصره فيمدح ويرثي ويتغزل . وفي القصيدة التي أنشدها يوم تولّى المهدي الخلافة ما يدلّ على علو كعبه في باب المديح ، فقد روي أن الشاعر بشاراً سمعه ينشد هذه القصيدة التي يقول فيها :

١ الاغاني ٣ - ١٥١ .

٢ الاغاني ٣ - ١٢٨ .

٣ تاريخ آداب اللغة ٢ - ٦٨ .

أنته الخلافة منقادةً اليه تجرّر أذيالها  
 ولم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها  
 ولو رامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها  
 ولو لم تطعه بنات القلوب لما قبل الله أعمالها  
 فاهتزّ بشار طربياً وقال لمن حوله : « ويحك انظروا ألم يطر الخليفة  
 عن أعواده » .

وله في الغزل أيضاً لطائف تذكر . ولقد انصرف في أول عهده إلى  
 حياة اللهو والتهتك واشتهر بها حتى زعموا انه كني بأبي العتاهية لانه  
 كان يحب التهتك والمجون والتعتة<sup>١</sup> .

ولكنه لم يكذب يبلغ الخمسين حتى تحوّل عن سبيلهم . وكان ذلك على  
 ما رواه صاحب الاغانى في خلافة الرشيد . قال : « كان ابو العتاهية لا  
 يفارق الرشيد في سفر ولا حضر إلا في طريق الحج ، وكان يُجري عليه  
 في كل سنة خمسين الف درهم سوى الجوائز والمعادن . فلما قدم الرشيد الرقّة  
 ( وذلك سنة ١٨١ هـ ) لبس الشاعر الصوف وتزهد ، وترك حضور المنادمة  
 والقول في الغزل<sup>٢</sup> . فما الذي دفعه إلى ترك ما كان عليه الشعراء والتزام  
 طريقة الزهد والتنسك ؟ سؤال جدير بالنظر . ولا بد لنا قبل الاجابة  
 عليه من ان ننظر فيما يلي :

- ١ - حالته النفسية واستعداده الفطري لذلك
  - ٢ - تأثر نفسه بتهتك معاصريه وتماديهم في أسباب الترف
  - ٣ - فشله في حبه لفتاة من جواري المهدي
  - ٤ - ميله إلى الطريقة الزهدية في الشعر .
- أما استعداد الفطري فليس لنا من دليل صريح عليه ولكننا نستنتج  
 مما عرف عن ابي العتاهية من حب المال والحرص على الدنيا ، انه كان

١ راجع مجلسه مع ابي نواس وصريح الغواني في المقدم ٣ - ١٦٤ وراجع الاغانى ٣ - ١٢٧ .  
 ٢ الاغانى ٣ - ١٥٧ .

ذا نظر في العواقب وعلى شيء - حق في إبتان شبابه - من ضبط النفس  
 بما لا نراه عادة في متهتك عصره فلم يكن شديد الميل إلى الانفاق في  
 سبيل الشهوات ، وبكلمة أخرى لم تكن مشاركته لزملائه في مجونهم أيام  
 شبابه لتقتل فيه ميله إلى الحرص والرزانة . جارام ولكن إلى حين ،  
 واندفع في تيار الحياة ولكنه لم يرخ لنفسه العنان . ولم يلبث ان رأيناه  
 يتراجع عنه مسمئزاً ، مهيباً بالآخرين ان يسلكوا سبيل الرشاد ، وان يعتبروا  
 بظروف الزمان . ولا نشك انه كان لعصره تأثير عليه ، وان ذلك التأثير  
 تحول إلى عاطفة شعرية مغايرة لعواطف زملائه يومئذ . فترك الغزل والمنادمة ،  
 واختط لنفسه اسلوباً آخر أحب ان ينفرد فيه . وانما لنلمح ذلك مما نقله  
 لنا ابن منظور عن أبي نخلد الطائي قال : « جاءني أبو العتاهية فقال  
 لي ان أبا نواس لا يخالفك ، وقد أحببت ان تسأله الا يقول في الزهد  
 شيئاً ، فاني قد تركت له المديح والهجاء والخمر والرقيق وما فيه الشعراء ،  
 وللزهد شوقي . فبعثت إلى ابي نواس فجاء إليّ وأخذنا في شأننا . فقلت  
 لابي نواس ان ابا اسحق <sup>١</sup> ( ابا العتاهية ) من قد عرفت جلالته وتقدمه ،  
 وقد أحب انك لا تقول في الزهد شيئاً . فوجم ابو نواس عند ذلك وقال :  
 يا ابا نخلد قد قطعت عليّ ما كنت احب ان ابلغه من هذا . . . ولا  
 اخالف ابا اسحق فيما رغب اليه <sup>٢</sup> . فأبو العتاهية اذن اصطنع الزهد  
 واتخذة طريقة فنية مندفعاً اليه بشوق نفسه إلى هذا النوع من الشعر . واذا  
 صح ما زعمناه لشاعرنا من الاستعداد الفطري ، وانه مجازاة لهذا الاستعداد  
 رأى ان ينفرد بالزهد دون سائر ابواب الشعر ، بقي ان ننظر في المحرك  
 المباشر الذي حرك في نفسه شهوتها الزهدية وحبب اليه ترك حياته الأولى .  
 هذا المحرك هو على ما يقول المؤرخون فشله في حبه لعبة جارية الخيزران  
 أم الرشيد . وفي ذلك يقول المعري <sup>٣</sup> :

١ كنيته الحقيقية ابو اسحق وانما ابو العتاهية لقب له .

٢ أخبار أبي نواس . ٧٠ .

٣ اللزوميات ١ - ١١٨ .

الله ينقل من شاة رتبة بعد رتبة  
ابدى العتاهي نسكاً وقاب عن حب عتبه

وعن المسعودي ان ابا العتاهية لبس الصوف لياسه من عتبه<sup>١</sup>. وكان ذلك أيام الرشيد، وقد آثر السجن على ان يرجع بعدها الى قول الغزل<sup>٢</sup>. أما انه احب هذه الجارية حباً شديداً فذلك ما اجمع عليه المؤرخون، واليك بعضاً من غزله فيها:

يا عتب سيدي اما لك دينُ حتى متى قلبي لديك رهينُ  
وانا الذلول لكل ما حملتني وانا الشقي البائس المسكين  
وانا الغداة لكل باك مسعدٌ ولكل حبٍ صاحبٍ وخدين  
لا بأس إن لذاك عندي راحة للصب ان يلقي الحزين حزين  
يا عتب اين اقرت منك اميرتي وعليّ حصن من هواك حصين

وقال من قصيدة:

كأنها من حسنها درّة اخرجها اليمّ إلى الساحل  
كأنما فيها وفي طرفها سواحرّ اقبلن من بابل  
لم يبق مني حبّها ما خلا حُشاشةً في بدن ناحل

ويذكر الحصري ان ابا العتاهية ضرب مئة سوط ونفي إلى الكوفة من اجل غزله بعتبه، وان المهدي قال حين نفاه: «ابي يتعرّس ولحرمي يتعرّض وبنسائي يعبت<sup>٣</sup>!». وجاء لابن قتيبة انه حبسه، ثم تشفّع له يزيد بن منصور خال المهدي فاطلقه<sup>٤</sup>. والظاهر انه خاف المهدي فانقطع عن ذكر الجارية. فلما مات عاد امله فطلبها من الرشيد كما روى المسعودي ولكنه باء بالفشل. وبين اول حبه لعتبه وياسه من الحصول عليها

١ المسعودي ج ٧ - ٣٣٦.

٢ الاغاني ٣ - ١٤٠.

٣ زهر الآداب ٢ - ٣٦.

٤ الشعر والشعراء (ليدن) ٤٩٨.

نحو من عشرين سنة بقيت فيها شرارة الحب مشتعلة برغم كل الموانع ،  
وبرغم انه كان متزوجاً . وهو حب شديد وغريب في عصر كعصره ،  
يذكرنا بحب شاعر ايطاليا لفتاته بياتريس وما كان له من التأثير في نفسه  
كل حياته .

من فشل دانتى نشأت الكوميديا الالهية . فهل من فشل ابي العتاهية نشأ  
شعره الزهدي ؟ قد يكون ذلك .

على ان في مسلكه الزهدي ما راب بعض اهل زمانه . وتحدّر هذا  
الريب بصحة زهده إلى الاجيال التالية . هذا ابو العلاء المعري يقول في  
البيتين الآنفى الذكر « ابدى العتاهي نسكاً » . وفي العبارة ما فيها من  
الشك في ذلك النسك . وهناك حكايات لمعاصريه تتمّ على روح الاستخفاف  
بتزهده ، وتتهمه بالادعاء والتظاهر . من ذلك ما رواه الاصفهاني عن  
ثمامة بن أشرس قال : « انشدني ابو العتاهية :

إذا المرء لم يُعتق من المال نفسه تملكه المال الذي هو مالكة  
الا انما مالي الذي انا منفق وليس لي المال الذي انا تاركه  
إذا كنت ذا مال فبادره بالذي يحقّ والا استهلكته مهالكه

فقلت له من اين قضيت بهذا ؟ فقال من قول رسول الله ( ص ) : انما لك  
من مالك ما اكلت فافنيت ، او لبست فأبليت ، او تصدقت فامضيت .  
فقلت له اتؤمن ان هذا قول رسول الله ( ص ) وانه الحق ؟ قال نعم .  
قلت فلمّ تحبس عندك سبعمائة وعشرين بدرّة في دارك ، ولا تأكل منها  
ولا تشرب ولا تزكّتي ، ولا تقدّمها ذخراً ليوم فقرك ؟ فقال : يا ابا معن ،  
والله ما قلت لهو الحق ، ولكنني اخاف الفقر والحاجة إلى الناس . فقلت  
وبما تزيد حال من افتقر على حاله ، وانت دائم الحرص ، دائم الجمع  
شحيح على نفسك لا تشتري اللحم إلا من عيد إلى عيد ؟ فترك جواب  
كلامي كله ، ثم قال لي : والله لقد اشتريت في يوم عاشوراء لحماً وتوابله  
وما يتبعه بخمسة دراهم . فلما قال هذا القول اضحكني حتى اذهلني عن

جوابه ومعاتبته ، فامسكت عنه وعلمت انه ليس ممن شرح الله صدره  
للاسلام ، ١ .

وروى الحصري عنه الحديث التالي قال : « دخل ابو العتاهية على ابنه  
محمد وقد تصوّف : فقال ، ألم أكن قد نهيتك عن هذا ؟ ( أي عن التصوّف ) ،  
فقال ابنه : وما عليك ان اتموّد الخير ؟ فأخذ ابو العتاهية يؤنّبه ويقرّعه ،  
ثم قال له : اقبل على سوقك فانها لأعود اليك . وكان ابنه بزّازاً ٢ ، . وامثال  
هذه الحكايات كثيرة تجدها في الاغاني وسواه . ولعل ذلك ما حمل سلم  
ابن عمرو الملقب بالخاسر ان يغضب حين انشد ابو العتاهية قصيدته التي  
يقول فيها مخاطباً سلماً بهذين البيتين :

تعالى الله يا سلم بن عمرو اذلّ الحرص أعناق الرجال  
هب الدنيا تساق اليك عفواً اليس مصير ذاك إلى الزوال

فقال سلم : « ويلى على الجرّار الزنديق ، جمع الاموال وكنزها وعبأ  
البدر في بيته ثم تزهد مراآة ونفاقاً ، فأخذ يهتف بي إذا تصدّيت  
للطلب . ٣ » وقال الجمّاز ابن اخت سلم ويرويها ياقوت لسلم نفسه :

ما أقبح التزهيد من واعظ يزهد الناس ولا يزهد  
لو كان في تزهيده صادقاً اضحى وامسى بيته المسجد  
يخاف ان تنفد ارزاقه والرزق عند الله لا ينفد

وانك إذا تحريت الحكايات الكثيرة التي ينقلونها عن ابي العتاهية تجد  
اساسها شك معاصريه بصدق تزهده . وهذا الشك مبني عندهم على ما  
يلي : ١ - سيرته الاولى ٢ - حرصه على المال ٣ - تبرّم الناس من الوعظ  
والانذار . وجل ما يقال هنا ان الرجل صدف عن سيرته الاولى ، وانه

١ الاغاني ٣ - ١٣٣ .

٢ زهر الآداب ٣ - ٢٢٥ .

٣ معجم الادباء لياقوت ٤ - ٢٤٨ .

لزم جانب التدين واتخذ الشعر الزهدي فناً فأجاد فيه<sup>١</sup> . ولم يكن زهده انقطاعاً عن الدنيا وترفعاً عن حطامها ، ولكن تقبيحاً لمسلك مترفها وانذاراً بسوء مصيرها ، واشباعاً لشهوة فنية لم يستطع الا اشباعها . وكان برغم ما يحكونه محترماً من معاصريه حتى ابي نواس<sup>٢</sup> .

### رسالة ابي العتاهية في شعره

لا يحمل شاعرنا في شعره رسالة جديدة ، ولا يضع مبادئ فلسفية خاصة . وإنما هو يعكس لنا روح الشرق الدينية : احتقار الحياة الدنيا وتعظيم الآخرة . اقرأ كل ديوانه فلا ترى فيه إلا دعوة الى ترك الجهاد في سبيل التقدم ، والتحرر من قيود المطامع .

حتى متى يستفزني الطمع      أليس لي بالكفاف متسع  
ما افضل الصبر والقناعة      للناس جميعاً لو انهم قنعوا  
واخدع الليل والنهار لاقوام      اراهم في الغي قد رتعوا  
لله درّ الدنى فقد لعبت      قبلي بقوم فما ترى صنعوا  
اثروا فلم يدخلوا قبورهم      شيئاً من الثروة التي جمعوا  
وكان ما قدّموا لانفسهم      أعظم نفعاً من الذي ودعوا

وقال :

طلبت الغنى في كل وجه فلم اجد      سبيل الغنى الا سبيل التعفف  
خليلي ما اكفى اليسير من الذي      نحاول ان كنا بما عفّ نكتفي  
وما اكرم العبد الحريص على الندى      واشرف نفس الصابر المتعفف

فانت في ذلك وفي سائر شعره امام منبر واعظ يرشدك الى سبل القناعة ،

١ قال الخطيب البغدادي : كان يقول في الغزل والمديح والهجاء قديماً ثم تنسك وعدل عن ذلك الى الشعر في الزهد وطريقة الوعظ - تاريخ بغداد ٦ - ٢٥١ .

٢ راجع في المصدر نفسه حديث ابي نواس واجلاله لابي العتاهية حتى قال : ما رأيت قط إلا قوهت انه ساري وانا أرضي .

سبل الخير كما ينص عليها الدين . ولكن في وعظه شاعرية جليظة ولحناً شجياً يخفف عليك مشقة الأصفاء إلى الوعظ ولا سيما من واعظ يُعرف فيه الحرص وحب المال . وهو واعظ الموت والظلام ولكن في نبراته ما يجذبك إليه .

واي شيء أدلّ على شاعريته من ان يحملك الى المقابر فيقف بك هناك أمام الجثث البالية والعظام النخرة ، ثم يصف لك ظلام القبور واهوال الحمام ، ويندد بطماع الانسان وأباطيل الحياة في شعر يثير شجونك ويزيل بهجة الدنيا من أمامك . وانت مع كل ذلك تسمع في أبياته ايقاعاً يجلو لأذنيك ، فتصغي اليه مسروراً ، وتشعر منه بنشوة خفية تملأ قلبك وتحرك عواطفك .

لدوا للموت وابنوا للخراب      فكلكم يصير إلى تباب  
لمن نبني ونحن إلى تراب      نصير كما خلقنا من تراب

صوت شجيّ تقف لديه معتبراً خاشعاً ، ولكنك لا تلبث ان تعيده لنفسك فتنسى يجماله قتام الموت وعبوسة القبر . ثم تسمعه يقول :

ألا يا موت لم أرَ منك بدأ      أتيت وما تحيف وما تحايي  
كأنك قد هجمت على مشيبي      كما هجم المشيب على الشباب  
وانك يا زمان لدو صروف      وانك يا زمان لدو انقلاب  
أراك وان طليت بكل وجه      كحلم النوم أو ظلّ السحاب

فتنظر الى الموت نظرك إلى صديق مؤاس يأتي ليخلصك من الزمان، وينقلك الى ظلال الجنان . ولماذا ترى الموت كذلك وهو الرهيب المخوف ؟ لأن الشاعر يضرب على وتر شجيّ يهيج فيك حاسة الاستحسان ، فيطربك ويلقي على ما حولك من فساد ورعب مسحة من جمال الفن الشعري الذي يحول الظلام الى نور ، والرعب الى أمن وطمأنينة .

ولتثبت ذلك في نفسك اسمع الابيات التي يصف بها طمع الانسان



ووجوب القناعة وزوال الدنيا - وما تلك بمواضيع تلذ الانسان عادة ، ثم  
اشرح شعورك لدى سماعها .

ألم ترَ ريب الدهر في كل ساعة      له عارض فيه المنية تلمح  
ايا بانيَ الدنيا لغيرك تبتني      ويا جامع الدنيا لغيرك تجمع  
أرى المرء وثاباً إلى كل فرصة      وللمرء يوماً لا محالة مصرع  
تبارك من لا يملك الملك غيره      متى تنقضي حاجات من ليس يشبع  
واي امرئ في غاية ليس نفسه      الى غاية أخرى سواها تطلع  
وقوله :

خليلي كم من ميت قد حضرته      ولكنني لم انتفع بحضوري  
ومن لم يزد السن ما عاش عبدة      فذاك الذي لا يستنير بنور  
أصبت من الأيام لينَ أعنة      فاجريتها ركضاً ، ولينَ ظهور  
متى دام للدنيا سرور لأهلها      فأصبح منها واثقاً بسرور  
وقوله :

رجعت الى نفسي بفكري لعلها      تفارق ما قد غرما وأذها  
فقلت لها يا نفس ما كنت آخذاً      من الارض لو اصبحت املك كلها ؟  
فهل هي الا شبعة بعد جوعتي      والا متى قد حان لي ان أملها  
أرى لك نفساً تبتغي ان تعزها      ولست تعز النفس حتى تذها

الى غير ذلك من العظات الروحية البالغة ، مما يستهوي النفس برغم  
ما يتراءى فيه من أهوال الموت وكلاحة الورع والزهد . وكل ديوانه على  
هذا النمط العالي ولا يعيبه الا انه على وتيرة واحدة - موضوع واحد  
يرده في قصائد مختلفة الوزن والروي .

ولا بد لنا في هذا المقام من ان نقف هنيهة نقابل الروح «النواسية»  
بالروح «المتاهية» فانما الشاعر روحه ، وما شعره الحقيقي الا مجلى  
لعواطفه الداخلية .

## ابو العتاهية وابو نواس

كلاما متشائم : هذا في زهوه وسروره ، وذاك في تزهده وتقديره .  
ابو نواس لم يدرك قيمة الحياة ولم يفهم مراميها العالية فانفق نفسه وهواه  
في سخائفها ، وابو العتاهية اخطأ الغاية من وجود الفرد ومن علاقته  
بالمجتمع ، فنعى عليه ذلك ودعاه الى نبذ الدنيا والاهتمام بالآخرة . وكلامها  
مخطيء : ذاك لافراطه في أباطيلها ، وهذا لافراطه في التزهيد بها . ولو ائنا  
جارينا شاعرنا في أقواله وقمنا بما يطلبه في عظاته لتحتم علينا ان نقف  
كل جهاد وكل سعي ، ونعيش عيشة الخمول والقناعة . واين هذا من  
الرقى الاجتماعي الذي يتطلب من كل فرد ان يسعى ويجد ليدرك أقصى  
ما يستطيع ادراكه .

سأقنع ما بقيت بقوت يومٍ ولا ابغي مكاثرة بمالٍ  
تعالى الله يا سلم بن عمرو اذل الحرص اعناق الرجال  
فما ترجو لشيء ليس يبقى وشيكاً ما تغيره الليالي

هي الروح الشرقية القديمة التي تحتقر الدنيا وتنظر اليها كمرّ زائل  
لحياة عليا . نظرٌ تعكسه لنا كتب الدين ، وأقوال الأنبياء والأتقياء وقادة  
الحياة الدينية في كل جيل . وائنا اذا فسرنا القناعة (أو الزهد) بانها لجام  
الشهوات الفاسدة والاطماع الثائرة والتعالي عن الطبيعة الحيوانية التي تدعونا  
الى التعدي وحب الاثرة ، كانت القناعة حكمة اجتماعية عالية ، بل صدق  
الداعون اليها انها باب السعادة الدنيوية . واما إذا كانت كما يصفونها  
الوقوف عن الجهاد ، والبعد عن أسباب التقدم ، وطلب الراحة في زوايا  
المناسك ، والظهور بمظهر الفقر والتصوّف ، فهي الخمول الذي يزيد  
اكدار الانسان ويبعده عن سعادته المنشودة . وهنا وجه الضعف في رسالة  
ابي العتاهية : انه قام ينشد لنا اناشيد الدين دون ان يتفنن في تطبيقها  
على الحياة العملية ، وكان في شعره يقلد الزهاد ورجال الدين تقليداً .

والا ففي وسع من كان في قدرته الشعرية ان يستخلص من حياة عصره  
صوراً اجتماعية عالية يصورها فيرينا بها جمال الفضائل الدينية والآداب  
القومية ، او قباحة اضدادها ، على نحو ما يفعل الاجتماعيون من شعراء  
وناثرين .

### حكيمه

ولأبي العتاهية في هذا الضرب من المنظوم مكانة عالية - فهو قدير  
بضرب الأمثال وعقد جوامع الحكمة في أبيات شعرية جميلة : واليك  
أمثلة من ذلك :

أخوك الذي من نفسه لك منصف إذا المرء لم ينصفك ليس أخاكا

\* \* \*

وليس امرؤ لم يرع منك يجهده جميع الذي ترعاه منه بمنصف

\* \* \*

هب الدنيا تساق اليك عفواً أليس مصير ذاك إلى الزوال

\* \* \*

وذقت مرارة الأشياء طرّاً فما طعمٌ أمرٌ من السؤال

\* \* \*

أجلتكم قوم حين صرت إلى الغنى وكلّ غنيّ في العيون جليل  
وليس الغنى إلا غنى زين الفتى عشيّة يقري أو غداة ينيل  
إذا مالت الدنيا إلى المرء رغبت إليه ومال الناس حيث يميل

\* \* \*

توقّ يداً تكون عليك فضلاً فصانها اليك عليك عالٍ

طلبت المستقرّ بكل ارض      فلم أرَ لي بأرض مستقرًا  
اطعتُ مطامعي فاستعبدتني      ولو اني قنعت لكنت حرًا  
\* \* \*

لقد حلبت الزمان اشطوره      فكان فيهنّ الصاب والسَّلْع  
مالي بما قد اتى به فرح      ولا على ما ولى به جزع  
\* \* \*

صاحب البغي ليس يسلم منه      وعلى نفسه بغي كل باغ  
\* \* \*

الله دنيا اناس دائبين لها      قد أرتعوا في رياض الغي والفتن  
كسائمات رناعٍ تبتغي سيمنا      وحتفها لو درت في ذلك السمن  
\* \* \*

واي امرىء في غاية ليس نفسه      إلى غاية اخرى سواها تطلع  
\* \* \*

وابلائي من دعاوي أملٍ      كلما قلت قداني بعدا  
كم امنى بغير بعد غدٍ      ينفد العمر ولا القى غدا  
\* \* \*

ألم ترَ ان الفقر يرجى له الغنى      وأن الغنى يخشى عليه من الفقر  
\* \* \*

فتشت ذي الدنيا فليس بها      احد أراه لآخر حامد  
حتى كانت الناس كلهم      قد أفرغوا في قالب واحد  
\* \* \*

ما اختلف الليل والنهار ولا      دارت نجوم السماء في الفلك  
الا لنقل السلطان عن ملك      قد انقضى ملكه إلى ملك  
\* \* \*

انت ما استغنيت عن صاحبك الدهر اخوه

فاذا احتجت اليه ساعة مجتك فوه

وله ارجوزة حكمية جمع فيها كثيراً من الامثال البليغة .

وقد ذكر صاحب الاغاني انها تبلغ نحو أربعة آلاف مثل ، على انه لم يثبت منها غير بضعة وعشرين مثلاً . أما في ديوان ابي العتاهية فقد نقل منها ما يقارب الخمسين ، ولم نعثر عليها كلها أو على معظمها في كتاب ما ، ولعلها ضاعت في جملة ما ضاع من كتب الاولين .

وأكثر حكمها عاديّ على ان فيها كثيراً مما يبلغ الدرجة الاولى من الجمال .

كقوله :

ان كان لا يغنيك ما يكفيك فكل ما في الارض لا يغنيك

وقوله :

لن يصلح الناس و انت فاسد هيات ما أبعد ما تكابد

وهو معنى في غاية الجمال يريد بذلك ان المجتمع لا يصلح ما لم يصلح كل فرد ذاته .

وقوله :

من جعل النمام عيناً هلكا مُبلغك الشر كباغيه لكما

وهو معنى متداول مألوف ولكنه جميل .

ومن أجمل معانيه قوله :

يوسّع الضيق الرضا بالضيق وإنما الرشد من التوفيق

ولو أردنا التوسع في الشطر الاول من هذا البيت لضاق بنا المقام وهو من أثبت الحقائق العقلية والاجتماعية .

وهناك كثير من أمثال هذه الأبيات وهي تدل على مقدرة الشاعر على سبك الحقائق في قوالب شعرية جميلة . وعلى ان حكمه عموماً محدودة المعنى فهو يحرصها في منحى واحد من مناحي الحياة ، ويظهر فيها بمظهر المرشد المنذر ، والحكيم الواعظ . ولو قابلتها بحكم المتنبي مثلاً لوجدت هذه أوثق علاقة بماجريات الحياة ، وبالتالي أكثر شيوعاً بين جميع الطبقات . وما الفرق بين أبي العتاهية والمتنبي في هذا الباب إلا أن الاول بنى حكمه على ما تتطلبه حياة الزهد ، فجاءت على حسن نظمها مقيدة بغايتها . وأما الثاني فخاض غمار الحياة ، وعرف حلوها ومرها . وقد ترك لنا اختبارات في ابيات يستهوي القلوب جمالها ، لصدق ما ترسمه من أحوال العمران ، ولشدة مماثلتها لما يشعر به كل انسان .

### شاعريته وشعره

قال صاحب الاغانى : « ويقال اطبع الناس بشار والسيّد واو العتاهية . وكان أبو العتاهية غزير البحر لطيف المعاني سهل الالفاظ كثير الافتنان قليل التكلف إلا أنه كثير الساقط المرذول مع ذلك . وأكثر شعره في الزهد والامثال » . على انه برغم ذلك كان من الطبقة الاولى في النظم .

قال احمد بن زهير : سمعت مصعب بن عبدالله يقول ، ابو العتاهية اشعر الناس فقلت بأي شيء استحق ذلك فقال بقوله :

تعلّقتُ بآمال	طوال أيّ آمال
واقبلت على الدنيا	ملحاً أيّ اقبال
يا هذا تجهّز لي	فراق الأهل والمال
فلا بدّ من الموت	على حال من الحال

ثم قال مصعب : « هذا كلام سهل لا حشو فيه ولا نقصان <sup>١</sup> يعرفه العاقل ويقرّ به الجاهل » . وقال ابن الاعرابي وقد أثاره رجل رمى ابا العتاهية بالضعف « فوالله ما رأيت شاعراً قط اطبع ولا اقدر على بيت منه ، وما احسب مذهبه الا ضرباً من السحر » <sup>٢</sup> .

وسمع الجاحظ مرّة من يفسد ارجوزة ابي العتاهية التي سماها ذوات الأمثال حتى أتى على قوله :

يا للشباب المرّح التصابي روائح الجنة في الشباب

فقال للمنشد قف . ثم قال أنظر إلى قوله « روائح الجنة في الشباب » فإن له معنى كمنى الطرب لا يقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الألسنة الا بعد التطويل وادامة التفكير . وخير المعاني ما كان القلب الى قبوله أسرع من اللسان الى وصفه <sup>٣</sup> .

وكان الأصمعي يقول شعر أبي العتاهية كساحة الملوك يقع فيها الجواهر والذهب والتراب والحزف والنوى .

وفي الأغاني سئل ابن مناذر عن أشعر أهل الاسلام فقال : من إذا شئت هزل وإذا شئت جدّ فمثل جرير ، ومن المحدثين هذا الخبيث ( أي أبو العتاهية ) الذي يتناول شعره من كنه <sup>٤</sup> .

وقال المبرّد كان اسماعيل بن القاسم ( أبو العتاهية ) لا يكاد يخلي شعره مما تقدم من الاخبار والآثار ، فينظم ذلك الكلام المشهور ، ويتناوله أقرب متناول ، ويسرقه أخفى سرقة <sup>٥</sup> .

والمأمل شعر أبي العتاهية يثبت لديه جلّ ما ذكرناه من وصف واصفيه

١ الاغاني ( بولاق ) ٣ - ١٣٠ .

٢ الاغاني ( بولاق ) ٣ - ١٣١ .

٣ الاغاني ٣ - ١٤٣ .

٤ الاغاني ٣ - ١٥٤ .

٥ الكامل ١ - ٢٣٨ .

وأهم خصائصه الفنيّة ثلاث :

١ - سهولة الألفاظ وهي مذهبه في جميع قصائده .

نقل الاصفهاني قوله لابن أبي الأبيض وقد جاء يستزيده من شعره .  
« فالصواب ان تكون ألفاظه بما لا تخفى على جمهور الناس مثل شعري ،  
ولا سيما الأشعار التي في الزهد . وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد  
وأصحاب الحديث والفقهاء ، وأصحاب الرياء ( كذا ) والعامّة ، وأعجب  
الاشياء اليهم ما فهموه ١ . » وأنشد مرة أبياتاً أمام سلم الخاسر فقال  
سلم لقد جوّدتها لو لم تكن سوقية . فقال أبو العتاهية والله ما يرغبني  
فيها الا الذي زهدت فيه ٢ . وقد عرف له نقدة الشعر ذلك . قال ابن  
رشيقي : ومنهم من ذهب الى سهولة اللفظ واغتفر فيها الركافة واللين  
المفرط كأبي العتاهية والعباس بن الاحنف ومن تابعها ٣ وهم يرون  
الغاية قول أبي العتاهية :

يا اخوتي ان الهوى قاتلي	فسيروا الأكفان من عاجل
ولا تلوموا في اتّباع الهوى	فإنني في شغل شاغل
عيني على عتبة منهلة	بدمعها المنسكب السائل
يا من رأى قبلي قتيلاً بكى	من شدة الوجد على القاتل
بسّطت كفي نحوكم سائلاً	ماذا تردّون على السائل

وقد ذكر ابن أبا العتاهية وأبا نواس والحسن بن الضحاك اجتمعوا  
يوماً فقال أبو نواس لينشد كل واحد منكم قصيدة لنفسه في مراده من  
غير مدح ولا هجاء فأنشد أبو العتاهية هذه القصيدة فسلبها له وامتنعوا عن  
الانشاد بعده وقالوا اما مع سهولة هذه الألفاظ وملاحة هذا القصد وحسن  
هذه الاشارات فلا ننشد شيئاً .

١ الاغاني ٣ - ١٦١ .

٢ الاغاني ٣ - ١٧٣ .

٣ العمدة ١ - ٨١ .



٢ - رشاقة التعبير : وهي من مزايا الشعراء المطبوعين ويراد بها البعد عن التكلف والتعقيد . تقرأ قصائد ابي العتاهية فتجدها رشيقة المبني تسيل عذوبة وطلاوة . وقد صدق الخطيب البغدادي اذ قال : « وكان سهل القول قريب المأخذ بعيداً عن التكلّف متقدماً في الطبع » . تأمل هذه الأبيات التي قالها أمام المهدي يعزّيه في بنت له ماتت فحزن عليها حزناً شديداً . قال شاعرنا فوافيته وقد سلا وضحك وأكل وهو يقول : لا بد من الصبر على ما لا بد منه . ولئن سلونا عن فقداننا لسلوننا عنا من يفقدنا . وما يأتي الليل والنهار على شيء إلاّ أبلّياه » . فلما سمعت هذا منه قلت يا أمير المؤمنين أتأذن لي ان أنشدك . قال هات ، فأنشدته :

ما للجديدين لا يبلى اختلافهما	وكل غضٍّ جديد فيهما بال
يا من سلا عن حبيب بعد موته	كم بعد موتك أيضاً عنك من سال
كانّ كلّ نعم أنت ذائقه	من لذة العيش يحكي لمعة الآل
لا تلعبنّ بك الدنيا وأنت ترى	ما شئت من عبرٍ فيها وأمثال
ما حيلة الموت إلا كل صالحة	او لا فما حيلة فيها لمحتال

وروي ان أبا العتاهية مرّ بأبي نواس في السكة ومعه بعض الرفاق ، فسلم ثم أوما برأسه الى نواس وأنشأ يقول :

لا ترقدنّ - لعينك السهر -	وانظر الى ما تصنع الغيّر
واذا سألت فلم تجد أحداً	فسل الزمان فعنده الخبر
أنت الذي لا شيء تملكه	واحق منك بمالك القدر

فنظر ابو نواس الى من حوله وقال : « أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون » ٢ .

ومثل هذه الشهادة شهدها بشار يوم أنشد شاعرنا قصيدته في المهدي :

١ تاريخ بغداد (مصر) ٦ - ٢٥١ .

٢ تاريخ بغداد ٦ - ٢٥٩ .

ألا ما لسيدتي ما لها أدلاً فاحمل ادلالها

وقد مرّ معنا ذكرها .

وفي رشاقة شعره يقول ابن الأثير<sup>١</sup> : « وهذا ابو العتاهية كان في عزّ الدولة العباسية ، وشعراء العرب إذ ذاك موجودون كثيراً . وإذا تأملت شعره وجدته كالماء الجاري رقة ألفاظٍ ولطافة سبك ، وليس بركيك ولا واه . » وحكم ابن الاثير فيه حكم خبير الا انه تغاضى عن بعض ركاكته كما سترى بعد .

٣ - سرعة الخاطر وما يقترن بذلك أحياناً من الركاكة ، قيل له كيف تقول الشعر؟ قال ما أردته قط الا مثل لي فأقول ما أريد وأترك ما لا أريد . وكان يقول لو شئت أن أجعل كلامي كله شعراً لفعلت<sup>٢</sup> . ووصفه ابن قتيبة بقوله : « وكان احد المطبوعين ومن يكاد يكون كلامه كله شعراً » .

فهو سريع الخاطر واذا صح ما ذكرناه من وصف الأصمعي له لم يكن من الذين يمتنون بغيرلة أبياتهم وطرح ما يجب طرحه . وقد تناول المرزباني هذه الناحية من شعر أبي العتاهية وذكر اقوال الناس فيها وأورد له بعض ما يعيبونه من شعره كقوله في عتبة :

الا يا عتبة الساعة أموت الساعة الساعة

وقوله في رثاء سعيد بن وهب :

---

١ المثل السائر ١٠٥ .

٢ الاغاني ٣ - ١٣١ .

مات والله سعيدُ بن وهبٍ رحم الله سعيد بن وهب  
يا ابا عثمان ابكيت عيني يا ابا عثمان اوجعت قلبي  
وغير ذلك من القول السخيف الذي تناقله الرواة من شعره<sup>١</sup> .  
فكان كثيراً ما تأتي ألفاظه مكررة لا فائدة منها كقوله :

مَنْ أَحْسَّ لِي أَهْلَ الْقُبُورِ وَمَنْ رَأَى مِنْ أَحْسَّتِهِمْ لِي بَيْنَ طَبَاقِ الثَّرَى  
مَنْ أَحْسَّ لِي مَا كُنْتُ آلفُهُ وَيَأْلَفُنِي فَقَدْ انْكَرْتُ بَعْدَ الْمُلْتَقَى  
مَنْ أَحْسَّهُ لِي إِذْ يَمَاجُ غُصَّةً مَتَشَاغِلًا بِعِلَاجِهَا عَمَّنْ دَعَا  
مَنْ أَحْسَّهُ لِي فَوْقَ ظَهْرِ سَرِيرِهِ يَمْشِي بِهِ نَفْرًا إِلَى بَيْتِ الْبَلَى  
يَا أَيُّهَا الْحَيُّ الَّذِي هُوَ مَيِّتٌ أَفْنَيْتَ عَمْرَكَ فِي التَّعَلُّلِ وَالْمَنَى  
فلو وثبتَ فوق البيت الثالث والبيت الرابع ، حتى وفوق الثاني أيضاً  
لكان الاتصال بين الاول والأخير أشد ولم يخسر المعنى شيئاً يذكر .  
ناهيك بركاكة الفعل أحسَّ واستعمال الوصل بعد القطع فيه . وكذلك  
قوله :

أين الحماة الصابرون حميةً	يوم الهياج لحرّ مختلف القنا
وذوو المنابر والعساكر والدسا	كر والحضائر والمدائن والقرى
وذوو المواكب والكتائب والنجائب	والمراتب والمناصب في العلى
أفناهم ملك الملوك فأصبحوا	ما منهم أحد يحسّ ولا يرى
وهو الحقيّ الظاهر الملك الذي	هو لم يزل ملكاً على العرش استوى
وهو المقدر والمدبّر خلقه	وهو الذي في الملك ليس له سوى
وهو الذي يقضي بما هو أهله	فيما ولا يقضى عليه اذا قضى

فانظر التكرار غير المفيد في البيت الثاني والثالث ، ثم تأمل تكريره  
لصفات الله في الابيات الثلاثة الاخيرة . وكله من قبيل سرعة الخاطر  
وتزاحم الالفاظ على المعنى الواحد .

١ راجع ذلك في الموشح ٢٥٦ - ٢٦١ .

واقراً هذه الأبيات من قصيدته التي مطلعها « لمن طلل أسائله معطّة  
منازله ، واحكم لنفسك فيما نحن بصده من ميله الى الاطالة والتكرار  
وعدم الغريبة :

أيتها المقابر فيك من كنا ننازلهُ  
ومن كنا نتاجرهُ      ومن كنا نعاملهُ  
ومن كنا نعاشرهُ      ومن كنا نداخلهُ  
ومن كنا نفاخرهُ      ومن كنا نطاوَلهُ  
ومن كنا نشاربه      ومن كنا نؤاكلهُ  
ومن كنا نرافقه      ومن كنا ننازله  
ومن كنا نكارمه      ومن كنا نجاملهُ  
ومن كنا له إلفاً      قليلاً ما نزاوَلهُ  
ومن كنا له بالأمس اخواناً نواصلهُ

وقوله يتمجج بمن لا يهتم بآخرته :

سبحان ربك ما أراك تتوبُ      والرأس منك بشيبة مخضوبُ  
سبحان ربك ذي الجلال أما ترى      نوب الزمان عليك كيف تنوبُ  
سبحان ربك كيف يغلبك الهوى      سبحانه ان الهوى لغلوبُ  
سبحان ربك ما تزال وفيك عن      اصلاح نفسك فترةً ونكوبُ  
سبحان ربك كيف يلتذّ امرؤُ      بالعيش وهو بنفسه مطلوبُ

ومن ذلك قصيدة يذكر فيها الانسان وموته ونسيان الناس له قال فيها :

فاذا ما استودعوه الارض وهنأ تركوهُ  
خلفوه تحت رمس او قروهُ أثقلوهُ  
ابعدوه اسحقوه اوحدهوه افردهوهُ  
ودعوه فارقوه اسلموه خلفوهُ  
وانثنوا عنه وخلّوه كأن لم يعرفوهُ

وله مثل هذا كثير في ديوانه ، وهو راجع كما أسلفنا الى سرعة خاطره وتزاحم الالفاظ حول المعنى الواحد من معانيه وعدم اهتمامه بطرح الغث منها .

٤ - عدم التفنن في الخيال . ولا أريد بالخيال هنا اللطائف الشعرية فقط من تشبيه واستعارة وكناية وما شاكل ، بل اعني الخطة او الصورة التي يتخيلها الشاعر فيحمل الناس عليها الى غرضه . فأنت إذا طالعت ديوان ابي العتاهية لا تجد فيه الا موضوعاً واحداً يحوم حوله ويعرضه علينا عرضاً يكاد يكون واحداً - وصف القبور وأهوالها - فناء الاعراض الدنيوية ، فساد الانسان وعقاب الآخرة . ولقد تقرأ بضع قصائد منه فتستغني بها عن سائر الديوان . وإذا كان لك جلد الباحث وتحملت عناء قراءته ألفت نفسك أمام موسيقيّ شرقي يكرر عليك لحناً واحداً يكيّفه على « تقاسيم » شتى فيؤثر فيك ، ولكنك لا تلبث بعد مدة ان تشعر بملل من ذلك التكرار ، وبرغبة في استماع شيء جديد على تلك الأوتار . ليس لأبي العتاهية قلم الفنّان الاجتماعي الذي يرى الحياة بطولها ويعرضها فيستخلص منها مواضيع شائقة يتفنن في عرضها على الجمهور . نعم ان العصور تختلف من حيث السياسة وأسباب العمران ولكن الدوافع النفسية هي هي ، وما يحدث الآن كان يحدث في كل أوان .

لم يكن شاعرنا كثير الافتنان في انشاده ، بل كانت له وتر واحد ينقر عليه نغمات متماثلة مؤثرة ولكنها خالية من سعة التخيل والنفوذ الى مناطق الحياة الحقيقية .

فاذا قرنت ذلك بمزاياه الاخرى من سهولة المعنى وسلاسة المبنى فهمت لماذا يختلف النظر في حقيقته ، ولماذا يجمع في شعره بين السمو والاسفاف والبلاغة والركاكة .

## المختار من شعر أبي العتاهية

يقف على المقابر فينشد لنا نغمات الموت والآخرة . وبرغم انه  
يكررها ويرجعها على وتر واحد نجد فيها ايقاعاً  
يلدّ نفوسنا ويؤثر فيها

### في غرور الدنيا

نصبت لنا دون التفكير يا دنيا      امانى يفتى العمر من قبل ان تفتنى  
متى تنقضي حاجات من ليس واصلاً      الى حاجة حتى تكون له أخرى  
لكل امرئ فيما قضى الله خطته      من الأمر فيها يستوي العبد والمولى  
وان امرأ يسمى لغير نهاية      لمنغس في لجة الفاقة الكبرى

### في ذكرى الشباب

بكيت على الشباب بدمع عيني      فلم يغن البكاء ولا النحيب  
فيا أسفاً اسفت على شباب      نعاه الشيب والرأس الخضيب  
عريت من الثياب وكان غضاً      كما يعرى من الورق القضيب

## في زوال الدنيا

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَأَبْنُوا لِلْخِرَابِ فَكَلِّمُوا يَصِيرُ إِلَى تَبَابِ  
لِمَنْ نَبِيٍّ وَنَحْنُ إِلَى تَرَابِ نَصِيرُ كَمَا خُلِقْنَا مِنْ تَرَابِ  
أَلَا يَا مَوْتَ لَمْ أَرَ مِنْكَ بَدَأَ أَتَيْتَ وَمَا تَحِيفُ وَمَا تَحَابِي  
كَأَنَّكَ قَدْ هَجَمْتَ عَلَى مَشِيبي كَمَا هَجَمَ الْمَشِيبُ عَلَى شَبَابِي  
أَيَا دُنْيَايَ مَا لِي لَا أَرَانِي أَسُومَكَ مِنْزِلًا إِلَّا نَبَا بِي  
وَأَنَّكَ يَا زَمَانَ لَدُو صُرُوفِ وَأَنَّكَ يَا زَمَانَ لَدُو انْقِلَابِ  
فَمَا لِي لَسْتُ أَحْلِبُ مِنْكَ شَطْرًا فَاحْمَدُ مِنْكَ عَاقِبَةَ الْحَلَابِ  
وَمَا لِي لَا أَلْحَ عَلَيْكَ إِلَّا بَعَثْتَ أَهْمًا لِي مِنْ كُلِّ بَابِ  
أَرَاكَ وَإِنْ طَلَيْتَ بِكُلِّ وَجْهِ كَحُلْمِ النَّوْمِ أَوْ طَلَّ السَّحَابِ  
أَوْ الْإِمْسِ الَّذِي وَلَّتْ ذَهَابًا وَوَلَيْسَ يَعُودُ أَوْ لَمَعَ السَّرَابِ  
وَهَذَا الْخَلْقُ مِنْكَ عَلَى وَفَاةٍ وَأَرْجُلُهُمْ جَمِيعًا فِي الرِّكَابِ  
وَمَوْعِدُ كُلِّ ذِي عَمَلٍ وَسَعْيٍ بِمَا أَسَدَى غَدَاً دَارَ الثَّوَابِ  
تَقَلَّدْتُ الْعِظَامَ مِنَ الْخَطَايَا كَأَنِّي قَدْ أَمَنْتَ مِنَ الْعِقَابِ  
وَمَهِيَ دَمْتُ فِي الدُّنْيَا حَرِيصًا فَمَا لِي لَا أَوْفَّقُ لِلصَّوَابِ  
سَأَلْتُ عَنْ أُمُورٍ كُنْتُ فِيهَا فَمَا عَذْرِي هُنَاكَ وَمَا جَوَابِي  
بِأَيَّةِ حُجَّةٍ أَحْتِجُ يَوْمَ الْحِسَابِ إِذَا دُعِيتُ إِلَى الْحِسَابِ  
مَا أَمْرَانِ يَوْضَعُ عَنْهُمَا لِي كِتَابِي حِينَ أَنْظَرَ فِي كِتَابِي  
فَمَا أَنْ أَخْلَدَ فِي نَعِيمٍ وَإِنَّمَا أَنْ أَخْلَدَ فِي عَذَابِ

## في الحرية الحقيقية

طَلَبْتُ الْمُسْتَقَرَّ بِكُلِّ أَرْضٍ فَلَمْ أَرَ لِي بِأَرْضٍ مُسْتَقَرًّا  
أَطَعْتُ مَطَامِعِي فَاسْتَعْبَدْتَنِي وَلَوْ أَنِّي قَنَعْتُ لَكُنْتُ حُرًّا

## في أهل القبور

اخويّ مرّا بالقبور ر وسلّمًا قبل المسير  
 ثم ادعوا من عادها من ماجدٍ قرمٍ فخور  
 ومسودٍ رحبٍ الفناء اغرّ كالقمر المنير  
 يا من تضمّنه المقابر من كبير أو صغير  
 هل فيكم أو منكم من مستجار أو مجير  
 أو ناطق أو سامع يوماً بعرف أو نكير  
 أهل القبور أحبّتي بعد الجذالة والسرور  
 بعد الغضارة والنضارة والتنعم والحبور  
 بعد المشاهد والمجا لس والعساكر والقصور  
 بعد الحسن المسمعا ت وبعد ربّات الخدور  
 أصبحتم تحت الثرى بين الصفائح والصخور  
 أهل القبور اليكم لا بدّ عاقبة الامور

## في غرور المطامع

حتى متى يستفزّني الطمعُ أليس لي بالكفاف متسعُ  
 ما افضل الصبر والقناعة للناس جميعاً لو انهم قنعوا  
 واخذع الليل والنهار لأقوام أراهم في الغي قد رتعوا  
 أمّا المنايا فغير غافلة لكل حي من كأسها جرّعُ  
 أيّ لبيب تصفو الحياة له والموت وردّ له ومنتجعُ  
 يا نفس ما لي اراك آمنة حيث يكون الروعات والفرع  
 ما عدّ للناس في تصرف حالاتهم من حوادث تقعُ  
 لقد حلت الزمان اشطّره فكان فيهنّ الصاب والسّلعُ



ما لي بما قد أتى به فرحٌ  
 لله درّ الدنى لقد لعبت  
 بادوا ووفتتهم الأهلة ما  
 أثروا فلم يدخلوا قبورهم  
 وكان ما قدموا لانفسهم  
 غداً ينادى من القبور الى  
 غداً توفسى النفوس ما كسبت  
 تبارك الله كيف قد لعبت  
 شئت حبّ الدنى جماعتهم  
 ولا على ما ولى به جزعٌ  
 قبلي بقوم فما ترى صنعوا  
 كان لهم والايام والجمع  
 شيئاً من الثروة التي جمعوا  
 أعظم نفعاً من الذي ودعوا<sup>١</sup>  
 هول حساب عليه يجتمع  
 ويحصد الزارعون ما زرعوا  
 بالناس هذي الأهواء والبدع  
 فيها فقد أصبحوا وهم شيعٌ

### في شرف العفاف والرضى

متى تتقضى حاجة المتكلفِ  
 طلبت الغنى في كل وجه فلم أجد  
 اذا كنت لا ترضى بشيء تناله  
 فلست من الهمّ العريض بخارج  
 أراني بنفسى معجباً متعزّزاً  
 وإني لعينُ البائس الواهن القوى  
 وليس امرؤٌ لم يرع منك يجده  
 خليليّ ما أكفى اليسير من الذي  
 وما أكرم العبد الحريص على الندى  
 ولا سيما من مترف النفس مسرفِ  
 سبيل الغنى إلا سبيل التعفّف  
 وكنت على ما فات جمّ التلهّف  
 ولست من الغيظ الطويل بمشتف  
 كأني على الآفات لست بمشرف  
 وعين الضعيف البائس المتطرف  
 جميع الذي ترعاه منه بمنصف  
 نحاول إن كنا بما عفا نكتفي  
 وأشرف نفس الصابر المتعفّف

### في ضرورة التقى

يليت وما تبلى ثياب صباكا كفاك من اللهو المضرّ كفاكا

١ ودعوا تركوا .

ألم ترَ ان الشيب قد قام ناعياً  
تسمع ودع من أغلق الغي سمعه  
ألا ليت شعري كيف أنت اذا القوي  
تمنيتَ حتى نلتَ ثم تركتها<sup>١</sup>  
اذا لم تكن في متجر البر والتقوى  
اذا أنت لم تعزم على الصبر للاذى  
اذا كنت تبغي البر فاكف عن الأذى  
أخوك الذي من نفسه لك منصف  
مقام الشباب الغض ثم نعاكا  
كأني بداعٍ قد أتى فدعاكا  
وهت واذا الكرب الشديد علاكا  
تنقل بين الوارثين مناكا  
خسرت نجاة واكتسبت هلاكا  
رمى الذي منه الأذى ورماكا  
وما البر إلا ان تكف اذاكا  
اذا المرء لم ينصفك ليس أخاكا

### في فناء الحياة ومرارة الحرص

نمى نفسي إليّ من الليالي<sup>٢</sup>  
فما لي لست مشغولاً بنفسي  
لقد أيقنت اني غير باق  
أما لي عبرة في ذكر قوم  
كان ممرّضي قد قام يمشي  
وخلفي نسوة يبكين شجواً  
سأقنع ما بقيت بقوت يوم  
تعالى الله يا سلّم بن عمرو  
هب الدنيا تساق اليك عفواً  
فما ترجو لشيء ليس يبقى -  
خبرت الناس قيرناً بعد قرن  
وذقت مرارة الأشياء طرّاً  
تصرّفهنّ حالاً بعد حال  
وما لي لا أخاف الموت مالي  
ولكنني أراني لا أبالي  
تفانوا ربما خطرنا ببالي  
بنعشي بين أربعة عجال  
كأن قلوبهنّ على مقال  
ولا أبغي مكاثرة بمال  
اذلّ الحرص أعناق الرجال<sup>٣</sup>  
أليس مصير ذلك الى الزوال  
وشيكاً ما تغيّره الليالي  
فلم أر غير ختال وقال  
فما طعم أمر من السؤال

١ الضمير يرجع الى الدنيا .

٢ وفي رواية - إلى مر الليالي .

٣ يخاطب الشاعر المعروف بسلم الخاسر ، وقد مر ذكره .

## في المنية وبطشها

لمن طلل أسائله معطلة منازله  
غداة رأيت تنعى اعاليه أسافله  
وكنت أراه مأهولاً ولكن باد أهله  
وكلّ لاعتساف الدهر معرضة مقاتله  
فيصرع من يصارعه وينضل من يناضله  
ينازل من يهيم به وأحياناً يخاتله  
وأحياناً يؤخره وتارات يعاجله  
وكم قد عزّ من ملك تحف به قنابله  
يخاف الناس صولته ويرجى منه نائله  
ويشفي عطفه مرحاً وتمجبه شمائله  
فلما ان اتاه الحقّ ولتى عنه باطله  
فغمّض عينه للموت واسترخت مفاصله  
رأيت الحقّ لا يخفى ولا تخفى شواكله  
ألا فانظر لنفسك أيّ زاد انت حامله  
لمنزل وحدة بين المقابر انت نازله  
قصير السمك قد رصت عليك به جنادله  
بعيد . تزاور الجيران ضيقة مداخله  
ألا إن المنية منهل الخلق ناهله  
أواخر من ترى تفنى كما فنيت أوائله  
لعمرك ما استوى في الامر عالمه وجاهله  
ليعلم كل ذي عمل بأن الله سائله  
فاسرعَ فائزاً بالخير قائله وفاعله

## في قصر العمر وحقيقة الغنى

ألا هل الى طول الحياة سبيلُ  
واني وان أصبحت بالموت موقناً  
وللدهر الوانُ تروح وتفتدي  
ومنزل حقٍ لا معرّجَ دونه  
أرى علل الدنيا عليّ كثيرةً  
إذا انقطعت عني من العيش مدتي  
سُعرضُ عن ذكرى وتُنسى مودتي  
وللحقُ أحياناً لعمرى مرارةً  
ولم أرَ انساناً يرى عيباً نفسه  
ومن ذا الذي ينجو من الناس سالماً  
اجلتك قومٌ حين صرت الى الغنى  
وليس الغنى إلا غنى زين الفتى  
ولم يفتقر يوماً وان كان معدماً  
إذا مالت الدنيا الى الناس رغبت

وأنتى وهذا الموت ليس يُقيلُ  
فلي املٌ دون اليقين طويلُ  
وإن نفوساً بينهنّ تسيلُ  
لكلّ امرئ يوماً اليه رحيلُ  
وصاحبها حق الماتِ عليلُ  
فان غناءَ الباكياتِ قليلُ  
ويحدثُ بعدي للخليل خليلُ  
وثقلُ على بعضِ الرجالِ ثقلُ  
وان كان لا يخفى عليه جميلُ  
وللناسِ قالُ بالظنون وقيلُ  
وكل غنيّ في العيون جليلُ  
عشيّةً يقري أو غداة يُنيلُ  
جوادٌ ولم يستغنِ قطّ بخيلُ  
اليه ومالَ الناسُ حيث يميلُ

## في ذل السؤال

أتدري أي ذلّ في السؤالِ  
يعزّ - على التنزه - من رعاه  
إذا كان السؤالُ ببذل وجهي  
معاذَ الله من خلقٍ دنيّ  
توقّ يداً تكون عليك فضلاً  
يداً تلو يداً يجميل فعلٍ  
أتكرُّ ان تكون اخا نعيمٍ  
وفي بذل الوجوه الى الرجالِ  
ويستغني العفيفُ بغير مالِ  
فلا قرّبتُ من ذاك السؤالِ  
يكون الفضلُ فيه عليّ لا لي  
فصانها اليك عليك عالٍ  
كما علت اليمينُ على الشمالِ  
وانت تصيفُ في فيء الظلالِ

وأنت تروم قوتك في عفاف  
متى تسمي وتصبح مستريحا  
تكابد جمع شيء بعد شيء  
وقد يجري قليل المال مجرى  
إذا كان القليل يسد فقري  
هي الدنيا رأيت الحب فيها  
وربما ان ظمئت من الزلال  
وأنت الدهر لا ترضى بحال  
وتبغى ان تكون رخي بال  
كثير المال في سد الخلال  
ولم أجد الكثير فلا أبالي  
عواقبه التفرق عن ثقال

### عبر الزمان

نادت بوشك رحيلك الايام  
ومضى أمامك من رأيت وأنت (م) للباقيين حتى يلحقوك إمام  
ما لي أراك كأن عينك لا ترى  
تأتي الخطوب وأنت منتبه لها  
قد ودعتك من الصبام نزاوة  
عرّض المشيب من الشباب خليفة  
أهلا وسهلا بالمشيب مؤديبا  
ولقد غشيت من الشباب بغبطة  
الله ازمنة عهدت رجالها  
ايام اعطية الأكف جزيلة  
فلمبيرة أخرت للزمن الذي  
زمن مكاسب أهله مدخولة  
زمن تحامى المكرمات سراته  
زمن هوت أعلامه وتقطعت

أفلمت تسمع أو بك استصام  
عبرا تمر كأنهن سهام  
فاذا مضت فكانها أحلام  
فاحذر فما لك بعدهن مقام  
وكلاهما نعم عليك جسام  
وعلى الشباب تحية وسلام  
ولقد وقال عثاره الأحكام  
في النائبات وانهم لكرام  
إذ لا يضيع لذي الذمام ذمام  
هلك الأرامل فيه والأيتام  
دخلا فروع أصوله الآتام  
حتى كأن المكرمات حرام  
قطعا فليس لأهله أعلام

١ وفي نسخة : عوض .

٢ وفي رواية : غنيت .

٣ وفي نسخة : افلا يضيع لدى الزمان ذمام .

ولقد رأيت الطاعمين<sup>١</sup> لما اشتهوا  
 ما زخرف الدنيا وزبرج أهلها  
 ولترُبِّ اقوام مضوا لسبيلهم  
 ولترُبِّ ذي فرُش مُمهدة له  
 وعجبت إذ علل الحتوف كثيرة<sup>٢</sup>  
 والغني مزدحم<sup>٣</sup> عليه وعورة<sup>٤</sup>  
 والموت يعمل والعيون قريرة<sup>٥</sup>  
 والله يقضي في الأمور بعلمه  
 والخلق يقدم<sup>٦</sup> بعضه بعضاً يقود الخلف<sup>٧</sup> منه إلى البلى القدام<sup>٨</sup>  
 كل يدور على البقاء مؤملاً وعلى الفناء تديره الايام<sup>٩</sup>

### في الذكر الطيب

سكنن<sup>١</sup> يبقى له سكن<sup>٢</sup>  
 نحن في دار<sup>٣</sup> يخبرنا  
 دار سوء لم يدوم فرح<sup>٤</sup>  
 ما نرى من أهلها أحداً  
 عجباً من معشر سلفوا  
 وفرروا الدنيا لغيرهم  
 تركوها بعدما اشتبكت  
 كل حي<sup>٥</sup> عند ميته  
 إن مال المرء ليس له  
 في سبيل الله أنفسنا  
 ما بهذا يؤذن الزمن<sup>٦</sup>  
 عن بلاها ناطق<sup>٧</sup> لسن<sup>٨</sup>  
 لأمريء فيها ولا حزن<sup>٩</sup>  
 لم تغل فيها به الفتن<sup>١٠</sup>  
 أي غبن<sup>١١</sup> بين غبنوا  
 وابتنوا فيها وما سكنوا  
 بينهم في حبها الإحن<sup>١٢</sup>  
 حظته<sup>١٣</sup> من ماله الكفن<sup>١٤</sup>  
 منه الا ذكره<sup>١٥</sup> الحسن<sup>١٦</sup>  
 كلنا بالموت مرتين<sup>١٧</sup>

## خداع الاماني

الدهرُ ذو دولٍ والموتُ ذو عِللٍ  
 ولم تزل عِبرٌ فيهنّ معتبرٌ  
 والمبتلى فهو المهجور جانبه  
 يبكي ويضحك ذو نفسٍ مصرفة  
 يا بائعَ الدين بالدنيا وباطلها  
 حتى متى أنت في لهوٍ وفي لعبٍ  
 ما كلّ ما يتمنى المرء يدركه  
 والناس في رقدةٍ عما يُراد بهم  
 أنصفَ هديت إذا ما كنت منتصفاً  
 يا ربّ يوم اتت بشراه مقبلةً  
 لا تحقرنّ من المعروف اصغره  
 وكلّ امرئ له لا بدّ عاقبةً  
 نلهو وللموت مُسانا ومصيحنا  
 ما أقربَ الموتَ في الدنيا وأبعده  
 كم نافس المرء في شيء وكابر فيه  
 بينا الشقيق على إلفٍ يُسرّ به  
 يبكي عليه قليلاً ثم يُخرجه  
 وكلّ ذي اجلٍ يوماً سيلغنه  
 والمرءُ ذو املٍ والناس اشباهُ  
 يجري بها قدرٌ والله اجراهُ  
 والناس حيث يكون المال والجاهُ  
 والله اضحكه والله ابكاهُ  
 ترضى بدينك شيئاً ليس يسواهُ  
 والموت نحوك هوي فاغراً فاهُ  
 ربّ امرئ حثفه فيما تمنّاهُ  
 وللحوادث تحريكٌ وإنباهُ  
 لا ترضَ للناس شيئاً لست ترضاهُ  
 ثم استحالت بصوت النعبي بشراهُ  
 أحسنُ فعاقبة الاحسان حسناهُ  
 وخيرُ أمرٍ ما احدثَ عقباهُ  
 من لم يصبّحه وجه الموت مساهُ  
 وما أمرٌ جنى الدنيا واحلاهُ  
 إذ صار اغمضه يوماً وسجّاهُ  
 فيسكن الارض منه ثم ينساهُ  
 وكلّ ذي عملٍ يوماً سيلقاهُ





# ابو تمام

حبيب بن أوس الطائي

ولد بين ١٨٨ و ١٩٢ هـ وتوفي ٢٣٠ أو ٢٣١  
(حوالي ٨٠٤ م - ٨٤٥ م)



توطئة تاريخية - ممدوحوه - شخصيته في شعره - خصائصه الفنية  
التألق البديعي - التفنن المعنوي - الشغف بالإغراب

## مصادر دراسته

- طبقات الشعراء لابن المعتز (١٩٣٩) ص ١٣٣ - ١٣٥  
مروج الذهب للمسعودي (اوروبا) ج ٧ ص ١٦٠ - ١٦٧  
الأغاني (بولاق تصحيح الهوريني) ج ١٥ ص ١٠٠ - ١٠٨  
وفي سيرة ديك الجن  
الوساطة للجرجاني (تصحيح أحمد الزين) ص ٢٤ - ٢٨ و ٦٢ - ٧٢  
الموازنة للآمدي (الاستانة ١٣٨٧)  
الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء للمرزباني (مصر ١٣٤٣)  
ص ٣٠٣ - ٣٢٩  
أخبار أبي تمام للصولي (نشر لجنة التأليف والنشر ١٩٣٧)  
تهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر (١٣٣١) ج ٤ ص ١٨ - ٢٦  
نزهة الألباء للانباري ص ٢١٣  
وفيات الأعيان ج ١ - تحت «حبيب» ص ١٦٩ - ١٧٣  
حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ - ٢٤٠  
خزانة الأدب للبغدادي (بولاق) ج ١ ص ١٧٠ - ١٧٢  
هبة الأيام للبديعي (نشر محمود مصطفى ١٩٣٤)  
ديوان أبي تمام للخياط  
ديوان أبي تمام (نشر ملحم الأسود)  
ومواضع شتى في كتب الأدب الحديثة كدائرة المعارف للبستاني ومجلة  
الكلية ومجلة المجمع العلمي ودائرة المعارف الاسلامية، ودراسات عمر  
فروخ وعبد العزيز سيد الأهل وسواها.

## مولده ونشأته

يؤخذ من المصادر التاريخية ان أبا تمام ولد أواخر القرن الثاني في قرية يقال لها جاسم . وهي على ما ذكر ياقوت قرية تبعد عن دمشق ثمانية فراسخ على يمين الطريق الأعظم الى طبريا . ولا يعرف عن حدائته فيها شيء يذكر ، الا انه قد يلاحظ مما نقله ابن خلكان وابن عساكر انه كان في صغره يعمل عند حائك او قزاز في دمشق .

وكل ما يمكن استخلاصه من شتى الروايات ان والده رجل مسيحي اسمه قدوس المطّار ، فحرّف بعد اسلام الشاعر إلى أوس . ويرجعون نسبه الى قبيلة طي ولذلك لقب بالطائي . وفي ديوانه مواقف يفاخر فيها بهذا النسب نذكر منها قصيدته التي مطلعها : « تصدّت وحبل البين مستحصد شزر ، ومنها :

وهل خاب من جذماه في أصل طيّيء      عديّ العديتين القلمسُ أو عمرو  
لنا جوهر لو خالط الأرض أصبحت      وبطنانها منه وظهرانها تبرُّ  
مقاماتنا وقفٌ على العلم والحجى      فأردنا كهل وأشينا حَبْرُ

ويأخذ فيها بذكر كرام الطائين وأبطالهم وما كان لهم من غرر الوقائع ويختمها بقوله :

مساعٍ يضلّ الشعر في كنه وصفها      فما يهتدي الا لأصغرها الشعر

والجتمع عليه انه انتقل وهو فتى إلى مصر . وكان يلزم مسجدها يخدم فيه أهل العلم والأدب ، فنشأ هناك . ثم جاب الاقطار فزار بغداد وخراسان ونيسابور وبلاد الجبل والحجاز وأرمينيا والموصل وسواها .

---

رفيات الاعيان ١ - ١٥٣ وتهذيب التاريخ الكبير (١٣٣١) ٤ - ١٩ .

وشعره مغمم بما يدل على كثرة تجواله في الاقطار ، وتحمله للمشاق والاططار .

وإذا دققنا في ديوانه وسيرته ترجح لدينا انه هبط مصر يافعاً . ففي قصيدته التي قالها في مصر مادحاً آل الرسول ومطلعها « اظبيةٌ حيث استنتت الكُثب العفرُ » ما يشير الى انه قالها وهو في السابعة عشرة :  
واليك هذه الأبيات منها :

وانّ نكيراً ان يضيق بمن له عشيرةٌ مثلي أو وسيلته مصر  
وما لامرئ من قائل يوم عثرة لعا وخديناه الحداثة والفقر  
وان الذي أحذاني الشيب للتي رأيت ولم تكمل لي السبع والعشر  
فاذا تأملت البيت الاول شعرت ان قائله حديث العهد بمصر ، وانه انما أمّتها وسيلة للارتزاق . ويثبت لنا ذلك ما جاء في حسن المحاضرة للسيوطي من أنه هبط « وهو في شببته<sup>١</sup> » وكذلك ما أشار اليه عرضاً ابن خلكان وابن عساكر انه كان في دمشق يعمل عند حايك . ويقول المرزباني ان أول نبوغه كان بدمشق<sup>٢</sup> .

وفي شعره ما يدل على ان حياته في مصر لم تكن على ما يرام ، فأكثر شعره فيها نغثات متبرّم يستثقل الاقامة في وادي النيل . وهذه قصيدته اللامية شاهدة بذلك ، نظمها وقد مرّ عليه خمسة أحوال في مصر فقال فيها :

بنفسي أرض الشام لا أئمن الحمى - ولا أيسر الدهنا ولا أوسط الرمل  
عدتني عنكم مكرهاً غربة النوى لها وطراً في ان تُمِرّ ولا تحلي  
الى أن يقول :

أخسة أحوالٍ مضت لمغيبه وشهران بل يومان تُكَل من الشكل

١ حسن المحاضرة ١ - ٢٤٠ .

٢ الموشح ٣٢٤ .

ويمعنه من أن يبیت زَماعه على عجلٍ ان القضاء على رسلٍ  
لقد طلعت في وجه مصرٍ بوجهه بلا طالع سعدٍ ولا طائر سهلٍ  
وساوسُ آمالٍ ومذهب همتة نخيمة بين المطية والرحلٍ  
نأيتُ فلا مالا حويت ولم أقمُ فامتّع اذ فجعّت بالمال والأهلٍ  
وكان وراثي من صريمة طييء ومعن ووهب عن أمامي ما يسلي  
فلم يك ما جرّعت نفسي من الأسى ولم يك ما جرّعت قومي من الشكلِ

والذي يحصل من هذه الأبيات انه كان قبل خمسة أحوال ترك قومه  
وجاء مصر منتجعاً الرزق ، فلم يلق ما يتوخّاه ، ولم يحمله على البقاء  
فيها حتى الآن إلا القضاء المعاكس . ويفهم من ذلك ضمناً انه ترك  
أهله وفيه مطامع . ولا تكون المطامع عادةً قبل أن يشرف المرء على  
البلوغ . فشاعرنا على ما يظهر حُسن اليه الاسلام وهو في الشام ففعل  
ذلك مندفعاً بما فيه من الطموح وطلب العلى ، وظن انه ينال غايته في  
مصر فأتمها . ولضيق ذات يده وميله الى الأدب لزم المسجد يخدم أهل  
العلم ويأخذ عنهم .

وما زال كذلك حتى نبغ واشتهر فهجر مصر قاصداً كبار الرجال  
في العالم الاسلامي . وبلغ المعتصم خبره فحمّله اليه الى سامرا ( سرّ  
من رأى ) فلزمه ومدحه ، وكان في زمانه أمير الشعراء وحامل رايتهم .

ثم عينه الحسن بن وهب على بريد الموصل ، فقضى في هذا المنصب  
السلتين الأخيرتين من حياته ، وتوفي هناك . وقد رأينا تمهيداً لدراسته  
ان ثبت هنا قائمة بأهم ممدوحيه مرتبة بحسب عدد القصائد التي قيلت  
فيهم .

١ وقد فعل ذلك بعض من كبار النصارى في عصره وبعده كآل الفيض وآل ثوابة وآل وهب .  
وكانوا من رؤساء الناس وكانت دولتهم ناصرة وأيامهم مشرقة - الفخري ١٣٧ و ١٨٢ ،  
واللهري ١٣٥ .

## أهم مدوحي أبي تمام

أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري وآله ( ٢٩ قصيدة ) وهو ( من طي ) وكان من كبار القادة .

آل وهب وزراء الدولة ( ١٣ قصيدة ) ينسبهم البعض في بني الحارث ابن كعب ولكن الصحيح انهم من الموالي<sup>١</sup> .

المعتصم	٨	الخلفاء العباسيون
المأمون	٢	
الواثق	٢	

القاضي أحمد بن أبي دؤاد (الايادي الجهمي) ( ١٢ قصيدة ) كان قاضي الدولة ومن أكبر المتنفذين فيها .

خالد بن يزيد بن يزيد الشيباني ( ١٢ قصيدة ) من الامراء والقادة .

مالك بن طوق ( التغلبي ) ١٠ أمير عرب الشام

محمد بن الهيثم بن شيانه ٨ من أهل مرو ( من الموالي )<sup>٢</sup>

آل حميد الطوسي ( طائي ) ٦ ومنهم محمد بن حميد وقد اشتهر في حرب بابك

أبو المغيث الرافقي وآله ٥ أمير الشام

عبدالله بن طاهر بن الحسين ٤ فارسي الاصل ( خزاعي الولاء ) أحد كبار رجال الدولة وأمير خراسان

أبو دلف القاسم بن عيسى ( المعجلي ) ٤ قائد عربي كبير وصاحب الكرخ

محمد بن الزيات الكاتب المشهور ٤ وزير المعتصم

اسحق بن ابرهيم المصعبي ( الخزاعي ) ٤ نائب بغداد

١ راجع قصيدة ابي تمام « هل اثر من ديارم دمس » ومختارات البارودي ٣٧٢ قول ابن الرومي

عن ابن وهب « وذو نسب من آل ساسان شابك » .

٢ راجع داليتة « تجرع أسى قد اقفر الجرع الفرد » .

عبد الحميد بن غالب الصفدي	٤
محمد بن حسان (الضي)	٤
آل سهل	٤
الافشين	٢
علي بن مرّ	٢
الوزراء والكتاب وهم من الفرس	٤
القائد التركي الكبير	٢
من كبراء طي	٢

### شخصيته في شعره

لأبي تمام مزيتان بارزتان : صبره على المشاق لبلوغ المنى ، وشدة عنفوانه واعجابه بنفسه . يضاف الى ذلك ميله الى الاسراف في المال والقوى . فاذا قرأت ديوانه رأيت مفعماً بما يدل على انه نشأ مغامراً في سبيل الجاه والمال . وقد زادت كثرة اسفاره عزماً ومضاءً ، فليس إذن من الغريب ان تسمعه يقول :

دعيني على اخلاقي الصمّ للتي هي الوفر أو سرب تونّ نوادبه  
أي دعيني - على ما في من خلق شديد - اخوض غمرات الحياة  
فإما الغنى أو الموت . وقوله من قصيدة أخرى :

ولكنني لم احو وفرأ مجتماً ففزت به الا بشمل مبدّد  
نزعة في نفس الشاعر تعبّر لنا عما يختلج في نفوس البسلاء المغامرين  
الذين يابون حياة الخمول ، فيقتحمون الأهوال ويخوضون الغمار طلباً للعلو  
والمجد . ومنها :

أليس بأكناف الجرير وفارس وقمّ واصطخر قرار لروّد  
بلى ان أرض الله فيها ندوحة ومضطرب للفاتك المتجرّد  
تلك روح قلقة كثيرة المطامع ، وهي التي حملت شاعرنا على ترك  
قومه في الشام ، ثم على ترك مصر والضرب في اجواز الأرض . وقد  
صدق في وصف حاله إذ قال :

ذاتَ الثنايا الغرّ لا تتعرّضي عند الفراق بمقلتين وجيد  
ما ابيضّ وجه المرء في طلب العلى حتى يسودّ وجهه في البيد  
وانك لتكاد تلمس صلابه نفسه في أبياته التالية :

لا أفقر الطربَ القلاصَ ولا أرى مع زير نسوان اشدّ قيودي  
شوقٌ ضرحت قذاته عن مشربي وهوى اطرت لحاءه عن عودي  
عامي وعام العيس بين وديقة مسجورة وتنوفة صيخود  
حتى أغادر كل يوم بالفلا للطير عيداً من بنات العيد

وملخص هذه الأبيات : انني لست من الذين يركبون العيس توصلاً  
إلى طرب أو ملهى غرامي ، ولكنني رجل أسفار متمرس بقطع الفلوات  
المهرقة ، وكم تركت لطيوورها نصيباً وافراً من نياقي . يشير بذلك الى  
صلابته واحتماله وشوقه الى العظام . والكثير في شعره ينضح بهذه الروح  
المغامرة ، حتى شعره في مصر - وهو في أول عهده وقد قيده الدهر  
بقيود الفقر - نراه برغم ذلك يتمّ على نفس مرّة طمّاحة . ومن قوله  
في ذلك :

وطال قطوني أرض مصرَ لحاجة يقال لها أقبح بهاتي وأسمجـ  
اقلّب في أقطارها الطرف كي أرى ولست براء ذاك عصمة ملتجى  
فقنّني بأسى وأعلم انني مقود بجبل للمقادير مدمج

أما عنفوانه فظاهر فيما رووه عنه يوم قصد عبد الله بن طاهر أمير  
خراسان . قالوا لما فرغ من انشاده بأثيته التي مطلعها «اهنّ عوادي يوسف  
وصواحيه» نثر عليه ألف درهم ، فاستقلها الشاعر ولم يمس منها شيئاً ،  
بل تركها للغلمان يلتقطونها . فوجد عليه الامير وقال : يترفع عن برّي ،  
ويتهاون بما أكرمته . فلم يبلغ ما أراده منه بعد ذلك . وأي عنفوان أشد  
من ان يقصد شاعر أميراً جليلاً كابن طاهر فيمدحه ، ثم هو يرى هبة  
الامير اقلّ من قدره ، فيترفع عن أن يمسا بيده . وهذه الظاهرة الخلقية



في شاعرنا تتجلى لنا أيضاً في خلق أبي الطيب المتنبي كما سنرى عند درسنا هذا الشاعر ، وهي قد تهب بالشاعر إلى وزن نفسه بميزان ممدوحيه أو إلى التفاخر والتعظيم على زملائه ومناوئيه . خذ قصيدة أبي تمام التي قالها يمدح قاضي الدولة العباسية أحمد ابن أبي دؤاد ويعتذر إليه عن اساءةٍ ، وأولها :

أرأيت أيّ سوائف وخذود عنت لنا بين اللوى فزرو  
وفيها يذكر فضل الممدوح وفضل قومه (إياد) ويقرن ذلك بمدح طي (قبيلة الشاعر) ويجعل إياداً وطياً متساويتين في المحامد فيقول :  
كعب وحاتم اللذان تقاسما خطط العلى من طارف وتليد  
هذا الذي خلف السحاب ومات ذا في الحمد ميتة خضرم صنديد  
ثم يتقدم إلى الاعتذار بأبيات تدل على شدة نفسه ومنها :

فاسمع مقالة زائرٍ لم تشبهه آراؤه عند اشتباه البيد  
أسرى طريداً للحياة من التي زعموا وليس لرهة بطريد  
كنت الربيعَ أمامه ، ووراءه قرُّ القبائل خالد بن يزيد  
ما خالد لي دون أيوب ولا عبد العزيز ولست دون يزيد

والمأمل في هذه الأبيات يعجب من هذه العواطف التي تمل عليه ان يقول لممدوح عظيم يعتذر إليه . لم آتكَ رهبة منك بل خجلاً مما اتهمت به ، وان مثلي في الاعتذار اليك مثل يزيد بن المهلب لما استجار من الوليد بأيوب بن سليمان بن عبد الملك ويعبد العزيز بن الوليد فشفعا له . وما خالد الذي يشفع لي بأقل منها ، ولا أنا بأقل من يزيد بن المهلب . ومثل ذلك قوله من قصيدة يمدح بها محمد بن يوسف :

وكنت إذا ما زرت يوماً مسوداً سرحت رجائي في مسارح سؤدد  
فإن يحزل النعمى ثلبي قصائدي وان ياب لم أقنع بأصوات معبد  
أليس بأكناف الجرير وفارس وقم واصطخر قرار لروّد

فكانه يقول اني شاعر كبير النفس أقصد الامير العظيم فإن كافاني  
بما يستحق مقالتي كافاته بما يستحقه من القصائد ، وإلا فإني أتحوّل عنه  
إلى الضرب في آفاق الأرض .

أما تعاضله بشعره فهو كثير كقوله يصف قصائده :

وسيّارة في الأرض ليس بنازحٍ على وخذها حزنٌ سحيقٌ ولا سهبٌ  
تدرّ ذرور الشمس في كل بلدة وتسمي جموحاً ما يردّ لها غربٌ  
إذا أنشدت في القوم ظلت كأنها مُسرّةٌ كبيرٍ أو تداخلها عجبٌ  
مفصّلةٌ باللؤلؤ المنتقى لها من الشعر إلا أنها اللؤلؤ الرطب

وقوله :

خذها مغرّبة في الأرض آنسةٌ بكل فهم غريب حين تغترب  
لا يستقي من حفير الكتب رونقها ولم تزل تستقي من بجرها الكتب  
حسبية في صميم المدح منصبها إذا أكثر الشعر ملقى ما له حسب

وقس على ذلك ما لا يسهه هذا المقام .

على ان أبا تمام كان - على صلابه نفسه - موصوفاً بكرم النفس  
وحسن الأخلاق<sup>١</sup> . وكان محباً للشراب والغناء ، لا يكاد يحصل على  
المال حتى ينفقه في سبيل المسرات . فهو في ذلك كأكثر شعراء عصره .  
وبرغم ما تجده في شعره من التعصب الديني عند ذكره للروم لا تجد  
في سيرته أو في شعره تمسكاً شديداً بفروض الدين . قال المسعودي : « كان  
أبو تمام ماجناً خليعاً ، وربما أدّاه ذلك إلى ترك موجبات فرضه تماجناً  
لا اعتقاداً »<sup>٢</sup> . وبكلمة أخرى كان مستهتراً قليل المبالاة بما يتطلبه حسن  
الاعتقاد .

١ نزهة الالباب للانباري ٢١٤ وابن عساكر ٤ - ١٨ إلى ٢٦ .

٢ مروج الذهب ٧ - ١٥١ .

## خصائصه الفنية

قال ابن رشيق القيرواني : « لا بد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه كأبي نواس في الخمر ، وأبي تمام في التصنيع ، والبحثري في الطيف الخ<sup>١</sup> » . وقال الجرجاني في الوساطة : « كانت الشعراء تجري على نهج من الاستعارة قريب من الاقتصاد حتى استرسل فيه أبو تمام ومال إلى الرخصة ، فأخرجه إلى التمدي وتبعه أكثر المحدثين<sup>٢</sup> » . وقال أبو الفرج الأصفهاني : « وله مذهب في المطابق هو كالسابق إليه جميع الشعراء وان كانوا قد فتحوه قبله وقالوا القليل منه ، فان له فضل الاكثار والسلوك في جميع طرقه<sup>٣</sup> » . ووصفه الأمدى بقوله : « وشعره لا يشبه اشعار الاوائل ولا على طريقتهم لما فيه من الاستعارات والمعاني المولدة » ثم يقول : « فان كنت تميل إلى الصنعة والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة ولا تلوي على غير ذلك فأبو تمام اشعر<sup>٤</sup> » .

هذا هو رأي جمهور العلماء النقادين في شعر أبي تمام . والذي يطالع ديوانه ويدقق في تفهيم معانيه يرى فيه ثلاث مزايا بارزة ، وهي :

- ١ - تأنقه البديعي (واكثر ما يظهر ذلك في الاستعارة والطباق والجناس).
- ٢ - قفنه المعنوي وهو ما يسميه البعض بالاختراع .
- ٣ - شغفه بالإغراب - أو الغوص على ما يستصعب من الالفاظ والمعاني .

ولنبسط لك هذه المزايا واحدة واحدة :

## التأنق البديعي

لم يخلُ الشعر العربي في عصر من العصور من الأخذ بأسباب البديع

١ - العمدة ١ - ١٩٤ .

٢ - الوساطة ٣٢٤ .

٣ - الاغاني ١٥ - ١٠٠ .

٤ - المرازنة ٣ .

أو الصناعة اللفظية والمعنوية . كان ذلك منذ أيام الجاهلية ، فقد عرف امرؤ القيس بسبقه إلى الكثير من لطائف الوصف والتشبيه ، وعرف زهير بثقيف قصائده وتكرير النظر فيها وتنقيحها « وربما رصد اوقات نشاطه فتباطأ عمله » . ولذلك سميت الحوليات مبالغة في تأنقه وتصنعه ، ومثله الحطيئة .

وإذا راجعت شعر النابغة والاعشى وجريرو والاخلطل والفرزدق وأبي نواس وبشار ومروان ومسلم وسواهم من امراء الشعر الذين تقدموا أبا تمام ، تجد في جميعهم أثر الميل إلى الصناعة يتفاوت فيهم بالنسبة الى الشاعر وأحواله . قال ابن رشيق عن صنّاع الشعر القدماء : « واستطرفوا ما جاء من الصنعة نحو البيت أو البيتين في القصيدة بين القصائد ، يستدل بذلك على جودة شعر الرجل وصدق حسه وصفاء خاطره . فاما اذا كثر ذلك فهو عيب يشهد بخلاف الطبع وايشار الكلفة . وليس يتجه البتة ان يتأتى من الشاعر قصيدة كلها او اكثرها متصنع من غير قصد ، كالذي يأتي من اشعار حبيب والبحثري وغيرهما ، وقد كانا يطلبان الصنعة ويولعان بها <sup>١</sup> » .

وقد كادوا يجمعون على ان مسلم بن الوليد هو اول من توسع في البديع ، وتبعه فيه جماعة منهم أبو تمام - روى ذلك الاصفهاني في سيرة مسلم ابن الوليد وقال ان أبا تمام جعل شعره كله مذهباً واحداً فيه . ونقل عن محمد بن يزيد قوله : « كان مسلم أول من عقد هذه المعاني الظريفة واستخرجها » . وعن القاسم بن مهرويه أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد ، جاء بهذا الفن الذي سمّاه البديع ، ثم جاء الطائي بعده فتفنن فيه <sup>٢</sup> .

والحقيقة ما ذكرنا من ان انواع البديع منشورة متفرقة في اشعار المتقدمين ولكن مسلم بن الوليد أكثر منها وكان يحتذي حذو العتايي ، وكان هذا

١ العدة ١ - ٨٤ .

٢ راجع الموازنة ص ٩ وريحانة الالباء ( مصر ١٣٠٦ ) ٢٣١ .

يحتذي حذو بشار<sup>١</sup> ، ثم قام أبو تمام فزاد على مسلم . وكان العصر الذي نشأ فيه شاعرنا ( اعني صدر الدولة العباسية ) عصر انتقال في الأدب من الطريقة البدوية القديمة التي عرف بها صدر الاسلام الى الطريقة الحضرية المولدة ، طريقة التبسط والتألق . والظاهر ان أبا تمام كان من الشعراء الذين تأثروا بهذه الطريقة فجرى فيها شوطاً بعيداً وصار على ما يرى بعضهم امام هذه الصناعة . وفي شعره من الشواهد على ذلك ما لا يحتمل المقام الاسهاب به فنكتفي هنا بالقليل منها - قال من قصيدة :

تلومين ان لم اطو منشور همة طوت عن لساني مدح كل مزبد<sup>٢</sup>  
 لبزتك اثواب البصائر عزّة كستك ثياب الزجر من كل مرشد  
 كأنك لا تدرين طعم معيشة تمجّ دماً من طعم ذل التعبد  
 فصوني قناع الصبر اني لراحل الى بحر جود غامر الفضل مزبد  
 امات حياة الوعد منه نوافل من الجود اضحت للعفاة بمرصد  
 وقال مادحاً احمد بن أبي دواد :

ما زلت ارقب تحت افياء المنى يوماً بوجهٍ مثل وجهك أبيضاً  
 لولاك عزّ لقاءه<sup>٣</sup> فيما بقي اضعاف ما قد عزّني فيما مضى  
 أوردتني العدّ الحسيف وقد أرى ابرّض الثمد البكيّ تبرّضاً<sup>٤</sup>  
 اما القريض فقد جذبت بضبعه جذب الرشاء مصرّحاً ومعرّضاً  
 أحببته اذ كان فيك محبباً وازددت حبّاً حين صار مبنّضاً  
 قد كانت الحال اشتكت فأسوتها اسوأ أبي امراره أن ينقصا  
 ما عذرهما الا تفتق ولم تزل لمريضها بالمكرمات ممرّضاً  
 وله متغزلاً :

١ البيان والتبيين ١ - ٢٤ .

٢ المزبد اللثيم .

٣ الضمير يرجع إلى الخليفة .

٤ العد الحسيف أي النبع الوافر الماء . ابرّض الثمد البكي أي أطلب الماء القليل منا وهناك .

لا أنتَ انتَ ولا الديار ديارُ      خفّ الهوى وتولت الاوطارُ  
كانت مجاورة الطلول وأهلها      زمناً عذاب الورد فهي بحار  
أيام تدمي عينه تلك الدمى      فيها وتغمر لبتّه الاقمار  
إذ لا صدوف ولا كنود اسمها      كالمعنيين ولا نوار نوار<sup>١</sup>  
بيض فهنّ إذا رُمقن سوافراً      صور<sup>٢</sup>، وهنّ إذا رَمقن صوار<sup>٣</sup>

وقال من قصيدة في أبي دلف المعجلي :

تكاد مغانيه تهشّ عراسها      فتركب من شوق الى كل راكبٍ  
إذا ما غدا اغدى كريمة ماله      هدياً ولو زفّت للأم خاطب  
يرى اقبح الاشياء أوبة آملٍ      كسته يد المأمول حلّة خائب  
واحسن من نور تفتّحه الصبا      بياض العطايا في سواد المطالب  
إذا ألهمت يوماً لُجيم وحوها      بنوالحصن نجلّ المحصنات النجائب  
فان المنايا والصوارم والقنا      اقاربهم في الروع دون الاقارب  
جحافل لا يتركن ذا جبريّة      سليماً ولا يتحرّبن من لم يحارب  
يمدّون من أيدي عواصٍ عواصمٍ      تصول باسياف قواضٍ قواضب

وأمثال ذلك كثيرة في شعره بل هي مذهبه العام . وقد قاده شغفه بذلك الى الاسراف والخروج عن جادة المعقول ، حتى رماه الكثيرون باسم النقد الحادة . قال الجرجاني : « ان أبا تمام اسلم نفسه للتكلف ، يرى انه ان مرّ على اسم موضع يحتاج الى ذكره او يتصل بقصة يذكرها في شعره من دون ان يشتقّ منه تجنيساً او يعمل فيه بديعاً ، فقد باء باثم واخلف بفرض حتم<sup>٣</sup> » . وقال الآمدي في الموازنة بعد ان ذكر آراء المنحرفين عن أبي تمام : « كأنهم يريدون اسرافه في طلب الطباق والتجنيس والاستعارات واسرافه في التماس هذه الابواب وتوشيح شعره بها ، حتى صار كثير مما أتى من المعاني لا

١ صدوف وكنود ونوار اسماء .

٢ الصوار القطيع من بقر الوحش .

٣ اسرار البلاغة ١٠ .

يعرف ولا يعلم غرضه فيها إلا مع الكد والفكر وطول التأمل ، ومنه ما لا يعرف معناه إلا بالظن . ولو كان أخذ عفو هذه الاشياء ولم يوغل فيها ولم يجاذب الالفاظ والمعاني مجاذبة ويقتسرها مكارهة ، وتناول ما يسمح به خاطره وهو يجهامه غير متعب ولا مكدود ، وأورد من الاستعارات ما قرب في حسن ولم يفحش ، واقتصر من القول على ما كان محذوفاً حذو الشعراء المحسنين ليسلم من هذه الاشياء التي تهجن الشعر وتذهب مائه ورونقه - ولعل ذلك ان يكون ثلث شعره أو أكثر - لظننته كان يتقدم عند أهل العلم بالشعر أكثر الشعراء المتأخرين<sup>١</sup> . وقال الباقلاني بعد ان ذكر بضعة أمثال على تصنع أبي تمام : « فهذا وما أشبه إنما يحدث من غلوّه في الصنعة حتى يعميه عن وجه الصواب ، وربما اسرف في المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها حتى استثقل نظمه واستوخم رصفه ، وكان التكلف بارداً والتصرف جامداً<sup>٢</sup> » .

والذي يطالع ديوانه تحريماً لهذه التهم يتضح له ان أكثر ما ذكره حق وان أبا تمام كثيراً ما يأتي بالاستعارة أو الكناية دون أن يراعي التناسب بين الحقيقة والمجاز كقوله :

وركب يساقون، الركاب زجاجة من السير لم تقصد لها كفّ قاطب

يقصد بذلك ان المسافرين يشاركون ركائبهم في السير الشديد الذي لا لين فيه ولا تودة . فاستعار للسير الشديد الخمر التي لم تمزج بماء وجعل تشارك الركاب بالركائب فيه عبارة عن تساقبهم تلك الخمر الصرف . وانت لا تحتاج إلى تأمل كثير لترى شدة التعسف في هذه الاستعارة .

ومثل ذلك قوله :

١ الموازنة ٥٥ - ٥٦ .

٢ اعجاز القرآن (مصر ١٣١٥) ٥٣ .

ضاحي المحيّا للهجير وللقنا تحت المعجاج تخاله محراثا  
فالشطر الأول جميل ، جعل الممدوح من ذوي الاقدام والتعرض للمشاق ،  
ولكنه افحش في الشطر الثاني اذ جعله محراثا يشق غبار الحرب وافسد  
جمال البيت .

وقوله :

آثرتني إذ جعلته سندا كل امرىء لاجىء إلى سنده  
ايثار شزر القوي رأى جسد المعروف أولى بالطب من جسده  
والشاهد في البيت الثاني وهو يريد ان يقول آثرتني ايثار القوي وقد  
غار للمعروف وقام يناصره . فتأمل استعارته الجسد للمعروف ، وايثار  
القوي له بالتطبيب !

لعمري لقد حررت يوم لقيته لو ان القضاء وحده لم يبرد  
وانك لتشعر بقشعريرة البرد في هذا البيت . وهو يقصد ان يقول  
ان حمية ممدوحه قد ثارت يوم لقي العدو وكادت تفتك به لولا ان  
القضاء حال دون ذلك : فكذلك نفسه حتى جاء بالطباق ، ولكنه جاء  
غثا بارداً .

وانظر إلى تعسفه إذ يقول :

نوى كانهضاض النجم كانت نتيجة من الهزل يوماً ان هزل النوى جد  
أي ان النوى فاجأته مفاجأة فلم يصدق أولاً ، ولكن ألم وقوعها  
أراه الحقيقة وعلمه ان هزل الحبيب جد .

وقوله :

فكان افئدة النوى مصدوعة حتى تصدع بالفراق فؤادي  
فاذا فضضت من الليالي فرجت خالفنها فسدناها ببعاد  
ومعناها ان فؤاد النوى بقي مصدوعاً حتى صدع بفراق الاحبة فكلما



فتحت لنفسي منفرجاً خالفتني الأيام فسدت ذلك المنفرج بالبعاد . فانظر  
كيف تكلف تصديع افئدة النوى ، وكيف استعمل البعاد كحجر يسد  
به ثغرة الفرَج .

وقوله :

أهَيْسَ اليس لجاء إلى همم تفرَّق الاسد في آذيتها الليسا  
انظر إلى هذه الهمم التي ترى الاسود غرقى في غمارها وكل ما  
يريد ان يقوله ان المدوح شجاع همته تفوق همة الاسود الشديدة .

وقوله :

هدأت على تأميل احمد همي واطاف تقليدي به وقياسي  
معناه رأيت الناس يسمعون إلى المدوح فقلدتهم ووجدته بالقياس  
أفضلهم ، فهدأت همتي المضطربة عنده . قابل هذا المعنى بما استعاره  
من هدوء الهمة وطواف التقليد والقياس فتري شدة اسرافه في الصناعة .  
ومثل ذلك قوله :

لو لم تفت مِسَنَّ المجد من زمن بالجوود والبأس كان المجد قد خرفا  
ومعناه ان المجد قد هرم ، ولولا ان ارجعت اليه فتوته يجودك وبأسك  
لكان قد أدركه الخرف :

ومن الاسراف المقوت قوله :

فلويت بالمعروف أعناق الورى وحطمت بالانجاز ظهر الموعد  
وقوله :

قرت بقران عين الدين وانشرت بالأشترين عيون الشرك فاصطلمها  
والاشتران قائدان للروم .

قال المسكري: وهذا مع غثاثة لفظه وسوء التجنيس فيبشتمل على عيب

آخر وهو ان انتشار العين لا يوجب الاصطلام .  
واليك هذه الابيات يصف سفينة حملته إلى الممدوح ، وانظر كيف  
يتعسف في تشبيهها بالجمال وكيف يخرج به التكلف عن حدود  
الجمال .

حملت رجائي اليك بنت حديقة علباء لم تلقح لفحلٍ مُقرفٍ  
فنجت وقد حوت الهنيدة وابتنت في شطرها وتبوّعت في النيف  
في البيت الأول يريد بابتنة الحديقة الغلباء السفينة لانها تصنع من  
خشب الحديقة ، وشبه السماء بالفحل ، ولم يلقحها أي لم يصبها بمطر .  
فتأمل هذه السماجة الصناعية . وفي البيت الثاني - اسرعت هذه السفينة  
وهي بنت مئة ولكنها في نشاط الخمسين ، وسارت غايتها في بحر  
كالصحراء .

إلى أن يقول :

فاعتامها ذر خبرة بفحوها ندس بحيلة خلقتها متلطف  
أي فاختارها من فحول الشجر خبير حاذق ببنائها .  
ثم اجتنت شلوي فصرت جنينها متمكناً بقرار بطن مُسدف  
أي ثم حملتني فكنت في بطنها كما يكون الجنين في بطن أمه .  
واني ارجع القارىء إلى هذه القصيدة ليراجعها ويحكم بنفسه على هذه  
المجازات . وامثال ذلك كثير في شعر أبي تمام ، فانك لا تسكاد تقرأ  
له قصيدة حتى تمر ببيت أو بضعة أبيات من هذا الشعر المكدود الذي  
ينفر منه الذوق السليم ، لما فيه من تكلف الصناعة والاهتمام بالقشور دون  
اللباب .

تفننه المعنوي

على ان لأبي تمام مع كل اسرافه في الشعر الصناعي مكانة عالية في

الشعر العربي . وما ذلك إلا لدقة تصوره وحسن اختراعه . ففي شعره كثير من الصور البليغة التي تشهد له بجودة الخيال وبعد مرامي النظر . والذي يراجع ديوانه بروية ويصبر على تحليل معانيه ، يجد من بدائعه الشعرية ما لطف من وصف أو مجاز أو حكمة أو لبس لباساً قشيباً من البلاغة . واليك أمثلة ذلك من شعره :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت اتاح لها لسان حسود  
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيبُ عَرَف العود

وجودة البيتين في جمال الصورة التي نرى فيها الحسود ناشراً فضل المحسود ، وفي التمثيل على ذلك من العالم الطبيعي تمثيلاً يوضحها ويقررهما في الذهن . وقد قرن كل ذلك برقة العبارة وجودة الالفاظ . ومثل ذلك قوله متقرباً من أمير أقام الحجاب على بابه وهو في غاية البلاغة :

ليس الحجاب بمقصٍ عنك لي أملاً ان السماء ترجى حين تحتجب

وقوله يصف عدم اجتماع المال والكرم في شخصه :

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حربٌ للمكان العالي

ومن أجمل صورهِ الشعرية قوله يرثي ولدين صغيرين لأحد الأمراء والبلاغة ناطقة فيه :

لهفي على تلك الشواهد منها لو اهلت حتى تكون شمائلنا

لغدا سكوتها حجبٌ وصباها حلاً وتلك الأريحية نائلنا

ان الهلال إذا رأيت نموه ايقنت ان سيصير بدرأ كاملاً

وهذا البيت الاخير الذي أتى به تمثيلاً لما كان يرجى من ذينك الولدين هو من أبدع الامثال وأبلغها . ومثله بلاغة وجمالاً قوله المشهور يصف بلوغ الأرب عن سبيل المشقات :

ولكنني لم أحور وفراً مجتمعاً ففزت به الا بشملٍ مبددٍ

ولم تعطني الأيام يوماً مسكناً      الذّ به الا بنوم مشرّد  
وطول مقام المرء في الحي مخلق      لديباجتيه فساغترب تتجدد  
فاني رأيت الشمس زيدت محبة      إلى الناس ان ليست عليهم بسرمد

وقد أجاد في هذه الأبيات كل الاجادة ، وابرز هذه المعاني البديعة  
بقالب يأخذ بمجامع القلوب . ومن حسن اختراعه قوله يصف مشيه  
الباكر :

ستّ وعشرون تدعوني فاتبعها      إلى المشيب فلم تظلم ولم تحب  
فأصغري انّ شيباً لاح بي حدثاً      واكبري انني في المهد لم اشب

يعذر المشيب ويقول ليس الغريب انني شبت في السادسة والعشرين ،  
ولكن الغريب انني لم أشب وأنا طفل : يشير بذلك إلى ما في نفسه  
من عزم وهمة ، وإلى ما أصابه منذ طفولته من مقارعة الاهوال  
والخطوب .

وقال يصف كرم الممدوح وازدحام الشعراء على يابه :  
ولو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت      حياضك منه في العصور الذواهب  
ولكنه صوب العقول اذا انجلت      سحائب منه اعقبت بسحائب  
والصور الشعرية في البيت الثاني خلاّبة ، لأحكام التشبيه فيها وجمال  
التركيب .

ومن هذه الصور الخلاّبة قوله من مرثاته المشهورة :  
وقد كان فوت الموت سهلاً فردّه      اليه الحفاظ المرّ والخلق الوعر  
ونفسٌ تعاف العسار حتى كأنما      هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر  
فأثبت في مستنقع الموت رجله      وقال لها من تحت أخصك الحشر  
وقوله يصف أميراً أنعم الله عليه بنعم عظيمة ، ولكنه كفرها ونقض  
عهد الولاء والوفاء :

كم نعمةٍ لله كانت عنده فكأنها في غربةٍ واسارٍ  
 كُسيَت سبائب لؤمه فتضاءلت كتضاؤل الحسناء في الاطهار  
 وقد شهد البلغاء لابي تمام بالتقدم في ذلك . قال ابن الاثير في كلامه  
 عن المعاني التي تستخرج من غير شاهد الحال « ان لابكارها سرّاً لا  
 يهجم على مكانه الا جنات الشهم ، ولا يفوز بمحاسنه الا من دق  
 فهمه حتى جل عن دقة الفهم » . ثم يقول : « قد قيل ان ابا تمام أكثر  
 الشعراء المتأخرين ابتداءً للمعاني ، وقد عدت معانيه المبتدعة ( أي التي  
 لم يسبق اليها ) فوجدت ما يزيد عن عشرين معنى . وأهل هذه الصناعة  
 يكبرون ذلك ، وما هذا على مثل أبي تمام بكبيراً » .  
 وقد أصاب الاستاذ جبر ضومط إذ قال : « الحق يقال ان ابا تمام هو  
 كما قال فيه واصفوه شاعر واسع الخيال دقيق التصور بعيد مرامي النظر ،  
 واقدّر انه لو عاش فوق الاربعين ، ولم يمنعه الانهاك في الشهوات من  
 ترتيب محفوظاته ومدركاته ، بل لو عاد عليها بالتهذيب والتشذيب ، فاطرح  
 منها ما حقه ان يطرح ، وأبقى منها ما هو جدير بالبقاء ، ثم جمع  
 الاشباه والنظائر - لو عاش حتى فعل كل ذلك - لكان شعره بعدها  
 لا يتعلق به متعلق ، ولبّز على الأرجح الشعراء قاطبة حتى ابا الطيب  
 المتنبي في كثير من حكمه وأمثاله وبعُد مطارح نظره » .  
 وكما اننا ننمي على أبي تمام ميده إلى تكلف البديع نمدحه لما نجد  
 في شعره من نفس عال في النظم يؤثر في النفس فيحملها إلى الطبقات  
 العليا . اقرأ ايّاً شئت من عيون قصائده ، وانظر إلى تلك الهزّة التي  
 تعتريك لقراءتها . فاذا حللتها وجدتها مزيجاً من جمال النظم ومتانة  
 التركيب وسمو الفكر . ونجزيء هنا بمثلين أو ثلاثة من ذلك :  
 راجع قصيدته المشهورة في فتح عمورية وقامل مقدمتها : تلك الوقفة

١ المثل السائر ١٩٣ .

٢ مجلة الكلية مج ٥ ص ٨٧ .

الشعرية العالية التي يرينا فيها الشاعر « المذنب الغربي » ويسمعنا أحاديث الجمهور عنه ، ثم يستخلص من كل ذلك تمهيداً ساحراً للتوصل الى المدوح ، ووصف الواقعة العظيمة التي فتح فيها حصون الاعداء . كل ذلك بأسلوب شديد الأسر بديع الخيال يملأ الاسماع ويحرك أوتار القلوب . وإذا استثنيت بعض ما ذكرناه من تصنّعه فان معظم القصيدة من هذا النمط العالي ، كقوله يصف فشل قائد الروم ومحاولته اغراء المنصرين بالمال وترفع الخليفة عن ذلك :

لما رأى الحرب رأي العين توفلس	والحرب مشتقة المعنى من الحرب
غدا يصرف بالأموال جريتها	فغزه البحر ذو التيار والحدب
هيهات زعزعت الارض الوقور به	عن غزو محتسب لا غزر مكتسب
لم ينفق الذهب المرّبي بكثرتة	على الحصار وبه فقر إلى الذهب
ان الاسود اسود الغاب همتها	يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

ومن هذا النمط العالي قوله :

ستصبح العيس في ذا الليل عند فق	كثير ذكر الرضى في ساعة الغضب
صدفت عنه فلم تصدف مودته	عني وعأوده ظني ولم يخب
كالغيت ان جثته وافاك ريقه	وان ترحلت عنه ليجّ في الطلب
كأنما هو في أخلاقه ابدأ	وان ثوى وحده في جحفل لجب

وقوله :

ويوم أمام الموت دحض وقفته	ولو خرف فيه الدين لانهاال كائبه
جلوت به وجه الخليفة والقنا	قد اتسعت بين الضلوع مذاهبه
فلو نطقت حرب لقات محقّة	ألا هكذا فليكسب المجد كاسبه

فانت ترى في كل ذلك نزعتة الفنية الشديدة ، ولو قلبت ديوانه لوجدتها في اكثر شعره . وهذه النزعة وما فيها من عنف وشدة أسره التي حدث بمريديه إلى التفالي بمدحه وعدّه امام هذه الصناعة ، حتى

قال أبو الفرج الاصفهاني : « وفي عصرنا هذا ( القرن الرابع الهجري ) من يعصب له فيفرط حتى يفضله على كل سالف وخالف<sup>١</sup> . بل هي التي دفعت أبا دلف العجلي ان يصيح وقد أنشده أبو تمام قصيدته التي مطلعها :

على مثلها من أربُع وملاعب أذيلت مصونات الدموع السواكب

« يا معشر ربعة ! ما مُدحتم قط بمثل هذا الشعر ، فما عندكم لقائله ؟ فبادروه بمطارفهم يرمون بها اليه . فقال أبو دلف قد قبلها منكم وأعاركم لبسها ، وسأنوب عنكم في ثوابه . ثم أمر له بخمسين الف درهم وقال : والله ما هي بازاء استحقاقك وقدرك فاعذرنا<sup>٢</sup> . ولم يكن ذلك مجرد اهتزاز للمديح ، ولكن الرجل تأثر بنفس الشاعر وجلال اسلوبه .

ونلاحظ ذلك في مجلس عبد الله بن طاهر أمير خراسان ، فانه لما قصده وأنشده قصيدته « اهن عوادي يوسف وصواحيبه » لم يتالك الشعراء الحاضرون من أن يصيحوا : ما يستحق هذا الشعر غير الأمير حفظه الله . وبلغ التأثير بأحدهم ان قال : لي عند الأمير أعزّه الله جائزة وعدني بها ، وقد جعلتها لهذا الرجل جزاءً على قوله للأمير<sup>٣</sup> . ومثل ذلك ما جاء في الأغاني عن محمد بن سعد كاتب الحسن بن رجا ان أبا تمام مدح الحسن بلاميته التي يقول فيها :

أنا من عرفت فان عرتك جهالة فانا المقيم قيامة العذال

فلما وصل إلى قوله :

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالتسيل حرب للمكان العالي  
وتنظري خيب الركاب ينصتها محيي القريض إلى مبيت المال

صاح المدوح متأثراً : والله لا اتممتها الا وأنا قائم . فلما انتهى من

١ و ٢ الاغاني ١٥ - ١٠٠ و ١٠٣ .

٣ الاغاني ١٥ - ١٠٣ .

انشادها عانقه . قال محمد بن سعد : « وأخذ منه على يدي عشرة آلاف درهم وأخذ غير ذلك مما لم أعلم به على بخل كان في الحسن ابن رجاء<sup>١</sup> » .

ولا شك ان في شعر شاعرنا روعة خاصة ، فهو يجمع بين الفخامة اللفظية وجزالة المعنى جمعاً يهزّ النفس ، ويفعل بها ما فعل بمعاصره ومناوئه دعبل يوم سمع بعضهم ينشد بيتي أبي تمام :

شهدتُ لقد اقوت مغانيكمُ بعدي      ومحتت كما محتت وشائع من بردِ  
وانجدمتُ من بعد اتهام داركم      فيا دمعُ انجدني على ساكني نجد  
فتأثر دعبل - على كرهه لأبي تمام - وصاح احسن والله وجعل يردد :  
« فيا دمع انجدني على ساكني نجد<sup>٢</sup> » .

ولولا كثرة تصنعه وما سنذكره له من التعميد والاغراب لاحتته هذه الروعة الفنية أعلى محل في الشعر العربي .

### شغفه بالاغراب

« يذهب الى حزنونة اللفظ وما يملأ الاسماع منه مع التصنيع المحكم طوعاً وكرهاً . يأتي للاشياء من بعد ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة<sup>٣</sup> » . ذلك رأي ابن رشيق القيرواني فيه ، وقد أصاب كل الاصابة في قوله « يأتي للاشياء من بعد » ويراد بذلك هيامه بالغريب من المعاني التي يُحتاج في تفهمها الى تأمل ومشقة .

وتمن سبقه الى هذا النقد أبو الحسن الجرجاني اذ قال بعد ان ذكر اغرابه اللفظي وتطلبه البديع<sup>٤</sup> « ولم يرض بهاتين الخلتين حتى اجتلب

١ الاغاني ١٥ - ١٠٤ .

٢ الاغاني ١٥ - ١٠٧ .

٣ العمدة ١ - ٨٥ .

٤ الوساطة ٢٤ و ٢٥ .



المعاني الغامضة ، وقصد الاغراض الخفية ، فاحتمل فيها كل غث ثقیل ، وارصد لها الافكار بكل سبيل ، فصار هذا الجنس من شعره اذا قرع السمع لم يصل الى القلب الا بعد اتعاب الفكر وكد الخاطر والحمل على القريحة . فهو كما قال « لا يغطي مقاصده بشيء من الابهام » . ومن هنا هذه الصعوبة التي يعانها من يطالع ديوانه اذ يقف حائراً أمام طلاسه وغموض معانيه ، ولكن اذا راضت له بالدرس والتفكير رأى فيها ما يلذّه من صور جميلة ومعانٍ رشيقة . وقد وصف الشاعر قصائده بقوله :

فكأنما هي في السّماع جنادل      وكأنما هي في القلوب كواكب  
وغرائب تأتيك الا انها      لصنيعك الحسن الجميل اقارب

تقبل على شعره فتصدمك وعورته ، فتحاول التغلب عليها وتكدّ نفسك في تدليل عقباتها ، ولكنك لا تلبث ان تشعر بتعب قد يملكك على النكوص . على انك اذا صبرت وتابعت الشاعر في أساليبه وغرائبه وأخذت تجلو لنفسك معانيه ، حمدت عاقبة هذا العمل وشعرت بما يستهويك من بديع تخيلاته وجزالة الفاظه . ولنضرب لك بعض الأمثلة على ذلك . قال في مطلع قصيدته لعبد الله بن طاهر :

اهنّ عوادي يوسف وصواحيبه      فعزماً فقيداً ادرك السؤل طالبه  
اعاذلتي ما اخشن الليل مركباً      واخشن منه في اللغات راكبه  
دعيني على اخلاقي الصمّ للتي      هي الوفرة أو سرب ترن نواديه  
فان الحسام الهندواني انما      خشونته ما لم تفلل مضاربه

ذكروا انه لما بدأ في انشاد هذه القصيدة في مجلس الأمير قيل له لِمَ تقول ما لا يفهم ؟ فأجاب السائل : لِمَ لا تفهم ما يقال ؟ فكتة جميلة تبين ما نقصد اليه . ومعنى هذه الابيات عموماً : هل تريد الغواني ان تشغلني وتشني عزمي عن السفر ، وان تخدعني كما حاولت ان تخدع

يوسف بن يعقوب ؟ فلأندرعُ بالعزم ، لا بدّ لكل طالب مواظب من ادراك طلبه . ويا ايها العاذلة ان الليل مركب خشن ، ولكن الذي يركبه أشد منه وأخشن . فاتركيني على أخلاقي الشديدة اسعى في طلب العلى ، فاما ان أناها أو أموت وتندبني النوادب . فان الحسام الهندواني القاطع انما خشونته ( عدم مضائه ) ما لم يستعمل ( أي انما مضاء الرجل بالعمل والاقدام ) .

وقوله يصف أماني الروم واعتمادهم على مناعة حصونهم :  
وقال ذو أمرهم لا مرتع صدّدٌ للسارحين وليس الورد من كشبِ  
ان الحيامين من بيض ومن سمر دلوا الحياتين من ماء ومن عشب  
أي قال قادتهم لأنفسهم لا مرتع قريب للاعداء ( إذا راموا الحصار ) ولا ماء فلا يمكنهم البقاء طويلا . على ان أمانيهم هذه قد فشلت لان السيوف والرماح ( الحمامين ) هي سبيلنا الى الماء والعشب .

وقوله يصف - كيد المدوح للاعداء وحسن رأيه - :  
قد رأوه وهو القريب بعيدا ورأوه وهو البعيد قريبا  
سكن الكيد فيهم انّ من أعظم إرب ان لا تكون اريبا  
مكرهم عنده فصيح وان هم خاطبوا مكره رأوه جليبا  
لقد انصعتَ والشتاء له وجه يراه الرجال جهماً قطوبا  
طاعناً منحراً الشمال متيحاً لبلاد العدو موتاً جنوبا  
فضربت الشتاء في اخدعيه ضربة غادرته قوداً ركوبا

أي ان الاعداء رأوا المدوح على قربه منهم بعيداً بمناعته ، ورأوه على بعده قريباً منهم لعزمه وهجومه الشديد . وقد خفيت سياسته عليهم - وان من أعظم فنون السياسة ان لا يظهر الدهاء للاعداء - فلم يدركوا خططه مع ان خططهم كانت لديه واضحة . ولقد عدت اليهم والشتاء في إبتانه فطمعت منحراً الشمال ( يكني بذلك عن العدو لأنه من جهة الشمال ) حاملاً

اليهم الموت من الجنوب ، وضربت الشتاء فأذلتته حتى أصبح لديك  
كالجمل الركوب :

ومن هذا القبيل :

يقولون ان الليث ليث خفيّة نواجذه مطرورة ومخالبه  
وما الليث كلّ الليث إلا ابن عثريّ يعيش فواق ناقة وهو راهبه  
ويحلّ هذا الطلمس بقولنا : ليس الاسد سبع الغاب ولكن الأسد  
الحقيقي هو الذي يحتمل بأس المدوح ولو قليلاً ( فواق ناقة ) .

وقوله للماذل الخليّ وهو بين الطلول :

وما صار في ذا اليوم عدلك كله عدوّي حتى صار جهلك صاحبي  
وما بك إركابي من الرشد مركباً ألا انما حاولتَ رشد الركائب  
لم يصر عدلك عدواً لي ، حتى صار جهلك صاحبي : أي كرهتك  
لعدلك إياي ولكنني ما لبثت ان رضيت عنك لجهلك لوعة الحب ، إذ  
انك يجهلك تستطيع مساعدتي فتمنعي مثلاً من شدة الوجد وكثرة البكاء .  
ولكن مالك تحملني على اتباع سبل الرشاد وترك الوقوف بين الطلول -  
ليس ذلك رشادي بل رشاد ركائي التي ترغب في متابعة السير .

\* \* \*

ومن أسباب اغرابه وغموضه شغفه الزائد بالطباق والجناس كقوله :

فالشمس طالعة من ذا وقد افلتت والشمس واجبة في ذا ولم تجب

\* \* \*

فهو مدنٍ للجود وهو بغيض وهو مقصٍ للمال وهو حبيب

\* \* \*

فأنت لديه حاضر غير حاضر بذكر وعنه غائب غير غالب

\* \* \*

غربت خلائقه وأغرب شاعر فيه فأحسن مُغريب في مغرب

ومن طلاسمه في ذلك قوله :

وركب يساقون الركاب زجاجة      من السير لم تقصد لها . كفّ قاطب  
فقد أكلوا منها الغوارب بالسرى      وصارت لها أشباحهم كالغوارب  
يصرف مسراها جُنْدِيلَ مشارق      إذا آبه همّ عُنْدِيقُ مغارب  
يرى بالكسّاب الرّود طلعةً نائر      وبالعرمس الوجناء غرّة آيب

ومعناها : وربّ ركب شاركوا نياقهم بالسير الشديد حتى أذابوا  
اسنمتها وكواهلها ، ويقود هؤلاء الركب رجل خبير بالاسفار شرقاً  
وغرباً ، شغوف بالسفر على النياق حتى انه ليرى في وجه الناقة جمالاً ،  
ويكره المكوث في المنازل فلا يرى في وجوه الحسان ما يفريه على ذلك .

ومن دواعي غموضه اغراقه في استعمال الغريب من الألفاظ . جاء في  
كتاب الموازنة : « كان أبو تمام يتتبع حوشيّ الكلام ويتعمّد ادخاله  
في شعره » . ولعل ذلك راجع بالاكتر الى كثرة محفوظه ودرسه لأشعار  
الأقدمين . قال الأمدى : « كان أبو تمام مشغولاً بالشعر مشغولاً مدّة  
عمره بتخييره ودراسته ، وله كتب اختيارات فيه مشهورة : منها الاختيار  
القبائلي الأكبر ، وقد مرّ على يديّ هذا الاختيار . ومنها اختيار آخر  
ترجمته القبائلي ، ومنها الاختيار الذي تلقّط فيه محاسن شعر الجاهلية  
والاسلام وأخذ من كل قصيدة شيئاً حتى انتهى الى ابراهيم بن هرمة ،  
وهو اختيار مشهور معروف باختيار شعراء الفحول . ومنها اختيار تلقّط  
فيه أشياء من الشعراء المقلّين والشعراء المغمورين ويلقب بالحماصة ، وهو  
أشهر اختياراته . ومنها اختيارات المقطّعات يذكر فيه اشعار المشهورين  
وغيرهم والمتقدمين والمتأخرين ، وهذه الاختيارات تدل على عنايته بالشعر ،  
وانه اشتغل به وجعله ركده ، واقتصر من كل الآداب والعلوم عليه :  
فإنه ما من شيء كبير من شعر جاهلي ولا اسلامي ولا محدث إلا قرأه

١ الموازنة (الاستانة ١٢٨٧) ١٢٠ .

واطلع عليه<sup>١</sup> . وقيل انه كان يحفظ أربعة عشر ألف ارجوزة غير القصائد والمقاطيع ، وقال هو عن نفسه لم أنظم الشعر حتى حفظت سبعة عشر ديواناً للنساء خاصة دون الرجال<sup>٢</sup> .

ولا ريب ان للحفظ تأثيراً على أسلوب الشاعر او الناثر ، ولا سيما في إبتان قوّة الحافظة . ويظهر ذلك في ميل شاعرنا الى استعمال غير المؤلف من الاوصاف والعبارات . انظر الى هذا البيت وقد ذكر قبلاً :

أهيس أليسُ لجاة الى همم تغرق الاسد في آذيتها الليسا

أي شجاع تغرق بحور همته الاسود الجريئة

وقوله :

الواردين حياض الموت متأقّة ثباً ثباً وكراديساً كراديسا

ويريد بتأقّة مترعة . وثباً ثباً أي جماعات جماعات .

وقوله في مطلع قصيدة :

أما انه لولا الهوى ومعاهده مواعيسه قد اقفرت وأجالده

لأعطيت هذا الصبر مني طاعة ليعلم دهري أي قرن يكايده

أي لولا ان نأي الاحباب عن الديار قد أفقدني صبري لعلّمت الدهر

بثباتي على مصائبه أي رجل أنا .

وقوله :

غل المروراة الصحاح عزمه بالعيس ان قصدت وان لم تقصد

أي طوى السهول والقفار عزمه .

وقوله :

سهاد يرجحن الطرف منه ويولع كل طيف بالصدود

١ الموازنة ٢٣ و ٢٤ (بتصرف) .

٢ ابن خلكان ١٠ - ١٧٠ .

أي سهاد تثقل فيه الجفون :

وقوله :

تقلقل بي آدم المهارى وشؤمها على كل نشز متلثبٍ وفدغد  
أي تضطرب بي النياق الرمادية والسوداء على كل فلاة سوداء الحجارة .  
وفي قوله :

صَهْصَلَقٌ في الصهيل تحسبه أشرح حلقومه على جرس  
يصف حصانه بشدة الصوت حتى كأنما حلقومه شد الى جرس .  
ومن هذا القبيل :

عططت على رغم العدى عزم بابك بعزمك عطّ الاتحمي المرعبل  
الكلام استعارة معناه : شققت عزم « بابك » بعزمك كما تشق الثوب  
المخطط .

وقوله :

كأن بابك بالبذنين بعمدهم نؤي أقام خلاف الحي أو وتد  
بكل منعرج من فارس بطل جناجن فلق فيها قناقصد  
والمعنى كأن بابك ، وقد فني جيشه ، أثر نؤي أو وتد باق في الحي ،  
فأنت لا ترى إلا أشلاء جيشه مبعثرة ، وفي كل ناحية ومنمطف آثار  
الرماح المتكسرة .

وقال :

مقابل في الجديل صلب القرا لو حكّ من عجبته الى كتده  
أي كريم النسب قوي الظهر لو امتحن من عجزه الى كتفه لوجد كذلك .  
وأراد مرّة ان يطلب فرواً من ممدوحه فوصفه بهذه الابيات الغريبة :

ولا بد من فرو اذا اجتابه امرؤ غدا وهو سامٍ في الصنابر أغلب  
اثيث اذا استعبت مصقعة به تملأت علماً انها سوف تُعتب

يراه الشفيف المرتعن<sup>١</sup> فيثني حسيراً فتغشاه الصبا فتنتكسب  
أي إذا لبسه الانسان تغلب فيه على البرد . وهو كثيف الشعر اذا  
استرضيت البرد به رضي ، واذا رآه المطر البارد المنهمر انثنى عنه كليلاً  
ومالت عنه ريح الصبا .

ونحتم هذه الامثلة على ميله لاستعمال المتوعر من الالفاظ ببيتين من  
همزته المعروفة ، قال في مطلعها :

قدك اتسب أربيت في الغلواء كم تعدلون وأنتم سُجرائي  
أي استحي يا لاثمي يكفيك غلواً في تعنفي . وكيف تلومونني وأنتم  
مثلي مصابون بالغرام .

ومنها يصف البيد والنياق :

بيد<sup>٢</sup> لنسل الفيد في امليدها ما ارتيد<sup>٣</sup> من هيد ومن عدواء  
أي قفار قطعها على ناقة ذلول ، فيها كل ما يتطلبه الراكب من  
عزم ومضاء ومن فرج للهموم .

وأمثال هذه الالفاظ في شعر ابي تمام كثيرة فاشية . وقد انكر  
المتقدمون ذلك عليه ، وقالوا اذا جاز للاعرابي القح فهو مستهجن من  
المحدث الذي ليس هو لغته ، ولا من كلامه الذي تجري عادته به<sup>٤</sup> .  
ولقد ذكرنا ان أكثر ذلك راجع الى شغفه بالقديم كثرة محفوظه منه .  
على ان هناك سبباً آخر وهو شدة اعجابيه بشعره ، حتى لم يكن ليرضى  
أن يمسه بأدنى تهذيب . قال ابو الهلال العسكري : « كان ابو تمام يرضى  
بأول خاطر فنعى عليه عيب كثير ، وعن الاغاني : روي عن بعض  
الشعراء ان أبا تمام أنشده قصيدة له أحسن في جمعها الا في بيت واحد ،  
فقال له : يا أبا تمام لو ألقيت هذا البيت ما كان في قصيدتك عيب .  
فقال له : أنا والله اعلم منه مثل ما تعلم ولكن مثل شعر الرجل عنده

١ المرازنة ١٢١ .

مثل أولاده ، فيهم الجميل والقبيح والرشيد والساقط وكلهم حاو في نفسه<sup>١</sup> . فكان شاعرنا كما وصفه الأمدى شرهاً الى إيراد كل ما جاش به خاطره ، ولجلجه فكره ، فخلط الجيد بالرديء ، والعين النادر بالردل الساقط ، والصواب بالخطأ<sup>٢</sup> . على ان لشعره طابعاً من الجزالة أو الفخامة عُرِف فيه . وعليه قال ابن الأثير يصف ألفاظه :

« كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد<sup>٣</sup> » .

بقي أن نقول ان أبا تمام كسائر الفحول من الشعراء المتقدمين قد طرقت كل أبواب الشعر فمدح ورثى وتغزل وأجاد الحكمة والوصف . وقد ترك لنا من شعره وخصوصاً في المدح والثناء والحكمة ما يعدّ من أبلغ ما جادت به قرائح الشعراء ، ويكفي أن نشير الى مدائحه في المعتصم وأبي سعيد محمد بن يوسف ومرثاته الشهيرة في محمد بن حميد الطوسي وما له من بدائع الحكم التي تتخلل قصائده ؛ ففي هذه وسواها تبرز لك شاعريته القوية ، وسنلمس ذلك في ما أثبتناه من مختار شعره .

---

١ الاغاني ١٥ - ١٠٠ .

٢ الموازنة ٥٦ .

٣ المثل السائر ١٠٦ .



## المختار من شعر أبي تمام

وادي بعيد الغور كثير الجنادل يرده الناهل فلا يبلغه إلا بعد أن تكلّم  
قدماء وينقطع نفّسه ، على انه إذا وصل وجد فيه ما ينسيه أهوال  
الطريق ومتاعب الرحيل . ذلك هو ابو تمام في شعره - هدارٌ كثير  
التأنق ولوعٌ بسلوك أغرب السبل الى المعاني .

### فتح عمورية<sup>١</sup>

قبلت في الممتصم سنة ٢٢٣ هـ وكان الشاعر قد صحبه في هذه المعركة  
فشهد بنفسه وقائمه<sup>٢</sup> :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب  
بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والرّيب  
والعلم في شهب الأرماع لامعة بين الخميسين<sup>٣</sup> لا في السبعة الشهب  
أين الرواية بل أين النجوم وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب  
تخرصاً وأحاديثاً ملفقة ليست بنبع إذا عدت ولا غرب<sup>٤</sup>

١ عمورية بلدة حصينة في الاناضول كانت بيد الروم .

٢ الفخري ١٧١ .

٣ الخميسين أي الجيشين .

٤ النبع شجر صلب تعمل منه القسي . والغرب شجر هش . والمعنى ان اقوالهم ليست من  
الحقيقة في شيء .

عجائباً زعموا الايام مجفلة<sup>١</sup> وخوتفوا الناس من دهياء مظلمة  
وصيروا الأبرج العليا مرتبة<sup>٢</sup> يقضون بالامر عنهما وهي غافلة<sup>٣</sup>  
لو بيتت قط أمراً قبل موقعه فتح الفتوح تعالى ان يحيط به  
فتح تفتتح أبواب السماء له يا يوم وقعة عمورية انصرفت  
أبقيت جد بني الاسلام في صعدي أم لهم لو رجوا ان تفتدي جعلوا  
وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد  
حتى اذا غض الله السنين لها

\* \* \*

أتهم الكربة السوداء سادرة<sup>٤</sup> منها وكان اسمها فراجة الكرب<sup>٥</sup>  
كم بين حيطانها من فارس بطل بسنة السيف والخطي من دمه<sup>٦</sup>  
قاني الدوائب من آني دم سرب  
لا سنة الدين والاسلام مختضب<sup>٧</sup>

- ١ إشارة إلى مذنب ظهر في تلك الايام ولعله مذنب «هالي» راجع المقتطف مج ٣٥ ج ٦ - ١ .
- ٢ كنى بالاوئان والصلب عن الروم . ويريد بهذا البيت انه لو كانت التنجيم يفيد لعرف الروم ما سيحل بهم فاتقوه .
- ٣ شبه بلوغ الأمانى بجلب الضرع الملائن بالحليب اللذيذ .
- ٤ شبه المدينة بامرأة بارزة المحاسن رامها الملوك الفاتحون فامتنت عليهم .
- ٥ أي كما ان المرأة الحريصة تمخض الحليب لتستخرج زبدته هكذا غضت الايام فكانت عمورية أفضل ما خرج منها .
- ٦ أتهم المصيبة من المدينة وكانوا لمتاعها يتوقعون الفرج منها .
- ٧ أي كم من فارس قتل فيها فسال دمه قانياً حتى غضب شعره ولكن تخضيب السيف لا التخضيب الذي تقتضيه السنة .

لنار يوماً ذليل الصخر والخشب  
 يشلته وسطها صبح من اللهب  
 عن لونها أو كأن الشمس لم تغب  
 وظلمة من دخان في ضحى شحب  
 والشمس واجبة في ذا ولم تجب<sup>١</sup>  
 عن يوم هيجاء منها طاهر جنب<sup>٢</sup>  
 بان بأهل<sup>٣</sup> ولم تغرب على عزب  
 غيلان أبهى ربي من ربها الحرب<sup>٤</sup>  
 أشهى إلى ناظري من خدّها التريب  
 عن كل حسن بدا أو منظر عجب  
 جاءت بشاشته من سوء منقلب

لقد تركت أمير المؤمنين بها  
 غادرت فيها بهم الليل وهو ضحى  
 حتى كأن جلابيب الدجى رغبت  
 ضوء من النار والظلماء عاكفة  
 فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت  
 تصرح الدهر تصریح الغمام لها  
 لم تطلع الشمس فيه يوم ذاك على  
 ما ربيع مية معموراً يطيف به  
 ولا الحدود وقد أدمين من خجل  
 سماجة غنيت منا العيون بها  
 وحسن منقلب تبدو عواقبه

\* \* \*

له المنية بين السمر والقضب  
 لله مرتقب في الله مرتقب<sup>٥</sup>  
 يوماً ولا حجت عن روح محتجب<sup>٦</sup>  
 الا تقدمه جيش من الرعب  
 من نفسه وحدها في جحفل لجب  
 ولو رمى بك غير الله لم تُصب  
 والله فتاح باب المعقل الأشيب

لو يعلم الكفر كم من أعصر كمنت  
 تدبير معتصم بالله منتقم  
 ومطعم النصر لم تكهم اسنته  
 لم يغرر قوماً ولم ينهد<sup>٧</sup> إلى بلد  
 لو لم يقُد جحفلاً يوم الوغى لغزا  
 رمى بك الله برجيا فهدتها  
 من بعد ما أشبوها واثقين بها

- ١ في هذا البيت والابيات الاربعة السابقة يذكر حريق المدينة ويتفنن في وصف الدخان والهب.
- ٢ جنب نجس . أي طاهر لنا نجس لأعدائنا - أو طاهر بالجهاد نجس باستباحة الاعراض .
- ٣ بان بأهل أي متزوج .
- ٤ غيلان هو الشاعر ذو الرمة ، ومية فتاته . وفي هذا البيت وما بعده يقول ان النصر أجل لدينا من كل الجمال وان خراب المدينة الدال على ظفونا أبهى من كل منظر حسن .
- ٥ وفي رواية مرتب .
- ٦ الضمير راجع إلى الخليفة المعتصم . وتكهم الاسنة أي تكل عن القطع .
- ٧ نهد بمعنى نهض أو ارتفع .

وقال ذو أمرهم لا مرتع صدده  
أمانياً سلبتهم نُججَ هاجسها  
إنّ الحيامين من بيضٍ ومن سُمرٍ  
للسارحين وليس الورد من كُثبٍ<sup>١</sup>  
ظبي السيوف وأطراف القنا السلب  
دلوا الحياتين من ماءٍ ومن عشب

\* \* \*

لما رأى الحرب رأيَ العين توفلس<sup>٢</sup>  
غدا يصرف بالأموال جريتها  
هيات زُعزعت الأرض الوقور به  
لم يُنقق الذهبَ المرّبي بكثرتة  
إنّ الأسودَ أسودَ الغاب ممتها  
ولتى وقد أجمَ الخطيَ منطقة<sup>٣</sup>  
موكلاً بيفاع الأرض يشرفه<sup>٤</sup>  
تسمون ألفاً كآساد الشرى نضجت  
يا ربّ حوباء<sup>٤</sup> لما اجتثّ دابره  
ومعضبٍ رجعت بيض السيوف به  
والحرب قائمة<sup>٥</sup> في مازق لحج

والحرب مشتقة المعنى من الحرب  
فعرّه البحر ذو التيار والحداب  
عن غزو محتسب لا غزو مكتسب<sup>٢</sup>  
على الحصى وبه فقر إلى الذهب  
يوم الكريهة في المسلوب لا السلب  
بسكتة خلفها الاحشاء في صخب  
من خفة الخوف لا من خفة الطرب  
أعمارهم قبل نضج التين والعنب<sup>٣</sup>  
طابت ولو ضمّخت بالمسك لم تطب  
حيّ الرضى من رداهم ميّت الغضب  
تجشو الكفاة به صُمرأ على الركب

١ في هذا البيت والبيتين التاليين يذكر ان الروم لما حصنوا المدينة وتهيأوا للحصار قال  
أولو الأمر منهم لن يستطيع المسلمون حصرنا إذ ليس لهم خارجها مراتع ولا مياه . ولكن  
تلك الأمانى كذبتها سيوفنا ورماحنا فكانا ( أي السيوف والرماح ) الوصيلتين للوصول إلى  
الماء والعشب .

٢ يريد بهذا البيت وما سبقه ان قائد الروم « تيوفيلوس » لما رأى شدة الحرب عليه أراد أن  
يحول مجراها عنه بإرشاء الخليفة بالمال . ولكن هيات ذلك والخليفة إنما يجارب حياً بالجهاد  
لا حياً بالمال .

٣ يقصد جيش الروم وفيه إشارة إلى ان منجمي الروم كانوا قد قالوا ان المدينة لا تؤخذ قبل  
الصيف ولكن المسلمين كذبوهم وأخذوها قبل ذلك .

٤ الحوباء النفس . أي كم من نفس لم تكن تطيب بالمسك طابت الآن بفناء الاعداء .

كم نيل تحت سناها من سنى قمر      وتحت عارضها من عارض شنب<sup>١</sup>  
 كم كان في قطع أسباب الرقاب بها      إلى المخدرة العذراء من سبب  
 كم أحرزت قضب الهندي مصلته<sup>٢</sup>      تهتز من قضب تهتز في كضب<sup>٣</sup>  
 بيض إذا انتضيت من حجبها رجعت      أحق بالبيض ابداناً من الحجب<sup>٤</sup>

\* \* \*

خليفة الله جازى الله سعيك عن      جرثومة الدين والاسلام والحسب  
 بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها      تنال إلا على جسر من التعب  
 ان كان بين صروف الدهر من رحم      موصولة أو ذمام غير منقضب  
 فبين ايامك اللاتي نصرت بها      وبين ايام بدر أقرب النسب<sup>٤</sup>  
 أبقت بني الأصفر المراض كاسمهم      صفر الوجوه وجلت أوجه العرب<sup>٥</sup>

### وقال في أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري

يذكر بعض وقائمه في الشمال

من سجايا الطاول ألا تجيبا      فصواب من مقلتي ان تصوبا  
 فاسألننها واجعل بكاك جواباً      تجدر الشوق سائلاً وجيبا  
 قد عهدنا الرسوم وهي عكاظ<sup>٦</sup>      للصبا تزدهيك حسناً وطيباً<sup>٦</sup>  
 أكثر الأرض زائراً ومزوراً      وصعوداً من الهوى وصبوبا  
 وكعاباً كأنما ألبستها      غفلات الشباب برءاً قشيبا

١ و ٢ يكفي بسنا قمر وبالعارض الشنب عن الحسان اللواتي سبومن . وبالقضب التي تهتز في الكضب عن قامات اولئك الحسان .

٣ أي سيوف إذا سلت من أعقادها كانت أحق بأن تحتفظ بالحسان من خدورهن .

٤ أي إذا كان من قرابة بين الايام فيومك هذا أشدها قرابة بيوم بدر الذي انتصر فيه النبي على المشركين .

٥ بنو الاصفر أي الروم .

٦ يريد بهذا البيت وما بعده ان هذه الرسوم قد كانت قبلاً سوق الصبا يرتادها العشاق من كل جانب .

بينَ البينَ فقدَها قلِّبًا تمـ      حرفَ فقدأ للشمس حتى تغيبا  
 لعبَ الشيبَ بالمفارق بل جدَّ فابكى تماضراً ولعوباً<sup>١</sup>  
 خضبت خدَّها إلى لؤلؤِ العمة      يدِ دماً أن رأت شواقي خضيباً<sup>٢</sup>  
 كل داءٍ يرجى الدواء له      إلا الفظيعين ميتةً ومشيباً  
 يا نسيب الثغام ذنبك أبقى      حسناتي عند الغواني ذنوباً<sup>٣</sup>  
 ولئن عينَ ما رأين لقد      أنكرن مستنكراً وعين معيبا  
 أو تصدعن عن قلبي لكفى      بالشيب بيني وبينهنَّ حسيباً  
 لو رأى الله ان للشيب خيراً      جاورته الأبرار في الخلد شيباً  
 كلَّ يوم تبدي صروف الليالي      خلُقاً من أبي سعيدٍ عجيباً  
 طاب فيه المديح والتذت حتى      فاق وصف الديار والتشيباً  
 غربته العلى على كثرة الأهل      فأضحى في الأقربين جنيباً  
 فليطل عمره فلو مات في مروٍ مقيماً بها لمات غريباً<sup>٤</sup>  
 سبقَ الدهرَ بالتلاد ولم ينـ      تظنرِ النائبات حتى تنوباً<sup>٥</sup>  
 وإذا ما الخطوب أعفته كانت      راحتاهُ حوادثاً وخطوباً  
 وعيرُ الدين بالجلادِ ولكنَّ      وعورِ العدوِّ صارت سهوباً  
 فدروب الأشراك تدعى فضاءً      وفضاء الإسلام يدعى دروباً  
 قد رأوه وهو القريب بعيداً      ورأوه وهو البعيد قريباً  
 سكن الكيدُ فيهم إنَّ من أعظمِ إرثٍ أن لا تسمى أريباً<sup>٦</sup>  
 مكرهم عنده فصيح وان همَّ      خاطبوا مكره رأوه جليباً<sup>٧</sup>

١ تماضرو ولعوب فتان .

٢ أي بكت دماً إذ رأت شعري مخضباً لظهور الشيب فيه .

٣ الثغام نبات يبيض إذا يبس . ويريد بنسيب الثغام الشيب .

٤ مرو حاضرة خراسان وهي بلدة المدوح .

٥ أي سبق نواب الدهر بكارمه .

٦ ان كيده لم يظهر لها . وأعظم الدهاء ان لا يعرف صاحبه به .

٧ الجليب الغريب . ويريد بالببيت ان مكرهم ظاهر اما مكره فغير مفهوم لشدة دهائه . فشبه

مكرهم بفصيح المنطق ومكره بمن لا يفهم كلامه .

ولعمري القنا الشوارع تمرى من تلاح الطلي نجيماً صبيبا  
 في مكرٍ للروع كنت أكبلاً للمنايا في ظله وشربيا  
 لقد انصمت والشتاء له وجهه يراه الرجال جهماً قطوبا  
 طاعناً منحراً الشمال متيحاً لبلاد العدو موتاً جنوباً<sup>١</sup>  
 في ليالي تكاد تُبقي بحد الشمس من ريمها البليل شحوبا  
 فضربت الشتاء في أخدعيه ضربة غادرته قوداً ركوباً<sup>٢</sup>  
 لو أصغنا من بعدها لسمعنا لقلوب الأيام منك وجيبا  
 غزوة متبع ولو كان رأي لم تفرّد به لكانت سلوباً<sup>٣</sup>  
 يوم فتح سقى سواد الضواحي كسب الموت رائباً وحليبا  
 فإذا ما الأيام أصبحن خرساً كظماً في الفخار قام خطيبا  
 كان داء الاشرار سيفك واشتدت شكاة الهدي فكنت طبيبا  
 أنصرت أيكتي عطايك حتى صار ساقاً عودي وكان قضيبا  
 مطراً لي بالجاه والمال ما ألقاك إلا مستوهباً أو وهوبا  
 باسطاً بالندي سحائب كفى بنداها أمسى حبيب حبيباً<sup>٤</sup>

### وقال يمدح القاسم أبا ذلف العجلي

واصفاً جوده وحسن رأيه في الحرب

على مثلها من أربع وملاعب  
 أقول لقرحان من البين لم يُضِفْ  
 أذيلت مصونات الدموع السواكب<sup>٥</sup>  
 رسيس الهوى بين الحشا والترائب<sup>٦</sup>  
 أعني أفرق شمل دمعي فلنني  
 أرى الشمل منهم ليس بالمتقارب

- ١ إشارة الى انه غزا العدو ( في الشمال ) يجيش من الجنوب .
- ٢ هنا جعل الشتاء كالجل وقال ضربته فانقاد لك .
- ٣ الغزوة المتبع التي تبعا سواها والسلوب عكس ذلك .
- ٤ حبيب الاولى اسم الشاعر . أي صرت محبوباً ومحترماً .
- ٥ أي على مثل هذه الربوع تهان الدموع فتسكب من المآقي .
- ٦ أقول لمن خلا قلبه من ألم البعد وحرقة الهوى في الصدر .

وما صار يوم الدار عدلك كلة<sup>١</sup> وما بك إركابي من الرشد مركبا  
عدويّ حتى صار جهلك صاحبي<sup>١</sup> إلا انما حاولت رُشدَ الركائب  
إلى حرقاتي بالدموع السوارب

\* \* \*

أميدان لهوي من أتاح لك البلى  
أصابتك إلكار الخطوب فشتتت  
إذا العيس لاقت بي أبا دُلف فقد  
هنالك تلقى المجد حيث تقطعت  
تكاد عطاياهُ يُجنّ جنونها  
إذا حرّكته هيزّة المجد غيرت  
تكاد مغانيه تهش عراسها  
إذا ما غدا أغدى كريمة ماله  
يرى أقبح الأشياء أوبىة آمل  
وأحسن من نور تفتحه الصبا

\* \* \*

إذا أجمت يوماً لُجيم وحوها  
فإن المنايا والصوارم والقنا  
بجافل لا يتركن ذا جبّرية  
يمدون من أيدي عواصم  
إذا الخيل جابت قسطل الحرب صدّعا  
إذا افتخرت يوماً تميم بقوسها  
بنو الحصن نجل المحصنات النجائب<sup>٣</sup>  
أقاربهم في الروع دون الأقارب  
سليماً ولا يحربن من لم يحارب  
تصول بأسياف قواض قواضب  
صدور العوالي في صدور الكتائب  
وزادت على ما وطّدت من مناقب

١ وفي نسخة وما صار في ذا اليوم . وقد مر تفسير هذا البيت والذي بعده .  
٢ يريد بتقطيع التائم وارخاء الذوائب ان الجود والمجد قد نشأ وبلغا أشدهما عنده .  
٣ في هذا البيت وما بعده يقول إذا ركبت قوم الممدوح ( لجم وبنو الحصن ) لعمل عظيم فان المنايا والسيوف هي أقاربهم التي تحارب حريمهم .



فأنتم بندي قارٍ املت سيوفكم عروش الذين استرهنوا قوس حاجب<sup>١</sup>  
محاسن من مجدٍ متى تقرنوا بها محاسنَ اقوامٍ تكن كالمائب  
معالي تبادت في العلوِّ كأنما تحاول ثأراً عند بعض الكواكب

\* \* \*

وقد علم الافشين وهو الذي به يسانُ رداء الملك عن كل جاذب<sup>٢</sup>  
بأنك لما استخذل النصر واكتسى أهابيَّ تسفي في وجوه التجارب<sup>٣</sup>  
تجللته بالرأي حتى أريته به ملء عينيه مكان العواقب  
بأرشق إذ سألت عليهم غمامة<sup>٤</sup> جرت بالعوالي والعناق الشواذب<sup>٤</sup>  
سألت لهم سيفين رأياً ومُنصلاً وكل كنجمٍ في الدجنتِ فأقب  
وكنت متى تهزَّرُ لخطبٍ تغشته ضرائب امضى من رفاق المضارب  
فذكرك في قلب الخليفة بعدما خليفتك الملقى بأعلى المراتب  
فان تنسَ يُذكِرُ، أو يقل فيك حاسد<sup>٥</sup>

يُنفلُ قوله ، أو تنأ دارٌ يصاقب<sup>٥</sup>  
فأنت لديه حاضرٌ غيرُ حاضرٍ بذكر وعنه غائب غير غائب  
إليك أرحنا عازبَ الشعر بعد ما تمهلَ في روض المعاني المعائب  
غرائب لاقت في فنائك أنسا من المجدِ فهي الآن غير غرائب  
ولو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت<sup>٥</sup> حياضك منه في العصور الذواهب

١ إشارة الى قوس حاجب بن زرارة التي استرهنها ملك الفرس والى وفاء حاجب وما ناله من الفخر بذلك . يقول إذا افتخرت تيم بحاجب فان سيوفكم في يوم ذي قار قد غلبت الفرس الذين استرهنوا قوس حاجب .

٢ الافشين قائد مركي كبير كان المعتم قد عقد له لواء الحرب ضد بابك .

٣ لما اتخذ النصر واكتسى بما أفسد عليه التجارب أي أظلمت في وجهه الامور .

٤ ارشق : اسم مكان . وقوله : سألت عليهم غمامة الخ ... معناه غمرتهم الحرب بالرماح والخيول الكريمة .

٥ فبمملك هذا أنت مذكور دائماً عند الخليفة، وبه تقرب منه بها ابتعدت ويهلك قول حسان.

ولكنه صوب العقول إذا انجلت سحائب منه أعقبت بسحائب  
أقول لأصحابي هو القاسم الذي به شرح الجود التباس المذاهب  
واني لأرجو عاجلاً ان تردني مواهبه بجرأ ترجى مواهي

وقال يمدح عبدالله بن طاهر

وكان قد قصده الى خراسان

أهنّ عوادي يوسفٍ وصواحيبه فعزماً فقدماً ادرك السؤل طالبه<sup>١</sup>  
إذا المرء لم تستخلص الحزم نفسه فذرّوته للحادثات وغاربه  
أعادلتني ما أخشنّ الليل مركباً واخشنّ منه في الملمات راكبه<sup>٢</sup>  
ذريني وأهوال الزمان أفانها فأهواله العظمى تليها رغائبه  
ألم تعلمي انّ الزّماع على السرى اخو النّجح عند الحادثات وصاحبه  
دعيني على اخلاقي الصّمّ التي هي الوفرُ او سربُ قرنٍ نودابه<sup>٣</sup>  
فانّ الحسام الهندواني إنّما خشونته ما لم تُفْلَل مضاربه<sup>٤</sup>

\* \* \*

وقلقلّ ناسٌ من خراسان جاشها فقلت اطمئنتي انضروا الروض عازبه  
وركب كاطراف الأسنّة عرسوا على مثلها والليل تسطو غياهبه<sup>٥</sup>  
لأمرٍ عليهم انّ تتمّ صدوره وليس عليهم انّ تتمّ عواقبه  
إلى ملكٍ لم يُلَقِ كلّكلّ بأسه على ملكٍ الأ للذلّ جانبه  
إلى سالب الجبار بيضة ملكه وآمله غادٍ عليه فسالبه  
سما للملى من جانبيها كليهما سموّ عباب الماء جاشت غواربه  
فنوّال حتى لم يجد من ينيله وحارب حتى لم يجد من يحاربه  
وذو يقظات مستمرّ مريرها إذا الخطب لاقاه اضمحلت نوائبه<sup>٦</sup>  
فوالله لو لم يلبس الدهر فعله لأفسدت الماء القراح معائبه

١ و ٢ و ٣ و ٤ قد مر تفسير هذه الابيات سابقاً .

٥ وركب كاطراف الرماح مضاء أقاموا على نياق مثلهم مضاء وعزماً .

٦ مستمر مريها أي مستمرة شدتها .

فيا أيها الساري أسر غير محاذر  
فقد بثت عبداً خوفاً انتقامه  
على الليل حتى ما تدب عقاربه  
جنان ظلام أو ردى أنت هائبه

\* \* \*

ويوم أمام الموت دحض وقفته  
ولو خرّ فيه الدين لانها كائبه  
جلوت به وجه الخليفة ، والقنا  
قد اتسعت بين الضلوع مذاهبه  
سقيت صدها والصفوح من الطلى  
رواء نواحيه عذاب مشاربه<sup>١</sup>  
فلو نطقت حرب لقات محقة  
ألا هكذا فليكسب المجد كاسبه  
ويا أيها الساعي ليدرك شأوه  
ترحزح قصيصاً أسوأ الظن كاذبه  
فحسبك من نيل المراتب ان ترى  
عليماً بأن ليست تئال مناقبه  
إذا ما امرؤ ألقى بربعمك رحله  
فقد طالبتة بالنجاح مطالبه

### وقال يمدح محمد بن عبد الملك الزيات

ديمة سمحة القياد سكوب<sup>١</sup> مستغيث بها الثرى المكروب<sup>٢</sup>  
لو سعت بقعة لإعظام نعمى لسعى نحوها المكان الجديب  
لذت شؤبها وطاب فلو تسطيع قامت فمانقتها القلوب  
فهي ماء يجري وماء يليه وعزالي تنشا وأخرى تذوب<sup>٣</sup>  
كشف الروض رأسه واستسر<sup>٤</sup> الهل منها كما استسر<sup>٥</sup> المريب  
فإذا الرّي بعد محل وجرجا<sup>٤</sup> ن لديها يبرين<sup>٤</sup> او ملحوب<sup>٤</sup>  
أيها الغيث حي أهلاً بمفدا<sup>٥</sup> ك وعند السرى وحين تؤوب<sup>٥</sup>

١ أي. سقيت القنا فاطفات عطشه والسيف من الرقاب قد عذبت مشاربه رسالت نواحيه. ويروى «والصفوح من الطلى رواء نواحيه» .

٢ أي كان من جراء هذه الغمامة الماطرة ان سالت المياه مجرى بعد مجرى . والعزالي مصاب مياه المطر .

٣ استسر اختفى . أي اختفى الهل كما يحتجب صاحب التهمة عن أعين النظار .

٤ أصبحت جرجان وهي في الخصب كأنها يبرين او ملحوب - وهما محلان في بلاد العرب معروفان بوفرة مياهها وشجرهما .

٥ يروى حيهلا وهي بمعنى أهلاً وسهلاً .

لأبي جعفر خلّاقٌ تحكيهنّ<sup>١</sup> قد يشبه النجيبَ النجيبُ  
 أنتَ فينا في ذا الأوان غريبٌ وهو فينا في كل وقتٍ غريب  
 ضاحكٌ في نوائب الدهر طلقٌ وملوكٌ يبكون حين تنوب  
 فإذا الخطبُ طالَ نالَ الندى والبذل منه ما لا تنالُ الخطوب  
 خلّقتُ مشرقٌ ورأي حسامٌ وودادٌ عذبٌ وريحٌ جنوب  
 كلُّ يومٍ له وكلُّ أوانٍ خلّقتُ ضاحكٌ ومالٌ كئيب  
 إن تقاربتهُ أو تباعدتهُ ما لم تأتِ فحشاء فهو منك قريب  
 ما التقى وفرهٌ ونائلهٌ منذ كان الا وفرهٌ المغلوب  
 فهو مدنٌ للجود وهو بغيضٌ وهو مقصٌ للمال وهو حبيبٌ  
 يأخذ المعتفينَ قسراً ولو كفّ دعاهم إليه وادٍ خصيب  
 غيرَ أن الرّامي المسدّد يحتاط مع العلم انه سيصيب<sup>٢</sup>

### وقال في أبي سعيد محمد بن يوسف

ذاكراً بعض وقائمه في حروب بابك

غدت تستجيرُ الدمع خوفَ نوى غدٍ وعادَ قتاداً عندها كل مرقد  
 وانقذها من غمرة الموت انه صدودُ فراق لا صدود تعمّد  
 فأجرى لها الأشفاق دمعاً مورّداً من الدّم يجري فوق خدّ مورّد  
 هي البدرُ يغنيها تودّدٌ وجهها إلى كلّ من لاقت وان لم تودّد  
 ولكنني لم أحو وفرأ مجتمعا ففزتُ به إلا بشملي مبدّد  
 ولم تعطني الايامُ نوماً مسكناً أذّب به الأ بنومٍ مشرّد  
 وطولُ مقام المرء في الحيّ مخلّقٌ لديباجتيه فاغترب تتجدّد

١ يصف شدة كرمه ويقول فهو مدن للجود والجود بغيض من أصحاب المال . وهو مقص للمال والمال محبوب من الجميع .

٢ يحر المعتفين الى نواله مع علمه بأنهم سيصدونه . يفعل ذلك احتياطاً كما يحتاط الرامي مع علمه انه سيصيب .

فاني رأيتُ الشمسَ زبدتُ محبةً إلى الناس أن ليست عليهم بسرمدٍ

\* \* \*

حلقتُ بربّ البيض تدمى متونها وربّ القنا المناد والمتصدّ ١  
لقد كفّ سيفُ الصامتيّ محمّد تباريح ثأر الصامتيّ محمّد ٢  
رمى الله منه بابكاً وولاته بقاصمة الأصلاب في كل مشهد  
بأسمع من صوب الغمام سباحة وأشجع من صرف الزمان وأنجد  
وفي «ارشق» الهيجاء والخيل ترتي عططت على رغم العدى عزم بابك  
فان لم يكن ولتى بشلوٍ مقدّد بعزمك عطّ الاتحيميّ المعضد ٣  
وقد كانت الارماح أبصرن قلبه هناك فقد ولتى بعزم مقدّد  
وموقان كانت دار هجرته فقد فأرمدها ستر القضاء المدد  
حططت بها يوم العروبة عزّه توردها بالخيل أي تورده ٤  
رآك سديد الرأي والرمح في الوغى وكان مقيماً بين نسر وفرقد ٥  
وليس يجلسي الكرب رمح مسدّد تآزر بالإقدام فيه وترتدي  
فمرّ مطيعاً للعوالي معوداً إذا من الخوف والاحجام ما لم يعود  
وكان هو الجلد القوى فسلبته بحسن الجلاذ المحض حسن التجلّد  
افادتك فيها المرهفات مكارماً تعمّر عمر الدهر ان لم تخلّد

\* \* \*

وليلةً أبليتَ البياتَ بلاءهُ من الصبر في وقت من الصبر محمّد ٦

١ حلقت برب السيوف الدامية والقنا الملتوي او المتكسر .

٢ أي لقد ثأر محمّد ( المدوح ) لمحمّد بن حميد الطوسي الذي قتل قبلاً ، والصامتي لقب .

٣ شققت عزم بابك كما يشق الثوب المخطط .

٤ موقان اسم مكان كانت حصن بابك الحسين حتى دخلتها بالخيل .

٥ يوم العروبة أي يوم الجمعة . يقول انزلت عزه ذلك اليوم وكان بين هذين النجمين سمواً .

٦ محمّد ( ويروي خطأ محمّد ) أي قليل الخير .

فيا جولةً لا تجحديه وقاره  
 ويا ليل لو أني مكانك بعدها  
 وقائع أصل النصر فيها وفرعه  
 فمها تكن من وقعة بعد لا تكن  
 محاسن اصناف المغنين جمة<sup>١</sup>  
 جلوت الدجى عن أذربيجان بعدما  
 وكانت وليس الصبح فيها بأبيض  
 رأى بابك منك التي طلعت له  
 هزرت له سيفاً من الكيد انما  
 يسر الذي يسطو به وهو مغمد  
 تلافى جداك المجتدين فاصبحوا  
 إذا ما رحي دارت ادرت سماحة<sup>٢</sup>  
 أتيتك لم افزع الى غير مفرع  
 ومن يرج معروف البعيد فانما  
 ويا سيف لا تكفر ويا ظلمة اشهدي  
 لما بت في الدنيا بيوم مسهد  
 إذا عُدّد الاحسان أو لم يعدد  
 سوى حسن مما فعلت مردد  
 وما قصبات السبق الا لمعبد<sup>٣</sup>  
 تردت بلون كالفامة اربد<sup>٤</sup>  
 فأمست وليس الليل فيها بأسود  
 بنحس وللدين الحنيف بأسعد  
 تجذ به الاعناق ما لم تجرد<sup>٥</sup>  
 ويفضح من يسطو به غير مغمد  
 ولم يبق مذخور ولم يبق مجتد  
 رحي كل إنجاز على كل موعد<sup>٦</sup>  
 ولم أنشد الحاجات في غير منشد  
 يدي عوّلت في النائبات على يدي

### وقال في المعتصم وبطشه بالافشين

وكان الافشين اولاً قائد جيشه ثم خرج عليه

الحق أبلج والسيوف عوار  
 ملك غدا جار الخلافة منكم  
 يا رب فتنه أمة قد بزها  
 فحذار من اسد العرين حذار  
 والله قد أوصى بحفظ الجار  
 جبارها في طاعة الجبار

١ مبد اسم مغم مشهور .

٢ اذربيجان مقاطعة في بلاد فارس .

٣ أي هزرت سيفاً من المكر . والمكر إنما ينفع اذا لم يفتضح - يشير الى درايته وحسن سياسته .

٤ سماحة مفعول لأجله . أي اذا رحي الشدائد دارت ادرت من سماحتك رحي الوفاء والكرم .

جالت بحيدرَ جولة المقدارِ  
 كم نعمةٍ لله كانت عنده  
 كسيتَ سبائبَ لؤمه فتضاءلت  
 موتورةٌ طلبَ الإلهُ بثأرها  
 صادي أميرَ المؤمنين بزبرجِ  
 مكرأ بنى ركنيه إلا أنه  
 حتى إذا ما الله شقَّ ضميره  
 ونحا لهذا الدين شفرته انثنى  
 ما كان لولا فحش غدرة حيدرِ  
 ما زال سرَّ الكفر بين ضلوعه  
 ناراً يساورُ جسمه من حرِّها  
 طارت لها شعلٌ يهدم لفتحها  
 لله من نار رأيت ضياءها  
 مشبوبةٌ رُفعت لأعظم مشركِ  
 صلتى لها حياً وكان وقودها  
 وكذلك أهل النار في الدنيا هم  
 يا مشهداً صدرت بفرحته إلى  
 رمقوا أعالي جذعه فكأنما  
 واستنشقوا منه قناراً نشره  
 فأحله الطغيان دار بوارِ<sup>١</sup>  
 فكأنها في غربة وإسارِ  
 كتضاؤل الحسناء في الأطهارِ<sup>٢</sup>  
 وكفى بربِّ النار مدركَ ثار  
 في طيه حمةُ الشجاع الضاري<sup>٣</sup>  
 وطدَّ الأساسَ على شفيرِ هارِ  
 عن مستكنِّ الكفر والاصرارِ  
 والحقَّ منه قانىء الأظفارِ<sup>٤</sup>  
 ليكونَ في الاسلام عامُ فيجارِ<sup>٥</sup>  
 حتى اصطلى سرَّ الزناد الواري  
 لهبٌ كما عصفت شقَّ إزارِ<sup>٦</sup>  
 أركانه هدماً بغير غبارِ  
 ضاق الفضاء به عن النظارِ  
 ما كان يرفعُ ضوءها للساوي  
 ميتاً ويدخلها مع الفجارِ<sup>٧</sup>  
 يوم القيامة جلَّ أهل النارِ  
 أمصارها القصوى بنو الأمصارِ  
 وجدوا الهلال عشية الإفطارِ  
 من عنبر ذفيرٍ ومسك داري<sup>٨</sup>

١ حيدر بن كارس هو الافشين .

٢ سبائب اللؤم أي اثوابه . والاطهار اكسية بالية .

٣ تظاهر بطاعة تحتها سم الحية القتال .

٤ أي بعد ان أعد شفرة الغدر للدين عاد الدين ففتك به .

٥ فجار : من حروب الجاهلية ، سميت كذلك لأنها كانت في الاشهر الحرم .

٦ هذا البيت وما قبله اشارة الى احراق الافشين وهو مصلوب .

٧ يشير الى ان الافشين كان مجوسياً يعبد النار .

٨ نسبة الى دارين ، وهي بلدة في الشام معروفة بمطرها .

قد كان بوّاه الخليفةُ جانباً  
 فسقاه ماء الخفض غير مصرّدٍ  
 فإذا ابنُ كافرةٍ يُسرّ بسرّهم  
 وإذا تذكّره بكاه كما بكى  
 دلّت زخارفه الخليفةُ أنه  
 يا قابضاً يدَ آلِ كاوُسٍ عادلاً  
 الحِيقُ جبيناً دامياً رملته  
 واعلم بأنك إنما تلقيهم  
 كادوا النبوةَ والهدى فتقطعت  
 جهلوا فلم يستكثروا من طاعة  
 فاشدّدُ بهارونُ الخلافةَ إنه  
 بفتى بني العباس والقمر الذي  
 كرم الخثولةَ والعمومةَ مجّه  
 هوَ نوهُ يمينِ فيهم وسعادة  
 فاقمع شياطين الفساد بمهتدٍ  
 ليسيرَ في الآفاق سيرةَ رافةٍ  
 فالصينَ منظومَ باندلسِ الى  
 ولقد علمتَ بأن ذلك معصم  
 فالأرض دار أقفرت ما لم يكن  
 سور القرآن الغرّ فيكم أنزلت

١ الضمير في بسرهم يرجع الى الجوس ، ونوار امرأة الفرزدق طلقها ثم ندم ووجد لذلك .

٢ كعب الغنوي شاعر قديم . له شعر يرثي به اخاه ابا المغوار .

٣ في هذا البيت وما قبله يقول : ايها الخليفة قد قبضت على ايدي آل كاروس بقتله فاقتل من بقي منهم .

٤ هارون هو الواثق بن المعتصم .

٥ يقصد بدمار اليمن . ويريد بما سرّ من الابيات ان الواثق خير ولي للعهد فهو قد جمع شرف الخثولة والعمومة وقرن في نفسه الهداية وحسن الرأي .



## ومن مدائح في المعتصم

أجلُ أيها الربيعُ الذي خفَّ آمله      لقد ادركتُ فيك النوى ما تحاوله  
وقفتُ وأحشائي منازل للأسى      به وهو قفرٌ قد تعفت منازله  
اسألُكم ما باله حكم البلى      عليه والأ فاطركوني أسائله  
دعا شوقه يا ناصرَ الشوقِ دعوةً      قلباه طلَّ الدمعَ يحري ووابله  
بيومٍ يريك الموت في صورة النوى      أو آخره من حسرةٍ وأوائله

إلى أن يقول :

إلى قُطب الدنيا الذي لو بفضله      مدحت بني الدنيا كفتهم فضائله  
مَن البأسُ والمعروف والدين والتقوى      عيالٌ عليه رزقهنَّ شمائله  
جلا ظلمات الظلم عن وجه أمةٍ      اضاء لها من كوكب الحق آفله  
ولادت بحقويه الخلافة فالتقت      على خدرها أرماحه ومناصله  
بمعتصمٍ بالله قد عُصمت به      عرى الدين والتفت عليه وسائله  
رعى الله فيه للرعية رافةً      ورحمته فيهم تفيضُ ونائله  
وقام فقام العدلُ في كل بلدة      خطيباً وأضحى الملك قد شقَّ بازله<sup>١</sup>  
بيمن أبي اسحق طال يد الهوى      وقامت قناةُ الملك واشتدَّ كاهله<sup>٢</sup>  
هو البحرُ من أيِّ النواحي أتيته      فلجته المعروف والجود ساحله  
تموّدَ بسط الكف حتى لو أنه      ثناها لقبضٍ لم تطعه أنامله  
ولو لم يكن في كفه غيرُ روحه      لجاد بها فليستق الله سائله  
إمام الهدى وابن الهدى أي فرحة      تمجّلها منك القريضُ وقائله  
رجاؤك للباغي الغنى عاجلُ الغنى      وأول يوم من لقائك آجله

١ شق بازله أي طلع تاب جمه ، والكلام مجاز يراد به قد اكتمل .

٢ أبو اسحق كنية المعتصم . اشتد كاهله أي امتنع جانبه .

## مرثاته في محمد بن حميد الطوسي

وكان المرثي من كبار القادة وقد قتل في حرب بابك ٢١٤ هـ

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر  
تُوفيت الآمال بعد محمد  
وما كان الا مال من قلّ ماله  
وما كان يدري مجتدي جود كفته  
الا في سبيل الله من عطيت له  
فتى كلما فاضت عيون قبيلة  
فتى دهره شطران فيما ينوبه  
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة  
وما مات حتى مات مضرب سيفه  
وقد كان فوت الموت سهلاً فردّه  
ونفس تعاف العار حتى كأنما  
فأثبتت في مستنقع الموت رجله  
غدا غدوة والحمد نسج رداه  
تردّي ثياب الموت حمراً فما دجا  
كأنّ بني نبهات يوم وفاته  
يُعزّون عن ثاور تعزّي به العلى  
وأنسى لهم صبر عليه وقد مضى  
فتى كان عذب الروح لا من غضاضة  
فتى سلبته الخيل وهو حمى لها  
وقد كانت البيض المآثير في الوغى

فليس لعين لم يفض ماؤها عذراً  
وأصبح في شغل عن السفر السفر  
وذخراً لمن أمسى وليس له ذخراً  
إذا ما استهلّت انّه خلق العسر  
فجاج سبيل الله وانثر الثغر  
دماً ضحكت عنه الاحاديث والذكر  
ففي بأسه شطر وفي جوده شطر  
تقوم مقام النصر ان فاته النصر  
من الضرب واعتلّت عليه القنا السمر  
اليه الحفاظ المرّ والخلق الوعر  
هو الكفر يوم الروع او دونه الكفر  
وقال لها من تحت أخمصك الحشر  
فلم ينصرف الا وأكفانه الاجر  
لها الليل الا وهي من سندس خضراً<sup>١</sup>  
نجوم سماء خراً من بينها البدر  
ويبكي عليه البأس والجزد والشعر  
إلى الموت حتى استشهدا هو والصبر  
ولكنّ كبراً ان يقال به كبر  
وبزّته نار الحرب وهو لها جمر  
بواتر فهي الآن من بعده بُتر<sup>٢</sup>

١ أي قتل في ساحة الجهاد فلبس بعد الموت الثياب الخضراء التي هي لباس أهل الجنة .  
٢ في هذا البيت وما قبله يقول قتل في الحرب وقد كان هو الذي يثيرها فأصبحت السيوف القاطعة بعده مبتورة لا خير فيها .

أمن بعد طي الحادثات محمداً  
 إذا شجرات العرف جذت أصولها  
 لئن أبغض الدهر الخؤون لفقده  
 لئن غدرت في الروع أيامه به  
 كذلك ما ننفك ن فقد هالكاً  
 سقى الغيث غيثاً وارت الأرض شخصه  
 وكيف احتمالي للغيوث صنيعه<sup>١</sup>  
 مضى طاهر الأثواب لم تبقى روضة  
 ثوي في الثرى من كان يحيا به الثرى  
 عليك سلام الله وقفاً فاني

يكون لأثواب الندى أبداً نشر  
 ففي أي فرع يوجد الورق النضر  
 لمهدي به ممن يحب له الدهر<sup>١</sup>  
 فما زالت الأيام شيمتها الغدر  
 يشاركنا في فقده البدو والحضر  
 وان لم يكن فيه سحاب ولا قطر  
 باسقامها قبراً وفي لحده البحر<sup>٢</sup>  
 غداة ثوي الا اشتهدت انها قبر  
 ويغمر صرف الدهر نائله الغمر  
 رأيت الكريم الحر ليس له عمر

### وقال من قصيدة يرثي بها ادريس بن بدر السامي

دموع أجابت داعي الحزن ممتع  
 عفاءً على الدنيا طويل فانها  
 تبدلت الاشياء حتى خلقتها  
 لها صيحة في كل روح ومهجة  
 لإدريس يوم ما تزال لذكره  
 ولما نضى ثوب الحياة وأوقعت  
 غداً ليس يدري كيف يصنع معدم  
 وماتت نفوس الغالبيين كلهم  
 غدوا في زوايا نعشه وكأنما

توصل منّا عن قلوب تقطع  
 تفرق من حيث ابتدت تتجمع  
 ستثنى غروب الشمس من حيث تطنع  
 وليست بشيء ما خلا القلب تسمع  
 دموعي وإن سكنتها تتفرع  
 به نائبات الدهر ما يتوقع  
 ذرى دمعه من وجدته كيف يصنع  
 والا فصبر الغالبيين أجمع<sup>٣</sup>  
 قريش قريش يوم مات مجتمع

١ إذا ابغض الدهر لفقده فقد كان يحمد سابقاً لكرمه ومآثره .  
 ٢ يطلب من الغيث ( المطر ) ان يسقي غيث الجود ( المرثي ) ثم يقول وكيف أطلب من المطر ان يسقي قبراً فيه بحر الجود والعل .  
 ٣ يريد بالغالبيين عشيرته أي ماتوا بموته أو مات صبرهم أجمع .

ولم أنسَ سميَ الجودِ خلفَ سريره  
ألم تكُ ترعانا من الدهر إن سطا  
وتلبس أخلاقا كراما كأنها  
وتبسط كفتا في الحقوق كأنما  
وتربط جاشا والحياة قلوبها  
إلا إن في ظفر المنية مهجة  
هي النفس ان قبك المكارم فقدما  
بأكسفِ بالِ يستقيم ويظلمُ  
وتحفظ من أموالنا ما يضيع  
على العريض من فرطِ الحصانة أذرع  
أناملها في البأس والجود أذرع  
تزعزع خوفا من قنا تزعزع  
تظل لها عين العلى وهي تدمع  
فمن بين احشاء المكارم تنزع

# البحري

ابو عبادة الوليد بن عبيد الله

٨٢٠٥ - ٨٢٨٤ هـ

٨٢٢ م - ٨٩٨ م



مصادر دراسته - توطئة تاريخية - نظرة في ديوانه  
مزيتة الفنية - شعره الغزلي

## مصادر دراسته

- طبقات الشعراء لابن المعتز (١٩٣٩) ص ١٨٦ - ١٨٧  
الأغاني ج ١٨ ص ١٦٧ - ١٧٥  
الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي (الاستانة ١٢٨٧)  
الموشح للمرزباني ص ٣٣٠ - ٣٤٣  
الفهرست ص ١٦٥  
أخبار البحتري للصولي (دمشق)  
معجم الأدباء لياقوت ج ٧ ص ٢٢٦ - ٢٣٢  
وفيات الأعيان ج ٢ تحت اسم الوليد (حرف الواو)  
مفتاح السعادة ص ج ١ - ١٩٣ (طبع الهند)  
ومتفرقات في مروج الذهب وتاريخ ابن عساكر والعمدة وغيرها .  
وتجد سيرته في كل الكتب الحديثة التي تتناول الآداب العربية  
وتاريخها ، نذكر منها :  
دائرة المعارف الاسلامية  
مجلة الضياء المجلد السادس (ج ١ - ج ١٥) سلسلة مقالات (لأمين حداد)  
شعراء الشام لخليل مردم -  
اعلام النبلاء للطباخ ج ٤ ص ٦ - ١٤  
عبقرية البحتري لعبد العزيز سيد الاهل  
البحتري لنديم مرعشلي (سلسلة أعلام الفكر العربي) عدد ٩

## نشأته وحياته

يؤخذ من دراسة المصادر التاريخية ان البحترى ولد في منبج بجوار حلب ، (وعلى رأي أحدهم في قرية قريبة منها تدعى زردفنه ) وهناك نشأ وقال الشعر . وتقع حياته الشعرية في ثلاثة أطوار :

(الاول) طور نشأته الأدبية ومعظمه كان في منبج ، على أنه زار بعض المدن السورية كحلب وحمص والمعرّة . وفي حمص على ما يقال لقي أبا تمام وأخذ عنه .

(الثاني) طور العراق : وهو طور شهرته وفيه اتصل بالخلفاء وكبار رجال الخلافة فمدحهم ونال جوائزهم . وهذا الطور عهدان :

عهد المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان ثم عهد من تبعه من الخلفاء ، وبين العهدين فترة اقام فيها في منبج .

(الثالث) طور الرجوع الى أرض الوطن والاقامة فيه .

فالبحترى نشأ في جوار حلب ، حتى اذا ادرك وحذق صناعة الشعر قصد العراق واتصل ببلاط المتوكل ولازمه . ولما حدثت الفتنة التي قتل فيها المتوكل ووزيره الفتح وذلك ٢٤٧ هـ كره البقاء فعاد إلى وطنه . ولكنه على ما يظهر لم يبق هناك طويلاً . نستنتج ذلك من قائمة ممدوحيه ومن قصائده فيهم . فعاد الى العراق وإلى سالف عهده من مدح الخلفاء والامراء هناك - ولا سيما المعتز - وبقي الى آخر حكم المعتز ، ثم رجع الى سوريا واستقر في منبج حيث أدركته الوفاة وهو يناهز الثمانين .

اتصل شاعرنا بسبعة من كبار الخلفاء العباسيين وبعدهد أوفر من رؤساء

---

١ ومن مرثاته في غلامه قيصر يظهر انه كان لا يزال بعيداً عن وطنه وهو ابن ٦٦ سنة .

القوم فبلغ منزلة عالية ، ولم يكن مسرفاً فجمع مالا وفيراً . قال ابن  
رشيق : « وكان البحتري ملياً فاض كسبه من الشعر وكان يركب في  
موكب من عبيده<sup>١</sup> . وفي شعره ما يشير الى انه كان ذا عقار واسع ،  
كقوله لأحد الرؤساء في أمر ضيعة له - والظاهر ان بعضهم اعتدى  
عليها واغتصب غلتها فقال مستجيراً به :

وقد غدت ضيعتي منوطة بحيث نيطت للناظر الزهراء  
اروم بالشعر ان تعود فما اقطع فيما ارومه شعره  
وفي بعض قصائده للمعتر يستأذنه في الذهاب الى الشام لينظر في  
املاكه ، قال :

هل اطلعن على الشام مبعلاً في عزّ دولتك الجديد المونق  
فارمّ خلة ضيعة تصف اسمها والمّ ثمّ بصبية لي دردق<sup>٢</sup>  
شهران ان يسّرت إذني فيها كفلا بالفة شملي المتفرّق

ويذكر ابن خلكان انه كان يحتاج للترداد الى الوالي بسبب مصالح  
املاكه<sup>٣</sup> .

\* \* \*

وفي أيام البحتري كانت الخلافة العباسية في حال انتقال من طور  
القوة الى طور الضعف ، وكان المتوكل حلقة الاتصال بين هذين الطورين .  
وقد شهد الشاعر أيام عزه وبأسه كما شهد الفتنة عليه وما كان من مقتله  
واستبداد امراء الجند التركي بالدين جاءوا بعده .

ومن الظواهر التاريخية التي تتجلى في شعره وشعر معاصريه ( كما سنرى  
في كلامنا عن ابن الرومي ) اعتلاء العناصر الاعجمية في الدولة على العنصر

١ العمدة ٢ - ١٢٥٠ - وفي ١ - ٦ يذكر انه كان له قهارة وكتاب .

٢ أي اطفال .

٣ وفيات الاعيان ترجمة البحتري في ج ٢ حرف الواو .



العربي (حتى كان الشاعر ينوّه بفضل الموالي) كما قال البحتري من قصيدة للمعتر:

يا من له أول العلياء وآخرها      ومن يجود يديه يُضرب المثل  
أما الموالي فجنّد الله حملهم      ان ينصروك فقد قاموا بما احتملوا  
بقاؤهم عصمة الدنيا وعزّهم      ستر على بيضة الاسلام منسدل

ومن قوله في ذلك يصف ما قام به قادة المعتر من قهر الاعداء والقائمين عليه:

سراة رجالٍ من مواليك أكتدوا      عرى الدين إحكاماً وبتوا قوى الكفر  
إذا فتحوا أرضاً أعدّوا لمثلها      كتائب تفري في أعاديك ما تفري  
ففي الشرق إفلاحٌ لموسى ومفلحٍ      وفي الغرب نصر يرتجى لأبي نصر<sup>١</sup>

وإذا قابلت بمدوحيه (من غير الخلفاء) بمدوحي أبي تمام مثلاً ترى أن الأخير كانت مدائحه في العرب تفوق مدائحه في سواهم؛ أما البحتري فعلى خلاف ذلك. وانك لتلتفت ذلك من مراجعة القائمة التالية ودرس رجالها واحداً واحداً. وقد أغفلنا فيها ذكر من لم تبلغ مدائحه القصيدتين وجمعنا أفراد الاسرة الواحدة تحت اسم واحد كآل سهل وآل المدبر وسواهم. ومع ذكرنا للخلفاء لم ندخلهم في هذه الموازنة العنصرية.

#### الخلفاء

المتوكل	٣٥ قصيدة
المعتر	٣٠ قصيدة
المعتمد	٥ قصائد
المهتدي	٤
المستعين	٤

١. موسى ومفلح رابو قصر من قادة الازراك.

من كبار العرب

أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري وآله	٢٣	(طي) من كبار القادة
آل حميد الطوسي	١٨	نهبان (طي) من كبار القادة
أحمد بن محمد الطائي	٧	طي
أبو صالح بن عمار	٥	
محمد بن القمي	٥	طلحة
الخضر بن أحمد	٥	
أبو نوح عيسى بن ابراهيم	٤	
أبو الحسن الهاشمي	٤	مشام
علي بن مرّ	٤	طي
مالك بن طوق	٢	من تغلب أمير عرب الشام
محمد بن بدر	٢	من بني سعد على ان أخواله من الموالي

ومن كبار المدوحيين الذين لم نثبتهم في إحدى القائمتين اسماعيل بن بلبل ٢٠ قصيدة . ونسبه في شيبان ولكن صاحب الفخري ( ١٨٧ ) يقول ان في نسبه ريباً .

واسحق بن ابراهيم المصعبي	٢	نائب بغداد وابن عم طاهر بن الحسين
من كبار الموالي		
الفتح بن خاقان وآله	٢٦	وزير المتوكل ( من الاتراك )
الحسن بن مَخلد وآله	٢٦	وزير المعتمد ( من الفرس ) <sup>١</sup>
ابراهيم بن المدير وآله	١٥	من رجال الدولة أدبياً وادارة <sup>٢</sup>
		( من الفرس ) <sup>٢</sup>
آل سهل	١٢	وزراء ( من الفرس )

١ راجع ديوان البحري ( عطيه ) ٥٧٩ - ٥٨٢ و ٣٢٠ و ٣٢٥ و ٤٧٢ و ٥٤٩ .

٢ الديوان ٥٨٠ و ٥٩٥ و ٥٩٩ وفي معجم الادباء انه كان يدعي انه من ضبه .

علي وعبدالله بن يحيى بن خاقان	٩ من وزراء المتوكل (من الاتراك)
ابو صالح بن يزداد	٨ وزير المستعين (من الفرس)
آل طاهر	٧ من أعيان الامراء » »
ابو العباس بن بسطام	٦ من الاعيان » »
الشاه ابن ميكال	٥ من امراء الفرس
علي بن الفياض	٤ من الوجهاء والرؤساء » »
أحمد بن ثوابه	٤ وزير وكاتب ٢ » »
وصيف وآله	٤ من امراء الترك
اسحق بن كنداج	٣ من الاتراك وهو الذي ردّ المعتمد الى سامرا وسمي ذا السيفين ٣
اسماعيل بن نوبخت	٣ من اعيان القادة
آل دينار	٣ من رؤساء الفرس ٤

\* \* \*

وكان البحثري كأكثر شعراء عصره مولعاً بالخمر . وفي الابيات التالية التي كتبها الى المبرد ( اللغوي المشهور صاحب الكامل ) ما يدل على شيء من أحواله ونسق معيشته . قال :

يوم سبتٍ وعندنا ما كفى الحُرّة طعاماً والوردُ منا قريب  
ولنا مجلس على النهر فيّاح فسيح ترّاح فيه القلوب  
ودوام المُدام يدنيك ممن كنت تهوى وان جفاك الحبيب  
فأتنا يا محمد بن يزيد في استنار كي لا يراك الرقيب  
نطرد الهم باصطباح ثلاثٍ مترعات تنفى بهن الكروب

- 
- ١ ديوان القسطنطينية ١ - ١٢٨ وعطيه ٦٠٦ .  
٢ في معجم الادباء ان أصلهم نصارى .  
٣ راجع الطبري في أخبار ٢٦٩ .  
٤ ديوان البحثري (عطيه) ٤٠٠ و ٤٠٤ .



الديباجة واليك آراء بعض من كبار الأقدمين فيه :

قال الثعالبي : « يضرب به المثل لان الاجماع واقع على انه في الشعر أطبع المحدثين والمولدين ، وان كلامه يجمع الجزالة والحلاوة والفصاحة والسلاسة . ويقال ان شعره كتابة معقودة بالقوافي <sup>١</sup> » . وقال ابن رشيق : « واما البحثري فكان أملح صنعة ( من أبي تمام ) وأحسن مذهبا في الكلام يسلك فيه دماثة<sup>٢</sup> وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ ، لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة<sup>٣</sup> » . ووصفه ابن الاثير بقوله : « فإن مكانه من الشعراء لا يجهل . وشعره هو السهل الممتنع الذي تراه كالشمس قريبا ضوءها بعيدا مكانها ، وكالقناة لينا مسها خشنا سنانها . وهو على الحقيقة قينة الشعراء في الإطراب ، وعنقاؤهم في الإغراب <sup>٤</sup> » . ويصف ألفاظه في موضع آخر فيقول :

« وترى ألفاظ البحثري كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات ، وقد تحلتن بأصناف الحلي<sup>٤</sup> » .

ومن أقوال الآمدي في الصفحتين الاولين من الموازنة : « البحثري اعرابي الشعر مطبوع على مذهب الاوائل ، ما فارق عمود الشعر المعروف وكان يتجنب التعقيد ومستكره الالفاظ ووحشي الكلام ... الى ان يقول : « فان كنت ممن يفضل سهل الكلام وقريبه ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ فالبحثري أشعر . » وعلى هذا يفسرون ما يروونه عن أبي العلاء : « المتنبى وأبو تمام حكيان والشاعر البحثري » . ويذكره الباقلاني في « اعجازه » ويذكر تفضيله له بديباجة شعره على ابن الرومي وسواه ، وتقدمه بحسن عبارته وسلاسة كلامه

١ ثمار القلوب ١٧٩ .

٢ العمدة ١ - ٨٥ .

٣ المثل السائر ٤٢٠ .

٤ المثل السائر ١٠٦ .

وعذوبة ألفاظه وقلّة تعقّد قوله ١ .

ولا نكير ان الذي يرجع الى ديوانه فيدرسه يجد هذه الصفات العامة فيه . انه لا يمتاز في ذلك عن بعض كبار الشعراء في العصر العباسي ، كأبي نواس وأبي العتاهية ومسلم وعباس بن الاحنف واضرابهم ، ممن أطاعتهم الالفاظ وسلست لهم المعاني . والذي نرجحه ان البحثري لم يوصف بما ذكرناه له الا لمقابلته بالشاعرين الكبيرين أبي تمام والمتنبي . وذلك لما في شعره عموماً بالنسبة اليها من السهولة والدمائة . فبيناهما يفوقانه بالفوص على المعاني وسداد الحكمة تراه يفوقهما في صوغ الالفاظ وطلاوة السبك . واذا لم تجد في شعره ذلك الاغراب الذي في شعر أبي تمام أو تلك الفخامة التي عرف بها المتنبي ، تجد فيه رشاقة وصف ودمائة اسلوب لا تجدهما عادة في شعريهما .

\* \* \*

اما ديوانه فلا يختلف من حيث مواضيعه عن أكثر الدواوين الشعرية في زمانه . فهو ، كسواه من الشعراء ، قد صرف أدبه في التزلف الى رجال الدولة العباسية . ولذلك كان جل شعره المديح . وليست طريقته غير الطريقة التي درج عليها الجمهور من مطلع غزلي يتخلص منه الشاعر الى المدوح ، فيصف أعماله ويمدح أخلاقه ومكارمه ويفتن في ذلك ما شاء فنه وأدبه . وسنرى ذلك في مختاراته .

\* \* \*

وليس البحثري من المشهورين في الرثاء وان يكن له فيه ما يستطاب كمرثاته في طاهر بن عبد الله بن الحسين التي مطلعها :  
عذيري من صرف الليالي الغوادر ووقع رزايا كالسيوف البواتر  
ومرثاته في المتوكل يوم قتله الأتراك ، وقد وصفها أبو العباس ثعلب بقوله : « ما لقيت هاشمية أحسن منها ، وقد صرّح بها تصريح من

١ اعجاز القرآن ١١٣ .

أذهلته المصائب عن تخوّف العواقب ، ١ . فقال فيها يصف شعوره بعد  
مقتل الخليفة ويشير الى ان ابنه المنتصر كان من المتأمرين عليه :  
صريع تقاضاه السيوف حشاشةً يحود بها والموت حمر أظافره  
حرام عليّ الراح بعدك أو أرى دمأ بدم يحجري على الارض مائره  
وهل يرتجى ان يطلب الدم طالب مدى الدهر والموتور بالدم واتره  
فلا ملّتي الباقي تراث الذي مضى ولا حملت ذاك الدعاء منايره  
ولا وأل المشكوك فيه ولا نجأ من السيف ناضي السيف غدرأ وشاهره  
ومن مراثيه التي قد تذكر له مرثاته في سليمان بن وهب ومطلعها :

أخيّ نهه دمعك المسفوكا ان الحوادث ينصرمن وشيكا  
ما اذكرتك بمترحٍ صرف الجوى الا ثنته بمفرح يُنسيكا

على انها ليست من الطبقة الاولى في هذا الباب وليس للبحثري فيه ما  
لصاحبيه ابي تمام والمتني . ولقد تراه أحياناً يسفّ الى درجة الغثاثة  
كقوله لابي نهشل محمد بن حميد الطوسي يحاول ان يعزيه عن فقد ابنته ،  
فيذكر له انها غير جديرة بالبكاء لانها فتاة ، وطالما كانت الفتيات سبباً  
في الشقاء ويضرب على ذلك الامثال السمجة ومنها :

قد ولدن الاعداء قدماً وورثن البلاد الاقاصي البعداء  
لم يند كثرهنّ قيس تيم غيلةً بل حميةً واباء  
واستزلّ الشيطان آدم في الجنة لما أغوى به حواء  
ولعمري ما العجز عندي الا ان تبيت الرجال تبكي النساء

واكثر القصيدة في هذه المعاني التي تدل على انحطاط المرأة يومئذ في  
نظر الرجل . ومثلها في الغثاثة ابيات يعزّي فيها موسى بن عبد الملك  
عن ابنة له . قال :

---

١ زهر الآداب للحصري ١ - ١٩٥ .

أبا حسنٍ إنَّ حسنَ العزاء عند المصيبات والنائباتِ  
يضاعف فيه الإله الثواب للصابرين والصابراتِ  
ومن نعم الله لا شكَّ فيه حياة البنين وموت البناتِ

\* \* \*

أما العتاب فله فيه يدٌ طولى . ويرى ابن رشيق انه أحسن الناس  
طريقاً في عتاب الاشراف ويلقبه بشيخ الصناعة الشعرية وسيد الجماعة ١ .  
وقد أصاب ابن رشيق ففي عتابه نعومة حريرية قلما تجدها في سواه .  
ومن أمثلة ذلك قصيدة يعتذر فيها الى يعقوب بن احمد بن صالح . وهي  
تبدأ كالعادة بالغزل ثم ينتقل من ذلك الى نفسه وذكر اخلاقه ومن هنا  
يتقدم الى المعتذر اليه فيقول بنعمة مغرية :

ندمت على أمر مضى لم يُشر به	نصيح ولم يجمع قواه نظام
وقد خبروا ان الندامة توبة	يصلنى لها ان تقتنى ويصام
وان جحودي سوء ظنٍ بمنعم	وعدتي معاذيري عليه خصام
تجرّح أقوال الوشاة فريصتي	وأكثر أقوال الوشاة سهام
ولما نبت بي الارض عدت اليكم	امتٌ بحبل الودّ وهو رمام
وما كل ما بُلِّغتمُ صدق قائل	وفي البعض ازراءٌ عليّ وذام
ولا عذرَ الا ان بدءَ اساءة	له من زيادات الوشاة تمام

وهذه النعومة لا تفارقه حتى عند معاتبته من اساء اليه ، كلابيات  
التالية من قصيدة يخاطب فيها أبا عبد الله بن حمدون ويعاتبه على محاولته  
ان يثير كراهة الخليفة له :

هل ابن حمدون مردود الى كرم	عهدته مرّةً عند ابن حمدونِ
أخ شكرت له نعمى أخي ثقةٍ	زكتُ لديّ ومنّا غير ممنونِ
طاف الوشاة به بعدي وغيره	معاشر كلهم بالسوء يعنيني



أصبحت أرفمه حمداً ويخفضني  
تدعو الامام إلى شتمي ومنقصتي  
أين الوداد الذي قد كنت تمنحني  
ان كان ذنب فأهل الصفح أنت وان  
ذمتاً وأمدحه طوراً ويهجوني  
بئس الحباء على مدحيك تحبوني  
أو الصفاء الذي قد كنت تصفوني  
لم آت ذنباً ففيم اللوم يعروني

\* \* \*

ومن بديع العتاب قوله للحسن بن وهب من قصيدة وقد جفاه الحسن  
وأعرض عنه :

هل تصفين لأخ يقول بحاله  
ما كان غرواً ان يضيع ذمامه  
هذا وأنت الحجّة العلياء في  
ومق رآك الناس تحرمه اقتدوا  
فتكون أوّل مانع من نفسه  
والارض تبذل في الربيع نباتها  
واعلم بأن الغيث ليس بنافع  
مستعيباً إذ لم يقل بلسانه  
لو لم تكن في عصره وزمانه  
اكرامه من وافد وهوانه  
بك غير مرتابين في حرمانه  
ما أمّل العافي ومن جيرانه  
وكذاك بذل الحرّ في سلطانه  
للناس ما لم يأت في إبتانه

وفي ديوانه كثير من هذه الطرائف العتابية .

\* \* \*

وله في الفخر بضاعة جيدة . على ان أم فخره هو في مكارم قومه  
يعدّد مناقبهم ويذكر شرف اليمن وعزّها مقابلاً ذلك بخشونة عرب الشمال  
وسوء حالهم . وأفضل ما له في ذلك دالية مطلعها :

انما الغيّ ان يكون رشيداً فانقصا من ملامه او فزيدا

وهي طويلة تجرد أكثرها في باب المختار من شعره .

معشرٌ أمسكت حلومهم الارض وكادت من عزهم ان تميدا  
نزلوا كاهل الحجاز فأضحى لهم ساكنوه طراً عبيدا

ملكوا الارض قبل ان تملك الارض وقادوا في حافتيها الجنودا  
فهم قوم تبع خير قوم لهم الله بالفخار شهيدا  
ومن بين أبياتها يلمح إلى ما كان في الصدور من كوامن العصبية التي  
جعلت اليمينية والمضرية حزبين متعاديين ، والتي كان لها في تاريخ العرب  
تأثير شديد .

ومن أمثلة فخره قوله في معاتبة قوم من أهل بلده :  
ومعيري بالدهر يعلم في غدي ان الحصاد وراء كل نبات  
ابني اني قد نضوت بطالتي فتحسرت وصحوت من سكراتي  
نظرت إلي الاربعون فاصرحت شبي وهزت للحنو قناتي  
ومن الاقارب من يسر بميتي سفها وعز حياتهم بحياتي  
ان ابق أو أهلك فقد نلت التي ملأت صدور أقاربي وعداتي  
ثم يذكر فضله وسؤدد آبائه وأجداده ومآثرهم في منبج وتقدمهم  
هناك على سائر الناس .

\* \* \*

وأقل بضاعة البحري في ديوانه الهجاء . وهنا يختلف صاحب الاغاني  
عن المرزباني . فالاول يقص علينا سببا لذلك القصة التالية<sup>١</sup> نقلًا عن  
الاخفش عن أبي الغوث ( ابن البحري ) : ان الشاعر لما حضرته الوفاة  
دعا ابنه وقال له اجمع كل شيء قلته في الهجاء ، ففعل . فأمره بإحراقه  
ثم قال له يا بني هذا شيء قلته في وقت فشفت به غيظي ، وكافأت  
به قبيحا فعل بي . وقد انقضى أربي في ذلك ، وان بقي روي .  
وللناس أعقاب يورثونهم العداوة والمودة وأخشى ان يعود عليك من هذا  
شيء في نفسك أو معاشك لا فائدة لك فيه . قال فعلت انه نصحني  
وأشفق علي فأحرقته . ويعتب على ذلك الاصفهاني بأن « أكثر هجائه

١ راجع القصة في الاغاني ١٨ - ١٦٧ .

ساقط ركيك لا يشاكل طبعه ولا يليق بمذهبه ، ولا يعرف له هجاء جيد إلا قصيدتين احدهما في ابن أبي قماش والثانية في يعقوب بن الفرج .

ولا نعلم مبلغ هذه القصة من الصحة ، ولكن الذي نعلمه ان الشاعر ترك لنا شيئاً من هجائه ، وما تركه يجوز لنا القول انه لم يكن فيه ميل ابن الرومي ودعبل واضرابها إلى الهجاء ، بل كان على ما يظهر يتجنبه ما أمكن . وانك لتلمح ذلك بما رواه ابن رشيقي قال : « هجا ابن الرومي البحتري -- وابن الرومي من علمت -- فأهدى اليه ( البحتري ) تحت متاع وكيس دراهم ، وكتب اليه بيتين ليريه ان الهدية ليست تقيّة ولكن رافة عليه وانه لم يحمله على ما فعل إلا الفقر والحسد المفرط<sup>١</sup> . وأما المرزباني فينسب إلى البحتري سوء العهد وخبث الطريقة في الهجاء . قال<sup>٢</sup> : « وكثير من أهل الادب ينكر خبث لسان علي بن العباس الرومي ويضربون عن اضافة البحتري اليه والحاقه به ، مع احسان ابن الرومي في اساءته وقصور البحتري عن مداه فيه ، وانه لم يبلغ في دقة معانيه وجودة ألفاظه وبدائع اختراعاته . أعني الهجاء خاصة » . ثم يذكر قلة وفائه لانه هجا نحواً من أربعين رئيساً ممن مدحهم ، منهم خليفتان .

ومها قلنا في مذهبه الهجائي فهو ولا شك ضئيل في ديوانه . ولا يمنع ذلك ان يكون الشاعر قد استعمل الهجاء لبعض مآربه من مقارعة شاعر أو الانتقام من كبير ، ولكن هذا الضرب من الشعر لم يشتهر به ، والذي وصل الينا منه لا يدل على علو كعب الشاعر فيه .

#### مزيته الفنية

على ان الناظر في شعر البحتري المدقق في فهم شاعريته يرى له مزية

١ المدة ١ - ٧٠ .

٢ الموشح ٣٣٦ .

جديرة بالذكر ، هي رشاقة الوصف الذي طبع بها شعره فعرف بها ،  
وجعلت له بين الشعراء مقاماً عالياً . وقبل النظر في فن شاعرنا الوصفي  
نقول ان الوصف نوعان ، حسّي وخيالي . ولنوضح الفرق بينهما ببعض  
الامثلة :

تقف إلى نهر في وادٍ كبير وترى تدفق المياه بين تلك الشواهد العظيمة  
فتأخذك روعة ذلك المنظر ، وتستفزّ فيك الميل إن كنت شاعراً الى وصف  
ما تراه من جمال وجلال . فإذا أنت تصف أسناد الوادي وما عليها من  
الاشجار والكروم ، وتصف تلك الصخور القائمة وانقضاض المياه من  
بينها . وقد ترسم ما يترامى لك في ذلك الوادي من ألوان تلقيها عليه  
ظلال المساء أو أشعة الفجر ، وربما تعديت ذلك الى ما تراه من حيوان  
هناك : بقرأ رابضاً تحت الشجر ، او غنماً يرعى في المروج ، او ماعزاً  
منتشراً فوق المنحدرات . ولعلك ترى الفلاح يحرث الحقل ، او تنظر  
الى السماء من أعماق الوادي فتري « قطعان الغيم يسوقها راعي الريح » ،  
أو قوافل الضباب تنيح فوق قمم الضباب . يؤثر كل ذلك فيك فتريه  
بأشكال خلاّبة تستفزّ في القارئ عواطف الطرب ، وتحبّب اليه رؤية  
ذلك الجمال - كما فعل أحدهم في وصف وادٍ ظليل اذ قال :

نزلنا دوحه فحنا علينا      حنوّ المرضعات على الفطيم  
وارشفنا على ظمأ زلالاً      ألذّ من المدامّة للنديم  
تروع حصاه حالية العذارى      فتلس جانب العقد النظيم

هذا هو الوصف الحسي الذي يتناول المحسوسات فيصوّرها بصور  
رائعة ، وهو عين ما يفعله الرسام الماهر الذي يقتنص بريشته جمال الطبيعة  
ويحسّمها بالألوان على الورق ، فتبدو فتانة تميل اليها النفوس الحساسة ،  
ويتفانى في اقتنائها أهل الذوق والخبرة .

وكذلك أنت تفعل اذا وقفت مثلاً أمام البحر العظيم ورأيت أمواجه

الملاطمة وهي تتكسر مزبدة فوق الصخور ، أو رأيته في يوم رائق وهو رهوٌ مستنيم وقد انتشرت فوقه قوارب الصيادين وألقت ظلها فوق سطح الماء وخرج الناس مساءً يتزهون على رمال الشاطئ . وفي وسط البحر باخرة عظيمة تشقّ الماء بحيزومها ويعقد البخار سرادقاً فوق مداخنها ، فتمر أمامك محاذية للتلال المنحدرة نحو البحر ، وترى من ورائها القرى الجبلية تتغامز عيونها عند غروب الشمس .

ولو وقفت اليوم تنظر الى معركة التحمت فيها الابطال بالابطال : وقد برقت الاسنة والسيوف ، وسالت الدماء من بين الصفوف . أو الى حرب بين الخنادق وقد قصفت المدافع فتساقطت قذائفها على الصعيد تنسف التراب والصخور ، وتطارت شظاياها تفتك بالثبات والالوف ، ثم ظهرت سحائب الغاز القتال تتقدم نحو مكان العدو ، وتبع ذلك هجوم عام . والطائرات تحوم فترشق العدو بالمتفجرات الجهنمية ، ثم لا تلبث أن ترى سرباً معادياً فتنهزم أمامه أو تصمد له في لوح الجو ، وهناك الهول الكبير . مناظر هائلة يأخذها الشاعر فيرسمها كما يراها فتتحرك النفوس وتلعب بالعواطف . وقس على ما ذكرنا من الاوصاف ، وصف المدن والآثار والقصور والجنائن والصيد والحيوان والانسان وغير ذلك مما يقع تحت حسك ويؤثر في نفسك ، فتبرزه في حلة قشبية تحرك في سواك أوتار الطرب . وقد أجاد العرب في هذا الفن من الوصف الحسي ، فانصرف الاقدمون منهم الى ما له علاقة بحياتهم البدوية كالجلل والصحراء والسيوف وآثار الحبيب الراحل وشكله وما الى ذلك ، وبالغوا في بعضها مبالغة عظيمة كما فعل طرفة في وصف ناقته . وأمثال طرفة كثيرون بين الشعراء الاقدمين . وجاء العصر العباسي فتحول الوصف الى الرياض والقصور ومجالس اللهو والسرور ، وللمولدين في ذلك بدائع لا يتسع المقام لذكرها هنا .

\* \* \*

أما الوصف الخيالي فنظر فني الى ما وراء المحسوسات . فإذا كان

الشاعر واسع الخيال لا يقف عند ما يراه ، بل يتعداه الى مناطق يفتحها أمامه الخيال الواسع . فيجعل المرثيات أساساً لغير المرثيات ، ويولد من المحسوسات صوراً مجردة يرسمها للبشر تأملات وذكريات . يقف في قلب الوادي مثلاً فيسمع فيه نبضات الحياة ، وتمر أمامه على صفحات الماء حوادث الايام ، فيذكر الامم الغابرة والوقائع الماضية . وقد يحمله ذلك الى النظر في الحياة والانسان ، وكم تتسع الحياة والانسان لخواطر يشعر بها لرؤيته بعض المشاهد الطبيعية . فالوصف الخيالي هو وصف تأثر من النظر الحسّي وما يثيره فيك من وحي داخلي . قف أمام البحر تتجسم لك عظمة الكون وجلال الطبيعة ، وقد يملك المنظر الى ذكر الاسفار والهجرة في طلب العلى . ولعلك تذكر الامم التي كانت على شواطئ هذا البحر ، وكيف عظمت ثم سقطت ، وعلاقة ذلك بالبلاد التي أنت فيها .

وفي الحرب مجال واسع للخيال ، هناك علاقة الانسان بالانسان وما يتفرّع عنها من عوامل أساسية في بناء العمران . ومثله اذا وقفت أمام الآثار كبعلبك وتدمر ، أو أمام الانهار التاريخية كدجلة والفرات والنيل ، أو أمام تماثيل العظماء ومآثر العلماء . فأنت في كل ذلك تستخدم الحس توصلنا الى صور الخيال البعيدة ، وهذا هو الوصف الخيالي العالي الذي تملكه الشعر العربي قديماً عن الاهتمام به ، فلم يترك لنا السلف من آثارهم فيه الا النزر اليسير .

وشاعرنا البحثري وصّاف ماهر . وهو كسواه من شعراء العرب أميل الى الوصف الحسّي : يتناول المحسوسات فيصدق في رسمها ، كقوله في دمشق يوم انتقل اليها المتوكل :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها وقد وفى لك مطربها بما وعدا  
إذا أردت ملأت العين من بلد مستحسن وزمان يشبه البلدا  
يمسي السحاب على اجبالها فرقا ويسبح النبات في صحرائها بددا

فليس تبصر الا واكفا خضيلاً      أو يانعاً خضراً أو طائراً غرداً  
كأنما القيظ ولتى بعد جيئته      أو الربيع دنا من بعد ما بعدا

على ان له أحياناً ما يقرب ان يكون نظراً خيالياً . أهمته وقفته أمام  
إيوان كسرى ففيها يقف الشاعر لدى قصور الفرس الدارسة يصفها وصفاً  
حسباً رائعاً ، ثم يحاول الانتقال الى المعنويات - الى تاريخهم وعظمتهم ،  
ولكنه لا يكاد يفعل ذلك الا لماماً . وهذه القصيدة من عيون الشعر  
العربي تقع في ٥٦ بيتاً ، عشرة منها في ذكر حاله وشكوى دهره ،  
وستة في السبب التاريخي لهذه الوقفة ، ثم خمسة أو ستة في ذكر عظمة  
الفرس ، وستة في أحوال خاصة . وما بقي فوصف للإيوان . وقد تفنن  
فيه الشاعر ما شاء . واليك شيئاً منها : قال في صورة معركة رسمت  
على أحد جدران القصر :

لو تراه علمت ان الليالي      جعلت في مأتماً بعد عرس  
وهو ينبيك عن عجائب قوم      لا يشاب البيان فيهم بلبس  
فاذا ما رأيت صورة انطاكية ارتعت بين روم وفرس  
والمنايا موائل وأنو شروان يُزجي الصفوف تحت الدرفس  
في اخضرار من اللباس على اصفر يختال في صبيغة ورس  
وعراك الرجال بين يديه      في خفوت منهم واغماض جرس  
من مُشبح يهوي بعامل رمح      ومُليح من السنات بترس

ثم يلتفت الى القصر ويرى ما أصابه من الزمان فيقول :

يتظنتى من الكآبة ان يبدو لعيني مصبح أو ممسي  
عكست حظه الليالي وبات المشتري فيه وهو كوكب نحس  
فهو يبدي تجلداً وعليه      كل كل من كلاك الدهر مرسي

فانظر الى هذا النمط النفيس الذي يشهد للبحثري بالبراعة الفائقة في  
تصوير المرثيات وعرضها بالالوان الخلابّة ، ولا سيما وصفه لمعركة انطاكية

وصورة كسرى يدفع صفوفه تحت العلم الكبير ، والرجال يتطاحنون أمامه  
من مهاجم يهوي بسيفه على العدو ومدافع يتقي الضربات بترسه . وتأمل  
هذا التصوير الدقيق اذ يقول :

تصف العين انهم جيداً احياء لهم بينهم اشارة خرس  
يغتلي فيهم ارتيابي حتى تتقرأهم يداي بلمس

\* \* \*

ومن قصائده البديعة التي يقرن فيها الحس بالخيال قرناً جميلاً قصيدته  
الفخرية في وصف ذئب لقيه في القفر . وليست هذه القصيدة عند  
التحقيق الا وصف نفسه في سورة من سورات العزيمه . فقد ذكر فيها  
اعداءه وحرصهم على هلاكه ، فوقف أمامهم وقفة الباسل يصور نفسه  
لهم تصويراً تكاد تلمس الشعور المتدفق فيه . ومن قوله :

فقل لبني الضحّاك مهلاً فانني انا الافعوان الصلّ والضيفم الورد  
متى هجتموه لا تهيجوا سوى الردى وان كان خرقاً ما يحل له عقد  
مهيّباً كنصل السيف لو ضربت به ذرى اجأ ظلت واعلامها وهدا  
يودّ رجال انني كنت بعض من طوته الليالي لا أروح ولا أغدو  
ولولا احتالي ثقل كل ملّة تسوء الاعادي لم يودّوا الذي ودّوا

ثم يأخذ في وصف صرامته وسيفه ، ويتقدم من ذلك إلى وصف  
الذئب وكيف هاجمه ، ثم يعود إلى نفسه وجور الدهر عليه ، وان عزمه  
يدفعه الى ركوب المشاق في طلب الغنى . ويختم ذلك بقوله :

سأحمل نفسي عند كل ملّة على مثل حد السيف اخلصه الهند  
فان عشت محموداً فمثلي بنى الغنى ليكسب مالاً أو يُنثّ له حمد  
وان متّ لم اظفر فليس على امرى غدا طالباً الا تقصّيه والجهد

\* \* \*

١ اجا اسم جبل .



وما يذكر للبحثري في دقة الرسم واناقة العبارة قصيدته التي يصف  
بها موكب المتوكل وقد خرج في عيد الفطر إلى المسجد ، وهي من أفضل  
الامثلة على أسلوب البعثري الرشيق قال منها :

أظهرتَ عز الملك فيه يحفل	لجب يحاط الدين فيه وينصر
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت	عُدداً يسير بها العديد الاكثر
فالخيل تصهل والفوارس تدعي	والبيض تلمع والاسنة تزهر
والارض خاشعة تميد بثقلها	والجوّ معتكر الجوانب أغبر
والشمس مائعة تَوَقَّد بالضحى	طوراً ويطفئها المعجاج الاكدر
حتى انتهيت إلى المصلّى لابساً	نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع	لله لا يُزهى ولا يتكبر
فلو ان مشتاقاً تكلف غير ما	في وسعه لسمى اليك المنبر

\* \* \*

ومثل ذلك وصف القصر المعروف بالكامل . بناء الخليفة المعتز بالله  
ابن المتوكل . فقال البعثري من قصيدة يمدح بها المعتز ويذكر بناءه  
للقصر :

ذُعر الحمام وقد ترنم فوقه	من منظر خطر المزلّة هائل
رُفعت لخرق الرياح سموكه	وزهت عجائب حسنه المتخايل
وكان حيطان الزجاج يحوه	لججٌ يمجن على جنوب سواحل
وكان تفويف الرخام إذا التقى	تأليفه بالمنظر المتقابل
حُبُّك الغمام رصفن بين منمر	ومسيّر ومقارب ومشاكل
لبست من الذهب الصقيل سقوفه	نوراً يضيء على الظلام الحافل
فترى العيون يملن في ذي روتق	متلهّب العالي أنيق السافل
وكأنما نشرت على بستانه	سيّراء وشي اليمنة المتواصل
أغنته دجلة إذ تلاحق فيضها	عن صوب منسجم الرباب الهاطل

وتنفست فيه الصبا فتمطنت  
مشي العذارى الغيد رحن عشية  
أشجاره من حُيِّل وحوامل  
من بين حالية اليدين وعاطل

\* \* \*

وكذلك وصفه الفرس من قصيدة في محمد بن علي القمي الكاتب ،  
والوصف يقع في نحو عشرين بيتاً نذكر منها هنا :

وأغرّ في الزمن البهيم محجّل<sup>١</sup>  
كالهيكَل المبنيّ إلا انه  
يهوي كما تهوي العقاب وقد رأت  
جدلان ينفض عذرةً في غرّة  
كالرائح النشوان أكثر مشيه  
هزرجُ الصهيل كأن في نغماته  
ملك الميون فإن بدا أعطيته  
قد رحت منه على أغرّ محجّل<sup>١</sup>  
في الحسن جاء كصورة في هيكَل  
صيداً ويتصب انتصاب الاجدل  
يقق تسيل حجولها في جندل  
عرضاً على السنن البعيد الاطول  
نبرات معبد<sup>٢</sup> في الثقيل الاول<sup>٢</sup>  
نظر الهب<sup>٢</sup> إلى الحبيب الاول

إلى غير ذلك من الوشي الجميل الذي عرف به البحترى . وسنرى  
في باب المختار له كثيراً من ذلك .

### غزل البحترى

إذا قلنا غزل البحترى فقولنا هذا يصدق على كل شاعر من مدّاحي  
العصر العباسي ، وهو على الغالب نوع من الفن الكلامي يصدر عن به  
قصائد تمهيداً لما يقصدون . ومع ما قد تجده فيه من رشاقة لا ينظم  
عادة بشأ لوجد متقد أو تصويراً لخوارج شخصية صادقة ، على ان الشعراء  
يتفاوتون في ذلك . وفي غزل شاعرنا البحترى حلاوة ولطف يجيبانه إلى  
النفوس .

١ وكريم اغر ركبت من فضله جواداً اغر محجل .  
٢ معبد اسم مفعول مشهور .

كان الاقدمون يعملون لقصائدهم مقدمات من الوقوف على ديار الحبيب والبكاء على آثارها ، ثم الرحيل عنها الى حيث يقصدون . فحوّل المولّدون ذلك الى مقدمات غزلية يصفون بها الحبيب ويذكرون أشواقهم ، ثم يتخلصون الى المدح او سواه . وقد لا يكون بين المقدمة الغزلية وسائر القصيدة من رابطة فكرية أو حسن تخلص . وعلى هذا كثير من شعر البحري . وفيه يقول ابن الاثير « انه لم يوفّق في التخلص من الغزل الى المديح بل اقتضبه اقتضاباً ، ولقد حفظت شعره فلم أجد له من ذلك شيئاً مرضياً الا اليسير » .

وقد سبق الى هذا النقد ابو بكر الباقلاني فقال <sup>٢</sup> : « الا ترى ان كثيراً من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى الى غيره والخروج من باب الى سواه ، حتى ان اهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحري - مع جودة نظمه وحسن وصفه - في الخروج من النسب الى المديح ، واطبقوا على انه لا يحسنه ولا يأتي فيه بشيء . وإنما اتفق له في مواضع محدودة خروج يرتضى وتنقل يستحسن » .

ومن امثلة تقصيره قوله يخاطب الحبيب من قصيدة مطلعها « كنت الى وصل سعدى جدّ محتاج » :

اسقى ديارك والسقيا ثقلّ لها	إغزارُ كل مُلثٍ الودق ثجّاج
يلقي على الارض من حلّتي ومن حلل	ما يُمتع العين من حسن وابهاج
فصاغ ما صاغ من تبر ومن ورق	وحاك ما حاك من وشي وديباج
الى عليّ بني الفيّاض بلبغني	سراي من حيث لا يُسرى وادلاج
الى فتى يتبع النعمى نظائرُها	كالبحر يتبع امواجاً بأمواج

فأنت ترى كيف ينتقل بغتة الى المديح مما يدل على ان الغزل لم يكن الا حاجة فنية متكلفة . ومثل ذلك غزله في قصيدة قالها في المتوكل

١ المثل السائر ٤٢٠ .

٢ اعجاز القرآن ص ٢١ .

وأولها :

عذيري فيك من لاجِ اذا ما شكوت الحب حرقني ملاما  
يتقدم فيها الى الحبيب فيخاطبه بأبيات رقيقة ويذكر هيامه وأشواقه  
الى ان يقول :

وقد علمتُ بأني لم أضيّع لها عهداً ولم اخفر ذماما  
لئن اضحت محللتنا عراقاً مشرقية وحللتها شأما  
فلم أحدث لها الا وداداً ولم ازدد بها إلا غراما  
ثم يثب وثباً الى المديح فيقول :

خلافة جعفر عدل وأمن وفضل لم يزل يسع الاناما  
وقس على ذلك كثيراً من قصائده .

ويكثر في غزل البحتري ذكر الطيف او الخيال حتى عرف به بين  
الشعراء . قال الحصري : « كان البحتري أكثر الناس ابداعاً في الخيال  
حتى صار لاشتهاره مثلاً فيقال له خيال البحتري <sup>١</sup> » . وأكثر تشبيهه  
على ما يقول ابن خلكان - في فتاة حلبيه اسمها عكوة ، عرفها يوم كان  
في حلب قبل خروجه الى العراق .

وكان على عادة الشعراء يتاجن في شعره ويشبب بالغلان . وكان له  
غلام اسمه نسيم يقول صاحب الاغاني انه جعله باباً من أبواب الحيل  
على الناس فاذا حصل في ملك بعض أهل المروءات شبب به وتشوقه  
ومدح مولاه حتى يهبه له ، فلم يزل ذلك دأبه حتى مات نسيم <sup>٢</sup> .

وفي شعر البحتري حنين الى البلاد الشامية والى أحبابه وبلدته منبج  
كقوله من قصيدة مطلعها : « خيال يعتريني في المنام » .

سلام الله كل صباح يوم عليك ومن يبلغ لي سلامي

١ زمر الآداب ٣ - ١٢٠ .

٢ الاغاني ١٠ - ١٧١ .

لقد غادرتِ في قلبي سقاماً      بما في مقلتيك من السقامِ  
لئن قلّ التواصل أو تمادى      بنا الهجران عاماً بعد عام  
فكم من نظرة لي من بعيدٍ      اليك وزورة لك باكتتام  
أأخذ العراق هوىً وداراً      ومن أهواه في ارض الشامِ

وهو يجيد في موقف الوداع والذكرى ، ومن ذلك قوله :

بنفسي ما ابدت لنا حين ودّعت      وما كتمت في الاتحاميّ المسيرِ  
ولما خطونا دجلة انصرم الهوى      فلم يبق الاّ لفظة المتذكر  
وخاطر شوق ما يزال يهيجنا      لبادين من اهل الشامِ وحُضِر

وقوله :

أراحةً ليلى وفي الصدر حاجة      اقام بها وجدٌ فما يترحل  
وقفنا على دار البخيلة فانبرت      سواكبٌ قد كانت بها العين تبخل  
على دارس الآيات عافٍ تعاقبت      عليه صباً ما تستفيق وشمال  
فلم يدر رسم الدار كيف يهيننا      ولا نحن من فرط البكا كيف نسال  
اجدك هل تنسى العهد فينطوي      بها الدهر او ينسى الحبيب فيذهل  
أرى حبّ ليلى لا يبيد فينقضي      ولا تلتوي أسبابه فتحلّل

والغريب انه كان - برغم السنين الطوال التي أقامها في العراق  
يحسب نفسه غريباً هناك . وأكبر الظن انه كان صادقاً في حنينه  
الوطن ، فانه كما ذكرنا سابقاً عاد بعد هجرة طويلة وقضى بقية -  
في وطنه .

## المختار من شعر البحري

غدير في روض يحري فلا تعترضه جنادل يثب من فوقها هدّاراً الى  
الاعماق ، ولا يتغلغل في منعطفات تضل في شعابها الاوهام : ينشد  
فيسمعك خريراً ناعماً تألفه الاذان ، ويصور فيريك الوانا لطيفة ترتاح  
اليها النواظر .

### قال يمدح الفتح بن خاقان ويذكر مبارزته الاسد

اجيدك ما ينفك يسري لزينبا	خيال اذا آب الظلام تأوَّبا <sup>١</sup>
سرى من اعالي الشام يحلبه الكرى	هبوب نسيم الروض تجلبه الصبا
وما زارني الا ولهت صباية	اليه والا قلت اهلا ومرحبا
وليلتنا بالجزع بات مساعفا	يريني اناة الخطو ناعمة الصبا <sup>٢</sup>
اضرت بضوء البدر والبدر طالع	وقامت مقام البدر لما تغيبا
ولو كان حقاً ما اتته لأطفأت	غليلا ولا فكّنت اسيراً معدّبا <sup>٣</sup>
علمتك ان منيت منيت موعداً	جهاماً وان ابرقت ابرقت خلتما

١ اجيدك بمعنى بحقك للقسم او التأكيد . وتأوب وآب رجع .

٢ الااة هنا المرأة الفائزة القيام دلالة .

٣ أي لو كانت زيارتها حقيقية لخلصتني من عذاب الوجد .

وكنت أرى ان الصدود الذي مضى  
فوا اسفي حتام اسأل مانعاً  
سأثني فؤادي عنك أو أتبع الهوى  
دلال فما ان كان إلا تجنباً  
وآمن خوّاناً وأعتب مذنباً<sup>١</sup>  
اليك ان استعصى فؤادي أو أباي

\* \* \*

أقول لركب معتفين تدرّعوا  
ردوا نائل الفتح بن خاقان انه  
هو العارض الثجاج أخضل جوده  
اذا ما تلتظى في وغي اصمق العدى  
رزين<sup>٢</sup> اذا ما القوم خفت حلومهم  
حياتك أنت يلقاك بالجوود راضياً  
حرون اذا عاززته في ملة  
فق لم يضيع وجه حزم ولم يبت  
اذا هم لم يقعد به العجز مقعداً  
أعير مودات الصدور واعطيت  
فلم تخل من فضل يبتغك التي  
وما نغم الحساد الا أصالة  
وقد جرّبوا بالامس منك عزيمة  
غداة لقيت الليث والليث مخدر  
يحصنه من نهر نيزك معقل  
يرود مغاراً بالظواهر مكثباً  
على عجل قطعاً من الليل غيباً  
اعم ندى فيكم واقرب مطلباً  
وطارت حواشي برقه فتلهباً<sup>٣</sup>  
وان خاض في أكرومة غمر الربى  
وقور اذا ما حادث الدهر اجلباً<sup>٤</sup>  
وموتك أن يلقاك بالبأس مفضباً  
فان جثته من جانب الذل اصحباً<sup>٥</sup>  
يلاحظ أعجاز الامور تعقباً  
وان كف لم يذهب به الخرق مذهباً  
يداه على الاعداء نصراً مرهباً  
تحب ومن رأي يريك المغيباً  
لديك وفعلاً اريحياً مهذباً  
فضلت بها السيف الحسام المجرباً  
يحدد ناباً للقاء ومخلباً<sup>٥</sup>  
منيع تسامى روضه وتأشباً  
ويحتل روضاً بالاباطح معشباً<sup>٦</sup>

١ اعتبه أي ارجع الى ما يرضيه .

٢ هو كالغيم الماطر . يجمع بين ماء الجود ولهب البطش .

٣ اجلب توعده بالشر .

٤ اصحب أي انقاد . وممناه شديد العناد اذا عوند ولكنه سهل الانقياد اذا جاءه الطالب متواضعاً

٥ اخدر الليث اقام في غابته .

٦ الظواهر اعالي الاودية . والاباطح عكسها .

يلعب فيه اقحواناً مفضّضاً  
 اذا شاء غادى عانة أو غدا على  
 يجر الى اشباله كلُّ شارق  
 ومن يبغِ ظمأً في حريمك ينصرف  
 شهدتُ لقد انصفته يوم تنبري  
 فلم ارَ ضرغامين أصدق منكما  
 هزبرٌ مشى يبغى هزبراً وأغلب  
 ادلّ بشغب ثم هالته صولة  
 فأحجم لما لم يجد فيك مطمعا  
 فلم يفنه ان كمر نحوك مقبلا  
 حملت عليه السيف لا عزمك انثى  
 وكنت متى تجمع يمينيك<sup>٦</sup> تهتك  
 يبصّ وحوذانا على الماء مُذهبا<sup>١</sup>  
 عقائل سرب أو تقنّص ربربا<sup>٢</sup>  
 عبيطاً مدمى أو رميلاً مخضباً<sup>٣</sup>  
 الى تلف أو يثنِ خزيان أخيبا  
 له مصلتاً عَضْباً من البيض مقضبا<sup>٤</sup>  
 عراقاً اذا الهيتابة النكس كذبا<sup>٥</sup>  
 من القوم يغشى باسل الوجه اغلبا  
 رآك لها امضى جناها واشغبا  
 واقدم لما لم يجد عنك مهربا  
 ولم يُنجه ان حاد عنك منكبا  
 ولا يدك ارتدّت ولا حده نبا  
 وكنت متى تجمع يمينيك<sup>٦</sup> تهتك  
 الضريبة أو لا تبقى للسيف مضربا

\* \* \*

ألنت لي الايام من بعد قسوة  
 وألبستني النعمى التي غيّرت اخي  
 فلا فزت من مرّ الليالي براحة  
 على ان افواف القوافي ضوامن  
 ثناء تقصى الارض نجداً وغائراً  
 وعاتبني لي دهري المسوء فأعتبا<sup>٧</sup>  
 عليّ فامسى نازح الدار اجنبا<sup>٨</sup>  
 اذا انا لم أصبح بشكرك متعبا  
 لشكرك ما أبدى دجى الليل كوكبا  
 وسارت به الركبان شرقاً ومغربا

- ١ الحوذان اسم نبات . ويبص أي يلمع .  
 ٢ و ٣ مكذا يرويا ابن الاثير . وفي الديوان ان تنقص ربربا؛ ومعنى البيتين - يقتنص الحر او  
 الطباء فيجر منها كل ذبيحة وقد تخضبت بالدماء وتلوثت بالرمال .  
 ٤ العضب المقضب أي السيف القاطع .  
 ٥ فلم أر أسدين أثبت منكما في موقف لا يثبت فيه الجبان .  
 ٦ يمينك أي ساعدك وسيفك .  
 ٧ أعتب أي رضي .  
 ٨ لا يقصد اخاه هنا ولكن يقصد ان نعم المدوح عليه اوجبت حسد الناس .



## وقال يصف حاله ويصف الذئب الذي لقيه

سلامٌ عليكم لا وفاءٌ ولا عهدٌ      أما لكمُ من هجر احبابكم بدّ  
أحبابنا قد انجز البين وعده      وشيكاً ولم يُنجز لنا منكم وعد  
بنفسي من عذبت نفسي بحبه      وان لم يكن منه وصال ولا ودّ  
حبيب عن الاحباب شطت به النوى

وأبي حبيب ما أتى دونه البعد  
طوته الليالي لا أروح ولا أغدوا  
إذا الحرب لم يُقدح لمخمد ما زند  
طويل نجادٍ ما يفلّ له حدّ  
يبادرنها سحاً كما انتثر العقيد  
يتوق الى العلياء ليس له نيد  
ولليل من افعاله والكرى عبد

\* \* \*

وليلٍ كأن الصبح في أخرياته  
تسربلته والذئب رسلان هاجع  
اثير القطا الكُدرى عن جشاته  
سما لي وبني من شدة الجوع ما به  
كلانا بها ذئب يحدث نفسه  
عوى ثم أقمى فارتجزت فهجته  
فأوجرته خرقاء تحسب ريشها  
فما ازداد الا جرأة وصرامة

حُشاشة نصلٍ ضمّ إفرنده غمد  
بعين ابن ليل ما له بالكرى عهد<sup>٢</sup>  
وتألفني فيه الثعالب والرّبد  
ببيداء لم تُعرف بها عيشة<sup>٣</sup> رغد  
بصاحبه والجند يتعمسه الجند<sup>٣</sup>  
فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد  
على كوكب ينقضّ والليل مسود<sup>٤</sup>  
وأيقنت ان الامر منه هو الجيد

١ أي يود بعضهم اني ميت .

٢ ابن الليل اللص .

٣ أي كل منا ذئب يحاول البطش بالآخر وذو الحظ الاوفر سينتصر .

٤ شبه نصلة السهم بكوكب ينقض .

فاتبعتها اخرى فأضلت نصلها  
فخرت وقد اورده منهل الردى  
وقمت فجمعت الحصى فاشتويته  
عليه وللرمضاء من تحته وقد

\* \* \*

أقد حكمت فينا الليالي يجورها  
أفي العدل ان يشقى الكريم يجورها  
ذريني من ضرب القداح على السرى  
سأحمل نفسي عند كل ملمة  
ليعلم من هاب السرى خشية الردى  
فان عشت محموداً فمثلي بغى الغنى  
وان مت لم اظفر فليس على امرى  
وحكم بنات الدهر ليس له قصد  
ويأخذ منها صفوها القعدد الوغد  
فعزمي لا يثنيه نحس ولا سعد  
على مثل حد السيف اخلصه الهند  
بأن قضاء الله ليس له رد  
ليكسب مالاً أو يئث له حمد  
غدا طالباً الا تقصيه والجهد

### وقال يفتخر بقومه

إنما الغي ان يكون رشيدا  
خلياه وجدة اللها ما دا  
ان ايامه من البيض بيض  
ايها الدهر حبنا انت دهرأ  
كل يوم تزداد حسناً فما تبعت يوماً الا حسبناه عيداً  
ان في السرب لو يساعدنا السر ب شمساً يمسين مشياً وئيداً  
يتدافعن بالاكف ويعرضن علينا عوارضاً وخذوداً

١ أي فاتبعها سهاً آخر أصاب القلب .

٢ كانوا قديماً يضربون القداح قبل السفر ليستطلعوا ما سيكون .

٣ أي أحسنت صنمه الهند .

٤ يئث أي ينشر .

٥ البيض الاولى الحسان ، والثانية جمع أبيض .

٦ كنى بالشموس عن الحسان .

يتبسم عن شتيتِ اراه أقحواناً مفصلاً او فريدا<sup>١</sup>  
رحن والليل قد اقام رواقاً فأقمن الصباح فيه عمودا  
بمهاةٍ مثل المهاة ابت ان تصل الوصل أو تصدّ الصدودا<sup>٢</sup>  
ذات حسن لو استزادت من الحسن اليه لما اصابت مزيدا  
فهي الشمس بهجة والقضيب الغضّ لنا والرّيم طرفاً وجيدا

\* \* \*

يا ابنة العامري<sup>٣</sup> كيف يرى قو مكِ عدلاً ان تبخلي واجودا  
ان قومي قوم الشريف قديماً وحديثاً ابوةً وجدودا  
مشرراً امسكت حلومهم الارض وكادت من عزمهم ان تميدا  
منزلاً قارعوا عليه العماليق وعاداً في عزّها وثمرودا  
فاذا المحل جاء جاءوا سيولاً واذا النقع ثار ثاروا اسودا  
يحسن الذكر عنهم والاحاديث اذا حدث الحديد الحديد<sup>٤</sup>  
في مقام تحرّ من ضنكك البيض على البيض ركعاً وسجودا<sup>٥</sup>  
يفرجون الوغى اذا ما اثار الضرب من مُصمت الحديد صعيدا  
بوجوه تُعشي السيوف ضياء وسيوف تعشي الوجوه وقودا  
عدلوا الهضب من تهامة احلا ما ثقلاً ورملاً نجد عديدا<sup>٥</sup>  
ملكوا الارض قبل ان تملك الارض وقادوا في حافتيها الجنودا  
وجروا قبل مولد الشيخ ابرا هم في المكرمات شأواً بعيدا<sup>٦</sup>  
فهم قوم تسبّع خير قوم لهم الله بالفخار شهيدا<sup>٧</sup>

١ الشتيت : الشجر الافلج .

٢ بمهاة متعلق بما قبله اي رحن مساء فجعلن الظلام مضيئاً يجبال مهاة أبت إلا الفراق .

٣ و ٤ حدث الحديد الحديد اي عند تلاحم السيوف في الحرب . والبيض السيوف .

٥ أي وازنوا الجبال بعقولهم والرمال بعدادهم .

٦ يريد بالشيخ ابراهيم الخليل - اشارة الى قدم مجدهم .

٧ شهيداً تعرب هنا حالاً من الله .

بمساعٍ منظومة ألبستنّ اللآلي قلائدًا وعقودا  
سائلِ الدهر مذ عرفناه هل يعرف منا الا الفعّال الحميدا  
قد لعمرى رزناه كهلاً وشيخاً ورأينا ناشئاً ووليدا  
وطوينا ايامه ولياليه على المكرمات بيضاً وسودا  
لم نزل قطّ مذ ترعرع نكسو هُ ندىّ لبتنا وبأساً شديدا  
فهو من مجدنا يروح ويغدو في عُلَى لا تبديد حتى يبيدا  
نحن ابناءً يعربٍ اعربُ الناسِ لساناً وانصر الناسِ عودا

### وقال في المتوكل وموكبه الفخم في عيد الفطر

أخفي هوى لك في الضلوع وأظهر  
واراك خنت على النوى من لم يخن  
وطلبتُ منك مودةً لم اعطها  
ان المعنى طالب لا يظفر  
هل دَينِ علوةٍ يستطاع فيقتضى  
أو ظلم علوةٍ يستفيق فيَقصر<sup>١</sup>  
بيضاء يعطيك القضيب قوامها  
ويريك عينها الغزال الاحور  
تمشي فتحكّم في القلوب بدلها  
وتيس في ظل الشباب وتخطر  
اني وان جانبت بعض بيطالتي  
وتوهّم الواشون اني مُقصر  
ليشوقني سحر العيون المحتلى  
ويروقني ورد الحدود الاحمر

\* \* \*

الله مكّن للخليفة جعفر  
ملكاً يحسنه الخليفة جعفر  
نعمى من الله اصطفاه بفضله  
والله يرزق من يشاء ويقدر  
قاسم امير المؤمنين ولا تزل  
تعطى الزيادة في البقاء وتشكر  
عمت فواضلك البرية فالتقى  
فيها المقلّ على الغنى والمكثر<sup>٢</sup>  
بالبرّ صمت وانت افضل صائم  
وبسنة الله الرضية تُفطر

١ هل لعلوة مطالب يمكننا قضاؤها أو هل يكف ظلمها فينتهي غنا .  
٢ ففواضلك التي عمت الناس جعلت الفقراء والاغنياء في حال واحدة من اليسار .

فانعم بيوم الفطر عيداً انه  
أظهرت عزّ الملك فيه يحفل  
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت  
فالخيل تصل والفوارس قدّعي<sup>١</sup>  
والأرض خاشعة تميد بثقلها  
والشمس مائة توقد بالضحي  
حتى طلعت بضوء وجهك فأنجلت  
وافتنّ فيك الناظرون فاصبح<sup>٢</sup>  
يحيدون رؤيتك التي فازوا بها  
ذكروا بطلعتك النبيّ فهلوا  
حتى انتهيت إلى المصلّى لابساً  
ومشيت مشية خاشع متواضع  
فلو أن مشتاقاً تكلف غير ما  
أيدت من فصل الخطاب بحكمة  
وروقت في برّد النبيّ مذكراً<sup>٣</sup>  
ومواعظ شفت الصدور من الذي  
حتى لقد علم الجهول وأخلصت  
صلّوا وراءك آخذين بعصمة  
فاسلم بمغفرة الإله فلم يزل  
الله اعطاك المحبة في الوري  
ولأنت املا للعيون لديهم

١ ادعت الفوارس أي اعتزوا بأنسابهم .

٢ مائة أي مرتفعة .

٣ كان الخلفاء في المواضع الرسمية يضعون حل اكتافهم برودة النبي .

٤ بمواعظك التي شفت الصدور من امراضها فتعلم الجاهل وامتدى المتعير وأخلصت لله نفس المفكر .

## وقال يمدح احمد بن دينار

ويصف مراكبا له غزا فيه بلاد الروم

ألم ترَ تغليس الربيع المبكر  
وسرعانَ ما ولى الشتاء ولم يقف  
مررنا على بطياس وهي كأنها  
كأن سقوط القطر فيها إذا انثنى  
وفي ارجوانيٍّ من النور احمر  
إذا ما الندى وافاه صباحاً تمايلت  
إذا قابلته الشمس ردّ ضياءها  
إذا عطفته الريح قلت التفاتة<sup>١</sup>  
بنفسي ما أبدت لنا حين ودّعت  
ولما خطونا دجلة انصرم الهوى  
ونخاطر شوق ما يزال يهيجنا  
بأحمد أحمدنا الزمان واسهلت  
هو الغيث يجري عن عطاء ونائل  
ولما تولّى البحر والجودُ صنوه  
أضاف الى التدبير فضل شجاعة

وما حاك من وشي الربيع المنشتر<sup>١</sup>  
تسللَ شخص الخائف المنكر  
سبائب عَصَب أو زراي<sup>٢</sup> عبقر<sup>٢</sup>  
اليها سقوط اللؤلؤ المتحدر  
يشاب بافرند من الروض اخضر  
اعاليه من درّ نثير وجوهر  
عليها صقال<sup>٣</sup> الاقحوان المنور  
لعلوة<sup>٤</sup> في جادّيتها المتعصفر<sup>٤</sup>  
وما كتمت في الاتحامي<sup>٤</sup> المسير<sup>٤</sup>  
فلم يبقَ الا لفته المتذكر  
لبادين من أهل الشام وحضّر  
لنا هضبات المطلب المتوعر  
عليك فخذ<sup>٥</sup> من صيب الغيث أو ذر  
غدا البحر من اخلاقه بين أبحر<sup>٥</sup>  
ولا عزم الا للشجاع المدبر

١ ألم ترَ ورود الربيع الباكر وما حاك من وشي الازهار الربيعية .

٢ بطياس مكان قرب حلب . أي مررنا على هذا المكان وهو كأنه شقق برود مصبوغة او بسط عبقرية . وعبقر محل يلبسون اليه كل ما تمجبوا من حسن صنعته وقوته .

٣ أي اذا عطفت الريح الفصن او الزهرة قلت تلك التفاتة علوة في ثوبها الزعفراني .

٤ الاتحامي المسير اي الثوب المخطط .

٥ اي لما تولّى البحر غدا البحر بين مجور من مكارمه .

غدوت على الميمون صباحاً وانما  
 اطلت بعطفه ومرّ كأنما  
 إذا زجر النوتي فوق علاته  
 إذا عصفت فيه الجنوب اعتلى له  
 إذا ما انكفا في هبوة الماء خلته  
 وحولك ركابون للهول عاقروا  
 تميل المنايا حيث مالت اكفهم  
 إذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم  
 صدمت بهم صهب العثانين دونهم  
 يسوقون اسطولا كأن سفينه  
 كأن ضجيج البحر بين رماحهم  
 فما رمت حتى اجلت الحرب عن طلي

مقطّمة فيهم وهام مطير<sup>٧</sup>  
 وكنت ابن كسرى قبل ذاك وبعده ملياً بأن توهي صفاة ابن قيصر<sup>٨</sup>  
 جدحت له الموت الزعاف فعافه وطار على ألواح شطب مسمر<sup>٩</sup>  
 مضى وهو مولى الريح يشكر فضلها

عليه ومن يول الصنيمية يشكر  
 إذا الموج لم يبلغه ادراك عينه ثنى في انحدار الموج لحظة اخزر  
 وكنا متى نصعد يحدك ندرك المعالي ونستنصر<sup>٩</sup> يمينك نستصر

١ و ٢ و ٣ الميمون اسم مركب اي اطل علينا فكان مقدمه كعنق حصان مرفوع وكان  
 النوتي في اعلاه كأنه خطيب على منبر . وتشرف اي تتشرف ويراد بها تطلع من عل .  
 ٤ المقتر : الساطع الرائحة .  
 ٥ صهب العثانين أي الروم لأن لحام شقراء .  
 ٦ عود مجرجر اي جبل تردد صوته .  
 ٧ ما رمت اي ما زلت . والطللى الاعناق .  
 ٨ إشارة الى اصل المدوح الفارسي . اي كنت قادراً ان تقهر ملك الروم (ابن قيصر) .  
 ٩ اي تجنب الموت فهرب على مركب .

## وصف ايوان كسرى

(وآثاره اليوم قرب بغداد وتعرف بطاق كسرى)

صُنْتُ نَفْسِي عَمَا يَدْنَسُ نَفْسِي وَتَرَفَعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جَبَسٍ<sup>١</sup>  
وَقَامَسَكْتُ حِينَ زَعَزَعَنِي الدَّهْرُ التَّمَّاسَا مِنْهُ لَتَمْسِي وَنَكْسِي  
بُلَّغْتُ مِنْ صُيَابَةِ العَيْشِ عِنْدِي طَفَّفْتُهَا الْايَامَ تَطْفِيفِ بَخْسٍ  
وَبَعِيدًا مَا بَيْنَ وَارِدِ رِفْدِي عَلَّلْتُ شَرْبَهُ وَوَارِدِ خَمْسٍ<sup>٢</sup>  
وَكَأَنَّ الزَّمَانَ أَصْبَحَ مَحْمُومًا لَا هَوَاهُ مَعَ الْأَخْسِ الْأَخْسِ<sup>٣</sup>  
وَاشْتَرَايَ العِرَاقَ خَطَّةً غَبِيًّا بَعْدَ بَيْعِي الشَّامَ بَيْعَةَ وَكْسٍ<sup>٤</sup>  
لَا تَرَزِي مَزَاوِلًا لِاخْتِبَارِي عِنْدَ هَذِي الْبَلَوِي فَتَنَكَّرَ مَسِي<sup>٥</sup>  
وَقَدِيمًا عَهْدَتِي ذَا هِنَاتِ آيَاتِ عَلَى الدَّنِيثَاتِ شُمْسٍ  
فَلَقَدْ رَابِنِي نَبُوًّا ابْنَ عَمِي بَعْدَ لَيْنٍ مِنْ جَانِبِيهِ وَأَنْسٍ  
وَإِذَا مَا جُفَيْتَ كُنْتُ حَرِيًّا أَنْ أَرَى غَيْرَ مَصْبُوحٍ حَيْثُ أَمْسِي

\* \* \*

حَضَرْتُ رَحْلِي الهموم فوجَّهتُ إِلَى ابْيَضِ المَدَائِنِ عَنَسِي<sup>٤</sup>  
اتَّسَلْتُ عَنِ الحِظْوِظِ وَأَسَى لَهْلَ مِنْ آلِ سَاسَانَ دَرَسٍ  
ذَكَرْتُ تَنْبِيهِمُ الحِطُوبِ التَّوَالِي وَلَقَدْ تُذَكِّرُ الحِطُوبِ وَتَنْسِي  
وَهُمْ خَافِضُونَ فِي ظِلِّ عَالٍ مَشْرِفٍ يَحْسِرُ العَيُونَ وَيَخْسِي<sup>٥</sup>  
حَلَلٌ لَمْ تَكُنْ كَاطِلَالِ سَعْدِي فِي قَفَارٍ مِنَ البَسَابِسِ مُلْسٍ<sup>٦</sup>

- ١ وترفعت عن عطية كل لئيم .
- ٢ وارد رفته اي يرد الماء كل يوم متى شاء ، ووارد خمس اي يرد مرة كل خمسة ايام .
- ٣ انه لخسارة عظيمة ان اترك الشام واستوطن العراق .
- ٤ في هذا البيت وما بعده يقول : حلت الهموم بساحتي فركبت جملي الى قصر المدائن الابيض لائسلي عن حظي وامسى لما درس من قصور آل ساسان (وهم ملوك الفرس) .
- ٥ خافضون ناعمو العيش .
- ٦ اي هذه الآثار العظيمة ليست كاطلال البدر في القفار الخاوية .



نقل الدهر عهدن عن الجدّة حتى غدون أنضاء لبس<sup>١</sup>  
فكان الجرماز من عدم الانس واخلاه بنية رمس<sup>٢</sup>  
لو تراه علمت ان الليالي جعلت فيه مائتا بعد عرس<sup>٣</sup>  
وهو ينبيك عن عجائب قوم لا يشاب البيان فيهم بلبس<sup>٤</sup>  
فاذا ما رأيت صورة انطا كية ارتعت بين روم وفرس<sup>٥</sup>  
والمنايا موائل وانوشر وانوشر وانوشر تحت الدرفس<sup>٦</sup>  
في اخضرار من اللباس على اصفر يخال في صبيغة ورس<sup>٧</sup>  
وعراك الرجال بين يديه في خفوت منهم واغماض جرس<sup>٨</sup>  
من مشيح يهوي بعامل سيف ومليح من السنات بترس<sup>٩</sup>  
تصف العين أنهم جيد احياء لهم بينهم اشارة خرس<sup>١٠</sup>  
يغتلي فيهم ارتيابي حتى تتقرأهم يداي بلس<sup>١١</sup>  
وكان الايوان من عجب الصنعة جوب في جنب ارعن جلس<sup>١٢</sup>  
عكست حفظه الليالي وبات المشتري فيه وهو كوكب نحس<sup>١٣</sup>  
فهو يبدي تجلداً وعليه كلكل من كلابل الدهر مرسي<sup>١٤</sup>  
لم يعبه ان بز من بسط الديباج واستل من ستور الدمقس<sup>١٥</sup>  
مشمخر تعلق له شرفات رفعت في رؤوس رضوى وققدس<sup>١٦</sup>  
لابسات من البياض فما تبصر منها الا قلائل برس<sup>١٧</sup>  
ليس يدري أصنع إنس لجن سكنوه ام صنع جن لإنس<sup>١٨</sup>  
عمرت للسور دهرأ فصارت للتعزي رباعهم والتاسي

١ انضاء لبس اي أثياب بالية .

٢ الجرماز أحد القصور في الايوان .

٣ في هذا والابيات الستة التابعة يصف صورة حل جدار القصر تمثل معركة دارت في انطاكية بين كسرى والروم ، والوصف دقيق وقد مر تفسيره في كلامنا عن الشاعر .

٤ أي كأنه مقتطع من جبل عال .

٥ لم ينقص من قيمته ان الدهر سلبه بسط الديباج وستور الدمقس .

٦ رضوى وقدس جبلان .

فلها انت أعينها بدموع موقوفات على الصبابة حُبسِـ  
ذاك عندي وليست الدار داري باقتراب منها ولا الجنس جنسي<sup>١</sup>  
غير نعمى لاهلها عند اهلي غرسوا من ذكائها خير غرسِـ  
ايدوا ملكنا وشدوا قواه بكهاة تحت السنور حُمسِـ<sup>٢</sup>  
وأعانوا على كتائب أرباطِ بطعن على النحور ودعسِـ<sup>٣</sup>  
واراني من بعدُ أكلف بالاشراف طراً من كل سنخِ وإس<sup>٤</sup>

### وقال يمدح المتوكل ويذكر وفد الروم

قل للسحاب اذا حدثه الشمالُ وسرى بليلِ ركبهِ المتحمل  
عرجٌ على حلبٍ فحيّ محلّةً مأنوسة فيها لعلوة منزل  
لغريرة ادنو وتبعد في الهوى واجود بالود المصوت وتبخل  
وعليّة الاحاظ ناعمة الصبى غُري الوشاة بها ولجّ العذل  
لا تكذبين فانت أطف في الحشا عهداً واحسن في الضمير واجل  
احنو اليك وفي فؤادي لوعة واصدّ عنك ووجه ودّي مقبل  
واعزّ ثم اذلّ ذلة عاشقٍ والحب فيه تعزّز وتذل

\* \* \*

إن الرعيّة لم تزل في سيرة عُمريّة مذ ساسها المتوكل<sup>٥</sup>  
الله آثر بالخلافة جعفرأ وراه ناصرها الذي لا يخذل  
هي افضل الرقب التي جعلت له دون البريّة وهو منها افضل  
ملك اذا عاذ المسية بعفوه غفر الاساءة قادراً لا يُعجّل

- 
- ١ فهي جديرة بأن أبكيها وان كنت غريباً لا أمت لاصحابها بنسب عرقى .
  - ٢ الا اني افعل ذلك ليد كانت للفرس عند اهلي ( اليمينين ) فهم ساعدوا ملكنا ( سيف بن ذي يزن ) بابطال تحت الدرور شجمان .
  - ٣ وأعانوه على جيوش قائد الحبش ( ارباط ) بطعن في نحور الاعداء .
  - ٤ ولذا صرت مولعاً بمدح الاشراف وأهل المروءة مها كان اصلهم .
  - ٥ عمرية نسبة الى عمر بن الخطاب اي سيرة عدل وحزم .

وعفا كما صفح السحاب ورعده  
شرفٌ خُصصت به ومجد باذخ  
لا يعدمنك المسلمون فإنهم  
حصنت بيضتهم وحطت حريمهم  
ورأيت وفد الروم بعد عِنادهم  
لحظوك أول لحظة فاستصغروا  
أحضرتهم حججاً لو اجتلبت بها  
ورأوك وضاح الجبين كما يرى  
نظروا اليك فقدسوا ولو أنهم  
حضروا السباط فكلموا راموا القرى  
تهوي أكفهم إلى أفواههم  
متحيرون فباهت متعجب  
ويود قومهم الألى بعثوا بهم  
قد نafs الغيب الحضور على الذي  
أعجلت رِفدهم فأفضل نائل  
فالله أسأل ان تعمّر صالحاً

قصفٌ وبارقه حريقٌ مشعلٌ  
متمكن فوق النجوم مؤثّل  
في ظلّ ملكك أدركوا ما أمّوا  
وحملت من أعبائهم ما استثقلوا  
عرفوا فضائلك التي لا تجهل  
من كان يعظم فيهم ويبجل  
عصم الجبال لأقبلت تنزل  
قمر السماء السعد ليلة يكمل  
نطقوا الفصيح لكبروا ولهللوا  
مالت بأيديهم عقول ذمّل  
فتحيد عن قصد السبيل وتعدل  
بما رأى أو ناظر متأمل  
لو ضمّهم بالأمس ذاك المهفل  
شهدوا وقد حسد الرسول المرسل  
حبي الوفود به الهنيء المُعجل  
فدوام عمرك خير شيء يسأل

### ميلوا الى الدار من ليلي نحييها

يصف فيها بركة بناها المتوكل

ميلوا الى الدار من ليلي نحييها نعم ونسأها عن بعض أهلها  
يا دمنة جاذبتها الريح بهجتها تبئت تنشرها طوراً وتطويها

١ اشارة الى وفد أرملة ملك الروم الى المتوكل وفي الابيات التالية يصف دهشة الوفد لما رأوه من عظمة الخليفة ومجده وما اعتراهم من الدهول عندما حضروا المأدبة ( السباط ) .

لا زلت في حلق للخير ضافية  
تروح بالوابل الداني روائعها  
ان النحيلة لم تُنعم لسائلها  
يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها  
بحسبها انها في فضل رتبها  
ما بال دجلة كالغيري تنافسها  
أما رأت كاليء الاسلام يكلاها  
كان جن سليمان الذين ولوا  
فلو قرّ بها بلقيس عن عرض  
تنصب فيها وفود الماء مُعجّلة  
كانما الغضة البيضاء سائلة  
اذا علتها الصبا أبدت لها حُبكا  
فحاجب الشمس احيانا يضا حكا  
اذا النجوم تراءت في جوانبها  
لا يبلغ السمك المحصور غايتها  
يعمن فيها بأوساط مجتحة  
لهنّ صحن رحيب في أسافلها  
تغنى بساتينها القصوى برؤيتها  
كانها حين لجّت في تدفقها

ينيرها البرق أحيانا ويسديها<sup>١</sup>  
على ربوعك أو تغدو غواديا  
يوم الكُتّيب ولم تسمع لداعيا  
والآنسات اذا لاحت مغانبا<sup>٢</sup>  
تعدّ واحدة والبحر ثانيها  
في الحسن طورا وأطواراً تباها  
من ان تعاب وباني المجد يبنيا<sup>٣</sup>  
ابداعها فأدقتوا في معانيها  
قالت هي الصرح تمثيلا وتشبيها<sup>٤</sup>  
كالخيل خارجة من جبل مجريا  
من السبائك تجري في مجاريا  
مثل الجواشن مصقولا حواشيا<sup>٥</sup>  
وريتق الغيث أحيانا يباكيا  
ليلا حسبت سماء ركبت فيها  
لبعد ما بين قاصيا ودانها  
كالطير تنقض في جوى خوافيا  
اذا انحططن وهو في أعاليها  
عن السحاب منحلّا عزاليها  
يد الخليفة لما سال واديا

- ١ اثار الحلال وأسداها نسج لمتها وسداها والكلام مجازي معناه لا زالت غيوم الخير فوقك يتلألا فيها البرق .
- ٢ في زهر الآداب ١ - ٢٣٠ البركة الحسناء وروثها . وفي نهاية الارب ١ - ٣٧٤ والآنسات التي .
- ٣ كاليء الاسلام اي حاميهِ ويقصد بذلك الخليفة .
- ٤ اشارة الى قصة النبي سليمان وبلقيس ملكة سبأ وما شاهدته عنده من جلال صرحه العظيم .
- ٥ الجواشن الدروع .

وزادها رتبة من بعد رتبته  
محفوفة برياض لا تزال ترى  
ان اسمه يوم يدعى من اساميتها<sup>١</sup>  
ريش الطواويس تحكيه ويحكيها

\* \* \*

اذا مساعي أمير المؤمنين بدت  
ان الخلافة لما اهتزت منبرها  
أبدى التواضع لما نالها دعة<sup>٢</sup>  
اذا تجلست له الدنيا بحليتها  
يا ابن الاباطح من ارض اباطحها  
ما ضييع الله في بدو وفي حضر  
وأمة كان قبح الجور يسخطها  
بثت فيها عطاء زاد في عدد ال  
ما زلت بجرأ لعافينا فكيف وقد  
اعطاكها الله عن حق رآك له  
للوافظين فلا وصف يدانيها  
يجمعر أعطيت اقصى أمانها  
عنها ونالته فاختلفت به ثيها  
رأت محاسنها الدنيا مساويها  
في ذروة المجد أعلى من روايبها<sup>٣</sup>  
رعيّة انت بالاحسان راعيها  
دهراً فأصبح حسن العدل يرضيها  
علياً ونوّهت باسم المجد تنويها<sup>٤</sup>  
قابلتنا ولك الدنيا بما فيها  
اهلاً وأنت بحق الله تعطيها

### وقال يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف

أفاق صب من هو فأيقنا  
إن السلو كما تقول لراحة<sup>١</sup>  
هذا العقيق وفيه مرأى مونتق<sup>٢</sup>  
أشقيقة العلمين هل من نظرة  
عل البخيلة أن تجود بها النوى  
أم خان عهداً أم أطاع شقيقا  
لو راح قلبي للسلو مطيقا  
للعين لو كانت العقيق عقيقا<sup>٣</sup>  
فتبل قلباً للغيل شقيقا  
والدار تجمع شائقاً ومشوقا

١ اسم المتوكل جعفر ومعنى جعفر النهر أي ان البركة والخليفة متشابهان في المعنى .  
٢ يا ابن اباطح قريش الذين اذا قيسوا بسواهم في الشرف فاقومهم كثيراً ( كانت سهولهم أعلى من جبالهم ) .  
٣ نوه به رفع ذكره .  
٤ العقيق اسم واد في بلاد العرب يتغنى به الشعراء .

ماذا عليك لو اقتربت لموعد يُنثي الجوى وسقيتنا ترنيقا

\* \* \*

غدت الجزيرة في جناب محمد ريثا الحناب مغاربا وشروقا  
برقت مخايله لها وتخرقت فيها عزالي جوده تخريقا<sup>١</sup>  
صفحت له عنها السنون وواجهت

أطرافها وجه الزمان طليقا  
رفع الامير أبو سعيد ذكرها وأقام فيها للمكثارم سوقا  
يستمطرون يداً يفيض نواها فيغرق المحروم والمرزوقا  
يقظ اذا اعترض الخطوب برأيه ترك الجليل من الخطوب دقيقا  
هلاً سألت محمداً بمحمد تجد الخبير الصادق المصدرقا<sup>٢</sup>  
وسل الشراة فانهم اشقى به من أهل موقان الاوائل موقا<sup>٣</sup>  
جاءوا براعيهم ليتخذوا به عمداً الى قطع الطريق طريقا  
طرحوا عباءته وألقوا فوقه ثوب الخلافة مشرباً راووقا<sup>٤</sup>  
عقدوا عمامته برأس قناته ورأوه برأ فاستحال عقوقا  
وأقام يتفد في الجزيرة حكمه ويظن وعد الكاذبين صدوقا  
حتى اذا ما الحية الذكر انكفا من أرزن حنقا يمج حريقا<sup>٥</sup>  
غضبان يلقي الشمس منه بهامة تعشي العيون تألقا وبريقا  
أوفى عليه فضل من دهش يظن البرّ بجرأ والفضاء مضيقا  
غدرت امانيه به وتمزقت عنه غيابة سكره تمزيقا

١ أي برقت سحب وعوده ففاضت سيول جوده.. والمخايل هي السحب المنذرة بالمطر .

٢ سأل به أي سأل عنه .

٣ في هذا البيت وما قبله يقول : هل سألت عن الممدوح محمداً ( وهو قائد آخر ) فينبئك بالخبر  
الصحيح بل اسأل الخوارج ( الشراة ) فقد نالهم منه أكثر مما نال أهل موقان قبلا -  
والموق الهلاك .

٤ أي جعل الخوارج زعيمهم خليفة فألبسوه العباءة الجيدة النسيج .

٥ ارزن اسم مكان ويراد بالحية الذكر هنا الداھية الفتاك ( وهو الممدوح ) .

طلعت جياذك من ربي الجودي<sup>١</sup> قد

يطلبن ثار الله عند عصابة  
يرمون خالقهم بأقبح فعلهم  
فدعا فريقاً من سيوفك حتفهم  
خملن من دفع المنوت وسوقاً<sup>٢</sup>  
خلعوا الامام وخالفوا التوفيقاً  
ويحرفون قرانه المنسوقاً<sup>٣</sup>  
وشددت في عقد الحديد فريقاً

\* \* \*

يا تغلب ابنة تغلب حتى متى  
أر ما علمتم أن سيف محمد  
لا تنتضوه بأن تروموا خطه  
خلوا الخلافة إن دون لقاءها  
تردون كفرة موبقاً ومروفاً<sup>٣</sup>  
أمسى عذاباً بالطفاة حيقاً  
عسراء تعي الطالبين لحوفاً  
قدراً بأخذ الظالمين خليفاً

### وقال يمدح مالك بن طوق

رحلوا فأيّة عبرة لم تكسب  
قد بين بين المفرق بيننا  
صدق الغراب لقد رأيت شموهم  
لو كنت شاهدنا وما صنع الهوى  
شغل الرقيب وأسعدتنا خلوة  
فتلجلجت عبراتها ثم انبرت  
تشكو الفراق الى قتيل صباة  
أطيع فيك العاذلات وكسوتي  
واذا التفت الى سني رأيتها  
أسفاً وأيّ عزيمة لم تغلب  
عشق النوى لربيب ذاك الربوب  
بالأمس تغرب عن جوانب غرب<sup>٤</sup>  
بقلوبنا حسدت من لم يحب  
في هجر هجر واجتناب تجنب  
تصف الهوى بلسان دمع مغرب  
شرق المدامع بالفراق معذب  
ورق الشباب وشرتي لم تذهب  
كمجر حبل الخالع المتصعب<sup>٥</sup>

١ الجودي اسم جبل ( وهو الذي استقرت عليه سفينة نوح ) .

٢ القران المنسوق القرآن المنظم .

٣ يا بني تغلب حتى متى تردون الكفر المهلك بمساعدتكم للخارجين على الامام .

٤ غرب اسم جبل .

٥ الخالع المتصعب اي الجمل الضعيف .

عشرون قصرها الصبي وأطالها  
 ما لي وللأيام صرف صرفها  
 فأكون طوراً مشرقاً للمشرق الأقصى وطوراً مغرباً للمغرب  
 وإذا الزمان كساك حلة مُعدمٍ  
 ولقد أبيتُ مع الكواكب راكباً  
 والليل في لون الغراب كأنه  
 والعيس تنصلُ من دجاء كما انجلى  
 يطلبنَ مجتمعَ العلى من وائلٍ  
 وبقيةَ العربِ الذي شهدتُ له  
 بالرحبة الخضراء ذات المنهل العذب المشاربِ والجناب المُعشبِ<sup>٣</sup>  
 عطنُ الوفودِ فمُنجدٌ أو مُتهم  
 ألقوا بجانبها العصيَّ وعودوا  
 ملكٌ له في كل يوم كريمةٍ  
 وتراه في ظلِّم الوغى فتخاله  
 يا مالك ابن المالكين الألى  
 اني أتيتك طالباً فبسطتَ من  
 وغدوتَ خير حياطةٍ مني على  
 أعطيتني حتى حسبت جزيل ما  
 ولعُ العتابِ بهائم لم يُعتصبِ  
 حالي وأكثر في البلاد ثقلي  
 فالبس لها حلل النوى وتغرب  
 أعجازها بمزيمة كالكوكب  
 هو في حلوكته وان لم يتعب  
 صبغُ الشباب من القذال الاشيب<sup>١</sup>  
 في ذلكَ الاصلِ الزكيّ الاطيب  
 أبناءِ ادِّ بالفخار ويعرب<sup>٢</sup>  
 او وافدٌ من مشرقٍ او مغرب<sup>٤</sup>  
 فيها على ملك اعزّ مهذب  
 إقدام ليث واعتزام مجرب  
 قرأ يشدُّ على الرجال بكوكب<sup>٥</sup>  
 ما للمكارم عنهم من مذهب  
 أملي وأطلبَ جودُ كفك مطلي<sup>٦</sup>  
 نفسي وأرأف بي هنالك من أبي  
 أعطيتنيه وديعةً لم توهب

- ١ العيس النياق البيض يخالطها شجرة وظلمة خفية . ومعنى البيت ان العيس تخرج من الليل كما يخرج القذال الاشيب من سواد الشباب .
- ٢ اد ويعرب من جدود العرب الاقدمين .
- ٣ الرحبة مكان المدوح .
- ٤ اي هو وطن او مقصد الواقدين من شق الامصار .
- ٥ وتراه وسط خبار الحرب مشرقاً كالقمر وهو ينقض على الرجال بسيف او رمح متآلق كالكوكب .
- ٦ اطلبه اي اعطاه ما طلب .



فشبعتُ من برِّ لديق ونائلِ  
قومٌ إذا قيل النجاءُ فما لهم  
يمشون تحت ظبي السيوف الى الرّدى  
يتراكمون على الأسنّة في الوغى  
ينسيك جود الغيثِ جودهمُ إذا  
حتى لو انّ الجودَ خيّر في الورى  
ورويت من أهل لديق ومرحبِ  
غير الحفائظ والرّدى مهربِ  
مشي العطاش الى برودِ المشربِ  
كالصبح فاض على نجوم الغيب  
عثرت أكفّهمُ بمسامِ مجدب  
نسباً لأصبح ينتمي في تغلب

---

١ يريد بذلك قوم المدوح بني تغلب . النجاة الهرب .



# ابن الرومي

أبو الحسن علي بن العباس

٢٢١ هـ - ٢٨٣ هـ

٨٣٧ م - ٨٩٩ م



مصادر دراسته - منشأ و طرف من سيرته - ممدوحوه  
عقلية وأخلاقه - فنه ومزاياه الشعرية

## مصادر دراسته

- الفهرست (ألمانيا) ١٦٥  
العمدة لابن رشيق ( أمين هندية ١٩٢٥ ) ج ١ - ٤٠ و ٤٢ و ١٩٤  
ج ٢ - ١٣٦ و ١٤٠ و ١٨٤ - ١٨٥ و ١٩٠  
زهر الآداب للحصري ج ١ - ٢٣٢ ذكر عمامته  
٢٤٨ عتابه لأبي الصقر  
ج ٢ - ١٧١  
١٧٧ تطيره وخوفه من ركوب البحر  
١٧٨  
ج ٢ - ٩ نهمة  
ج ٣ - ٩٩ و ١٠٢ داره وحنينه للوطن  
ج ٣ - ١٠٥ موالیه  
ج ٤ - ٤١ تسليه عن الهموم  
وفيات الأعيان ( بولاق ) ١ - ٤٩٩  
شرح شواهد التلخيص للعباسي ص ٣٨ - ٤٢  
وقد ذكر المعري في رسالة الغفران شيئاً عن تشييعه وذكر الجرجاني  
في الوساطة ص ٥٠ وصفحات أخرى . وفي كتاب التصحيف والتحرير  
للمسكري ج ١ - ٢٩ شيء عن سبب موته .  
ومن المراجع الحديثة غير دوائر المعارف وغير كتب التاريخ الأدبي العامة .  
مختارات ابن الرومي ( للكيلاني )  
مختارات ابن الرومي ( للبارودي )  
ديوان ابن الرومي ج ١ طبع محمد شريف سليم  
حصاد الهشم للمازني ٢٩٩ - ٤٢٧  
ابن الرومي للعقاد وهو من أحدث وأوفى ما كتب عنه .

## منشأه وطرف من سيرته

نشأ ابن الرومي في بغداد ، وليس في شعره ما يدل على انه تركها طويلاً أو جاب الأقطار كما فعل أبو تمام والمتنبي وسواهما من الشعراء . ويستدل من بعض أخباره انه سافر مرة الى سامرا وطال مقامه فيها<sup>١</sup> ، فكان يتشوق الى أيام بغداد كقوله :

بلد صحبت به الشيبية والصبأ ولبست ثوب العيش وهو جديد  
فاذا تمثل في الضمير رأيتـه وعليه أغصان الشباب تميد

والأرجح انه قصدما - وكانت يومئذ دار الخلافة - طلباً للرزق ولكنه لم يوفق في طلبه فملتها ، وحمل على الغربة وطلب المال فقال :

وفيم اجتهادي في محاولة الغنى وما للغنى عند الجواب به قدر  
وما أنا الا محرزُ المجد والعلی وذلك كنزي لا اللتجین ولا التبر  
وان يقض لي الله الرجوع فانه عليّ له ان لا افارقكم نذر  
ولا ابتغي عنكم شخوصاً ورحلة يد الدهر ، الا ان يفرقنا الدهر

فلم يكن لشاعرنا تلك الطبيعة المغامرة المجازفة في سبيل الحصول على الأماني . وقد ترك لنا في ذلك قصيدة عصماء وصف فيها أهوال السفر براً وبحراً ، وستناولها في غير هذا المقام .

وهو كما يتضح من لقبه ونسبه رومي الاصل واسم جده جريج الرومي (أوجورجيوس)<sup>٢</sup> . ولا نعلم عن أسرته شيئاً يذكر ، إلا أن في بعض

١ زهر الآداب ج ٣ - ١٠٠ .

٢ معجم الأدباء ج ٦ - ٤٧٤ تحت سيرة محمد بن حبيب .

شعره تليحاً الى ان أمه فارسية الأصل كقوله :

كيف اغضي على الدنيا والفرس خؤولي والروم هم أعمامي

وكان جده ، كما ذكر ابن خلكان ، مولى عبد الله بن عيسى بن جعفر المنصور . فنشأ والده ، كما يستدل من اسمه ، مسلماً وولد صاحب الترجمة كذلك ، وتثقف في بيئة اسلامية خالصة . ولم يتصل بنا أن والده كان يتكلم الرومية او يعرفها ، او انه هو عرفها ، على اننا لا نشك في انه كان يعرف نسبه الى اليونان ويفخر به احياناً ، كقوله من قصيدة في أبي سهل النوبختي :

ونحن ينو اليونان قوم لنا حجباً ومجد وعيدان صلاب المعاجم  
وما تراءى في المرايا وجوهنا بلى في صفاح المرهفات الصوارم  
وقوله من قصيدة يذكر فيها بني العباس :

انا منهم بقضاء من ختمت رسل الإله به وهم اهلي  
مولاهم وغذي نعمتهم والروم - حين تنصني - أصلي

وقوله في رجل طعن بشعره والظاهر انه وصمه بروميته :

قد تحسن الروم شعراً ما أحسنه عُريب  
يا منكر المجد فيهم أليس منهم صهيب

ويظهر أن شاعرنا لم يكن موفقاً في حياته العائلية فقد مات والده على الأرجح وهو صغير ، ولم يبق له غير أخ أكبر كان يعول عليه في الشدائد . على ان هذا توفي والشاعر لم يتجاوز الثلاثين كثيراً . وقد فقد أبناءه الثلاثة وزوجته فجزع عليهم جداً ، وكان لفقدهم تأثير عميق في نفسه . وليس من الغريب ان يكون قد تزوج ثانية وهو شيخ كما يرجح الاستاذ العقاد<sup>١</sup> ، على أننا لا نعلم شيئاً عن أمر هذا الزواج .

١ راجع ابن الرومي للعقاد ص ٩٠ .

## حاله مع ممدوحيه

ولد ابن الرومي على رواية ابن خلكان سنة ٢٢١ هـ ، فلم يدرك المعتصم والواثق إلا صبياً صغيراً . ثم أدرك سن البلوغ في زمن المتوكل ، وعاش الى خلافة المعتضد . ومع كل ذلك لا نرى في شعره ما يدل على تقربه من الخلفاء والحظوة عند الامراء . فاذا قابلناه بزميله البحري ( الذي ولد قبله بنحو خمس عشرة سنة ) رأينا أن هذا مدح خلفاء زمانه ، ولا سيما المتوكل والمعتز ، بعشرات من القصائد ونال جوائزهم ، ومدح نحو مائة من كبار الوزراء والقادة ، وحصل من ذلك مالا وجاهاً . أما ابن الرومي فليس له شيء يذكر في الخلفاء . ولعل السبب انه لم يدرك منهم غير المستضعفين كالمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد ، وكلهم قتل أو خلع أو حكم وليس له من الأمر شيء . على اننا لا نجزم في ذلك فحاله في ذلك حال البحري ، وان يكن البحري قد أدرك المتوكل والخلافة لم تزل في رونقها .

وقد عاش ابن الرومي اربع سنوات في خلافة المعتضد وله فيه بعض المديح . أما رجال الدولة الذين اتصل بهم فجلتهم من الاعاجم . وقد مرّ بنا ما كان لهم من النفوذ في الخلافة العباسية ، واليك أهمّ ممدوحيه :

## اسماعيل بن بلبل

كان من وزراء المعتمد وجمع له السيف والقلم وهو يرفع نسبه الى بني شيان ويفاخر بذلك . على ان بعضاً غمزوه وقالوا هو دعي<sup>١</sup> . وكان مادحوه كالبحري وابن الرومي يذكرون نسبه الشيباني بالتمجيد والتعظيم ، على ان ابن الرومي انقلب عليه وصار يلقيه بالدعي كقوله :

عجبت من معشر بعقوتنا باتوا نبيطاً وأصبحوا عرباً

١ الفخري ١٨٧ (في باب خلافة المعتمد) .

مثل أبي الصقر إنّ فيه وفي دعواه شيبان آية عجبا

### آل طاهر

وقد مرّ معنا ذكرهم في الكلام عن أبي تمام والبحثري ، وهم من  
الفرس . كانوا من رجال الدولة وقد تقلبوا منذ أيام المأمون في أعلى  
مراتبها . وأخص بمدوحي ابن الرومي منهم عبيد الله بن عبد الله أمير  
بغداد .

### آل وهب

وزعيمهم في أيام الشاعر القاسم بن عبيد الله : كان علي ما نقله  
صاحب الفخري من دهاء العالم ومن أفاضل الوزراء ، وكان شهماً كريماً  
مهيئاً جباراً . وقد لزمه ابن الرومي ومدح آله وعلى يده قتل .

### آل المنجم

وهم من الفرس وقد مدح شاعرنا منهم عليّ بن يحيى . وكان أبوه  
مولى المأمون ، واتصل بالفضل بن سهل ، واتصل علي بن يحيى بمحمد  
ابن اسحق المصعب ثم بالفتح بن خاقان وعمل له خزانة حكمة<sup>١</sup> . وآل  
المنجم من علماء الفلك الذين كان يشار اليهم بالبنان .

\* \* \*

ومن مدوحيه أحمد بن ثوية وآل المدبّر والقاضي يوسف وآل غلدة  
وآل نوبخت وأبو القاسم التّوزي وآل شيخ والباقطاني ، ومعظمهم من  
أصحاب النفوذ والوجاهة . على ان ابن الرومي لم يحظ بشعره فلم يكن  
مُتيسّر الحال . وفي شعره ما يدل على ذلك ، فهو كثير التبرم من  
الزمان وسوء الحال وقلة ثواب المدوحيين كقوله :

---

١ الفهرست ١٤٣ .



تأمل العيب عيبُ  
ان يمك الناس عنى  
وليس فى الحق ريبُ  
سبباً فله سببُ

وقوله :

ذقت الطعوم فما التذذت براحة  
أما الصديق فلا أحب لقاءه  
وأرى العدو قذى فأكره قربه  
من صحبة الأخيار والأشرار  
حذر القلى وكراهة الإعوار  
فهجرت هذا الخلق عن اعدار

ولكن ابن الرومى لم يهجر الدنيا وملذاتها ولم يبتعد عن الناس وعطاياهم بل بعكس ذلك كان يتهاقت على ما فى الحياة مما يشبع شهوات نفسه ، ويسرف فى ذلك كل الإسراف . وكان يرمى بنفسه على أبواب الكبراء والوجهاء طالباً رفقهم ، ممتياً نفسه بالخطوة عندهم . ومع كل ذلك تراه فى شعره محروماً ناقماً ، او ساخراً عابثاً ، ليس له من منزلة توجب احترامه ، او صداقة تشفى أوامه . ولماذا ؟ لان فى طبعه كما يستدل من شعره ما كان ينفسه من الناس وينفر الناس منه . هذا الطبع هو الذى جنى عليه وألزمه حالة الحاجة والخلول . وقد أصاب فى وصف نفسه ، إذ قال :

أسخطت اخواني وأخفق مطعمي فبقيت بين الدور والأبواب

وبينا ترى زملاءه من كبار الشعراء قد فاض كسبهم ، تراه وهو فى الخمسين من عمره يشكو الزمان بقصيدة رفعها الى اسمعيل بن بلبل وفيها يقول :

ويح القواني ما لها سفسفت  
أنحت على حظي بمبراتها  
أو كثفت دون الفنى سدها  
حُرمتُ فى سنّي وفي مبيعتي  
فكثرت فى خمسين عاماً خلت  
حظي كاني كنت سفسفتها  
شكراً لاني كنت أرهفتها  
حتى كاني كنت كثفتها  
قراي من دنيا تضيقتها  
كانت أمامي ثم خلفتها

لا عذر لي في أسفي بعدها على العطايا - عفتها عفتها  
والقصيدة طويلة وأكثرها على هذا النمط . ومثلها قصيدة يعاتب فيها  
صديقاً ومنها تتبين شيئاً من حاله ونظر اخوانه اليه - قال :

أيها الحاسدي على صحبتي العسر وذمي الزمان والاخوانا  
ليت شعري ماذا حسدت عليه أيها الظالمي اخائي عيانا  
أعلى اني ظمئت وأضحى كل من كان صادياً ريتانا  
أم على اني أمشيت حسيراً وأرى الناس كلهم ركبانا  
أم على اني شككت شقيقي وعدمت الثراء والأوطانا

والبيت الأخير يشير الى فقدته لأخيه الأكبر الذي كان يعطف عليه ،  
وإلى دار وعقار تركها والده فأضاعها . وما يدل ذلك على سوء حاله  
بالنسبة الى زملائه قوله لمن عاب قريضة :

أبعد ما اقتطعوا الأموال واتخذوا حدائقاً وكروماً ذات تعريش  
يحاسدونى وبيتي بيت مسكنة قد عشتش الفقر فيه أي تمشيش  
وكيفها قلبت ديوانه تجد هذه النفقات الناضحة بروح التبرم والغيظ  
والآلم . وإذا رجعت الى حكمه التي هي عنوان عقله المفكر رأيت أساسها  
تأثير بيئته . فقد ترك شاعرنا كثيراً من الابيات الحكمية ومعظمها  
يدور على ما يلي :

قباحة البخل وجمال الثواب راجع مختارات ابن الرومي (للكيلاني) ١٠٦  
عدم منفعة الاخوان ) ) ) )  
نكد الزمان ) ) ) )  
غرور الشباب ) ) ) ) ٢٦  
وجوب الحزم ) ) ) ) ٧١

١ وفي بعض قصائده إشارة الى دار له غضبت منه ، وفيها ما يشير الى سوء حاله في أواخر  
أيامه كالتالي مطلعها : لا زلت تبلغ أقصى السؤل والامل .

٢٠٢	راجع مختارات ابن الرومي للكيلاني	نفع الشدائد
١٠٩٩٤	» » » »	الحظ
٩٦	» » » »	الملل من الناس
١٠٣	» » » »	عدم المبالاة
٣٩٧	» » » »	فساد الذوق
٤٠٥	» » » »	الوشاة
٤٤١٣٧٧	» » » »	عدم التغرب
٣١٦	» » » »	الصبر

إلى غير ذلك من الاغراض التي تشير إلى ما كان يشعر به من وطأة الزمان ، وما كان يختلج في نفسه المنفعة من تأثير الحرمان .

### عقليته وأثرها في شعره

لابن الرومي مع فرط أدبه وتوقد قريحته عقلية غريبة . فهو في حال سكينته واطمئنانه لبيب مفكر يأتيك بالحكم والاقوال الساحرة ، ولكنه عصبي المزاج شديد الانفعال : فإذا هاجه هائج أضاع لبه واندفع على وجهه لا يبالي ، حتى في معاتباته لكبار الرجال تجده مرًا أليم اللسان . ويتجلتى لك مزاجه العصبي في قوله يعاتب اسمعيل بن نوبخت ( وهو أحد ممدوحيه ) يوازن أولاً بين نفسه وسواه من الشعراء فيصفهم بالجيف النتنة والفتاء الطافي على وجه اليم ، وانه أحق منهم ببلوغ الأمان . ثم يخاطب اسمعيل فيقول :

واجبي ان أرى جوابي عتباك فلا تجعل السكوت جوابي  
 إن في ان تعقتني بعض إغضابي وفي ان تهينني إغضابي  
 كنت تأتي الجميل ثم تنكرت فعاتبت مجملًا في العتاب  
 فائتنف توبة وراجع فعلاً ترتضيه الاسلاف للاعقاب

ومثل ذلك قصيدة يعاتب بها اسمعيل بن بلبل وقد شعر بشيء من

الجفاء منه . قال فيها :

فما لعطاياك اضحت حمىً      عليّ واضحت لغيري نهايا  
قبلتَ مديحي وأنشدته      أناساً وأمسكت عني الثوابا  
فله انت وما جثته      إليّ لقد جثت شيئاً عجابا  
اتهتك ستري عن خلتي      وتغلق دون عطاياك بابا  
حلفت لأن انت لم ترضي      لتصرفن القوافي غضابا

وأقلّ ما يقال في هذا العتاب انه تهديد ، وان صاحبه من إذا غضبوا لا ينظرون إلى العواقب . ويجوز لنا ان نقول انّ ما عرف به ابن الرومي من الهجاء هو أثر من تلك الطبيعة الشديدة الانفعال التي يخرج بها الانسان أحياناً عن طور الرشاد . ومن هنا هذه الجرأة في مهاجمة الأعيان والحكام وهذا الاقذاع في الطعن بالمنارئين ، مما كان - على ما يعتقد ابن رشيق - سبباً في هلاكه<sup>١</sup> .

وقد غالى بعضهم في هجاء ابن الرومي وجعلوه فناً من فنون الشعر ، وهو كذلك لو اقتصر فيه الشاعر على تصوير المساوىء الشخصية او الاجتماعية وعرضها بقالب يثير في النفس كراهية تلك المساوىء . ولكن شعرنا العربي الهجائي في كل أطواره لم يصل إلى تلك الدرجة الراقية إلا نادراً . فالهجاء الفني يقتضي أمرين : الفكاكة أو الدعابة ، وحسن التصوير . الاول يرفعه عن الخشونة والاقذاع ، والثاني يضعه في صف الفنون الجميلة . وانك لترى في بعض الهجاء العربي شيئاً من ذلك ، ولكن أكثره من قبيل الطعن الشخصي الذي يراد به الحط من كرامة الشخص أو كرامة أهله ، لا لقصد اصلاحه بل تشفياً أو قفاخراً . هكذا كانت نقائص جرير والاختل والفرزدق ، وعلى هذا النمط جرى أكثر الهجائين عند العرب . ولم يشذ ابن الرومي عن هذه القاعدة - قال ابن رشيق : « وقد

غلب عليه الهجاء حتى شهر به وحتى صار يقال أهجى من ابن الرومي ،  
وليس هجاء ابن الرومي بأجود من مدحه ولا أكثر ولكن قليل الشر كثير<sup>١</sup> .  
ولا ينكر ان في هجاء صاحبنا شيئاً من الدعابة وحسن التصوير ،  
ولكن معظمه فاحش لا يرتفع إلى ما نسميه فناً أدبياً .

ومن دلائل ضعفه العصبي اعتقاده بالطيرة : كان يتشأم من بعض  
الالفاظ أو الحوادث ، وكان لهذا الطبع أثر شديد في تصرفه مما جعله  
سخرية في عين العقلاء . ولا نستطيع ان نعمل هذه الظاهرة العقلية التي  
تضعف ارادة الانسان وتحملها على ربط الحوادث بغير أسبابها إلا بقولنا  
ان صاحبها شاذ في عقلية وان في جهازه العصبي ضعفاً خاصاً . وقد  
تناول أبو العلاء المبري تطير ابن الرومي في رسالة الغفران وانتقده ،  
ولم يتعد دائرة الصواب إذ قال عنه « ان أدبه أكثر من عقله » .

وقال ابن رشيقي : « كان ابن الرومي كثير الطيرة ربما أقام المدة الطويلة  
لا يتصرف تطيراً بسوء ما يراه أو يسمعه ، حتى ان بعض اخوانه من  
الامراء افتقده فأعلم بحاله في الطيرة ، فبعث اليه خادماً اسمه اقبال ليتفاهل  
به . فلما أخذ أهبطه للركوب قال للخادم : انصرف إلى مولاك فأنت  
ناقص ، ومنكوس اسمك لا بقا . وابن الرومي هو القائل : الفأل لسان  
الزمان والطيرة عنوان الحدثان ، وله فيه احتجاجات وشعر كثير<sup>٢</sup> . ومن  
ذلك قصيدة قالها وهو في السابعة والخمسين وقد رأى عجوزاً في احدى  
عيونها نكتة وجارية حواء ، فتطير من ذلك . واتفق بعد مدة يسيرة  
ان جفاه القاسم بن عبيد الله ، وسقطت ابنة لبعض أصدقائه من بعض  
السطوح فماتت ، فكتب إلى صديقه قصيدة يقول فيها :

لا تهاون بطيرة أيها النـ      ظنار واعلم بأنها عنوان  
قف إذا طيرة تلتفتك وانظر      واستمع ثم ما يقول الزمان

١ الممددة ج ١ - ١٩٤ .

٢ الممددة ١ - ٤٠ وج ٢ - ١٣٦ .

فتحك المهرجان بالحوول والعُور أرانا ما أعقب المهرجان  
كان من ذاك فقد ابنتك الحرّة مصبوغة بها الاكفان  
وتجاني مؤمّل لي خليل ليجّ منه الجفاء والهجران  
عقلية كهذه لا تستطيع ربط الاسباب بمسبباتها ، بل تميل إلى الوهم  
والذعر ، لا ينتظر ان يكون صاحبها ذا اقدم وعزيمة صادقة . وبرغم ما  
نقرأه في شعر ابن الرومي من ذكر المجد والعلو فإنه لم يتعدّ في ذلك حدّ  
الكلام . كان ذا موهبة شعرية حادة مقرونة بضعف عصبي حاد ، وقد  
تولد من امتزاجها ذلك الخوف الصياني وتلك الغيرة الشاذة التي كانت  
توهمه انه فوق العالمين ، وانه جدير بكل اكرام وتعظيم ، وان من لا  
يكرمه فقد نقص قدره وحق عليه ان يهجوّه ويحط من كرامته أياً كان  
ومها كانت منزلته . واننا لنوافق الاستاذ العقاد في ان شاعرنا كان « حسن النية  
رقيق القلب لم يخلق شريراً مطويماً على الشكس والعداوة<sup>١</sup> » ، ولكن الرجل  
كان على ما يظهر يجمع في نفسه نقائص من الاخلاق فهو مسالم شديد  
العداء ، رقيق القلب أليم البغض ، وفيّ ساخر ، شجاع جبان ، إلى  
آخر هذه الصفات الغريبة التي يقف المنتقد الاخلاقي لديها حائراً ، والتي  
لا يمكن لنا إلا ان نعزوها إلى اختلال في جهازه العصبي جعله غريب  
الاطوار شاذ الاخلاق ، ميالاً إلى الاسراف في كل شيء .

ومن ظواهر اسرافه نهمه في المآكل والمشرب ، حتى ان الحصري  
يعزو موته إلى شدة نهمه<sup>٢</sup> . ولا شك ان ما تجده في شعره من كثرة  
وصفه لاصناف الطعام والشراب راجع الى هذا الميل فيه . واليك وصفه  
لألذّة اللذات عنده :

١ ابن الرومي للعقاد ٢٢٣ .

٢ زهر الآداب ٢ - ٩ . وفي كتاب التصحيف والتعريف ( لأبي أحمد العسكري ) ج - ٢٩  
( مطبعة الظاهر ، مصر ، ٣٢٦ ) يعزى سبب موته إلى قصيدة هجائية قالها في جلوس القاسم  
ابن عبيد الله وكان فيهم رجل يقال له ابو فراس يكرهه فسمه في خشكناجه ، فاضت نفسه  
فيها .

يا سائلي عن مجمع اللذات  
خذ يا مريد المأكل اللذيذ  
لم ترّ عين ناظر مثلها  
ساءلت عنه أنعت النعّات  
جرداقتي خبز من السميد  
فقتّسّ الحرفين عن وجهها

ثم يصف ما يضاف الى ذلك من لحم فرّوج ولوز وجبن وبيض  
ونعنع وملح وكيفية تحضيرها وطبخها ويختم القصيدة بقوله :

ومتّع العين به مليّاً  
املاً ثناياك واكدم كدماً  
لهفي عليها وأنا الزعيم  
وأطبق الخبز به هنيئاً  
تسرّع فيما بنيت هدماً  
بمعدة شيطانها رجيم

وكثيراً ما كان يدفعه نهمه الى ذم رمضان والصيام لما فيها من كبح  
الشهوات والملذات كقوله :

إذا برّكت في صوم لقوم  
وما التبريك في شهر طويل  
فليت الليل فيه كان شهراً  
فلا أهلاً بمانع كل خير  
دعوت لهم بتطويل العذاب  
يطاول يومه يوم الحساب  
ومرّ نهاره مر السحاب  
وأهلاً بالطعام وبالشراب

وقوله من قصيدة :

شهر يصدّ المرء عن مشروبه  
لا أستثيب على قبول صيامه  
بما يحلّ له وعن ما كوله  
حسي تصرّمه ثواب قبوله

وله في الخمر شيء كثير ، وكان من مدمنيها المتسلّين بها عن المهموم  
حتى في أيام مشيبه كقوله :

سأعرض عن أعرض الدهر دونه  
فلاني رأيت الكأس أكرم خلّة  
ومن صارم اللذات ان حان بعضها  
وأشربها صرفاً وان لام لوم  
وفت لي ورأسي بالمشيب معتم  
ليرغم دهرأ ساءه فهو أرغم

وقال من قصيدة بعث بها الى زميله ابن المسيّب :

أدرك ثقافتك انهم وقعوا في ترجس مع ابنة العنبر  
فهمُ بحال لو بصرت بها سبحت من عجب ومن عجب  
ريحانهم ذهب على درر وشرابهم درر على ذهب

ثم يصف مجلسهم في الروضة الغناء ويطلب اليهم القدوم ليم انسهم  
به . ومن خمرياته قوله يصف الخمر ويصف حسناء تشرب :

ومدامة كحُشاشة النفس لطفتم عن الادراك باللسـ  
لنسيمها في قلب شاربها روح الرجاء وراحة اليأس  
ومتدّ في أمل ابن نشوتها حتى يؤمل مرجع الامس  
ومهفهف كملت محاسنه حتى تجاوز منية النفس  
أبصرته والكأس بين فم منه وبين أنامل خمس  
فكانها وكان شاربها قمر يقبل عارض الشمس

واليك هذه المداعبة الساخرة التي تذكرنا بشعر أبي نواس :

أحلّ العراقيّ النبيذ وشربه وقال الحرامان المدامة والسكر  
وقال الحجازيّ الشرابان واحد فحلت لنا بين اختلافها الخمر  
ساخذ من قوليهما طرفيهما واشربها لا فارق الوازر الوزر

وفي ديوانه كما ذكرنا آنفاً شعر كثير في الخمر وأنواع المآكل .  
فإذا قرنت ذلك الى ولعه بالشباب ، وشغفه بكل ما يقدمه من أطايب  
الحياة - كما سترى في قصائده التي يصف بها الشيب باكياً أيام الشباب ،  
نادباً أوقات اللهو والملذات - تعرف ما كان في نفس شاعرنا من نهم  
باللذائذ الطبيعية ، وكيف كان مفتوناً بما تقدمه لحواسه من نشوة جسدية .

ومن الانصاف ان نقول ان شاعرنا لم يكن فريداً بين شعراء العرب  
في ذلك فمثله كان أبو نواس واضرابه ، ومثله كثيرون من عبي الحياة  
الدنيا في كل عصر . على ان له على ما يظهر منزلة خاصة : فهو شغوف



بالحياة لأجل الحياة - يجب أن يعيش وان يعيش قويًا ليتمتع بمجالها وأطايها ، وقد وهبته الطبيعة حسًا دقيقًا فكان يرى فيها أدق الألوان وأخفى الاصوات والحركات . ولعل شعوره بالحرمان وبسوء الحال كان يزيد فيه هذا الشغف وهذه الشهوة الحيوانية القوية : نقول الشهوة الحيوانية لأننا لا نرى في شعره ما يدل على غير ذلك - لا نرى فيه ذلك الميل الى إلباس الطبيعة حلة روحانية ترفع به عن التمتع باللذة . فالمرأة والخمرة والطعام والربيع والشباب والرياض كلها في نظره أدوات للسرور ووسائل للتمتع ، وبقدر ما يستطيع الانسان ان يستخدمها يكون حظه في الحياة .

### شعره وشاعريته

الغريب ان ابن الرومي مع علو كعبه في الشعر لم يذكره صاحب الاغانى ولا ياقوت ولا الانباري ، وقد خصه ابن النديم في الفهرست بكلمة وجيزة ذكر فيها ان شعره كان على غير الحروف رواه عنه المسيبي ثم عمده الصولي على الحروف ، وجمعه ابو الطيب وراق بن عبدوس من جميع النسخ<sup>١</sup> . وتابعه ابن خلكان في ذلك ولكنه جعل راويته المتنبي لا المسيبي<sup>٢</sup> وهو على ما يترأى لنا خطأ نسخي فان المتنبي ولد بعد موت ابن الرومي بعشرين سنة فلا يصح ان يقال انه رواه عنه ، ولم ينتبه الى هذا الخطأ أكثر المؤرخين والمتأدبين الحديثين فنقلوا كلام ابن خلكان على علته .

ويميل نقاد العصر الى القول بالوحدة في قصائد ابن الرومي كقولهم : « فقصيدته قطعة مؤلفة تأليفاً منطقياً فنياً لا عوج فيها ولا ضعف ولا ميل الى الاستطراد<sup>٣</sup> » ، أو كقولهم : « فخالف ابن الرومي هذه السنة

١ الفهرست ١٦٥ .

٢ كما في الطبعة الميرية .

٣ الجمل ١٣٨ .

( أي سنة الذين جعلوا البيت وحدة النظم ) وجعل القصيدة كلا واحداً لا يتم بغير تمام المعنى الذي أراده على النحو الذي نحاه . فقصائده موضوعات كاملة تقبل العناوين وتنحصر فيها الاغراض ، ولا تنتهي حتى ينتهي مؤداها<sup>١</sup> .

والذين يقولون بالوحدة يجعلون أساسها طبيعة شاعرنا اليونانية ، واختلافها في الاسترسال والتوحيد عن الطبيعة العربية . والمدقق في درس شعره يجد هذا الحكم العام صحيحاً في بعض قطع خاصة ، أو بعض أجزاء من القصائد لا في القصائد عموماً ، كوصفه للمشيب أو للحزن أو لمشقة السفر أو للمهارة في لعب الشطرنج وما شاكل . وليس من الضروري ان يكون ذلك راجعاً الى « يونانية » تميزه عن سائر الشعراء ، ففي الشعر العربي قديماً وحديثاً أمثلة كثيرة على اتصال الفكر في قطع تطول أو تقصر بالنسبة الى الاحوال . خذ قصيدة عمر بن أبي ربيعة « أمن آل نعم » ، أو مرثاة أبي ذؤيب « أمن المنون » ، أو وصف الإيوان للبحثري ، أو وليمة ابن الواساني : بل خذ كثيراً من خمريات أبي نواس وما أشبهها من الكلام المتصل الفكر الذي تجده في كل الاعصر الأدبية ، ولا سيما في عصرنا الحاضر ، تجد أن ابن الرومي لم ينفرد في ذلك ، وليس في شعره ما يدفعنا إلى القول بطبيعة تخالف طبائع معاصريه . واليك مثلاً قصيدته في علي بن يحيى المنجم ومطلعها :

شاب رأسي ولات حين مشيب  
وعجيب الزمان غير عجيب

وهي ١١٧ بيتاً . منها ثلاثون في وصف المشيب والحضاب ونظر الغواني اليها ، وبقية القصيدة في المدوح يعدد فضائله من كرم ودهاء وسمو وشجاعة وما شاكل من المناقب الرفيعة . وإذا درستها لا تراها تختلف عن مدائح عصره من حيث الاسلوب والتفنن في ضروب الوصف والمدح ، بل

١ ابن الرومي للعقاد ٣٠٨ .

تستطيع ان تقتطع منها ما شئت من الأبيات وتبقى القصيدة تامة المعنى .  
وما يصدق على هذه القصيدة يصدق على قصيدته في عبيد الله بن عبد الله  
ابن طاهر :

صبا من شاب مفرقه تصابي وان طلب الصبا والقلب صاب

وهي ١٧٥ بيتاً خصص منها نحو ٧٠ بيتاً للشيب وتذكارات الشباب ،  
وساق الباقي في مدح المدوح على الطريقة المتبعة عند الشعراء . وكذلك  
القصيدة التي يهنئه فيها بعيد المهرجان وهي تقرب من ١٣٠ بيتاً وتختلف  
بين وصف يوم العيد وتعداد فضائل المدوح وآله ، وغير ذلك من سائر  
مطولاته كمرثاته لأبي الحسين يحيى بن عمر العلوي ، وهي ١٠٩ أبيات  
ومطلعها :

أمامك فانظر أيّ نهجيك تنهج طريقان شتى مستقيم وأعوج

وقصيدته في أحمد بن ثوبة - دع اللوم ان اللوم عون النوائب -  
وهي ١٨٢ بيتاً ، ورثاؤه لأهل البصرة - زاد عن مقلتي لذيد المنام -  
وهو ٨٣ بيتاً ، وعتابه لأبي القاسم التوزي - يا أخي أين ربيع ذلك  
اللقاء - في ١٦٨ بيتاً ، وقصيدته في القاسم بن عبيد الله - أيها القاسم  
القاسم رواء - وتبلغ ٢١٦ بيتاً ، وغير ذلك من عيون قصائده . في  
كل هذه القصائد تجد بعض القطع التي تستقل بوحدة فكرية ولكنك لا  
تجد القصائد عموماً تختلف عن أمثالها في دواوين الشعراء ، لا من حيث  
استقلال الأبيات ، ولا من حيث اتساق الافكار . ولا نرى علمياً ما  
يؤيد القول بتأثير النزعة اليونانية في أدبه . وقد حاول الاستاذ العقاد أن  
يجمع بين النظريين فجعل العبقرية اليونانية فيه أدبية لا نسبية ، أو كما  
قال : « انها كلمة مفهومة في لغة الآداب وإن لم تكن مفهومة في لغة  
الانساب » .

١ ابن الرومي للعقاد ٣٠١ - ٣٠٢ .

## مزاياء الفنية

ولمّا يمتاز شعره بما يلي :

- ١ - طول النفس مع المحافظة على السلاسة عموماً .
- ٢ - استيفاء المعنى وتقضي كل ما يقال فيه .
- ٣ - دقة الاحساس بالمؤثرات الطبيعية .
- ٤ - ميله إلى تشخيص ما لا يعقل .

أما طول النفس فقد أشرنا اليه سابقاً ، ونريد به مقدرة الشاعر على الاسهاب في النسيج دون تعب أو تكلف ظاهر . فإنك لا ترى لشاعر عربي ما تراه لابن الرومي من كثرة المطولات التي تتجاوز المئة والمئة والخمسين بيتاً ، وأكثرها حسن السبك كثير الالوان المعنوية . وبديهي ان تجد في مطولات كهذه بعض الحشو والتكرار وشيئاً من السفسفة ، ولكنها عموماً تدل على غزارة مادته اللغوية وعلى مهارته في استخدام الألفاظ لمعانيه . فهو فيساض كثير الاطناب والمراجعة بعيد المدى في ميدان النظم ، ولكنه لا يصل الى آخر مداه منهوكاً مقطوع النفس ، ولا نشعر في شعره بتكلف مضمّن أو جهاد عنيف .

على ان الاطالة لا تؤمن أحياناً ، فقد قضاطر صاحبها الى استعمال غرائب الصيغ والالفاظ محافظة على وزن أو معنى ، ولا سيما إذا كان واسع الاطلاع في اللغة كشاعرنا ابن الرومي . واثباتاً لذلك نذكر هنا بعض ما اخترنا من غرائب ديوانه مع الاشارة الى مواطن كل لفظة ليسهل الرجوع اليها ، وليس الذي ثبته هنا الا قليلاً من كثير مما يرد في ديوانه :

- |   |
|---|
| موزجرهمي ديوان ابن الرومي لشريف حسن ج ١ - ١١      |
| حظي دون اللفاء ( الخسيس )      »      »      ٢٧ - |
| مريغو نداء ( طالبوه )      »      »      ١١٠ -    |

٢٠٢ -	لازب الجرب ( لازم العيب ) لشريف حسن ج ١ -
٢٣٧ -	» » خمر ثلب ( قديمة )
٢٩٤ -	» » كروب وذباذب ( اضطرابات )
٢٧٥ -	» » مقفل الرواجب ( متشنج الاصابع )
٣١٧ -	» » نعمة ترتب ( مقيمة )
٣٢١ -	» » مرث ( حلیم )
٣٧٨ -	» » غسل اللصاب ( غسل الجبال )
٤١٠ -	» » القفد ( صفع القفا )
٤٤٥ -	» » السخاب ( القلادة )
٥٨ -	شتيم الوجه ( كرميه ) مختارات الكيلاني
٨٥ -	» » يومان ارونان ( عصيان )
١٢٠ -	» » للدهر منجنون ( دولاب )
١٧١ -	» » اكف ضوايب ( نواشب )
٢٠٤ -	» » الزوش ( العبد )
٢٥١ -	» » ألبك الالب ( جمعك المحتشد )
٣٩١ -	» » ابريق ردوم ( سائل )
٣٩٢ -	» » كدنتي تتخدد ( سني هزل )
٣٩٣ -	» » هل من عندد ( اي بد )

ويكثر في مطولاته الروابط الكلامية يأتي بها ليربط ما تقدم بما تأخر، ولا يستحسن ذلك في الشعر. ومن هذه الروابط ما يلي :

مع انه - لم لا - لا سيا - بل - كيا - غير ان - وظني انه -  
لذاك هذا - على اني - مع - واعلم - هكذا - برهان ذلك - وذاك  
ان - الخ ١ .

١ راجع شرح محمد شريف ج ١ - ١٥١ - ١٦٥ - ١٧٤ - ١٨٥ - ١٩٩ - ٢٥١ -  
٢٧٥ - ٣٢٨ - ٣٣٦ - ٣٨٦ - ٤١٩ - ٤٦٢ ومختارات الكيلاني ٨٤ - ٤٧١ -  
٤٨٥ .

ومع تمكن ابن الرومي من شوارد اللغة لا يأنف أحياناً من استعمال بعض الالفاظ الاعجمية . وهي ان جاز استعمالها في المباحث العلمية لا تستحسن في الشعر وما اليه من الكلام الفني كاستعماله الالفاظ التالية :

آين - في قوله « اعجمي آيينه عربي » أي عاداته ودأبه .

شير - في قوله « اعني سليمان الذي في رسمه قمر وشير » وهي الأسد في الفارسية .

زرياب<sup>١</sup> - في قوله « وتهاويل من سندس ومن زرياب » أي ماء الذهب .

الدوشاب<sup>٢</sup> - في قوله « علي احمد من الدوشاب » أي النبيذ الاسود .

الكوش - في قوله « يا أصل الكوش هاك ضامنة جدع انوف وصلم أكواش » والكوش هي الاذن في الفارسية .

وأمثال ذلك من الالفاظ التي كان يتملح بها على عادة بعض الشعراء في ذلك الزمان<sup>٣</sup> .

### استيفاء المعنى وتقصي الأغراض

قال ابن خلكان : « هو صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها ويبرزها في أحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ولا يبقى فيه بقية<sup>٤</sup> . »

وقد سبقه ابن رشيق فقال : « وكان ابن الرومي ضنيناً بالمعاني حريصاً عليها يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يزال يقلبه ظهراً لبطن ويصرفه في كل وجه وإلى كل ناحية ، حتى يميتته ويعلم انه لا مطمع منه لأحد<sup>٥</sup> ، وهما مصيبان . »

١ و ٢ ويحوز استعمال هذين اللفظين إذا أصبحا علماً - كالكنياك مثلاً .

٣ البيان والتبيين - ٦١ .

٤ وفيات الاعيان ١ - ٤٩٩ .

٥ العمدة ٢ - ٨٥ .

واليك بعض الأدلة على ذلك من شعره :

١ - في معاتبته لأبي القاسم التوزي الشطرنجي يذكر هنوات ذلك الصديق ، وان الحاجة كشفت له عنهن ، ويحري بينه وبينهن محاورة لطيفة يقول فيها :

ليتني ما هتكت عنكن سترأ فثويتن تحت ذاك الغطاء  
قلن لولا انكشافنا ما تجلست عنك ظلماء شبة قتماء  
قلت أعجب بكن من كاسفات كاشفات غواشي الظلماء  
قد أفدتسنتي مع الخبر بالصاحب ان رب كاسف مستضاء  
فلن أعجب بمهتدي يتمنى انه لم يزل على عيماء  
كنت في شبة فزالت بنا عنك فأوسعتنا من الإزراء  
وتمنيت ان تكون على الحيرة تحت العماية الطخياء  
قلت تالله ليس مثلي من ودّ ضلالاً وحيرة باهتداء  
غير اني وددت ستر صديقي بدلاً باستفادة الأنباء  
قلن هذا هوى فمرّج على الحق واخلّ الهوى لقلب هواء  
ليس في الحق ان تودّ لخلّ أنه الدهر كامن الأدواء  
بل من الحق ان تنقّر عنهن والا فانت كالبعداء  
ان بحث الطبيب عن داء ذي الداء لأسّ الشفاء قبل الشفاء  
دونك الكشف والعتاب فقوم بها كل خلّة عوجاء

وهذه المحاورة تكشف لك عن فن ابن الرومي وميله إلى البحث المستفيض وتقصي كل معنى من الغرض الذي يرمي إليه . وفي هذه القصيدة نفسها يمدح صديقه بالمهارة في الشطرنج فيذهب في الوصف كل مذهب كقوله :

غلط الناس لست تلعب بالشطرنج لكن بأنفس اللعباء  
لك مكر يدب في القوم أخفى من دبيب الغذاء في الأعضاء  
أو مسير القضاء في ظلم الغيب إلى من يريده بالتواء

وعلی هذا النحو یصف لبعه فی نحو عشرين بیتاً یتفنن فی معانیها ما شاء ، وكلها شاهد علی تدقیقه فی أغراضه ومحاولته بلوغ الغایة منها .

۲ - ذكر السفر ومشاقه وما لاقاه من ذلك برّاً وبحراً فی قصیدة یمدح بها أحمد بن ثوابة وقد أجاد فیها كل الاجادة . والیک شیئاً منها مثلاً لما نحن بصدده من تدقیقه وتقصیه ، قال :

أذاقتنی الأسفارُ ما كرهه الغنی      إلیّ وأغرانی برفض المطالب  
ومن نكبة لاقیتها بعد نكبة      رهبتُ اعتساف الأرض ذات المناقب  
وصبری علی الإقتار أسیر عملاً      علیّ من التفریر بعد التجارب

ثم یصف ما لاقاه من أهوال البر إبان الشتاء من مطر وبرد وثلج وصفاً فی غاية الدقة ، نذكر منه هنا وصف حاله وقد اضطر الی المبيت فی خان :

فملت إلی خانٍ مُرثٍ بناؤه      ممیلٌ غریق الثوب لهفانٍ لاغبٍ  
فلم ألق فیهِ مستراحاً لمتعب      ولا نزلأً ، إیان ذاك لساغبٍ ؟  
فما زلت فی خوف وجوع ووحشة      وفی سهر یستفرق اللیل واصب  
یورقنی سقف كانی تحته      من الوكف تحت المدجنات الهواضب  
تراه إذا ما الطین أثقل متنه      تصرّ نواحیه صریر الجنادب

وبعد ان یتوفی وصف الخان وهول السفر فی الشتاء یصف متاعب القیظ فی الصحراء فی اثني عشر بیتاً ، ثم یتناول أهوال البحر . یقصد ( دجلة ) إذا هبت الريح وطغت غوارب الماء ، ویحوك ذلك حوكاً دقیقاً فی ستة وعشرين بیتاً نذكر منها ثلاثة یردّ بها علی من لا یری فی دجلة ما یراه المسافر فی البحر من خطر أو متاعب فیقول :

لدجلة خبّ لیس للیمّ انها      ترائی بحلم تحته جهل واثب  
تطامنُ حتی تطمئنّ قلوبنا      وتقضب من مزح الريح اللواعب



زلازلٌ موج في غمار زواجر      وهوات خسف في شطوط خوارب  
وللمّ أعذار بعرض متونه      وما فيه من آذيته المتراكب  
ولست تراه في الرياح مزلزلاً      بما فيه إلاّ في الشداد الغوالب

٣- وصف الشيب وأيام الصبا وذلك كثير في ديوانه ، نجتزئء هنا بما جاء منه في قصيدة تبلغ ١٧٥ بيتاً قالها في عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وخصص منها نحو سبعين بيتاً في هذا الغرض الخاص . من هذه السبعين ١٩ بيتاً في وصف الشيب ووجوب الترحيب به لأنه يبشر بلحاق الماضي كقوله :

وقلت مسلماً للشيب أهلاً      بهادي المخطئين الى الصواب  
ألست مبشّري في كل يوم      بوشك ترحلي اثر الشباب  
لقد بشرتني بلحاق ماضٍ      أحبّ اليّ من برد الشراب  
فلست مسمياً بشراك نعيماً      وان أوعدت نفسي بالذهاب  
وأنت وان فتكت بحبّ نفسي      وصاحب لذّتي دون الصحاب  
فقد أعتبتني وأمتّ حقدي      بمشكّ خلفه عجلًا ركابي

و ١١ بيتاً في ذكر أيام الحداثة وموقف الغانيات بين أمس واليوم .  
و ٤٠ بيتاً يصف فيها ما يذكره بالشباب من جمال الحسان ومن جمال الطبيعة - ما فيها من مياه وجنان وسحاب وبروق ورياح - وصفاً لا يترك فيه زيادة لمستزيد يختمه بقوله :

فيا أسفاً ويا جزعاً عليه      ويا حزناً الى يوم الحساب  
أفجع بالشباب ولا أعزّي      لقد غفل المعزّي عن مصابي  
تفرّقنا على كره جميعاً      ولم يك عن قلى طول اصطحاب  
وكانت أيكتي ليد اجتناء      فعادت بعده ليد احتطاب

ثم يقول :

لبستك برهةً لبس ابتدال      على علمي بفضلك في الثياب

ومن يراجع هذه السبعين بيتاً ويتأمل توفّر الشاعر على تقصي المعاني وتدقيقه في رسم ظلالها، ينكشف له ما قصد إليه ابن خلكان إذ قال « لا يبغي في المعنى بقية » .

ولما كان ابن الرومي بطبيعته دقيق الاحساس كان من الطبيعي ان نراه يجيد في وصف الالوان والاصوات ويفتن بها ما شاءت قريحته ، وله في ذلك لطائف تعد من أجل ما في الباب من الشعر العربي .

ويمتاز بالبأسه الجماد حياة وبنقل غير العاقل الى مصاف العقلاء ، وهو ما يسمونه بالتشخيص أو المجاز المرسل . ومن ذلك حديثه مع هنوات صديقه ( وقد مر في كلامنا على قصيدته « ايها القاسم القسيم رواء » ) ، ومخاطبته للمشيب والشباب والبين والكساء ، وانطاقه الطيور والنسائم ، ونسبته التفكر الى الشمس والندى والأغصان ، مما سترى الامثلة عليه في المختار من شعره . ولم يتفرد ابن الرومي بذلك ، ولكن له فيه ما يلفت النظر ويجعله في مقدمة الوصافين . ومما يلفت النظر أيضاً في شعره حسن اختراعه ، وقد تحمس له ابن رشيقي فقال : « اما ابن الرومي فأولى الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن افتنانه <sup>١</sup> » . وفي موضع آخر يقرنه بأبي تمام ويقول : انها أكثر المولدين اختراعاً فيما يقول الحدّاق <sup>٢</sup> » .

ويراد بالاختراع كما ذكرنا في غير هذا المقام بدائع التشبيه والتمثيل والاستعارة ، كقوله وقد رأى رجلاً يقلي الزلابية فوصفه ووصف عمله :

رأيتُه سحراً يقلي زلابية	في رقة القشر والتجويف كالقصب
كأنما زيتُه المقلّي حين بدأ	كالكيمياة التي قالوا ولم تصب
يلقي المعجين لجيناً من أنامله	فيستحيل شبابيكاً من الذهب

١ الممددة ١ - ١٩٤ .

٢ الممددة ١ - ١٧٧ .

وقال يصف قوس السحاب :

وقد نشرت ايدي الجنوب مطارفاً على الجو دُكناً والحواشي على الارضِ  
يطرّزها قوس السحاب بأخضرٍ على احمرٍ في اصفرٍ إثر مبيضٍ  
كأذيال خَوْدٍ اقبلت في غلائل مصبّغة والبعض اقصر من بعض

ومن أقواله الجميلة يذكر أيام الشباب واننا لا نعرف قيمتها إلا متى  
ولت :

لسنا نراها حق رؤيتها الاّ زمان الشيب والهزم  
كالشمس لا تبدو فضيلتها حتى تغشى الارض بالظلم  
ولربّ شيء لا يبيته وجدانه الا مع العدم

ومثل ذلك قوله في ذم الدهر وانه يعلي الاسافل :

دهرٌ علا قدرُ الوضيع به وترى الشريف يحطه شرفه  
كالبحر يرسب فيه لؤلؤه سفلًا وتعلو فوقه جيفه

وله في الحكم باع طويلة ، فان دقة نظره لا تنحصر في الوان الطبيعة  
والحياة بل تتناول ايضاً العواطف وعلاقات الناس بعضهم ببعض . وهو  
يحاري في ذلك كبار الشعراء ، كقوله :

اذا ما كساك الله سربال صحّة ولم تخلُ من قوت يحلّ ويعذب  
فلا تغبطن المترفين فانهم على حسب ما يكسوم الدهر يسلب  
وقوله :

خليليّ قد عللتاني بالاسى فانعمتا لو اني اتعللُ  
وما راحة المرزوء في رزم غيره يحمل عنه بعض ما يتحملُ ؟  
وقوله :

فلا تتكل الا على ما فعلته ولا تحسبنّ المجد يورث بالنسب

فليس يسود المرء إلاّ بنفسه وان عدّ آباء كراماً ذوي حسب  
وحكمه كثيرة وهي تعكس لنا في الغالب حياته وتأثير بيئته فيه .

\* \* \*

أما أكثر ديوان ابن الرومي ففي المديح والهجاء والعتاب والوصف ، على  
ان له في باب الرثاء بضع قصائد جيدة . منها مرثاة في ابنه الأوسط هي  
من أرق ما فاضت به عواطف والد على ولد عزيز . قال في مطلعها  
يخاطب عينيه :

بكاؤكما يشفي وان كان لا يجدي فجودا فقد اودى نظيركما عندي  
توخى حيام الموت اوسط صبيتي فله كيف اختار واسطة العقد  
طواه الردى عني فأضحى مزاره بعيداً على قرب قريباً على بعد

ثم يأخذ بوصف الداء الذي أصاب ولده ، وما كان له من التأثير  
فيه ، ويشرح لنا العواطف الابوية المتألّمة شرحاً يحرك اوتار القلوب . وانك  
ترى شدّة ألمه ودقة تصويره في قوله يخاطب الفقيد :

محمد ما شيء توهّم سلوةً لقلبي الا زاد قلبي من الوجد  
ارى اخويك الباقيين كليها يكونان للاحزان أورى من الزند  
إذا لعبا في ملعب لك لذّعا فؤادي بمثل النّار من غير ما قصد

والقصيدة كلها من هذا النمط البليغ الذي يشهد لشاعرنا برقة الشعور  
ودقة الفن . وتجد معظمها في باب المختارات .

\* \* \*

والخلاصة ان ابن الرومي دقيق شديد الانفعال ، عصبي المزاج الى  
حد الخروج عن جادة الرشاد . ومن هنا غرابة أطواره ، وفشله في الحصول  
على رغائبه ، وعدم قدرّ جيله لفنه ومواهبه .

## المختار من شعر ابن الرومي

طبيعة شديدة الانفعال في شعرٍ بعيد المدى كثير الالوان : تقرأه  
فيرتسم لك ما في نفس ناظمه من ولده في الحياة ومرارة لفقد  
أطايبها ، مقرونين بإسراف في العاطفة يدفعه أحياناً الى درجة  
الشدوذ .

### ذكرى الشباب

من قصيدة في عبيد الله بن عبد الله

كفى بالشيب من ناهٍ مُطاعٍ	على كثره ومن داع مجاب
حططت الى النهى رحلي وكنت	مطيبة باطلا بعد الهباب <sup>١</sup>
وقلتُ مسلماً للشيب : أهلاً	بهادي المخطئين الى الصواب
الست مبشّري في كل يوم	بوشك ترحلي إثر الشباب ؟
لقد بشرتني بلحاق ماض	احبّ إليّ من برد الشراب
فلست مسمياً بشراك نعيّاً	وان اوعدت نفسي بالذهاب
لك البشري وما بشراك عندي	سوى ترقيع وهيك بالخضاب

---

١ الهباب : النشاط والسرعة .

وانت وان فتكت بحب نفسي  
فقد أعتبتني ، وامت حقدني  
إذا الحقنتي بشقيق عيشي  
وحسي من ثوابي فيه أني  
لعمرك ما الحياة لكل حي  
فقل لبنات دهري فلتصنبي  
سقى عهد الشيبية كل غيث  
ليالي لم أقل : سقياً لعهد  
وصاحب لذتي دون الصحاب<sup>١</sup>  
بحثك خلفه عَجِلاً ركابي<sup>٢</sup>  
فقد وفيتني فيه ثوابي  
واياه نثوب الى مآب  
إذا فقد الشباب سوى عذاب  
إذا ولتى ، باسهما الصياب  
اغرّ مجلجل داني الرباب<sup>٣</sup>  
ولم ارغب الى سقيا سحاب<sup>٤</sup>

\* \* \*

يذكرني الشباب هوان عتي  
يذكرني الشباب سهام حتف  
رمت قلبي بهن فأقصده  
فراحت وهي في بال رخي  
وكل مبارز بالشيب قرناً  
وصد الغانيات لدى عتابي<sup>٥</sup>  
يُصن مقاتلي دون الإهاب  
طلوع النبل من خلل النقاب<sup>٦</sup>  
ورحت بلوعة مثل الشهاب  
فسبي لعمرك غير ساب

\* \* \*

يذكرني الشباب جنان عدن  
تفتى ظلها نفحات ريح  
إذا ماست ذوائبها تداعت  
يذكرني الشباب وميض برق  
على جنبات انهار عذاب  
تهز متون اغصان رطاب<sup>٧</sup>  
بواكي الطير فيها بانتحاب  
وسجع حمامة وحنين ناب<sup>٨</sup>

- ١ و ٢ وانت وان ذهبت بحبيبي ار صاحبي فقد ارضيتني بأنك تدفني الى اللحاق به عاجلاً .  
٣ و ٤ سقى عهد الشيبية كل مطر كثير الرعد داني السحاب - ذلك العهد الذي لم اكن اهتم  
بسواه ولم اشعر فيه بحاجة ما .  
٥ يذكرني ايام الشباب عدم اهتمام الغانيات اليوم بي .  
٦ طلوع النبل الخ اي حسناء تكثر رمي النبل من وراء النقاب .  
٧ تفتى ظلها اي تحر كه .  
٨ الناب الناقة .

فيا اسفاً ويا جزعاً عليه      ويا حزنناً الى يوم الحسابِ  
أفجع بالشباب ولا أعزّي؟      لقد غفل المعزّي عن مصابي  
تفرّقنا على كرهٍ جميعاً      ولم يك عن قلى طول اصطحاب  
وكانت أيكتي ليد اجتنامٍ      فمادت بعده ليد احتطاب<sup>١</sup>

\* \* \*

ايا بُرد الشباب ، لكنك عندي      من الحسنات والقِسَم الرغاب  
بليت على الزمان ، وكل بُرد      فبين بلى وبين يد استلاب  
وعزّي علي ان تبلى وابقى      ولكنّ الحوادث لا تحابي  
لبستك برهة لبس ابتذال      على علمي بفضلك في الثياب  
ولو ملّكت صونك فاعلمته      لصنتك في الحرير من العياب<sup>٢</sup>  
ولم ألبسك الا يوم فخرٍ      ويوم زيارة الملك اللّباب  
عُبيد الله قرم بني زريقٍ      وحسبك باسمه فصل الخطاب  
الى ان يقول له :

اظلّ سحابٌ عرفك كل شيء      ودرّ على البلاد بلا عصاب<sup>٣</sup>  
سواي فاني عنه بظهيرٍ      كأني خلفاً منقطع التراب<sup>٤</sup>  
تشير إليّ بالمحروم ايدي      كايدي الناس في يوم الحصاب<sup>٥</sup>  
تطاول بي انتظار الوعد جدّاً      وربب الدهر يؤذن بانشاب

\* \* \*

افكّر في نصابٍ انت منه      فيُخلّق دون عذرك كل باب  
الست المرء لا عزمٌ كهامٌ      ولا بخلٌ اليه بذني انتساب

١ الايكة الشجرة كنى بها عن الحياة فقال وكانت حياتي مشمرة فأصبحت الآن يابسة .

٢ العياب خزائن الثياب .

٣ بلا عصاب أي عفواً دون ان يطلب . والعرف المعروف .

٤ لم يصبني غيث معروفك كأني كنت في الطرف الذي ينقطع عنده المطر .

٥ أي يشير الي الناس بأيديهم ويقولون « محروم » من الحظ . وقد شبه كثرة المشيرين اليه بأيدي الناس يوم رمي الحجارة بمنى ( في الحج ) .

فمَشَّ في غِبْطَةِ ونعيمِ بالِ وملك لا يخاف يد اغتصابِ  
ومنها :

وليس لأنني سُدَّتْ سبيلي ولا عَجَزَ اصْطِرَافِي واصْطِحَابِي  
تعالَتْ هَضْبَتِي عن كلِّ سَيْلٍ وفاتتْ نَبْعَتِي نَضْحَ الذَّنَابِ<sup>١</sup>  
فليس ينالني إلا مثيلٌ يُطَلُّ عَلَيَّ إِبْطَالَ السَّحَابِ  
ولو اني قطعت الارض طولاً لكان اليك من بعدُ انْقِلَابِي

### وقال مادحاً علي بن المنجم

شاب رأسي ولات حين مشيبِ وعجيبُ الزَّمانِ غيرِ عجيبِ  
قد يَشِيبُ الفتى وليس عجيباً ان يَرى النُّورَ في القُضيبِ الرطيبِ  
ساءَها ان رأت حبيباً اليها ضاحكُ الرَّأسِ عندَ مفارقِ شيبِ  
فدعتهُ الى الخُضابِ وقالت ان دُفِنَ المَعيبِ غيرِ مَعيبِ  
خضبت رأسه فبات بتبريحِ واضحى فظُلَّ في تَأْنِيبِ  
ليس ينفكَّ من ملامة زارِ قائلِ بعدَ نظرتي مستريبِ  
ضِلَّةٌ ضلَّةٌ لمن وعظته عاجزِ وامن القوى يتعاطى  
رام اعجاب كل بيضاء خودِ صِبْغَةَ اللهِ في قناعِ المشيبِ<sup>٢</sup>  
فتضاحكن هازئات وماذا بسوادِ الخُضابِ ذي التعجيبِ  
يا حليف الخُضابِ لا تخدع النفسَ فما انت للصِّبَا بنسبِ  
فاتخذهُ على الشبابِ حداً وابتكِرَ فيه بعبرةً ونحيبِ<sup>٣</sup>

\* \* \*

١ اقصدك لا لأنه قد سدت في وجهي سبل الرزق فاني كريم النفس اتعالى عن الاسافل ، وقد  
عبر عن ذلك بقوله ( تعالت هضبتي عن السيول ونبعتي عن رش الدلاء ) .  
٢ اي ضعيف يتناول الصبغة يستر بها مشيبه مظهراً انها اللون الطبيعي الذي خلقه الله .  
٣ جليب اي مجلوب مصطنع .



وقتاة رأت خضابي وقالت  
 خاضبُ الشيب في بياض مبين  
 ليس تنقاد عادةً لهواه  
 ظلمتني الخطوبُ حتى كآني  
 سلبتني سواد رأسي ولكن  
 عوّضتني اخا المعالي علياً  
 يستغيث اللهيفُ منه بمدعوٍ  
 يتلقى المدفعين عن الابواب  
 بالبشر منه والترحيب  
 غربته الخلائق الزهر في الناس  
 ما سعى والسعاة للمجد الا  
 من رآه رأى شواهد تُغني  
 لوذعي له فؤاد ذكي  
 يقظٌ في الهنات ذو حركات  
 ألمعي يرى باول ظن  
 ثابت الحال في الزلازل منها  
 لسؤاله انهيال الكثيب  
 لين عطفه فان ريم منه  
 احسنت وصفه مساعيه حق  
 يمته بنا المطايا فافضت  
 بأبي انت من جليل مهيب  
 اعجز الطالبيك شأو بعيد  
 هاكها مدحة تغنى بها الركبان  
 ما ارزمت روائم نيب<sup>٤</sup>

١ الجنيب ما يقاد من الركاب .

٢ اي ما سعى هو وواحد الى الجهد الا وسبق بتقريبه جري منافسه السريع .

٣ اي انه لدى الخطوب يقظ تتحرك همته بما يسكن اضطراب القلوب .

٤ اي ما حنت النياق الى اولادها .

نظم الفكر درّها غير مثقو بـ اذا الدرّ شينَ بالتثقيبِ  
يطرب السامعين ايسر ما فيها وان أنشدت بلا تطريب  
منك جاءت اليك يحدو بها الودّ على رغبة بلا ترغيب

### رثاء ابنه الاوسط

بكاؤكما<sup>١</sup> يشفي وان كان لا يجدي  
ألا قاتل الله المنايا ورميها  
توخى حيام الموت اوسط صبيتي  
على حين شمت الخير من لمحاته  
طواه الردى عنى فاضحى مزاره  
لقد انجزت فيه المنايا وعيدها  
لقد قلّ بين المهد واللحد لُبّه  
الحّ عليه النزف حتى احاله  
وظلّ على الايدي تساقط نفسه  
فيا لك من نفسٍ تساقط انفساً<sup>٤</sup>  
فجودا فقد اودى نظيركما عندي  
من القوم حبات القلوب على عمد  
قله كيف اختار واسطة العقدا  
وآنتست من افعاله آية الرشد  
بعيداً على قربٍ قريباً على بعد  
واخلفت الآمال ما كان من وعد  
فلم ينس عهد المهد إذ ضمّ في اللحد<sup>٢</sup>  
الى صُفرة الجاديّ عن حمرة الورد<sup>٣</sup>  
ويذوي كما يذوي القضيبي من الرند  
تساقط درّ من نظام بلا عقد

\* \* \*

عجبت لقلبي كيف لم ينفطر له  
وما سرّني ان بعته بثوابه  
ولا بعته طوعاً ، ولكن غُصبته  
ولو أنّته أقسى من الحجر الصلد  
ولو أنه التخليد في جنة الخلد  
وليس على ظلم الحوادث من مُعد

\* \* \*

واني وان مُتّمت بابنيّ بعده لذاكره ما حنّنت النيبُ في نجد<sup>٥</sup>

١ يخاطب عينيه .

٢ اي انه مات صغيراً .

٣ كثر عليه نزف الدم حتى احال لونه الوردى الى اصفرار الزعفران .

٤ فيا لك من نفس تذوي فتذوي معها نفوس كثيرة .

٥ النيب النياق . اي وان كان لي باخويه سلوة فاني سأذكره دائماً وسأتوجع لذكراه .

واولادنا مثل الجوارح<sup>١</sup>، أيتها فقدناه كان الفاجعَ البيّنَ الفقدِ  
لكلّ مكانٍ لا يسدّ اختلاله مكانُ أخيه من جزوع ولا جلد  
هل العين بعد السمع تكفي مكانه ام السمع بعد العين يهدي كما تهدي  
لعمري لقد حالت بي الحال بعده

فيا ليت شعري كيف حالت به بعدي  
شكلتُ سروري كله اذ ثكلته وأصبحت في لذات عيشي اخا زهد  
\* \* \*

أريحانة العينين والانف والحشا

ألا ليت شعري هل تغيّرتَ عن عهدي ؟  
سأسقيك ماء العين ما أسعدت به

وان كانت السقيا من الدمع لا تجدي  
أعيني جودا لي، فقد جدت للثرى بأنفسٍ مما تُسألان من الرغد<sup>٢</sup>  
كأنّي ما استمتعت منك بضمّة ولا شمّةٍ في ملعب لك أو مهد  
ألام لما أبدي عليك من الأسى واني لأخفي منه أضعاف ما أبدي  
\* \* \*

محمدٌ ما شيءٌ تُؤهّم سلوة  
أرى اخويك الباقيين كليهما  
إذا لعبا في ملعب لك لذعا  
فما فيها لي سلوة بل حرارة  
وانت وان أفردت في دار وحشة  
عليك سلام الله مني تحيّة<sup>٣</sup>  
لقلبي، الا زاد قلبي من الوجد<sup>٣</sup>  
يكونان للاحزان اورى من الزند  
فؤادي بمثل النار عن غير ما قصد  
يهيجانها دوني وأشقى بها وحدي  
فاني بدار الأنس في وحشة الفرد  
ومن كل غيبٍ صادق البرق والرعد

١ الجوارح اعضاء الجسم .

٢ الرغد العطاء .

٣ في هذه الابيات وما بعدها يقول يا محمد ما من شيء يحسبونه سلوة إلا ويزيدني حزنا على  
حزن . انظر الى اخويك الباقيين فاذكرك في كل من حركاتها ويشدّد لذلك اضطرار الاسى  
في نفسي فأنت وان كنت وحيدا في القبر فاني بين الناس وحيد بالامى .

## من رثائه لأبي الحسين يحيى بن عمر العلوي<sup>١</sup>

أمامك فانظر أيّ نهجيك تنهج      طريقان شتى ، مستقيم واعوج<sup>١</sup>  
ألا أيتها الناس طال ضريركم      بآل رسول الله فاخشوا أو ارتجوا  
أكل أوان للنبي محمد      قتيل زكيّ بالدماء مضرّج<sup>٢</sup>

\* \* \*

بني المصطفى كم يأكل الناس شلوكم  
لبلواكم - عما قليل - مفرّج  
أما فيهم راعٍ لحق نبيته ؟      ولا خائفٌ من ربه يتحرّج  
أبعد المكنى بالحسين شهيدكم      تضيء مصابيح السماء فتسرج<sup>٣</sup>  
لنا وعلينا ، لا عليه ولا له      تسحسح اسراب الدموع وتنسج  
وكنا نرجيه لكشف عمائة      بأمثاله أمثالها تبلّج

\* \* \*

أيجي العلي لهفي لذكراك هفة      يباشر مكواها الفؤاد فينضج  
لمن تستجدّ الارض بعدك زينة<sup>٤</sup>      فتصبح في أثوابها تتبرّج  
سلام وريحان وروح ورحمة      عليك ، وممدود من الظل سجسج<sup>٥</sup>  
ولا برح القاع الذي انت جاره      يرفّ عليه الاقحوان المفلّج<sup>٥</sup>  
ويا أسفي الأ تردّ تحيئة      سوى أرج من طيب رمسك يارج  
عفاءً على دار ظننت لغيرها      فليس بها للصالحين معرّج

\* \* \*

ألا أيها المستبشرون بيومه      اظلمت عليكم نعمة لا تفرّج

- ١ وهو حفيد حفيد الامام علي وكان قد قام على العباسيين فقتلوه . وفي هذه القصيدة يظهر تشيع الشاعر لآل البيت .
- ٢ إشارة الى ان القاتل من بيت الرسول .
- ٣ تسرج تحسن طلعتها .
- ٤ سجسج اي لا حرفيه ولا قر .
- ٥ اي لا برح مدفنه يتألق عليه الاقحوان .

أكلتكم امسى اطمأن مهاده      بأن رسول الله في القبر مزعج<sup>١</sup>  
كأنني به كالليث يحمي عرينه      واشباله لا يزدهيه المهجمج<sup>١</sup>  
كدأب عليّ في المواطن قبله      ابي حسن والغصن من حيث يخرج<sup>٢</sup>  
كأنني أراه - والرماح تنوشه      شوارع كالأشطان تُدلى وتخلج<sup>٣</sup>  
كأنني أراه إذ هوى عن جواده      وعفّر بالتراب الجبين المشجج  
فحُبّ به جسماً الى الارض اذ هوى

وحُبّ بها روحاً الى الله تعرّج  
اجنّوا بني العباس من شئنا نكم      وأوكوا على ما في العياب وأشرجوا<sup>٤</sup>  
وخلّوا ولاة السوء منكم وغيّتهم      فأحرّ بهم ان يفرقوا حيث لجّجوا  
نظار لكم ان يرجع الحقّ راجع      الى أهله يوماً فلتشجوا كما شجوا  
\* \* \*

بني مُصعب! ما للنبي وأهله      عدو، سواكم أفصحوا، وقلججوا  
واني على الاسلام منكم لخائف<sup>٥</sup>      بوائق شتى، بابها الآن مرّج  
وفي الحزم ان يستدرك الناس امرم

وحبلهم مُستحکم العقده مُدمج  
لعلّ قلوباً قد أطلتم غليلها      ستظفر منكم بالشفاء فتسلج  
البصرة وما حل بها يوم دخلها الزنج<sup>٦</sup>

وذلك ٢٥٧ هـ

زاد عن مقلتي لذيذة المنام      شغلها عنه بالدموع السجّام

- 
- ١ كأنني به في ساحة الحرب كالليث لا يستخفه زجر زاجر
  - ٢ اي هو في شجاعته كجده الامام علي .
  - ٣ تنوشه تطلبه والأشطان الحبال . وتدلّي وتخلج اي تمتد وتحرك او ترسل وتجذب .
  - ٤ استروا يا بني العباس بفضكم وشدوا على ما في داخلكم من الحقد .
  - ٥ بنو مصعب من رجال العباسيين .
  - ٦ نشبت هذه الثورة بزعامة علي بن محمد احد المدعين للنسب العائلي وكان قيامه في ايام المكتفي فتفاقم امره واكتسح البصرة وما اليها ولم يتمكن العباسيون ان يخضعوه إلا بعد مشقة طويلة.

اي نومٍ من بعد ما حلّ بالبصرة ، ما حلّ من هَنَاتٍ عظامٍ  
اي نومٍ من بعد ما انتهك الزنج جهاراً محارم الاسلام  
ان هذا من الامور لأمرٌ كاد ان لا يقوم في الأوهام

\* \* \*

هفّ نفسي عليك ايتها البصرة ، هفّاً كمثّل لتهب الضرام  
هف نفسي عليك يا قبّة الاسلام هفّاً يطول منه غرامي  
هف نفسي عليك يا فرضة البلدان هفّاً يبقى على الاعوام  
هف نفسي لجمعك المتفاني هف نفسي لعزك المستضام

\* \* \*

بيناً أهلها بأحسن حال اذا رماهم عبيدهم باصطلام  
دخلوها كأنهم قطع الليل ل إذا راح مدّهم الظلام  
أيّ هول رأوا بهم أيّ هول! حقّ منه يشيب رأس الغلام  
إذ رموهم بنارهم من عين وشمال - من خلفهم وأمام  
كم اغصّوا من شارب بشراب كم اغصّوا من طاعم بطعام  
صبحوهم فكابد القوم منهم طول يوم كأنه ألف عام  
ما تذكّرت ما أتى الزنج الا أضرم القلب ايّما اضرام

\* \* \*

عرجاً صاحبيّ بالبصرة الزهراء تعريج مُدَنَف ذي سقام  
فاسألاها - ولا جواب لديها لسؤال - ومن لها بالكلام ؟  
اين ضوضاء ذلك الخلق فيها اين اسواقها ذوات الزحام ؟  
اين فُلك فيها ، وفلك اليها ، منشآت في البحر كالأعلام ؟  
اين تلك القصور والدور فيها اين ذاك البنيان ذو الإحكام  
بُدلت تلكم القصور تلالاً من رمادٍ ومن تراب ركام  
وخلت من حلولها . فهي قفر ، لا ترى العين بين تلك الإكام

١ إشارة الى انها كانت فرضة عظيمة .

غيرَ أيدي وارجلي بائناتٍ  
ووجوهٍ قد رَمَلتْها دماءُ  
وطُتْ بالهوان والذل قسراً  
فتراها تَسْفِي الرياحُ عليها  
خاشعاتٍ ، كأنها باكياتُ  
بأبي تلتكم الوجوه الدوامي  
بعد طول التبجيل والإعظام  
جارياتٍ بهبوةٍ وقتام  
باديات الثغور ، لا لابتسام

\* \* \*

أيّ خطب ، وأي رزمٍ جليل  
واحيائي منهم - اذا ما التقينا  
أي عذر لنا ، واي جواب  
يا عبادي ؟ أما غضبتم لوجهي  
أخذتكم إخوانكم ، وقعدتم  
نالنا في اولئك الاعمام  
وهم ، عند حاكم الحكام<sup>١</sup>  
حين ندعى على رؤوس الانام  
ذي الجلال العظيم والاكرام  
عنهم - ويحكم - قعود اللثام؟<sup>٢</sup>

\* \* \*

بأبي تلتكم العظام عظاما  
وعليها من المليك صلاة<sup>٣</sup>  
انفروا ايها الكرام خفافاً  
أبرموا امرهم ، وانتم نيام ،  
صدقوا ظنّ اخوة املوكم  
ادركوا نارهم ، فذاك لديهم  
لم تقرّوا العيون منهم بنصر  
انقدوا سببهم - وقلّ لهم ذا  
عارهم لازم لكم ، ايها النا  
وسقتها السماء صوب الغمام  
وسلام مؤكّد بسلام  
وثقالاً الى العبيد الطغام  
سوءة<sup>٣</sup> سوءة<sup>٣</sup> لنوم النيام<sup>٣</sup>  
ورجوكم لنوبة الايام  
مثل ردّ الارواح في الاجسام  
فاقرّوا عيونهم بانتقام  
ك - حفاظاً ورعيّة<sup>٣</sup> للذمام  
س لأن الاديان كالارحام

١ اي يوم الحساب امام الله .

٢ هذا البيت وما قبله خطاب من الله للمسلمين ثم يعود الشاعر في كل الابيات التالية يجرّضهم على مساعدة اهل البصرة والانتقام لهم من عدوهم .

٣ قضاوا امرهم وانتم في غفلة عنهم .

ان قعدتم عن اللعين فأنتم شركاء اللعين في الآثام-  
بادروه قبل الروية بالعرم ، وقبل الإسراج بالإلجام  
لا تطيلوا المقام عن جنة الخلد ، فأنتم في غير دار مقام  
فاشترروا الباقيات بالعرض الآذنى ، وبيعوا انقطاعه بالدوام

### عتابه لابي القاسم التوزي الشطرنجي

يا أخي أين ربيعُ ذاك اللقاء؟ أين ما كان بيننا من صفاء؟  
أين مصداق شاهدٍ كان يحكي أنك المخلص الصحيح الاخاء  
كشفت منك حاجتي هَنَسَواتٍ غُطَّيت برهة بحسن اللقاء  
تركتني - ولم أكن سِيء الظن - أسيء الظنون بالأصدقاء<sup>١</sup>

\* \* \*

يا أخي ! هبك لم تهب لي من سمك . حظاً كسائر البخلاء  
أفلا كان منك ردّ جميل فيه للنفس راحة من عناء؟  
يا أبا القاسم الذي كنت ارجو ه لدهري قطعت متن الرجاء  
لا اجازيك عن غرورك ايّا ي غروراً - وقيت سوء الجزاء  
أنت عيني وليس من حقّ عيني غَضٌّ اجفانها على الإقضاء  
ما بأمثال ما أتيت من الامر يحلّ الفتى ذرى العلياء  
لا ، ولا يكسب المحامد في النا س ولا يشتري جميل الثناء  
ليس من حلّ بالهلّ الذي ان ت به من ساحة ووفاء  
بذلّ الوعد للأخلاء سمحاً وابى بعد ذلك بذلّ الغناء  
فقدنا كالحلاف<sup>٢</sup> يورق للعين ن ويأبى الإثمار كل الإباء  
يا أخي ! يا أخا الدماثة والرقة والظرف والحجا والدهاء

١ أي ان حاجتي اليك كشفت لي فيك عن سيئات جعلتني بمدما أسيء الظن بالأصدقاء .  
٢ نوع من شجر الصنصاف .



ربما هالني وحيّر عقلي اخذك اللاعببين بالبأساء  
عن تدابيرك اللطاف اللواتي هنّ اخفى من مستسير الهباء  
بل من السرّ في ضمير محبّ أدبته عقوبة الافشاء  
غلط الناس لست تلعب بالشطرنج لكن بأنفس اللعباء  
لك مكر يدبّ في القوم اخفى من دبيب الغذاء في الاعضاء  
أو مسير القضاء في ظلّم الا غيب الى من يريده بالتواء  
أو سرى الشيب تحت ليل شباب مستحير في لمّة سحباء  
دبّ فيها لها ومنها اليها فاكتست لون رثّة شطاء

\* \* \*

ضلّة لامرئ يشمر في الجمع لعيش مشمر للفناء  
دائبا يكتنز القناطير للوا رث ، والعمر دائب في انقضاء  
يحسب الحظّ كله في يديه وهو منه على مدى الجوزاء  
ليس في آجل النعم له حظّ ، وما ذاق عاجل النعماء  
ذلك الخائب الشقيّ ، وإن كان يرى انه من السعداء  
حسب ذي إربة ورأي جليّ نظرت عينه بلا غلواء  
صحة الدين والجوارح والعير ض وإحراز مسكة الحوباء

\* \* \*

يا أبا القاسم الذي ليس يخفى عنه مكنون خبطة عوصاء  
أترى كل ما ذكرت جليّا وسواه من غامض الانحاء  
ثم يخفى عليك اني صديق ربما عزّ مثله بالغلاء ؟  
لا لعمر الإله ! لكن تعاشيت بصيراً في ليلة قمراء  
بل تعاميت ، غير اعمى عن الحق نهاراً في ضحوة غراء  
ظالماً لي مع الزمان الذي ابتز حقوق الكرام للتؤماء

---

١ اي حسبه صحة الدين وان يجرز ما يحفظ النفس .

ثقلت حاجتي عليك فأضحت وهي عبءٌ من فادح الاعباءِ

\* \* \*

ظلمت حاجتي فلاذت بحقوقك فاسلمتها لكفّ القضاء<sup>١</sup>  
وقضاءُ الإله احوطٌ لنا س من الامتهات والآباء  
غير ان اليقين اضحى مريضاً مريضاً باطناً شديد الخفاء

\* \* \*

كنت مستوحشاً فظهرت بنحساً زادني وحشة من الخلطاء<sup>٢</sup>  
وعزيز عليّ عضيبك باللوم م ، ولكن أصبت صدري بداء  
أنت أدويت صدر خلك فاعذر ه على النفث ، انه كالدواء<sup>٣</sup>  
ان تكن لفحة اصابتك من عذ لي ، فعمّا قدحت في الاحشاء  
والذي اطلق اللسان فعاتب تـك عديك أول الفهاء<sup>٤</sup>  
لم أخف منك غلطة حين عاتب تـك تدعو العتاب باسم الهجاء  
وانا المرء لا أسوم عتابي صاحباً غير صفوة الاصفياء  
ذا الحجبا منهم وذا الحلم والعلم - وجهل ملامة الجهلاء  
ان من لام جاهلاً لطيب يتعاطى علاج داء عيآء  
لست ممن يظلل يربع باللوم على منزل خلاء قواء

### في وحيد المغنية

وكان الشاعر يستحسنها ويستحسن غناءها

يا خليلي تيمّنتني وحيدُ ففؤادي بها مفتى عميدُ  
غادة زانها من الغصن قدّ ومن الظبي مقلتان وجيد

١ ظلمت حاجتي فتعلقت بك ولكنك فبذتها وتركتها للقضاء .

٢ كنت انا مستوحشاً من الناس فأظهرت لي من بنحس حقي ما زادني نفوراً منهم .

٣ ادويت اي امرضت .

٤ والذي أطلق لساني بعتابك اني اعدك أفهم الفهاء .

وزهاها من فرعها ومن الحدّين  
فهي بَرْدٌ بحدّها وسلام  
ما لما تصطليه من وجنتيها  
مثل ذلك الرضاب أطفأ ذلك الـ  
وغريرٍ بحسنها قال : صفها  
يسهلُ القول إنها احسن الاشـ  
تتجلى للناظرين اليها  
ظبية تسكن القلوب وترعا  
تتغنى كأنها لا تغني  
لا تراها - هناك - تجحظ عينٌ  
من مدوٍّ وليس فيه انقطاع  
مدّ في شأو صوتها نفسٌ كا  
وأرقّ الدلال والغنج منه  
فتراه يموت طوراً ويحيى  
فيه وشيٌ ، وفيه حليٌ من النغـ  
في هوى مثلها يخفّ حلِيمٌ  
ما تعاطى القلوب إلا اصابت  
وترُ العزفِ في يديها مضامٍ  
عيبها أنها - إذا غنّت الاحرارَ - ظلّوا وهم لديها عبيد  
واستزادت قلوبهم من هواها بـرقاها ، وما لديهم مزيد

\* \* \*

وحسانٍ عرضنّ لي ، قلت : مهلاً  
عن وحيدٍ ، فحققتها التوحيد

١ ان مثل ذلك الرضاب يطفىء نار الوجد لولا المنع . والتصريد التقليل .

٢ الغرير المغرور .

٣ لا تراها تتكلف وتجهد نفسها حتى تجحظ عينها وتمتلىء أوردتها فتنتفخ .

حسنها في العيون حسنٌ جديدٌ فلها في القلوب حب جديدٌ

\* \* \*

خُلقت فتنةٌ ، غِناءٌ وحسناً ما لها فيها جميعاً نديداً  
فهي نعمةٌ ، يمد منها كبيرٌ وهي بلوى ، يشيب منها وليداً  
لي - حيث انصرفت منها - رفيقٌ من هواها وحيث حلت قميداً  
عن يميني ، وعن شمالي ، وقدّا مي ، وخلفي ، فأين عنه أحميداً ؟

بعض مقطعاته الحكمية

١

في الناس

عدوك من صديقك مستفاد  
فإن الداء أكثر ما تراه  
إذا انقلب الصديق غداً عدواً  
ولو كان الكثير يطيب كانت  
ولكن قلبها استكثرت إلا  
فدع عنك الكثير فكم كثير  
وما اللجج الملاح بمرويات  
فلا تستكثرن من الصعاب  
يكون من الطعام أو الشراب  
مبيناً ، والامور الى انقلاب  
مصاحبة الكثير من الصواب  
سقطت على ذئاب في ثياب  
يُعاف وكم قليل مستطاب  
وتلقى الري في النطف العذاب

٢

في الحياة

ان السعيد لمدرِكٌ دركا  
والشر بين الناس مشترك  
وإلى الحمود مآل ذي لب  
وأخو الشقاوة فهو في الدرك  
والخير فيهم غير مشترك  
وإلى السكون متعار ذي حرك

١ ان لجج البحر مع كثرتها لا تروي وتلقى الري في القليل من المياه العذبة .

وغدا الرجال - على مكاتبهم - يتبادرون مطارح الشبك  
والعين تبصر ابن حبتها لكنها تعمى عن الشرك

٣

### في نفع الشدائد

عرفتُ مقادير الرجال بنكبة أفدتُ بها غنماً وان عُدَّ مغرماً  
كفاني لعمري أيها الناس خبرتي بكم بعد جهلي واغتراري مغناً  
ألا طال ما حملت قلبي ظالماً تكاليفَ من إعظام من ليس مُعظماً  
فقد حطَّها عني الاله بمحنة أراني بها رشدي ، وما زال منعماً

٤

### في قصر العمر

دهر يشيع سبته احده متتابع ، ما ينقضي امده  
والحال من سعد يساعداً طوراً ، ونحس معقب نكده  
يوم يُبكيها وآونة يوم يبكيها عليه غده  
نبكي على زمن ومن زمن فبكاؤنا موصولة مُدده  
ونرى مكارهنا مخلدة ، والعمرُ يذهب فانياً عدده  
أفلا سبيل إلى تبجحنا في سرمد لا ينقضي أبده  
سكرى شباب لا يعاقبه هَرَمٌ ، وعيش دائم رغده  
لا خير في عيش تسخوتنا أوقاته وتقولنا مُدده  
يُعطي الفتى الايام ينفقها وقصاصها ان يُقتوى جَلده

٥

### القناعة بالصحة

إذا ما كساك الله سربال صحة ولم تخلُ من قوت يحمل ويفرب

فلا تغبطن المترفين فانهم على حسب ما يكسوم الدهر يسلب

٦

انما المرء بنفسه

وما الحسب الموروث لا دره  
إذا العود لم يثمر - وان كان شعبة  
وانت لعمرى شعبة من ذوي العلا  
وللمجد قوم ساوروه بانفس  
فلا تتكل الا على ما فعلته  
فليس يسود المرء الا بنفسه

بمحتسب الا بآخر مكتسب  
من المثمرات - اعتده الناس في الخطب  
فلا ترض ان تعتد من أوضاع الشعب  
كرام ولم يرضوا بأمر ولا بأب  
ولا تحسبن المجد يورث بالنسب  
وان عد آباء كراماً ذوي حسب

٧

حب الوطن

وحيب اوطان الرجال اليهم  
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم

مأرب قضاهما الشباب هنالك  
عهد الصبي فيها فحنثوا لذلك

---

١ إذا الفصن لم يثمر عده الناس خطباً ولو كان أصله من شجرة مثمرة .

# المتني

ابو الطيب احمد بن حسين

٥٣٥٤ - ٥٣٠٣

٩١٦ م - ٩٦٦ م



مصادر دراسته - نشأته - في حلقة سيف الدولة - في  
بلاط مصر - بين العراق وبلاد فارس - مزاياه  
الخلقية - عصبية - شهرته الأدبية -  
شخصيته في شعره - أطوار شعره

## مصادر دراسته

الوساطة للجرجاني  
الفهرست ( ليدن ) ١٦٩  
يقيمة الدهر للثعالبي ج ١ ص ٧٨ - ١٩٤  
العمدة لابن رشيق ١ ص ٨٧ - ١٣٣ - ١٤٦ ومواضع شتى  
نزهة الالباء للانباري ٣٦٦  
وفيات الاعيان ١ - ٦٢ والرسالة الحاقمية فيه ( في سيرة الحاتمي )  
مفتاح السعادة ( لطاش كبري زاده ) طبع الهند ج ١ ص ١٩٢  
الصبح المنبي للبديعي دمشقي على هامش شرح العكبري  
خزانة الادب للبغدادي ( مصر ١٢٩٩ ) ١ ص ٣٨٢ - ٣٨٩  
ومن الشروح شرح الواحدي والعكبري واليازجي والبرقوقي .

وبما كتب فيه حديثاً :

رسالة ابراهيم اليازجي في ذيل شرحه للمتنبي  
ابو الطيب المتنبي لمحمد كمال حلمي  
حصار الهشيم للمازني ١٨٤ - ٢٢٧  
المتنبي لشفيق جبيري ، مجلة المجمع العلمي مج ١٠ ج ٥ - ١٢  
ذكرى ابي الطيب لعبد الوهاب عزام  
مع المتنبي لطفه حسين  
الانس المفيد ٣٣٠ - ٣٦٣  
المقتطف مج ١٧ - ٣٦١  
العدد الخاص بيوبيله الالفى من مجلات المقتطف ، والهلل ، والحديث  
والعصبة ، غير ما كتب في كتب التاريخ أو دوائر المعارف لكتّاب عرب  
ومستشرقين .



## نشأته الأولى

لم يكد ينتصف القرن الرابع الهجري حتى كانت الدولة العباسية تتنازعها عوامل الانحلال . فكانت دار الخلافة في بغداد بين مولد المتنبي ووفاته ، أي أيام المقتدر والقاهر والراضي والمتقي والمستكفي والمطيع تحت نفوذ بني بويه أصحاب السيادة في فارس . وكانت حلب والموصل وما إليها في يد بني حمدان ، ومصر وأكثر الشام والحجاز في يد بني طنج ، وسائر الاقطار لفسيهم من الامراء المستقلين . ولم يبق للخلافة من رونق ، وكثر الادعاء والثائرون حتى عمّت الفوضى السياسية . بين هذه الاضطرابات السياسية القومية نشأ شاعرنا ، وكان مولده في مدينة الكوفة بالعراق ، وفيها نشأ نشأته الأولى . وكان يتردد بين البادية والحضر<sup>١</sup> ، فاكسب من الأولى صلابتها ونزعها البدوية ومن الثانية علومها وثقافتها الأدبية . ولا نعلم عن صباه كثيراً ، ولكن الثعالبي الذي ولد قبل وفاة المتنبي بأربع سنوات - والذي درّس في كتابه الشهير « يتيمة الدهر » أخبار شعراء عصره ومن تقدمهم قليلاً - ذكر ان أباه سلّمه إلى المكاتب وردّه في القبائل ، وانه توفي وقد ترعرع ابو الطيب وشمر وبرع<sup>٢</sup> . ونقل البغدادي عن أبي القاسم الاصفهاني انه كان يختلف إلى كتّاب فيه أولاد اشراف الكوفة فكان يتعلّم دروس العلوية لغة وشعراً واعراباً النخ<sup>٣</sup> . ويذكر البديعي الدمشقي في الصبح المنبي انه تعلم القراءة والكتابة وانه أخذ أكثر علمه من ملازمة الورّاقين<sup>٤</sup> ( باعة الكتب ) . وفي مقدمة شرح

١ اليتيمة ج ١ - ٧٨ .

٢ اليتيمة ج ١ - ٧٩ .

٣ خزانة الادب ١ - ٣٨٢ .

٤ الصحيح المتنبي ( حل مامش المكبري ١ - ٦ ) .

اليازجي للديوان انه لقي كثيرين من اكابر علماء الادب منهم الزجّاج وابن السراج والاخفش وابن دريد وأبو علي الفارسي وغيرهم ، وتخرّج عليهم فخرج نادرة الزمان في صناعة الشعر . فيستدل من هذا ان شاعرنا تعلّم القراءة في المكاتب على عادة الصبيان ، وكان ذكياً محباً للاستزادة فلازم الورّاقين يطالع دفاترهم وحضر حلقات العلماء في زمانه .

وهناك أمر آخر نعلمه عن صباه ، وهو تردّده الى بادية السماوة واقامته زمناً بين اعرابها . ويستنتج من مختلف الروايات ان تردّده كان أولاً إلى بادية الكوفة ، ثم انتقل وهو حوالي السابعة عشرة من عمره إلى بلاد الشام . وفي هذا الطور من حياته شيء من الغموض إذ لا نراه مستقرّاً في مكان خاص ، فتارة في المدن ، وطوراً بين قبائل البادية ، يمدح بعضاً من ذوي النفوذ ، ولكنه لا يجد في مدحهم ما يروي ظمأ نفسه النزاعة إلى العلى .

وهكذا يعبس له الدهر فيشبّ ناقماً ثائراً . ويتاح له ان يتصل في البادية بقبائل بني كلب ، ويدرك نزعاتهم إلى التمرد ، فيتمكن ببلاغته وحماسة الشباب فيه من تحريكهم تحريكاً يلفت نظر الحكّام ، فيقبض عليه بأمر من والي حمص ويلقى في السجن وهو في نحو التاسعة عشرة . ولم تتحقق كم بقي فيه تماماً ، ولكننا نستنتج انه بقي فيه مدة غير يسيرة ( نحو سنتين ) . وكان أول دخوله السجن يظهر الاستخفاف بأهواله - ومن أقواله في ذلك الحين أبيات كتبها إلى صديق له يدعى أبادلف كان يتعهده وهو في السجن<sup>١</sup> :

كن أيها السجن كيف شئت فقد وطنتُ للموت نفس معترفٍ  
لو كان سكنائي فيك منقصةً لم يكن الدرّ ساكن الصدفِ  
على انه لقي في السجن عذاباً شديداً ، فقد وضعوا القيود في رجله

١ شرح الواحدي ( برلين ) ٨٠ .

وعنقه<sup>١</sup> . ولما طال اعتقاله فقد صبره فأرسل إلى الوالي قصيدة يستعطفه ويتعذر إليه بصفر سنة قال منها :

امالك رقتي ومن شأنه	هبات اللجين وعتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجاء	والموت مني كحبل الوريد
دعوتك لما براني البلاء	وأومن رجلي ثقل الحديد
وقد كان مشيها في النعال	فقد صار مشيها في القيود
تُعجّل في وجوب الحدود	وحدّي قبل وجوب السجود
وقيل عدوت على العالمين	بين ولادي وبين العقود
فما لك تقبل زور الكلام	وقدر الشهادة قدر الشهود

وهذه الابيات نفثات رجل متضايق نفذ صبره وخاف مغبة الامر ثم راح يستثير عواطف الوالي ورحمته فقال :

بيدي أيها الأمير الأريب لا شيء الا لاني غريب  
أو لأمّ لها إذا ذكرتني دم قلب بدمع عين يذوب  
ان اكن قبل ان رأيتك اخطأت فاني على يدك أتوب

قال ابن خلكان : « ثم استتابه الوالي وأطلقه<sup>٢</sup> . ولكن من أيّ شيء استتابه ؟ هنا تتضارب آراء المؤرخين . فان خلكان يجعل ادعاء النبوة سبب سجنه وقد تبعه في ذلك كثيرون ، وهو قول يحتمل الشك . فان بين معاصري ابن خلكان أو من تقدّمهم من يزعم غير ذلك بدليل قوله : « وقيل غير ذلك<sup>٣</sup> . أما الثعالبي فجعل السبب انه دعا إلى بيعته قوماً من رائي نبله ، ولما ذكر النبوة قال : « ويحكى انه تنبأ في صباه وفتن شردمة بقوة أدبه وحسن كلامه<sup>٤</sup> . وفي كلام الثعالبي إشعار بالشك في

١ الصبح النبي ١ - ٣٤ .

٢ وفيات الاعيان ١ - ٦٤ .

٣ » » » »

٤ البيتية ١ - ٨٠ .

الحكاية ، وقد نقل تعزيزاً لهذا الشك ما رواه ابن جنّي تلميذ المتنبي وشارح ديوانه إذ قال : سمعت أبا الطيب يقول انما لقبّت بالمتنبي لقولي<sup>١</sup> :

«أنا قرب الندى وربّ القوافي وسام العدى وغيظ الحسودِ

أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثود ،

وعن العمدة<sup>٢</sup> : «زعم أبو محمد عبد الكريم بن ابراهيم النهشلي ان أبا الطيب سمّي متنبياً لفطنته» .

ويتناول البديعي صاحب الصبح المنبي المتوفى ١٠٧٣ هـ ، أي بعد المتنبي بأكثر من سبعة قرون ، هذه المسألة وينقل لنا بعض حكايات عن نبوته لا يسع المتأمل الا ان يتردد في قبولها على علاقتها - أولاً لتراخي المدة بينه وبين الشاعر ، وثانياً لما فيها من الاضطراب ، وثالثاً لانه ليس في ما ذكره معاصروه ما يثبتها . والذي يصح ان نستنتجه علمياً من الروايات المختلفة ان المتنبي وهو في أوائل شبابه ظهر في البادية على رأس فئة من الاعراب ناقمة على اولي الأمر<sup>٣</sup> ، وانه كان بفطنته وفصاحته يستهويهم الى غاياته من حب الظهور والرئاسة . ولكن أمره لم يتم فآلتي القبض عليه وأودع السجن ثم خرج منه ، وما عثم ان لصق به اسم المتنبي<sup>٤</sup> .

بعد السجن الى اتصاله بسيف الدولة ( ٣٢٣ - ٣٣٧ هـ )

ولما أطلق سراحه أخذ يجول في أقطار البلاد الشامية مادحاً أعيانها . بقي

١ اليقينة ١ - ٨٠ وشرح المكبري ٢٠١ ج ١ .

٢ العمدة ١ - ٤٥ .

٣ راجع الواحدي ٨٣ وتعليقه على عمره واجتماع العصاة اليه .

٤ فلفت النظر هنا إلى رأي المستشرق بلاشير الذي يرى ان اولي الامر توهموا ان لقيامه في بني كلب علاقة بحركة القرامطة ( راجع دائرة المعارف الاسلامية - تحت المتنبي ) .

وتحقيق الاستاذ محمود شاکر أخذاً برواية الانباري ٣٦٩ ان المتنبي لم يدع النبوة بل ادعى النسب العلوي وانه لأجل ذلك حبس ثم استتيب ( المقطف مج ٨٨ ج ١ ص ٤٩ ) .

على هذه الحال بضع سنوات<sup>١</sup> ، حتى اتصل سنة ٣٢٨ بالأمير العربي بدر بن عمار وكان يتولى الجيش في طبريا ، فلزمه ومدحه ، وقد رأى فيه ضالته المنشودة من كرم ورجولة ومجد قومي . ولكن اتصاله به لم يطل<sup>٢</sup> ، فقد دخلت بينها مكاید الحساد والمناوئين حتى اضطر إلى تركه والرجوع إلى ما كان عليه من التنقل في الاقطار . وله في هذه المدة من الشعر ما يكاد يبلغ نصف ديوانه وأهم ممدوحيه فيها :

بدر بن عمار ٦ قصائد . آل اسحق التنوخي ٧ . ابناء يحيى البحتري ٣ قصائد . عبد الله بن خلكان ٢ . شجاع الطائي ٢ . مساور الرومي ٢ . المقيث المعجلي ٢ . علي بن محمد التميمي ٢ . الأمير محمد بن طغج وأبو المشائر الحمداني ٦ ونحو ٢٥ ممدوحاً قصيدة قصيدة .

وشعره في بعض هؤلاء من الطبقة الاولى - كقصائده التالية :

في الحد ان عزم الخليط رحيلاً  
بقائي شاء ليس هم ارتحالاً  
لا افتخار الا لمن لا يضام  
افاضل الناس اغراض لذا الزمن  
لك يا منازل في القلوب منازل  
اطاعن خيلاً من فوارسها الدهر  
بأبي الشموس الجانحات غوارباً

وغير ذلك من القصائد العامرة التي يرددها الخاص والعام في كل مكان . على انه لم ينل في هذه السنوات ما يستحق الذكر . وما زال هذا دأبه يتنقل من مكان إلى آخر حتى القته المقادير إلى انطاكية . وكان فيها أبو المشائر الحمداني والياً من قبل سيف الدولة ، فمدحه المتنبي . ولحسن حظه قدم انطاكية في تلك الاثناء سيف الدولة ، فقدم أبو المشائر المتنبي

١ زار في أثناءها الكوفة وبقي فيها مدة بقرب جدته .

٢ لعله لم يكن أكثر من سلتين إلى ثلاث .

اليه وأثنى عليه ، وكان ذلك بدء اتصاله بهذا الأمير الشهير ، وبدء سعادته من جاه ومال وفير .

### في حلقة سيف الدولة ( ٣٣٧ - ٥٣٤٦ )

كانت حلب أيام المتنبي عاصمة لامارة عربية تشمل الجزيرة وشمال سوريا ، أميرها علي بن حمدان الملقب بسيف الدولة . وقد اشتهر هذا الأمير بجهاده في محاربة الروم حتى بلغت غزواته نحو اربعين<sup>١</sup> . وكانت ساحة جهاده منطقة الثغور - أي المدن والحصون الواقعة على حدود الروم (الاناضول) ، ومنها انطاكية وزبّطره وملطيه والحدث وخرشنة ومرعش وغيرها ، مما يرد ذكره كثيراً في شعر المتنبي . ولم يكن سيف الدولة موفقاً في كل غزواته الرومية ، ولكنه احرز في تاريخ العرب مجد المجاهد الكبير . والذي يلفت النظر تنازع امراء المسلمين أنفسهم يومئذ وتناحرهم على السيادة . فبنو حمدان في حلب ، وامراء مصر الاخشيدية ، وبنو بويه في بغداد كانوا في نزاع مستمر وعداوة مستحكمة . وقد تمكن سيف الدولة بسخائه وعطفه على الادب ولكون امارته موثلاً الروح العربية في ذلك العصر ، ان يجمع حوله حلقة من كبار الادباء والعلماء ممن كان يجزل لهم العطايا ، فخلدوا اسمه في سماء الادب . ومن هؤلاء ابن عمه ابو فراس ، ومعلمه ابن خالويه ، وابو الفرج البغفاء ، وابو عبد الله الخليل ، والوأواء الدمشقي ، وابو بكر وابو عثمان الخالديان ، وابو الطيب اللغوي ، والسري الرفاء ، وابو علي الفارسي ، وابن نباتة ، ثم ابو الطيب المتنبي ، والصنوبري ، والفارابي ، والاصفهاني صاحب الاغاني وأمثالهم .

ولما اتصل به شاعرنا نال الحظوة عنده والرعاية الخاصة : جاء في الصباح المنبى ان سيف الدولة قرّبه وأجازته الجوائز السنّية ، ومالت نفسه اليه

---

١ اليقظة ١ - ١٧ .

وأحبه ، فسلمه للرواض فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة<sup>١</sup> وقد صحب  
المتنبي أميره في بعض غزواته وأظهر من الفروسية والشجاعة ما يذكر  
له : روى انه في إحدى تلك الغزوات تراجع الجيش ولم يثبت غير  
سيف الدولة وستة رجال أحدهم المتنبي<sup>٢</sup> . وقد يشك في هذه الرواية  
ولكن مما لا شك فيه ان شعره يفيض بروح الشجاعة والاقدام ، ولا  
نرى في حياته ما يناقض ذلك .

\* \* \*

دخل المتنبي حلقة سيف الدولة ، وفيها من ذكرنا من كبار الشعراء  
والادباء ، فشق على نفر منهم ان ينال ما ناله من الامير ، وزاد غيرتهم  
منه وكرههم له ما في نفسه من صلابة وتعاظم . وانك لتلمح في شعره  
ما كان يقاسيه منهم ، وقد اضطر ان يطعنهم بقوافيه كقوله :

ازل حسد الحساد عني بكبتهم فانت الذي صيرتهم لي حسدا  
وقوله :

اني كل يوم تحت ضبني شويعر ضعيف يقاويني قصير يطاول  
وقوله :

بأي لفظ تقول الشعر زِعْنفة تجوز عندك لا عُرْب ولا عجم  
الى غير ذلك من سمات التحقير التي قلما تخلو منها قصيدة من قصائده  
في سيف الدولة . ولم يكن حساده ليسكتوا عنه ، فاخذوا يكيّدون له  
ويحاولون الايقاع به ، ولا سيما ابو فراس الشاعر المشهور<sup>٣</sup> . فمن ذلك  
ما نقله البديعي عن ابن الدهان في المآخذ الكندية : « قال ابو فراس  
لسيف الدولة ان هذا المسمي كثير الإدلال عليك ، وانت تعطيه في كل  
سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاثة قصائد ، ويمكن ان تفرّق مثني دينار

١ راجع الصبح المتنبي ١ - ٥٤ .

٢ راجع الصبح المتنبي ١ - ٥٥ .

٣ يرى الاستاذ محمود شاكر ان المتنبي كان يجب خولة أخت سيف الدولة وان سيف الدولة وعده  
سراً بها فاتصل ذلك بعلم ابي فراس وكان سبباً في العداوة بين الرجلين ، المقتطف مج ٨٨

ج ١ ص ١٣٤ .

على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره<sup>١</sup> ، ( وفي خزانة الادب ان ما ناله في اربع سنوات بلغ ٣٥ الف دينار<sup>٢</sup> ) - فتأثر سيف الدولة من هذا الكلام وعمل به .

فسيف الدولة بعد ان خص الشاعر بالعطف ، وبعد ان نظم الشاعر فيه نحو ٤٨ قصيدة عامرة ( وهي لا تقل عن ثلث ديوانه ) تولاّه الحراف عنه وأصغى الى أقوال خصومه فيه . ولم يُجدِ الشاعر استعطافه وتنويهه بالرحيل عنه ، فتجرأوا عليه حتى كان ما كان من ضرب ابن خالويه له بالفتح في حضرة سيف الدولة . ورأى المتنبي انه لا يستطيع دفاعاً وانتقاماً في حضرة أمير نافر منه ، وخصوم يتربصون به ، فترك حلب بدعوى المسير الى اقطاع له<sup>٣</sup> ، وفي نفسه ما فيها من الغيظ ، وقصد الشام فالرملة . ثم طلبه كافر الى مصر فتلكتاً أولاً ، على انه لم يلبث ان رحل اليه ونفسه تسوّل له انه سيبلغ هناك من المجد ما يغيظ الحاسدين - وقد صرح بذلك إذ قال :

أبا المسك ارجو منك نصراً على العدى وآمل عزّاً يخضب البيض بالدم  
ويومئاً يغيظ الحاسدين وحالةً اقيم الشقا فيها مقام التنعم  
ولكنه لم يبلغ ما كان يروم .

### في مصر ( ٣٤٦ - ٥٣٥٠ )

مر معنا ان مصر كانت في يد الاخشيدية بني طفج ، وهم امراء يرجع نسبهم الى ملوك فرغانة . ولما هبط المتنبي مصر كان أميرها الحقيقي قاصراً ، وقيّم المملكة الاستاذ كافر ، وهو عبد اسود كان مولى لبني طفج ، ولكنه كان - على ما يظهر - داهية ، فاستبد بامور مصر واصبح هو الأمر الناهي

١ راجع الصبح النبوي ١ - ٦٥ .

٢ خزانة الادب ١ - ٣٨٤ .

٣ خزانة الادب ١ - ٣٨٤ .



او كما قال شاعرنا فيه :

يدبّر الملك من مصر الى عدن الى العراق فارض الروم فالنثوب  
قال ابن خلكان : « وكان يدعى له على المنابر بمكة والحجاز جميعه  
والديار المصرية وبلاد الشام » .

قصد شاعرنا كافوراً تتنازعه عاطفتان : الاولى ما كان يشعر به من  
الغيظ لما أصابه في حلب ، والثانية رغبته ان يحصل بواسطة كافور على  
ولاية . أما غيظه من سيف الدولة فلم يصل الى حد الكره ، إذ بقيت  
في نفسه بقية من الحب والوفاء له . وقد صرّح بذلك في بعض قصائده  
لكافور كقوله :

فلو كان ما بي من حبيب مقنّع عذرت ولكن من حبيب معتم  
رمى واتقى رميي ومن دون ما اتقى هوى كاسر كفي وقوسي واسهمي

ولذا وصف الثعالي شعره : « يجال الرمز والاشارة كجمعه بين مدح  
سيف الدولة حين فارقه ومدحه لكافور » . واما رغبته في الولاية  
والامارة فكان يلتمح اليها تلميحاً لم يخف على أحد كقوله :

وما رغبتي في عسجد استفيده ولكنها في مفخر أستجده  
وقوله :

وغير كثير ان يزورك راجل فيرجع ملكاً للعراقين واليا  
وقوله :

قالوا هجرت اليه الغيث قلت لهم إلى غيوث يديه والشآبيب  
إلى الذي تهب الدولات راحته ولا يمنّ على آثار موهوب  
إلى غير ذلك من الابيات التي تُشعر بما كان يتطالّ اليه وما كان يحدث  
نفسه به .

وقد نقل البديعي انه طلب ان يوليه صيدا من بلاد الشام ، أو غيرها

١ رفيات الاحيان ٢ - ١٨٨ . راجع سيرته في خطط القريري ٢ - ٢٦ .

٢ اليتيمة ١ - ١٥٨ .

من بلاد الصعيد<sup>١</sup> .

وبين هاتين العاطفتين - الغيظ والطمع - مدح كافور بعشر قصائد  
من من أفخر ما نظمه وسيأتي ذكرها .

على ان اتصاله بهذا الامير لم ينله مراده . نعم نال منه كثيراً من  
الخلع والجوائز والاموال ، ولكن الامر الذي كان يصبو اليه ، تلك  
الامنية التي شغلت عقله - ولا سيما بعد ان وعده كافور بأن يبلغه جميع  
ما في نفسه<sup>٢</sup> لم يأنس في وجه ممدوحه غير الاعراض عنها ، فاضطربت  
روحه حتى صار يستثقل وجوده في مصر ويتمنى الخروج منها .

ولحظ ذلك منه كافور فخاف ان هو أطلقه ان ينقلب عليه بالطمع ،  
وهو المستبد بحكم مصر دون مليكها الحقيقي ، فمنعه من الرحيل .  
وظل على هذه الحالة المزعجة سنته الاخيرة في مصر لا يلقي كافوراً الا  
ان يركب فيسير معه في الطريق لثلا يوحشه<sup>٣</sup> . وله في ذلك قصيدة  
غراء يصف بها حاله ويصف حى اصابته ، مطلعها :

ملومكما يحلّ عن الملام ووقع فعاله فوق الكلام

وهي من بدائعه وسيرد ذكرها . وكان في ذلك يعدّ العدة للهرب  
حتى تمكن منه يوم عرفة سنة ٨٣٥٠ ، فقصد العراق ووصف مسيره  
بقصيدة مطلعها :

الا كلّ ماشية الخيزلي فدى كل ماشية الهيدبي

وفيهما يعدّ الاماكن التي مرّ بها ، ويصف شجاعته واقدامه بأبيات  
تنضح بالكبر كقوله :

لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواضم اني الفتى

١ الصبح المنبي ١ - ١١٥ .

٢ الصبح المنبي ١ - ١١٣ وفيات الاهيان ١ - ٦٤ وفي العمدة ١٠ - ٤٥ انه وعده  
بولاية بعض أعماله .

٣ شرح اليازجي ٥٤٨ .

واني وفيتُ واني أبيتُ واني عتوت على من عتا  
ومن يك قلبٌ كقلبي له يشقُّ الى العزِّ قلب التّوى  
ثم يختمها بهجاء كافور . وله في هجائه بضع قصائد اوحاها اليه حب  
التشفي والفشل .

### بين العراق وبلاد فارس - خاتمة حياته (٣٥٠ - ٣٥٤ هـ)

ترك مصر في أواخر ٣٥٠ هـ قاصداً الكوفة فوصلها في جمادى ٣٥١  
وأقام فيها<sup>١</sup> ، ثم أمَّ بغداد . ولا نعلم متى كان ذلك بالضبط ، ولكننا  
نعلم انه بقي في العراق نحو ثلاث سنوات - والارجح انه قضى منها  
سنتين في الكوفة . وكانت بغداد يومئذ بيد معز الدولة البويهى ، وكان  
وزيره المهلبى يأمل ان يقصده المتنبى ويمدحه اسوة بالكبراء الذين  
مدحهم ، ولكن الشاعر ترفع عنه « ذهاباً لنفسه » كما قال الثعالبي  
« عن مدح غير الملوك<sup>٢</sup> » ، أو لنفوره من سخافة المهلبى واستهتاره  
بالهزل<sup>٣</sup> . فنقم الوزير ذلك منه وحرّض عليه شعراء بغداد حتى نالوا  
منه وتباروا في هجائه وتماجنوا وتنادروا ، فلم يجيبهم ولم يفكر فيهم<sup>٤</sup> .  
وقيل له في ذلك ، فقال : « انى فرغت من إصابتهم بقولي لمن هم  
أرفع طبقةً منهم في الشعراء :

أرى الملتشاعرين غُرّوا بذمتي ومن ذا يحمد الداء العُضالا  
ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مرّاً به الماء الزلالا  
وبقولي :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل  
قال ابن رشيق : « ان المتنبى حين بُلي بحماقات ابن حجّاج البغدادي

١ الصبح المنبى ١ - ١٤٤ .

٢ اليقظة ١ - ٨٥ .

٣ خزانة الادب ١ - ٣٨٦ .

٤ اليقظة ١ - ٨٥ .

سكت عنه اطّراحاً واحتقاراً ، ولو أجابة لما كان هو بحيث هو من الأنفة والكبر ، لأنه ليس من انداده ولا من طبقته <sup>١</sup> .

وجرت له مع ابي علي الحاتميّ حادثة ذكرها ابن خلّكان في سيرة الحاتمي وذكورها البديعي في الصبح المنبي ، وسيرد ذكرها في كلامنا على اخلاقه .

ولما لم يطب مقامه في بغداد فارقها ليلاً متوجّهاً الى ابي الفضل ابن العميد مراغماً للوزير المهلبي ، فورد ارتجان ومدح ابن العميد بأربع قصائد واحمد مورده عنده .

وكان للصاحب ابن عباد يطمع في زيارة المتنبي اياه في اصبهان ، واجرائه مجرى مقصوده من رؤساء الزمان ، وهو اذ ذاك شاب وحاله حويّلة ، ولم يكن قد استؤزر بعد ، فكتب اليه يلاطفه ، لكن المتنبي لم يقم له وزناً ولم يجبه عن مراده <sup>٢</sup> فكان ذلك سبب عداوة الصاحب له والطمع فيه ، والنشائه رسالة في مساويء شعره .

وسار شاعرنا الى شيراز قاصداً عضد الدولة فتلقاه بالترحيب . ونظم المتنبي فيه ثماني قصائد ، فأجزل له العطاء ثم رجع من شيراز بثروة كبيرة تبلغ مئتي الف درهم ، ما عدا الخلع والهدايا والتحف <sup>٣</sup> . وفي طريقه الى الكوفة خرج عليه فاتك الأسدي في نحو عشرين من رجاله وكان مع المتنبي ابنه محمّد ونفر من غلمانه وجمال تحمل أمواله وتحفه ، فجرت بينهم موقعة انتهت بمقتل الشاعر وابنه وبعض أتباعه . هكذا قضى أبو الطيب . وعلى مقربة من سواد بغداد وفي رمضان من سنة ٣٥٤ هـ خمدت تلك النفس التي نشأت نزاعة الى المجد ، حريصة على غرور الدنيا ، فعملت صاحبها تارة على تجشّم الاموال والضرب في الآفاق ، وطوراً على

١ الممددة ١ - ٧١ .

٢ اليبسية ١ - ٨٦ .

٣ الصبح المنبي ١ - ٢٢١ .

الوقوف في أبواب الملوك والامراء طمعاً في « مفخر يستجدّه » أو جاه يناله . ولكنه آب بالفشل وترك لنا بفشله من الحكم البالغة ما لا تزال ألسنة الزمان تردده في كل مكان .

### مزاياه الخلقية

برغم ما كان يظهر في شعر المتنبي من التزلف والاستجداء ، وبرغم بعض مساوئه التي قلما يخلو منها انسان ، نرى له صفة عامة تتخلل جميع صفاته وتنجلي لنا عند التأمل في ذاته ، وأهم ظواهرها : التعاضم والطمع بالمجد مقرونين بشيء من عدم الكياسة . واليك بيان ذلك :

### تعاضمه او اعتداده بنفسه

لم يكن المتنبي وحيداً بين الشعراء في هذه المزية ، ولكنه بلغ منها ما لم يبلغه سواه حتى ولا ابو تمام . وفي اخباره شواهد لا تترك للشك مجالاً . منها ما يلي :

١ - انه لما اتصل بسيف الدولة اشترط عليه ان لا ينشده الا وهو قاعد وان لا يقبل الارض بين يديه<sup>١</sup> وقد ذكر ابن خلكان انه لما انشد قصيدته « لكل امرىء من دهره ما تعودا » قال بعض الحاضرين يريد ان يكيد : « لو انشدها قائماً لأسمع » ، فقال ابو الطيب : « اما سمعت اولها : لكل امرىء من دهره ما تعودا »<sup>٢</sup> .

ويظهر مما نقله البديعي : ان سيف الدولة كان حيناً يفتاظ من تعاضمه ، ويحفو عليه اذا كلمه<sup>٣</sup> . ولعل لذلك علاقة بنجاح اعدائه في تنفيذ الامير منه ، كما ان لفشله في مصر علاقة بما كان يراه كافور من تعاليه

١ الصبح المنبي ١ - ٤٧ .

٢ رفيات الاعيان ١ - ٦٦ .

٣ الصبح المنبي ١ - ٧٣ .

في شعره ١ .

٢ - سوء سياسته وعدم مداراته . فانه بعد ان كان أيام خوله يمدح القريب والبعيد ويصطاد كما قال الثعالبي « ما بين الكركي والعندليب ٢ » ، أخذت تزعجة الكبر تشتد فيه حتى صار في ابّان شهرته يترفع عن غير الملوك والامراء ، وينظر الى سواه نظر الكبير الى الصغير ، وكان ابو علي الفارسي يستثقله لما يأخذ به نفسه من الكبر ٣ : ومن شواهد ذلك ما جرى له مع وزير كافور ومع الوزير المهلبّي والصاحب ابن عباد وسواهم .

ومن رسالة الحاتمي يلمح ما كان يرى فيه زملاؤه من روح التشامخ . وهذه الرسالة كتبت في مساوىء المتنبي ، وكاتبها من أدباء بغداد الذين أغرامهم المهلبّي به . قال صاحبها : « لما ورد أحمد بن الحسين المتنبي مدينة السلام منصرفاً عن مصر ومتعرضاً للوزير ابي محمد المهلبّي التحف رداء الكبر وأذال ذبول التيه ، ونأى بجانبه استكباراً ، وثنى عطفه جبريئةً وازوراراً ، فكان لا يلاقي احداً الا أعرض عنه تيباً ، وزخرف القول عليه تمويهاً - يخيل عجباً اليه ان الادب مقصور عليه ، وان الشعر بحر لم يرد غير مائه غيره ... فغبر جارياً على هذه الوتيرة مدة مديدة » الى ان يقول : « وثقلت وطأته على كثير ممن وسم نفسه بميسم الادب . وساء معزّ الدولة احمد بن بويه ان يرد حضرته ، وهي دار الخلافة ومستقر العز وبيضة الملك ، رجل صدر عن حضرة سيف الدولة بن حمدان - وكان عدواً مبيناً لعز الدولة - فلا يلقي احداً بمملكته يساويه في صناعته . وتخيل الوزير المهلبّي رجماً بالغيب ان احداً لا يستطيع مساجلته ولا يرى نفسه كفواً له ... فنهدت له متبعماً عواره ومقلماً اظفاره » .

ثم يذكر انه قصده على بغلة سفواء في موكب رائع ، وان المتنبي

١ وفيات الاعيان ١ - ٦٤ .

٢ اليتيمة ١ - ٨٢ .

٣ الصبح المنبي ١ - ٢١٠ .

لما رآه داخلاً وأرى شخصه لكي لا يقف له . ثم يصف كيف قوبل هو بالترحيب والتكريم ، وان المتني لما دخل جلس في صدر المكان ، واعرض عن الحاتمي وابي الا زوراراً واستكباراً ، حتى ما كان بينها من المناقشة والمساجلة . والرسالة طويلة تدخل في نحو ١٢ كراسة ، وقد نقل ابن خلكان قسماً منها ، وكذلك البديعي في الصبح المنبي <sup>١</sup> .

وقال البديعي : « كان الرجل سيء الرأي ، وسوء رأيه اخرجته من حضرة سيف الدولة ، وشدة تعرضه لعداوة الناس <sup>٢</sup> » .

ولا شك ان الحسد وحده لم يكن السبب في عداوة أدباء حلب أو بغداد له ، ولو كان المتني على شيء من اللطف لما وصل الى ما وصل اليه : ففي طبعه كما قال ابن رشيق غلظة <sup>٣</sup> ، وفي شعره ترى هذا الخلق ظاهراً في كل أدوار حياته .

٣ - شعوره بالتفوق .

ومن رسالة الحاتمي المار ذكرها يظهر لك اثر هذا الشعور في نفوس البغداديين - قال الثعالبي : « كان يخاطب الملوك مخاطبة الصديق والمحبوب ، وهو مذهب تفرّد به رفعاً لنفسه عن درجة الشعراء <sup>٤</sup> » . فمن قوله في صباه :

أمطُ عنك تشبيهي بما وكأنا فما أحدٌ فوقي ولا أحدٌ مثلي

وقوله :

ان اكن معجباً فعجب عجبٍ لم يجد فوق نفسه من مزيد  
كبرياء ولدت فيه وظهرت في صباه فرافقتة الى آخر حياته . وديوانه مشبع بهذه الروح - ماتت جدته فاضطرب لموتها ورثاها فلم يتمالك عن

١ وفيات الاعيان ٢ - ٣٣٢ وهامش شرح العكبري ١ ص ١٤٤ - ١٧٣ .

٢ الصبح المنبي ١ - ١٢٣ .

٣ العمدة ١٣٣ .

٤ اليتيمة ١ - ١٣٩ .

ان يصيح في وجه الزمان :

لئن لذت يوم الشامتين بيومها لقد ولدت مني لأنفهم رغباً  
تغرب لا مستعظماً غير نفسه ولا قابلاً الا لخالقه حكماً  
يقولون لي ما انت في كل بلدة وما تبغني؟ ما ابتغني جل ان يُسمى  
كأن بنبيهم عالمون بأني جلوب اليهم من معادنه اليتام  
واني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنف ان تسكن اللحم والعظما  
كذا انا يا دنيا اذا شئت فاذهبي ويانفس زيدي في كراحتها قدما  
فلا عبرت بي ساعة لا تغزني ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما

ومدح ابا سهل الانطاكي فلم يلبث حتى تغلب عليه طبعه فقال  
ابدو فيسجد من بالسوء يذكرني فلا اعاتبه صفحاً وإهوانا  
وهكذا كنت في أهلي وفي وطني ان النفيس غريب اينما كانا  
بحسد الفضل مكذوب على اثرى القى الكمي ويلقاني اذا حانا

وهذا الشعور بالتفوق كثيراً ما يظهر في شاعرنا بمظهر الشجاعة البالغة  
حدّ التهور . انظر اليه في مجلس سيف الدولة - في جو مشبع بروح  
العداء له وحوله خصوم الداء كأبي فراس وابن خالويه وأضرابهما ،  
وقد حملوا سيف الدولة على الاعراض عنه وسوء الظن به ، فلم ينخفض  
له جناح ، ولم تستول عليه رهبة ، بل عاتب الامير ثم أشار الى من  
حوله وقال بنفس تقيض كبراً :

سيعلم الجمع من ضم مجلسنا بأنني خير من تسمى به قدم  
أنا الذي نظر الاعمى الى أدبي واسمعت كلماتي من به صمم  
وجاهل مدّه في جهله ضحكي حتى اتته يد فراءة وفهم  
اذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظن ان الليث يبتسم  
كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم  
ما ابعد العيب والنقصان من شرفي انا الثريتا وذان الشيب والهزم



ومنها يلمح بعزمه على الرحيل :  
لئن تركنا ضميراً عن ميامنا ليحدثن لمن ودّعته ندم  
وهذه القصيدة شهيرة وفيها تتجلى نفسية هذا الرجل الغريبة .

ومن أدلة شجاعته بل تهوّره ما ذكره ابو نصر الجبلي للخالديين عن  
مقتله ، والرجل شاهد عيان رأى الشاعر قبيل مقتله وحادثه ، وقد حذّره من  
فاتك الاسدي ورجاله ونصح له ان يستصحب معه من يخفّره ، فأجابته  
المتنبي : « والله لا ارضى ان يتحدث الناس اني سرت في خفارة احد غير  
سيفي - معاذ الله ان اشغل فكري بهم لحظة عين » . قال فقلت له قل :  
ان شاء الله . فقال : « هي كلمة مقولة لا تدفع مقضياً ولا تستجلب  
آتياً » ، ثم ركب فكان آخر المهجد به . ذكر ذلك البديعي في حديث  
طويل<sup>١</sup> . وقد حاول بعضهم ان ينسب اليه الخوف والحذر ولكن سيرته  
لا تدل على ذلك ، وقد صدق الباقلاني اذ قال : « وكان المتنبي من  
اهل الشجاعة<sup>٢</sup> » .

### طموحه الى المجد

خلق المتنبي طموحاً الى المراتب العالية طامعاً بالحصول على مجد الدنيا .  
أهمّ بشيء والليالي كأنها تطاردني عن كونه وأطارده  
وحيد من الخلان في كل بلدة اذا عظم المطلوب قلّ المساعد  
صفة ظاهرة في كل حركاته وأقواله : فمنذ كان فتى في السابعة عشرة  
من عمره يحدثنا شاهد عيان بهذيانه في ذلك<sup>٣</sup> . وما الحركة التي سجن  
لاجلها إلا دليل على هذه النزعة في نفسه . ولما فشل في اول عهده فحوّل  
نظره الى المال ، والى وجوب حشده لا بخلا او حباً بالمال لنفسه ،

١ الصبح المنبي ج ١ من ٢٢٨ - ٢٢٩ .

٢ اعجاز القرآن ١٢٤ .

٣ الصبح المنبي ١ - ٢٥ .

ولكن توصلنا به الى غاياته . ولعلته تذكر حادثة جرت له في الكوفة وهو غلام رواها البديعي في الصبح المنبي<sup>١</sup> . وخلصتها انه اراد ان يشتري بطيخاً من بائع فلما ساومه على الثمن جبهه البائع واحتقره ، ثم جاء تاجر غني فرحّب به البائع وباعه البطيخ محمولاً الى البيت بأبخس مما عرض عليه المتنبي . ولما رجع كلمه المتنبي في ذلك فقال : اسكت ، هذا يملك مئة الف دينار . فوقع في نفس شاعرنا من ذلك الحين حب المال والحرص عليه ، وان الناس لا يحترمون غير صاحبه . وفي شعره ما يدل على ما كان في نفسه من ذلك كقوله :

واتعب خلق الله من زاد مته وقصر عما تشتهي النفس وجده  
فلا ينحلل في المجد مالك كله فينحلّ مجدك بالمال عقده  
ودبره تدبير الذي المجد كفه اذا حارب الاعداء والموت زنده  
فلا محد في الدنيا لمن قلّ ماله ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده

وقد ذكروا بعض حكايات عن حرصه وجشعه<sup>٢</sup> ، ولكنها عند التدقيق لا تدلّ إلا على حزمه وحسن تقديره للمال ومعرفته بأحوال الدنيا . ولعل بعضها من تليفق حساده كقصته مع سيف الدولة ، رؤيت عن ابي الفرج الببغا وصوّر فيها المتنبي أولاً رجلاً ذا كبر وابهاء لا يمدّ يده كما فعل سائر الشعراء ، ثم تتغير الصورة بغتة فيظهر فيها دينياً جشعاً - كل ذلك في مدة لا تتجاوز الدقائق القليلة .

كلا لم يكن المتنبي حشاداً للمال مخافة الفقر وقد قال :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

ولكنه كان يعرف قيمته وتأثيره في اكرام الناس له . كان شاعرنا معجباً بنفسه حريصاً ان يعجب الناس بها ايضاً ، ورأى في المال وسيلة لبلوغ ذلك فصار بعد خروجه من السجن يجوب الاقطار للحصول عليه ، ولكنه بقي

١ الصبح المنبي ١ - ٨٣ .

٢ اليتيمة ١ - ٨٥ والصبح المنبي ١ ص ٧٣ - ٨٣ .

حتى اتصاله بسيف الدولة لا ينال من ممدوحيه الا الشيء اليسير . ورأى سني شبابه تطوى على الفقر والفشل فغلب عليه الكدر من الناس ولا سيما اولي الامر منهم ، وكثر تشكّيه من الزمان واشتداده عليه ، فظهر ذلك في شعره كما سيحيى .

ولما اتصل بسيف الدولة أخذت الدنيا تبتسم له ، ونال عند ممدوحه ما كان يصبو اليه من كرامة ومال ، فطابت نفسه وقصر شعره على ذلك الامير العربي يصف غزواته ويمدح اخلاقه . وباقبال الدنيا عليه لم يخمد في نفسه ذلك الكبر الذي طبع عليه ، فكثر حساده ومبغضوه . ولم يكن دمثاً أو لين العريكة بل غلبت عليه صلابه الرأي ، مما أدى الى فتور الامير نحوه واشتداد الحساد عليه ، فاضطر كما ذكرنا الى ترك حلب وقصد مصر طامعاً بالمجد عن طريق الامارة - وقد مرّ بنا ما كان من أمره في مصر ثم بالعراق وفارس .

ولم يكن فشله في مصر كافياً للقضاء على آماله قضاءً مبرماً ، ولكنه شلّ مطامعه الى حين ، ودفعه الى استجهاج القوي في الكوفة وبغداد نحواً من ثلاث سنوات .

ثم تراءت له فارس ورأى الفرصة السانحة فقصد عضد الدولة ورأى في حضرته ما جدد آماله . ولا نعلم ما كان يدور في خلدّه يومئذ ، وقد نال الغنى الوافر وأصبحت شهرته تملأ الخفافين . يحدثنا المؤرخون انه ترك عضد الدولة قاصداً الكوفة - لأي غرض ؟ لا ندري . ولكن البديعي يروي في الصبح المنبى<sup>١</sup> انه استأذن عضد الدولة في المسير ليقضي حوائج في نفسه ثم يعود اليه فاذن له . فما الذي كانت تسوّل له نفسه ؟ وما كان يؤمل ان يبلغه على يد هذا الملك البويهي الكبير ؟ ذلك ما أسدل عليه الحمام حجاباً لا سبيل الى نفاذه .

---

١ هامش المكبري ١ - ٢٢٢ .

### عصبية ونسبه

في نفس المتنبي وفي شعره نزعة عربية شديدة . ولا غرابة فهو عربي يعني ينتمي الى قبيلة جُففى من جهة الاب وهدان من جهة الام . زد على ذلك انه كان في عصر ضعفته فيه شوكة العرب واصبحت اكثر البلدان الاسلامية في ايدي أمراء من الفرس والترك ، فأوقد ذلك في نفوس العرب غيرة قومية زادها اضطراراً تلك المشادة بين الشعوبية والعربية ، وما كان يرمي اليه الفريقان من الانفراد بالذكر والفخر : ولا نعلم هل كان شاعرنا من الذين اشتبكوا في هذه المعركة الكلامية ام لا ، ولكننا نعلم انه كان متعصباً للعرب والحياة العربية . وقد قوى هذا التعصب فيه اقامته في البادية مدة طويلة وتعود عاداتها ، ثم اتصاله بسيف الدولة زعيم العرب في عصره . ولذا يكثر في شعره الفخر بأصله العربي ودم الاعاجم ، كقوله وقد جرى ذكر ما بين العرب والاكراد من الفضل ، فقال مخاطباً سيف الدولة :

ان كنت عن خير الانام سائلا فخيرهم اكثرهم فضائلا  
من كنت منهم يا همام وائلا الطاعنين في الوغى اوائلا  
والعاذلين في الندى العواذلا قد فضلوا بفضلك القبائلا

وفي قصائده لسيف الدولة تراه يكرر كثيراً ذكر العرب مفاخرأ بهم كقوله :

رفعت بك العرب العماد وصيرت قم الملوك مـواقد النيران  
انساب فخرهم اليك وإنما انساب اصلهم الى عدنان  
ومثل ذلك كثير في شعره . ومن أمثلة تعصبه للعرب قوله يمدح علي ابن ابرهيم التنوخي :

احق عاف بدمعك الهمم احدث شيء عهداً بها القدم  
وانما الناس بالملوك وما تصلح عرب ملوكها عجم

لا أدبٌ عندهم ولا حسب ولا عهد لهم ولا ذمم  
لكل أرض وطئتها امم تُرعى بعبد كأنها غنم

وتظهر نزعتة البدوية في مدحه للاعرابيّات ومقابلتهن بالحضريات ، وله  
في ذلك أبيات مشهورة نذكر بعضها هنا وهي من قصيدته « من الجآذر  
في زي الاعاريب » :

ما اوجه الحضرمستحسنات به كأوجه البدويات الرعايبِ  
حسن الحضارة محبوب بتطرية وفي البداوة حسن غير محبوب  
أين المعيز من الآرام ناظرةً وغير ناظرة في الحسن والطيب  
افدي ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب  
وقوله :

إن الذين اقمتم وارتحلوا أيامهم بديارهم دول  
الحسن يرحل حيثما رحلوا معهم ، وينزل حيثما نزلوا  
في مقلتي رشاً تديرهما بدوية فتلت بها الحلل  
تشكو المطاعم طول هجرتها وصدودها ومن الذي تصل ؟  
ما اسأرت في القعب من لبن تركته وهو المسك والعسل

فالمتنبي يثقل في شعره عواطف العرب ونخيلاتهم ، وهو كثير التحنان  
الى معيشتهم فخور بنسبه اليهم ( وقد دعا نفسه في قصيدته - مغاني  
الشعب - « الفتى العربي » ) . يرى في فرسانهم منتهى الشجاعة وفي حسانهم  
غاية الجمال . فتراه من هذا القبيل يخالف ابا نواس وسواه من الذين عاشروا  
الجواري الاعجميات وانغمسوا في اللهو مغبين .

وعلى ذكر الجواري واللهو نقول انك لا تجهد في حياة المتنبي او شعره  
ما يدل على ميل الى ترف او عبث ، فقد عاش منذ صباه جاداً رزيناً  
لا يهتم بما كان يهتم به اكثر الشعراء من شرب مدام او مفازلة حسان ،  
او انصراف الى المطربات من الالحان .

كقوله :

وغير فؤادي للغواني رميَّةً      و غير بتاني للزجاج ركاب<sup>١</sup>  
تركنا لاطراف القنا كل شهوة      فليس لنا الا بهن لعاب  
أعزّ مكان في الدنى سرج سابح      وخير جليس في الزمان كتاب  
و خلاصة المعنى اني غير غزل بالنساء او محب للخمر قد قصرت نفسي  
على الجد في طمان الاعداء وتركت ما تشتهيہ الانفس من الملاهي .  
وكان جدّه مقروناً بالصدق والصراحة . قال ابن جنّي : « ما عرفت  
المتنبي إلا صادقاً<sup>٢</sup> » .

وهنا لا بد من القول ان بعض المؤرخين يزعمون ان اياه كان سقّاءً في  
الكوفة<sup>٣</sup> . ومما قيل فيه :

أي فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بكرة<sup>٤</sup> وعشياً  
عاش حيناً يبيع في الكوفة الماء وحيناً يبيع ماء المحيّا

على اننا اذا دققنا في ذلك نجد ان أهم الثقات الذين دونوا سيرة المتنبي  
يمرّون بهذا الزعم مرور المشكك . فالثعالبي مثلاً ، وهو كما مرّ بنا  
قريب العهد بالشاعر ( بل يكاد يكون معاصراً له ) لم يزد على ان قال :  
« وبلغ أبا الحسين ابن لنكك بالبصرة ما جرى على المتنبي من وقية  
شعراء بغداد فيه واستحقارهم له ، وكان حاسداً له طاعناً عليه زاعماً ان  
اياه كان سقّاءً<sup>٥</sup> بالكوفة<sup>٤</sup> » . وفي رواية الثعالبي ما يُشعر بشكّه في صحتها .  
ومثل الثعالبي ابن خلكان فانه لما أورد هذا الخبر قال : « ويقال ان ابا  
المتنبي كان سقّاءً بالكوفة ثم انتقل الى الشام بولده<sup>٥</sup> » . ويقول البديعي

١ و يرويها ابن جنّي للرخاخ ( من أدوات الشطرنج ) .

٢ الخصائص ١ - ٢٤٨ .

٣ وفيات الاعيان ١ - ٦٥ واليتيمة ٨٦ .

٤ اليتيمة ١ - ٧٦ .

٥ وفيات الاعيان ١ - ٦٥ .

« وكان والده الحسين يعرف بعبدان السقاء » ، ثم ينقل عن ابن خلكان ما ذكره عن ابن لنكك وطعنه على المتنبي<sup>١</sup> . وفي ايضاح المشكل للاصبهاني « انه كان في الكوفة يختلف الى كتاب فيه اولاد الاشراف<sup>٢</sup> . فاذا دقت في هذه الروايات لم تجد فيها خبراً مجزوماً فيه ، بل لا تجد الا أقوالاً يصح ان نشكك فيها ، ويزيدنا تشكيكاً ان سقاءً بالكوفة لا يحظى عادةً بوضع ولده في مكاتب الاشراف ، ولا يفتقل به الى بلد بعيد ، فيردده بين المدن والقبائل . ولسنا هنا بمعرض الدفاع عن والده وتنزيهه عن تعاطي مهنة كالسقاية ، ولكننا لا نستطيع الا ان نظهر شكنا بذلك اعتماداً على الروايات التي بين أيدينا .

على ان الرجل كان على ما يظهر فقير الحال مغمور الذكر ، ومع ذلك لم يتأخر عن تسهيل وسائل العلم لولده ، فنشأ الولد (شاعرنا) بين المكاتب والوراقين . ولما ترعرع ونال من الادب قسطاً ظهرت عليه بوادر الطموح الى العلى ، ورأى تطاول المالك والموالي على أسيادهم ، وكثرة القائمين بالدعوات في المملكة العباسية والامارات المختلفة ، فحدثته نفسه ان يقوم بأعراب البادية ، ومملكه هذا الوهم حتى حبس وتاب . ولكن حب الرياسة والولاية بقي يدور في رأسه<sup>٣</sup> ، وهو القائل من قصيدة لكافور :

وفؤادي من الملوك وان كان لساني يُرى من الشعراء

### شهرته الشعرية

لم ينل شعر عربي من الشهرة ما ناله شعر المتنبي ، فهو بعيد الأثر في حلقات الادب شائع بين جميع الطبقات . ولم يكن حظه في عصره

١ الصبح المنبي ١ - ٦ و ١٧٨ .

٢ راجع خزانة الادب ج ١ - ٣٨٢ .

٣ اليتيمة ١ - ٨١ .

بأقل من حظه اليوم . قال الثعالبي : « فليس اليوم مجالس الدرس أعمر  
بشعر أبي الطيب من مجالس الأنس ، ولا أقلام كتّاب الرسائل أجري  
به من ألسن الخطباء في المحافل ، ولا لحون المغنين والقوالين أشغل به من  
كتب المؤلفين والمصنّفين . وقد ألّفت الكتب في تفسيره وحل مشكله  
وعويصه ، وكثرت الدفاتر على ذكر جيده ورديته ، وتكلم الافاضل في  
الوساطة بينه وبين خصومه ، والافصاح عن ابكار كلامه وعونه ، وتفرّقوا  
فرقاً في مدحه والقدح فيه ، والنضح عنه والتعصب له وعليه . وذلك  
أول دليل دل على وفور فضله وتقدم قدمه ، وتفرده عن أهل زمانه  
بملك رقاب القوافي ورقّ المعاني »<sup>١</sup> . وبعد موت المتنبي بأكثر من قرن  
نرى الواحدي يقول في مقدمة شرحه : « وان الناس منذ عصر قديم قد  
ولّوا جميع الأشعار صفحة الإعراض مقتصرين منها على شعر أبي الطيب  
ثانين عما يروى لسواه » .

ومن دلائل شهرته ان كبار المترسلين في زمانه وبعده كانوا يستمعون  
بألفاظه ومعانيه ، ومنهم خصمه ابن عباد ، وابو بكر الخوارزمي ، وابو  
اسحق الصابي ، وابو العباس ابرهيم الضبّي<sup>٢</sup> . وقال ابن خلكان :  
« واعتنى العلماء بديوانه فشرحوه ، وقال لي احد المشايخ الذين أخذت  
عندهم : وقفت على اكثر من اربعين شرحاً ما بين مطوّلات ومختصرات  
ولم يفعل هذا بديوان غيره »<sup>٣</sup> .

ولما تناول البديعي شهرته نقل ما أوردناه من كلام الثعالبي وزاد  
عليه اسماء شراحه ونقّاده (مثنياً بذلك كلام ابن خلكان) ومنهم :  
ابن جنّي - وهو تلميذه وأول من شرحه .

أبو العلاء المعري - وله في ذلك : اللامع العزيزي ، ومعجز احمد ،

١ اليتيمة ١ : ٧٨ .

٢ راجع أمثلة ذلك في اليتيمة ١ : ٨٧ .

٣ وفيات الاعيان ١ - ٦٣ .



وكان من المعجبين بالمتنبي .

الواحدى - المتوفى ٤٦٨ - صاحب الشرح المشهور .

ابو زكريا التبريزي - ٥٠٢ - تلميذ المعري وشارح المعلقات والحامسة .  
القاضي ابو الحسن الجرجاني - ٣٦٦ - صاحب الوساطة بين المتنبي  
وخصومه .

العكبري - ٦١٦ - صاحب الشرح المشهور .

ومنهم ابن فورجه البروجردى ، والصاحب ابن عباد ، والمغربي  
صاحب الانتصار ، والحاتمى ، والعميد صاحب الابانة ، وابن الاثير صاحب  
الاستدراك على ابن الدهان . ويسوق البديعى اسماءهم الى آخر القائمة ثم  
يقول : « سوى الشروح التي لم نسمع بذكرها . ولم يسمع بديوان شعر  
في الجاهلية ولا في الاسلام شرح مثل هذه الشروح الكثيرة ولا تدور  
في السنة الادباء من نظم ونثر أكثر من شعر المتنبي ' » .

ولابن رشيق القيروانى صاحب العمدة جملة مشهورة في المتنبي وهي :  
« ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس » . وطبيعى انه لم يشغل  
الناس على غير طائل ، وما تصدى له خصومه او دافع عنه مريدوه  
إلا لعلو مكانته ولبعد صيته ، حتى أصبح غرضاً لأقلامهم وغاية تتسابق  
اليها جيادهم .

وإذا رجعت الى قائمة شرّاحه ونقّاده العديدين تجدهم ثلاث فرق :

١ - الذين تحاملوا عليه وراموا الخط من قدره ، ومنهم الصاحب بن  
عباد والحاتمى والعميدى وابو هلال العسكري وابو الفرج  
الاصفهانى ، ولعل ذلك كان سبباً لاغفال ذكره في كتابه الاغانى .

٢ - الذين لهجوا بفضله وبالغوا باكرامه ، ومنهم ابن جنّى وابن

---

١ الصبح المتنبي ١ : ٤٢٣ - ٤٢٧ .

رشيق والواحدي والمعري وابن وكيع والمكبري وابن خلكان  
والبديعي .

٣- المعتدلون الذين راموا التوفيق بين الطرفين ومنهم الجرجاني  
والثعالبي وابن الاثير وهم الى قائمة مدّاحه أميل .  
تناول هؤلاء العلماء شعر المتنبي وأسهبوا في ذكر حسناته وسيئاته -  
والغالب فيهم ان يحذرو المتأخر حذو المتقدم - حتى لم يتركوا زيادة  
لمستزيد على انهم قصروا مهمهم على النقد اللغوي والبياني ولا سيما على  
السركات الشعرية ، ولهم في هذه الاخيرة خبط وأوهام لا طائل تحتها .  
وقد أجاد البديعي في التمييز بين المدح والمذموم من ذلك ، وبحث  
في هذه المسألة بحث المنطقي المحقق<sup>١</sup> . وخلاصة ما ذكره ان للمتنبي  
حسنات وسيئات ، وان حسناته تنحصر فيما يلي :

(١) دقة الاشارة (٢) حسن التخلص (٣) حسن اختراع المعاني  
(التشابه والاستعارات) (٤) وصف القتال وادواته (٥) حسن ضرب  
المثل .

ويقابلها من السيئات :

(١) التعمية او الابهام في الكثير من أبياته (٢) شذوذه اللغوي<sup>٢</sup>  
(٣) تكلفه وتعسفه (٤) جمعه بين البليغ والسفساف في القصيدة الواحدة .  
وأمثلة الوجهين كثيرة تجدها في اليتيمة والوساطة والصبح المنبي  
وسواها . ولليازجي رسالة وافية في ذيل شرحه (العرف الطيب) تناول  
فيها أقوال النقدة وعرضها عرضاً بليغاً .

وقد اشتهرت أقوالهم في ذلك فلترجع في مظانها ، على انه لا بد من  
القول ان ما ذكره من حسنات وسيئات يصدق على كل شاعر تقريباً وقد

١ الصبح المنبي ١ : ٢٧٤ - ٣١٩ .

٢ راجع قول ابن رشيق العمدة ١ - ٨٧ . وقال العسكري في الصناعتين ١١٩ « لا أعرف  
أحداً كان يتبع الميوب فيأتيها غير مكترث لها إلا المتنبي » .

ورد معنا أمثلة ذلك في الكلام على أبي تمام والبحثري مما يعدّ العود إليه الآن تكراراً لا فائدة منه .

### شخصيته الشعرية

بقي علينا ان ننظر في شعر المتنبي من حيث انه مظهر لشخصية تاريخية تتأثر بالمؤثرات الخارجية .

وهو عند التحقيق أربعة أطوار :

الطور الاول - يمثل عواطف الشباب ونفثات الألم من الزمان ، وقد نظم في أنحاء مختلفة من بلاد الشام وفلسطين والعراق ، ويمتدّ من زمن الحداثة الى الرابعة والثلاثين من عمره .

الطور الثاني - شعره في حلب . نظمه وهو بين الرابعة والثلاثين والثالثة والأربعين ، وهو يمثل : ( ١ ) عواطف العظمة والجهاد القومي كما يظهران في سيف الدولة ( ٢ ) عواطف الفوز بالدنيا والقلق من الحساد كما تظهر في نفسه .

الطور الثالث - شعره في مصر . نظمه بين الثالثة والأربعين والسابعة والأربعين ، وهو يمثل غيظه من الماضي وآماله الكبيرة بالمستقبل ثم مرارته لفشله .

الطور الرابع - شعره في العراق وفارس . نظمه بين السابعة والأربعين والحادية والخمسين ، أمّا في العراق فذكريات سيف الدولة ، وأمّا في فارس فانتعاش أمل لم يلبث ان اخذه الحمام . واليك بيان ما تقدم والتدليل عليه من شعره .

### عواطف الشباب ونفثات الألم من الزمان

رأينا في سيرته انه ولد طموحاً متهوراً بالمجد ، وانه ظل بعد خروجه من السجن حتى الرابعة والثلاثين من عمره فقير الحال يجوب الاقطار معرضاً

نفسه للأخطار والاهوال ، فلم ينل من الدنيا مراماً . في هذا الطور يكثر في شعره ذكر المجالدة والاقدام والفخر بالرجولة ، ويقرن ذلك بدم الزمان وأهله والسخط على أولي الأمر من رؤساء وأمرأه ، حتى جعل ابن رشيق أهمّ مزاياه الامثال ودم الزمان ١ . وفيه نرى الكثير من الحكم البالغة التي تهب بالشباب الى طلب العلى وتحمل المشاق والبعد عن مواطن الذل والضم . فمن قوله في الإقدام وتحمل المشاق :

وسمه جبهه على قديمي      تعجز عنه العرامس الذلل  
بصارمي مرتدي بمخبرتي      مجتزيء بالظلام مشتمل  
اذا صديق نكرت جانبه      لم يُعيني في فراقه الحيل  
في سعة الخافقين مضطرب      وفي بلاد من اختها بدل

ومن هذا القبيل يذكر سيره في البوادي ويصف عزة نفسه وشجاعته ويذم الزمان :

أواناً في بيوت البدو رحلي      وآونة على قتد البعير  
أعرض للرماح الصمّ نحري      وانصب حُرّ وجهي للهجير  
وأسري في ظلام الليل وحدي      كأني منه في قمر منير  
فقل في حاجة لم أقض منها      على شغفي بها شروى نكير  
ونفس لا تجيب الى خسيس      وعين لا تدور على نظير  
وقلّة ناصرٍ - جوزيت عني      بشرّ منك يا دهر الدهور

ومثل ذلك قوله يصف جلده ومضاء عزمه :

يحاذرنى حتفي كأني حتفه      وتنكزني الأفمى فيقتلها سمي  
طوال الردينيات يقصفها دمي      وبيض الشريحيات يقطعها لمي  
برتني السرى بري المدي فرددني      أخف على المركوب من نفس جرمي  
وأبصر من زرقاء جوي لأنني      متى نظرت عيناى ساواهما علمي

كأني دحوت الارض من خبرتي بها      كأني بنى الاسكندر السد من عزمي  
وقال في أهل زمانه مستخفاً بهم      وبأمرائهم وهو في هذا الطور يكثر  
اللهج بذلك ويغلو فيه :

فؤاد ما تسلييه مدام      وعمر مثل ما تهب اللثام  
وما انا منهم بالعيش فيهم      ولكن معدن الذهب الرغام  
أرانب غير انهم ملوك      مفتحة عيونهم نيام  
خليلك انت - لا من قلت خلتي      وان كثر التجمل والكلام  
وشبه الشيء منجذب اليه      وأشبهنا بدنيانا الطعام

وعلى هذا الوتر يضرب في قصيدته الشهيرة «بأبي الشموس الجانحات  
غوارباً» فيذكر الزمان وتحامله عليه ويقول :

كيف الرجاء من الخطوب تخلصاً      من بعد ما أنشبن في محالبا  
أوحدنني ووجدن حزناً واحداً      متناهيًا فجعلنه لي صاحباً  
ونصبني غرض الرماة تصيبي      عن أحد من السيوف مضاربا  
اظمتني الدنيا فلما جثها      مستسقياً مطرت علي مصائباً

وللمتني ثلاث قصائد تمثل خوالج نفسه في هذا الطور أفضل تمثيل :  
الاولى في علي بن أحمد المرّي ومطلعها - لا اقتنار إلا لمن لا يضام -  
نقتطف منها هنا الابيات التالية :

ليس عزمًا ما مرض المرء فيه      ليس مما عاق عنه الظلام<sup>١</sup>  
واحتال الأذى ورؤية جانيه      غذاء قضوى به الأجسام  
ذلّ من يغبط الدليل بعيش      ربّ عيش أخف منه الحمام  
من بين سهل الهوان عليه      ما لجرح بميت إسلام  
ضاق ذرعاً بأن اضيق به ذرعاً زماني      واستكرممتني الكرام  
واقفاً تحت أخصي قدر نفسي      واقفاً تحت أخصي الانام

١ مرض اي قصر .

أقراراً أذت فوق شرار ومراماً أبغى وظلمي يُرامُ  
دون أن يشرق الحجاز ونجد والعراقان بالقنا والشام

والثانية في أبي عبيد الله الخصبي قاضي انطاكية - مطلعها : « افاضل  
الناس أغراض لذا الزمن » يذم فيها الناس وأمرأهم ، ويصف عزمه  
ودهامه وصحبته للاعراب ومضاهه في طلب العلى ومنها :

لا اقتري بلداً الا على غرر ولا أمرتُ بخلق غير مضطغن  
ولا اعاشر من املاكهم ملكاً الا احقّ بضرب الرأس من وثن  
قد هوّن الصبر عندي كل نازلة وليّن العزم حدّ المركب الحشن  
كم مخلص وعلى في خوض مهلكة وقتلة قرنت بالدم في الجبن  
لا يعجبني مضيماً حسن بزّته وهل تروق دفيناً جودة الكفن  
لله حال ارجيتها وتخلفني واقتضي كونها دهري ويمطلني  
مدحت قوماً وان عشنا نظمت لهم قصائد من اناث الخيل والحصن

والثالثة في علي بن أحمد بن عامر الانطاكي - وفيها تتجلى خوالج  
الشباب بأجلى ظواهرها : ترى نفسه تنتفض كبيراً وتيها ، ويتجسم لديك  
ما فيها من مطامع وآمال . والقصيدة مشهورة نذكر منها على سبيل  
المثال الثانية الابيات الاولى :

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبر  
وأشجع منّي كل يوم سلامتي وما ثبتت الا وفي نفسها أمر  
تمرسْتُ بالآفات حتى تركتها تقول أمات الموت ام ذُعِر الذعر  
وأقدمت إقدام الأتي كأن لي سوى مهجتي او كان لي عندها وتر  
ذر النفس تأخذ وسمها قبل بينها فمفترق جاران دارهما العمر  
ولا تحسبنّ المجد زقاً وقينةً فما المجد الا السيف والفتكة البكر  
وتضريب أعناق الملوك وان ترضى لك الهبوات السود والعسكر المجر  
وتركك في الدنيا دويّاً كأنما تداول سمع المرء انمله العشر

\* \* \*

ومما يلاحظ هنا تلك المرارة التي صحبتته كل أيام حياته ، وكان منشأها طمعه وما تكبته من المشاق على غير طائل ، ولا سباً في هذا الطور من حياته . فكان شعره الوجداني الحقيقي ، أعني الذي يعبر عن عواطف نفسه مظهراً لما في نفسه من كبرياء حوّلها الفشل الى نقمة وسوء ظن . كقوله :

فما لي والدنيا طلابي نجومها ومسعاي منها في شدوق الأرقام  
ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس روى ربحه غير راحم  
فليس بمرحوم اذا ظفروا به ولا في الردى الجاري عليهم بأثم

### شعره في حلب

وهو كما ذكرنا يظهر في مظهرين كبيرين : ( ١ ) الجهاد القومي والشجاعة الحربية ( ٢ ) شعور الشاعر بالفوز وحمله على الحساد .

ترى روح الجهاد القومي والحربي في أكثر مدائحه لسيف الدولة ، ولا بدع فقد كان سيف الدولة مجاهداً شجاعاً وكانت حياته حرباً متواصلة على الروم . وقد صحبه المتنبي واختبر بنفسه عظام الحرب وأهوال الوقائع : رأى الجيوش في ساحة الحرب وخاض غمار القتال مع المجاهدين ، فشهد الأبطال تشتبك بالأبطال والفرسان تطارد الفرسان ، والسيوف والرماح تسيل بدماء الأعداء - هبط الأودية وصعد في النجود وذاق مرارة الهزيمة ولذّة الظفر فأبدع في وصف ذلك غاية الإبداع . ولقد صدق ابن الأثير إذ قال في الحكم على شعره : « انه إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلوا . فطريقه في ذلك تفضلّ بسالكه وتقوم بعذر تاركه . ولا شك انه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة ابن حمدان فيصف لسانه ما أدى عيانه »<sup>١</sup> .

١ المثل السائر ٤٧١ .

وقال ابن رشد في ترجمة كتاب الشعر لأرسطو ذاكراً وصف الحروب والوقائع « والمتنبى أفضل من يوجد له هذا الصنف من التخيل . وذلك كثير في أشعاره ، ولذلك يحكى عنه انه كان لا يريد ان يصف الوقائع التي لم يشهدها مع سيف الدولة <sup>١</sup> . »

ولقد ترك لنا من شعره الحربي كثيراً من القصائد الخالدة : يقف فيها معلناً عظمة الاسلام في شخص المدروح ، حاملاً على أعداء الخلافة ، مثيراً للحماسة القومية . ويتخلل كل ذلك من الحكم البليغة ما يناسب المقام وينفذ الى اعماق النفوس . ولولا شهرة هذه القصائد وتوفر طلاب الأدب على تدارسها وحفظها لأتينا بالأمثلة الكثيرة على شعر المتنبى في هذا الطور ، ولكننا نجتزئ هنا بالإشارة الى القصائد التي مطلعها :

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع  
فدينك من ربع وان زدتنا كربا  
لياليّ بعد الظاعنين شكول  
لكلّ امرئ من دهره ما تعوّدوا  
دروع لملك الروم هذي الرسائل  
على قدر أهل العزم تأتي العزائم  
الرأي قبل شجاعة الشجعان  
عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم  
ذي المعالي فليملون من تعالى

وكلها مما يجب على المتأدب درسه وحفظه والتأمل في روائع معانيه .  
أما شعور الشاعر بالفوز والتفوق وحمله لذلك على الحساد فيظهر في  
مثل قوله لسيف الدولة :

انا السابق الهادي الى ما أقوله اذ القول قبل القائلين مقول

١ راجع «مقالات على علم الادب» لشيخو ٢ - ٢٨٠ .



أعادي على ما يوجب الحب للفتى      واهدأ والافكار في تجول  
سوى وجع الحساد داوِر فإنه      اذا حلّ في قلب فليس يحول  
ولا تطمعن من حاسدٍ في مودةٍ      وان كنت تبديها له وتليل  
وانّا لنلقى الحادثات بأنفس      كثير الرّزايا عندهنّ قليل  
وقوله :

أزلّ حسد الحساد عني بكبتهم      فانت الذي صيرتهم لي حسدا  
اذا شدّ زندي حسن رأيك فيهم      ضربتُ بسيف يقطع الهام مغمدا  
وما الدهر الا من رواة قصائدي      اذا قلت شعراً اصبح الدهر منشدا

وأقواله في ذلك كثيرة ، وأشدّها قصيدته الميمية - واحرّ قلباه -  
وقد نشأ هذا الشعور مع المتنبي ورافقه كلّ أيام حياته ، ولكنه يظهر على  
أشدّه في هذا الطور ، وفيه أكثر ما تركه المتنبي من هذه النفثات  
الأيمة .

#### شعره في مصر

وهو يمثل لنا عواطف الفيظ من الماضي والأمل بالمستقبل ، وفيه  
تتجلى عبقرية المتنبي على أتمها - من دقة في الاشارة وروعة في المعاني  
وجمال في التوقيع .

فبينما ترى شعره في الطور الاول يكثر فيه التعقيد اللفظي والمعنوي ،  
وفي حلب يتكلف أحيانا استعمال الغريب للدلالة على غزارة علمه ، تراه  
في مصر صقيلاً خالصاً من هذه الشوائب جارياً على الطبيعة . فهو يمثل  
غاية ما بلغه المتنبي من البلاغة . وقد أخطأ البديعي اذ قال : « ان  
احسن شعره في سيف الدولة وقد تراجع شعره بعد ذلك » ١ ، فان المدقق  
يرى في « كافورياته » من جلال المعنى وجمال الصياغة ما يشهد انه بلغ  
به كمال النضج . واتنا نجاري في ذلك اليازجي اذ قال : « على انك اذا

١ الصبح المنبي ١ - ٨٧ .

تفقدت تلك المعجمات من أبياته فأكثر ما تجدها في أوائل شعره حين لم تستحكم فيه ملكة النظم ولم تطرد له وجوه التعبير . وما أحسب المتنبي إلا كان في صدر أمره يتوخى طريقة أبي تمام ، فكان ينحو نحوه في الحوم على موارد الاغراب والتنقيب عن الوحشي من حكم الجاهلية ، والتورك على الصيغ الشاذة والتحدلق في اسلوب الخطاب - الى ان يقول عن شعره في حضرة سيف الدولة : « انه كان هناك في محفل حافل بالعلماء والشعراء والمنتقدين ، ولذلك لم يكن بدّ من حشد القريحة في مدح سيف الدولة والاكثار من التنطس في ألفاظه ومعانيه . ثم اذا انتقلت الى شعره في كافور وجدته قد عاد الى السهولة والرشاقة » .

ويكفي للدلالة على ذلك ان تراجع القصائد التالية :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا  
فراق ومن فارقت غير مذمم  
من الجأذر في زي الاعاريب  
أودّ من الايام ما لا تودّه  
اغالب فيك الشوق والشوق اغلب  
مضى كن لي ان البياض خضاب

فان هذه القصائد « الكافورية » من أسلس قصائده واملأها معنى وأجملها إيقاعاً . ومن بدائعه في هذا الطور ميميته المشهورة في وصف حاله في مصر ووصف حمى أصابته ، نظمها وهو في الخامسة والاربعين فبجاءت غاية الغايات من حسن الانسجام ودقة التعبير وحسن الاختراع ، وقد أدرجت في باب المختارات من شعره فلتراجع هناك .

### الطور الأخير

ويمثله شعره في العراق وفارس ، وهو عموماً أحط من شعره في حلب

١ بتصرف عن رسالته في ذيل شرحه للديوان ٦٦٦ - ٦٧١ .

وفي مصر . يشعر فيه المتأمل بتراخي نَفْسِه الشعري ورجوعه أحياناً الى التعسف والتكلف ، فكأنه بلغ أوجه الشعري في الخامسة والأربعين من عمره ثم أخذ بالانقلاب البطيء : قد يكون للسُن تأثيرها في ذلك ولكن بما لا شك فيه انه كان لفشله في مصر ، ثم ما لاقاه في بغداد أثرٌ في خضد شوكته ، وتخفيف تلك النائرة الشعرية فيه .

### خاتمة في شعره الحكمي

أجاد المتنبي في كل انواع الشعر العربي من مدح وغزل وفخر وثناء ووصف وهجاء ، وله في الرثاء خاصة مكانة سامية تشهد له بذلك مراثيه التي تعد من أفضل المراثي في الأدب العربي ومنها :

نعد المشرفية والموالي

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب

الحزن يقلق والتجمل يردع

وكلتها مشهورة تجري أكثر أبياتها على ألسنة الأدباء .

على ان المتنبي الحقيقي انما هو تلك الصورة التي نرسمها من قراءة حكمه ، وفهم علاقتها بالزمان ، تلك الحقائق الأدبية والاجتماعية الناصعة المعقودة في أرشق الألفاظ وأسلس التعابير . نعم انها منتشرة في تضاعيف قصائده ، متفرقة بين أغراضه المختلفة ، ولكن لها علاقة حيوية بكل مقام يكون فيه الشاعر . واذا ألقينا عليها نظرة عامة وحاولنا ان نستخلص منها صورة لشاعرنا الكبير وجدنا فيها ألواناً مختلفة تنعكس عن شيء واحد هو « نزعتة الفطرية » ، تلك الطبيعة التي كانت تحاول التعالي والحصول على القوة ، ثم لا تلبث ان تعود وفيها شيء من المرارة والألم .

كان للمتنبي غرض كبير في الحياة - المجد - لأجله ظهر غروره صغيراً ، ولأجله جاب الأقطار كبيراً ، ولأجله صحب الملوك وحشد المال حتى تعالي عن طبقة الشعراء ، وساوى نفسه بمدوحيه من الأمراء .

ولكنه فشل ، وفي سعيه وفشله عرف الحياة واختبر حقيقة المجتمع  
البشري ، فنظم ذلك لنا حكماً غالية أدرك الناس صحتها ، فتداولتها  
ألسن الزمان في كل مكان ، وأصبحت على كرور الأيام أمثالا يردّها  
الخاص والعام .

غرّ المتنبّي سراب الدنيا فسمى وراءه ، وطوى في ذلك السعي شبابه  
ورجوليته . فإذا الدنيا سراب وإذا السعي وراء الباطل باطل . على اننا  
لنحمد الأقدار على هذا السراب وهذا الباطل ، فلولاهما لما كان لنا  
شاعر الحكمة الكبير ، ولما تحدّث الينا منه ذلك الميراث الأدبي الخالد .

## المختار من شعر المتنبي

نفس عزيزة شديدة المطامع تدفعها شهوة الدنيا الى طلب المجد والقوة،  
فتندفع اليها بعزم الفارس المقدام . ثم لا تلبث ان تصطدم بالفشل فترقد  
على أعقابها دقيقة المعرفة بمحوادث الزمان ، صائبة النظر في عواطف  
الانسان - تلك هي حكم المتنبي البليغة وخوارج نفسه الكبيرة .

### نزعات شبابه

كم قتيلٍ كما قُتلت شهيدٍ لبياض الطلئ وورد الخدودِ  
وعيون المهى ولا كميون فتكت بالمتيم المعمود  
درّ در الصّبَاءِ - أيامَ تجرير ذيولي بدار ائله ، عودي<sup>١</sup>  
عمرّك الله هل رأيت بدوراً طلعت في براقع وعقود  
رامياتٍ بأسهم ريشها الهد ب'تشقّ القلوب قبل الجلود  
يترشفن من فمي رشفاتٍ هنّ فيه حلاوة التوحيد<sup>٢</sup>  
كلّ خُمصانةٍ ارقّ من الحمر بقلبٍ أقسى من الجلود<sup>٣</sup>

١ أيام منادى اي أيتها الأيام التي كنت اجرر فيها ذيولي مرحاً في دار ائله ، عودي الي .

٢ التوحيد نوع من التمر .

٣ الخمصانة الضامرة او النحبة .

ذات فرع كأنما ضُرب العنبر فيه بماء ورد وعود<sup>١</sup>  
حالك كالغداف جثل دجوجي<sup>٢</sup> أثيث جعد بلا تجعيد<sup>٣</sup>  
تحمل المسك عن غداثرها الريح وتفتت<sup>٤</sup> عن شبيب برود<sup>٥</sup>  
جمت بين جسم أحمد<sup>٤</sup> والسقم وبين الجفون والتسفيد<sup>٤</sup>

\* \* \*

هذه مهجتي لديك لحيني فانقصي من عذابها او فزيدي  
كل شيء من الدماء حرام شربه ما خلا ابنة العنقود  
فاسقنيها فدى لعينيك نفسي من غزال، وطارفي وتليدي  
شيب رأسي وذلتني ونحولي ودموعي على هواك شهودي  
أي يوم سررتني بوصال لم ترعني ثلاثة بصدود

\* \* \*

ما مقامي بأرض نخلة إلا<sup>٥</sup> ك مقام المسيح بين اليهود<sup>٥</sup>  
مفرشي صهوة الحصان ولكن قيصي مسرودة<sup>٥</sup> من حديد  
أين فضلي اذا قنعت من الدهر بعيش معجل التنكيد  
ضاق صدري وطال في طلب الرزق قيامي وقل عنه قعودي  
أبدأ أقطع البلاد ونجمي في نحوس<sup>٥</sup> وهمتي في سعود  
عش عزيزاً أومت وانت كريم بين طعن القنا وخفق البنود  
فرؤوس الرماح اذهب للغيظ واشفى لغل صدر الحقود  
لا كما قد حيت غير حميد واذا مت مت غير فقيد  
فاطلب العز في لظى ودع الذل ولو كان في جنان الخلود  
يقتل العاجز الجبان وقد يعجز عن قطع بختنق<sup>٦</sup> المولود

١ والفروع الشعر .

٢ الغداف الغراب .

٣ شبيب برود أي ثغر لطيف عذب الماء .

٤ أحمد اسم الشاعر .

٥ أرض نخلة قرية لبني كلب .

٦ البختنق خرقة يقنع بها الرأس .

ويوقسى الفتى الميخس<sup>١</sup> وقد خوّض في ماء لسبة الصنديد<sup>١</sup>  
لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا يجدودي  
وبهم فخر كل من نطق الضاد وعود الجاني وغوث الطريد  
ان أكن معجباً فعجب عجب لم يجد فوق نفسه من مزيد  
انا تيرب الندى وربّ القواني وسمام العدى وغيظ الحسود  
أنا في أمة - تداركها الله - غريب كصالح في ثمود<sup>٢</sup>

### وصف الأسد

وكيف صرعه بدر بن عمار ، وذلك على ضفاف الاردن قرب طبريا

في الحد أن عزم الخليط رحيلاً      مطر تزيد به الحدود محولاً<sup>٣</sup>  
يا نظرة نقت الرقاد وغادرت      في حدّ قلبي ما حييت فلولا  
كانت من الكحلأ سؤلي انما      اجلي تمثّل في فؤادي سولاً<sup>٤</sup>  
أجد الجفاء على سواك مروءة      والصبر الأ في نواك جميلاً  
وأرى تدللك الكثير محبباً      وأرى قليل تدلّل مملولاً  
حدق الحسان من الغواني هجن لي      يوم الفراق صباية وغيللاً  
حدق يذم من القوائل غيرها      بدر بن عمار بن اسماعيلاً<sup>٥</sup>  
الفارج الكرب العظام بثلها      والتارك الملك العزيز ذليلاً  
رقت مضاربه فهن كأنما      يبدين من عشق الرقاب نحولاً

\* \* \*

امعسر اللثيث الهزبر بسوطه لمن ادّخرت الصارم المصقولاً

- ١ أي يوقى الشجاع المغامر وقد خاض في دماء الابطال .
- ٢ صالح نبي أرسل الى ثمود فلم يؤمنوا به ولم يصغوا الى أقواله .
- ٣ لأن العشاء عزموا على الرحيل هطل مطر الدموع على خدي فزاده محولاً ( بعكس مطر السماء الذي يزيد خصب الأرض ) .
- ٤ كانت هذه النظرة كل ما أسأله ولكن ما أسأله كان السبب في هلاكي .
- ٥ يذم يحير - أي ان المدوح يحيرنا من كل قاتل سوى نظرات الحسان .

وقعتُ على الأردنّ منه بليّةٌ  
 ورَدُّ إذا ورد البحيرة شارباً  
 متخضّب بدم الفوارس لابس  
 ما قوبلت عيناه الا ظنّنا  
 في وحدة الرهبان الا انه  
 يطأ الثرى مترفقاً من تيهه  
 ويردّ عُفرتَه الى يافوخه  
 وتظنه - بما يزجر - نفسه  
 قصرت مخافته الخطى فكأنما  
 ألقى فريسته وبربر دونها  
 فتشابه الخُلُقَانِ في إقدامه  
 أسد يرى عضويه فيك كليها  
 ما زال يجمع نفسه في زوره  
 ويدقّ بالصدر الحجار كأنه  
 وكأنه غرّته عين فادّنى  
 أنفُ الكريم من الدنيئة تاركٌ  
 والعار مضاض وليس بخائف  
 سبق التقاءه بوثة هاجم  
 خذلتُه قوّته وقد كافحته  
 قبضتُ منيته يديه وعنقه

١ هذا الاسد فتك بالناس وتخضب بدماء الفرسان وكنت تراه في غابة كأنما عليه غابة من شعره .

٢ وتظنه نفسه لكثرة زجرته انه مشغول عنها .

٣ من شدة الخوف أصبح الجواد غير قادر على الجري .

٤ تشابهتا في الاقدام وتخالفتا في انك كريم تبذل ما تصيده لسواك .



سمع ابن عمته به وبجمله فنجأ يهروا أمس منك مهولا ١  
وأمرًا مما فرّ منه فراره وكقتله ان لا يموت قتيلًا  
تلف الذي اتخذ الجراءة خلّة وعظ الذي اتخذ الفرار خليلًا

\* \* \*

نطقت بسؤددك الحمام تغنيًا وبما تجشّمها الجياد صهيلًا  
ما كلّ من طلب المعالي نافذًا فيها ولا كلّ الرجال فحولًا

بعض مدائح في سيف الدولة

وهو يصوره في شعره بصورة البطل القومي والمجاهد الأكبر ضد الروم

قال يذكر بناءه مرعش سنة ٣٤١ هـ

فديناك من ربعٍ وان زدتنا كربًا فانك كنت الشرق للشمس والغربا  
وكيف عرفنا رسم من لم يدع لنا فؤاداً لعرفان الرسوم ولا لبنا  
نزلنا عن الاكوار نمشي كرامة لمن بان عنه ان نلّم به ركبا  
نذم السحاب الغرّ في فعلها به ونعرض عنها كلما طلعت عتبا  
ومن صحب الدنيا طويلا تقلبت وكيف التذاذي بالاصائل والضحى  
ذكرت به وصلا كان لم أفز به على عينه حتى يرى صدقها كذبا  
وفتانة العينين قتالة الهوى اذا نفعت شيخاً روائحها شبا  
فيا شوق ما أبقى ويا لي من النوى ويا دمع ما أجرى ويا قلب ما أصبى  
لقد لعب البين المشت بها وبي وزودني في السير ما زود الضببا ٢  
ومن تكن الأسد الضواري جدوده يكن ليله صباحاً ومطعمه غصبا  
ولست أبالي بعد ادراكي العلى أكان تراثاً ما تناولت ام كسبا  
فربّ غلامٍ علّم المجد نفسه كتعليم سيف الدولة الطعن والضربا

١ يشير الى أسد آخر هرب منه بعد هذه الحادثة .

٢ الضب حيوان معروف ويضرب به المثل في الحيرة . اي ان البين الذي فرقنا جعلني حائراً .

إذا الدولة استكفت به في ملّة  
تُهَابُ سِوْفُ الْهِنْدِ وَهِيَ حَدَائِدُ  
وَيُرْهَبُ نَابُ اللَّيْثِ وَاللَّيْثُ وَحَدَهُ  
وَيُخْشَى عُبَابُ الْبَحْرِ وَهُوَ مَكَانُهُ  
هَنِيئًا لِأَهْلِ الشَّجَرِ رَأْيُكَ فِيهِمْ  
وَأَنَّكَ رَعْتَ الدَّهْرَ فِيهَا وَرَيْبُهُ  
فِيَوْمًا بِخَيْلٍ تَطْرُدُ الرُّومَ عَنْهُمْ  
سَرَايَاكَ تَتْرَى وَالِدُ الْمُسْتَقِّ هَارِبٌ  
أَتَى مَرْعَشًا يَسْتَقْرِبُ الْبَعْدَ مَقْبَلًا  
كَذَا يَتْرِكُ الْأَعْدَاءَ مَنْ يَكْرَهُ الْقَنَا  
وَهَلْ رَدَّ عَنْهُ بِاللُّقَانِ وَقَوْفُهُ  
مَضَى بَعْدَ مَا التَّفَّ الرَّمَا حَانَ سَاعَةٌ  
وَلَكِنَّهُ وَلَّى وَلِلطَّمَنِ سُورَةٌ

أرى كلنا ينبغي الحياة لنفسه  
فحبّ الجبان النفسَ أوردَه البقا  
ويختلف الرزقات والفعلُ واحدٌ  
إلى ان ترى احسان هذا لذا ذنبا<sup>٦</sup>

فأضحت كأن السور من فوق بدئه  
إلى الارض قد شق الكواكب والتريا<sup>٧</sup>

١ فكيف لا تهاب وهي عربية كريمة الاصل ( اشارة الى سيف الدولة ) .  
٢ ليهنا أهل الشجر بحسن رأيك وانك يا حزب الله قد صرت حزبا لهم .  
٣ الدمستق زعيم الروم .  
٤ و ه اللقان اسم مكان . والرماحان اي رماح الفريقين .  
٦ في هذه الابيات الحكمية يشير الى هرب الدمستق واقدام سيف الدولة فيقول ان حب الحياة يدفع الشجاع الى الحرب والجبان الى الهرب . غايتها واحدة ولكن فعل الجبان ذميم وفعل الشجاع حميد .  
٧ أضحت ، أي مرعش ، وسورها يناطح النجوم علواً وهو راسخ في أحشاء الارض .

تصدّ الرياح الهوج عنها مخافة  
كفى عجباً أن يعجبَ الناس أنه  
وما الفرق ما بين الانام وبينه  
لأمرٍ أعدته الخلافة للمدى  
ولم تفرق عنه الأسنّة رحمةً  
ولكن نفاها عنه غيرَ كريمة  
وجيشٌ يثنّي كلّ طودٍ كأنه  
كانَ نجوم الليل خافت مُفاره  
فمن كان يُرضي اللؤم والكفر ملكه

فهذا الذي يرضي المكارم والربا

### وقال يذكر فوزه على الروم

في قلعة الحدث (بالاناضول) وكان المتني قد صحبه

في هذه المعركة

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ  
وتعظم في عين الصغير صغارها  
يكلّف سيف الدولة الجيشَ ممّ  
ويطلب عند الناس ما عند نفسه  
يفدّي أتمّ الطير عمراً سلاحه  
وما ضرّها خلقٌ بغير مخالبِ  
وتأتي على قدر الكرام المكارمُ  
وتصغرُ في عين العظيم العظائم  
وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم  
وذلك ما لا تدّعيه الضراغم  
نسور الفلا أحداثها والقشاعم  
وقد خلقت أسيافه والقوائم<sup>١</sup>

\* \* \*

هل الحدثُ الحمراء تعرف لونها  
سقتها الغمّ قبل نزوله  
وتعلم أيّ الساقين الغمائم<sup>٢</sup>  
فلما دنا منها سقتها الجمائم

١ ولو ان النسور بغير مخالب فما ضرها ذلك لأن سيوفه تغنيها يحث القتلى .

٢ وصفها بالحمراء لما تلطخت به من دماء القتلى وكانت قد أصيبت ببطر قبل ذلك .

وموج المنايا حولها متلاطم<sup>١</sup>  
ومن جثث القتلى عليها تائم<sup>٢</sup>  
على الدين بالخططي<sup>٣</sup> والدمر راغم<sup>٤</sup>  
وهن<sup>٥</sup> لما يأخذن منك غوارم<sup>٦</sup>  
مضى قبل أن تُلقي عليه الجوازم  
وذا الطعن<sup>٦</sup> آساس<sup>٦</sup> لها ودعائم  
فما ماتَ مظلوم ولا عاشَ ظالم

بناهما فأعلى والقنا يقرع القنا  
وكان بها مثل<sup>٦</sup> الجنون فأصبحت  
طريدة دهر<sup>٦</sup> ساقها فرددتها  
تُفيت<sup>٦</sup> الليالي كل<sup>٦</sup> شيء أخذته  
إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً  
وكيف ترجي الروم والروس هدمها  
وقد حاكموها والمنايا حواكم<sup>٦</sup>

\* \* \*

سروا يجياد ما هن<sup>٦</sup> قوائم<sup>٦</sup>  
ثيابهم<sup>٦</sup> من مثلها والمعائم<sup>٦</sup>  
وفي أذن<sup>٦</sup> الجوزاء منه زمام<sup>٦</sup>  
فما يفهم الحدّاث<sup>٦</sup> إلا التراجم<sup>٦</sup>  
فلم يبق<sup>٦</sup> إلا صارم<sup>٦</sup> أو ضبارم<sup>٦</sup>  
وفر<sup>٦</sup> من الفرسان من لا يصادم<sup>٦</sup>  
كأنك في جفن الردى وهو نائم<sup>٦</sup>  
ووجهك وضاح<sup>٦</sup> وثغرك باسم<sup>٦</sup>  
الى قول قوم<sup>٦</sup> انت بالغيب عالم<sup>٦</sup>  
تموت الخوافي تحتها والقوادم<sup>٦</sup>  
وصار الى اللبّات والنصر قادم<sup>٦</sup>  
وحتى كأن<sup>٦</sup> السيف للرمح شاتم<sup>٦</sup>

أتوك يجرّون الحديد كأنما  
إذا برقوا لم تُعرف<sup>٦</sup> البيض<sup>٦</sup> منهم<sup>٦</sup>  
خيس<sup>٦</sup> بشرق الارض والغرب زحفه  
تجمع فيه كل<sup>٦</sup> لسن<sup>٦</sup> وأمة<sup>٦</sup>  
قله وقت<sup>٦</sup> ذوب<sup>٦</sup> الغش<sup>٦</sup> ناره  
تقطع<sup>٦</sup> ما لا يقطع<sup>٦</sup> الدرع<sup>٦</sup> والقنا  
وقفت<sup>٦</sup> وما في الموت شك<sup>٦</sup> لواقف<sup>٦</sup>  
تمر<sup>٦</sup> بك الابطال كل<sup>٦</sup> كئيب<sup>٦</sup> هزيمة<sup>٦</sup>  
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى  
هملت<sup>٦</sup> جناحيهم على القلب ضمة<sup>٦</sup>  
بضرب<sup>٦</sup> أتى الهامات والنصر غائب<sup>٦</sup>  
حقرت<sup>٦</sup> الردينيات حتى طرحتها

١ التائم هي التمايز التي كانوا يتوقعون بها مس الجن .

٢ أي كان الدهر قد سلب الروم عليها فرددتها برماحك رغم أنفه .

٣ تفيت الليالي أي تكرمها على تركه . وغوارم أي ملزمة بدفع غرامته .

٤ البيض السيوف . أي مدرعون بالحديد وظل رؤوسهم خوذ الحرب .

٥ ضبارم شجاع .

٦ أي أملكك الجيش جميعه .

ومن طلبَ الفتحَ الجليلَ فإنما مفاتيحه البيض الحفاف الصوارمُ

\* \* \*

نثرهم فوق الأحيدِبِ كلته كما نثرت فوق العروس الدراهم<sup>١</sup>  
تدوس بك الخيل الوكورَ على الذرى

وقد كثرت حول الوكور المطاعم  
أفي كلِّ يومٍ ذا الدمستقُ مُقدّمٌ قفاه على الاقدام للوجه لائم  
أينكر ریحَ الليث حتى يذوقه وقد عرفت ریحَ الليوث البهائم  
وقد فجمته بابنه وابنِ صهره وبالصهر حملاتُ الأمير الغواشم<sup>٢</sup>  
مضى يشكر الأصحاب في قوته الظُبي

لما شغلتها هامهمُ والمعاصم<sup>٣</sup>  
ويفهم صوتَ المشرفية فيهم على أن أصوات السيوف أعاجم  
يسرّ بما أعطاك لا عن جهالة ولكن مغنوماً نجاً منك غانم

\* \* \*

تشرف عدنانُ به لا ربيعة وتفتخر الدنيا به لا العواصم<sup>٤</sup>  
لك الحمد في الدرّ الذي لي لفظه فإنك معطيه واني ناظم  
واني لتعدو بي عطاياك في الوغى فلا أنا مذمومٌ ولا أنت تادم<sup>٥</sup>  
على كل طيارٍ اليها برجله إذا وقعت في مسميه الغماغم  
ألا أيها السيف الذي ليس مغمداً ولا فيه مرتابٌ ولا منه عاصم  
هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلو وراجيك والاسلام انك سالم  
وليمّ لا يقي الرحمن حدّيك ما وقى وتقليقه هامَ العدى بك دائم

١ الاحيدب اسم جبل .

٢ إشارة الى فوز سابق للمدوح على هؤلاء .

٣ مضى يشكر أصحابه لأنهم شغلوا برؤوسهم السيوف فلم قتله .

٤ ربيعة قبيلة سيف الدولة . والعواصم هي البلاد المتاخمة للروم وعاصمتها انطاكية .

٥ إشارة الى عطاياها من الخيول .

## وقال يمدحه ويعاتبه

على حيف لحقه منه ويظهر ما كان في نفسه من تحامل حساده عليه

واحرّ قلباه بمن قلبه شيم  
ما لي أكتّم حباً قد برى جسدي  
ومن يجسمي وحالي عنده سقم<sup>١</sup>  
وتدعي حبّ سيف الدولة الأهم  
إن كان يجمعنا حباً لغرته  
فليت أنا بقدر الحب نقسم  
قد زرتُه وسيوف الهند مغمدة<sup>٢</sup>  
وقد نظرت اليه والسيوف دم  
فكان أحسن خلق الله كلهم  
وكان أحسن ما في الأحسن الشيم  
فوت العدو الذي يمتّه ظفر<sup>٣</sup>  
في طيه أسف في طيه نيم  
قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت

لك المهابة ما لا تصنع البهم<sup>٢</sup>  
ألزمت نفسك شيئاً ليس يلزمها  
أن لا يواريهم أرض ولا علم  
أكلت رمت جيشاً فانشى هرباً  
تصرفت بك في آثاره الهمم  
أما ترى ظفراً حلواً سوى ظفر<sup>٣</sup>  
تصافحت فيه بيض الهند واللثم

\* \* \*

يا أعدل الناس الا في معاملتي  
أعيذها نظراتٍ منك صادقة<sup>٤</sup>  
فبك الخصام وأنت الخصم والحكم<sup>٥</sup>  
أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم  
وما انتفاع أخي الدنيا بناظره  
سيعلم الجمع ممن ضمّ مجلسنا  
بأنني خير من تسمى به قدم  
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي  
وأسمعت كلماتي من به صمم

\* \* \*

وجاهل مدّه في جهله ضحكي  
إذا رأيت نيوب الليث بارزة<sup>٦</sup>  
حق أتته يدُ فِرّاسة<sup>٧</sup> وفم  
فلا تظنّ ان الليث يبتسم

١ شيم بارد .

٢ البهم الجيوش .

ومهجة مهجتي من همّ صاحبها أدركتها بجوادٍ ظهره حرّم<sup>١</sup>  
ومرهفٍ سرت بين الجحفلين به حتى ضربت وموج الموت يلتطم  
الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

\* \* \*

يا من يعزّ علينا أن نفارقهم وجداننا كلّ شيء بعدكم عدم  
ما كان أخلقنا منكم بتكرمة<sup>٢</sup> لو أن أمركم من أمرنا أمم<sup>٢</sup>  
ان كان سرّكم ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكم ألم  
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة<sup>٣</sup> انّ المعارف في أهل النهى ذمم  
كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم  
ما أبعد العيب والنقصان من شرفي أنا الثريا وذات الشيب والمهرم  
ليت الغمام الذي عندي صواعقه يزيلهنّ الى من عنده الدّيم<sup>٣</sup>  
أرى النوى يقتضي كلّ مرحلة لا تستقلّ بها الوخّادة الرّشم  
لئن تركن ضميراً عن ميامنا ليحدثنّ لمن ودعتهم ندم<sup>٤</sup>  
إذا ترحلت عن قومٍ وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم  
شرّ البلاد مكان<sup>٥</sup> لا صديق به وشرّ ما قنصته راحتي قنص<sup>٥</sup>  
بأي لفظٍ تقول الشعرَ زعنفة<sup>٥</sup> تجوز عندك لا عرب<sup>٥</sup> ولا عجم  
هذا عتابك إلا أنه مِقة<sup>٦</sup> قد ضمنّ الدرّ إلا أنه كلم<sup>٦</sup>

١ أي ورب مهجة هم صاحبها اتلاف مهجتي ادركتها بجوادٍ فقضيت عليها .

٢ أمم قريب .

٣ يشبه سيف الدولة بالغمّ وسخطه بالصراعق ، والدّيم بعمّاياه - أي ليت غضبه يكون على من غرم بعمّاياه وهم لا يستحقونها .

٤ ضمير جبل وهو يشير الى سفره والى ان المدوح سيندم على ذلك .

٥ يشير الى ان سيف الدولة سوى عنده بين المتني وسواه من صعايك الشعراء .

٦ مِقة من فعل ومق معناها الحب .

## بعض مدائحه في كافور

قال سنة ٣٤٦ وهي أولى قصائده في مصر وكان كافور  
قد تلقاه بحفاوة وحمل اليه آلافاً من الدراهم

كفى بك داءً ان ترى الموت شافياً  
تتميتها لما تمنيت ان ترى  
إذا كنت ترضى ان تعيش بذلة  
فما ينفع الأسد الحياء من الطوى  
حببتك قلبي قبل حبك من نأى  
واعلم انّ البين يشكيك بعده  
فإنّ دموع العين غدّرت برّبها  
إذا الجود لم يرزق خلاصاً من الاذى  
وللنفس أخلاق تدلّ على الفتى  
أقلّ اشتياقاً أيها القلب ربما  
خلقت ألوفاً لو رجعت الى الصبى  
ولكنّ بالفسطاط بجرأ أزرتّه  
أبا المسك ذا الوجه الذي كنت تائقاً

وحسب المنيا ان يكنّ أمانياً<sup>١</sup>  
صديقاً فأعيا أو عدواً مداجياً<sup>٢</sup>  
فلا تستجيدنّ العناق المذاكياً<sup>٣</sup>  
ولا تستقى حتى تكون ضوارياً<sup>٤</sup>  
وقد كان غداراً فكن أنت وافيًا<sup>٥</sup>  
فلمست فؤادي إن رأيتك شاكياً  
إذا كنّ إثر الغادرين جوارياً  
فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقياً  
أكان سخاءً ما أتى أم تساخياً  
رأيتك تصفي الوُدّ من ليس صافياً  
لفارقت شبيبي موجع القلب باكياً  
حياتي ونصحي والهوى والقوافياً<sup>٦</sup>  
اليه وذا اليوم الذي كنت راجياً<sup>٧</sup>

١ يخاطب الشاعر نفسه ويقول الشدة التي ما وراها شدة ان تكون في حالة تحسب الموت شافياً لك او أمنية تتمناها .

٢ أعياك ذلك أي أعجزك . ومداجي أي مداري .

٣ العناق المذاكي أي الخيول الكريمة .

٤ الطوى الجوع .

٥ أي أحببتك يا قلبي قبل حبك لمن في حلب فلا تكن غير وفي لي .

٦ الفسطاط مصر . ويريد بالبحر كافور .

٧ ابو المسك كنية كافور .



أباكل طيب لا أبا المسك وحده  
يُبدل بمعنى واحد كل فاخر  
إذا كسب الناس المعالي بالندی  
وغير كثير ان يزورك راجل  
فقد تهب الجيش الذي جاء غازياً  
وتحتقر الدنيا احتقار مجرب  
وما كنت ممن ادرك الملك بالمنى  
مدى بلّغ الاستاذ اقصاه ربه  
دعته قلبها الى المجد والعلی  
فأصبح فوق العالمين يرونه  
وكلّ سحاب لا اخص الفواديا  
وقد جمع الرحمن فيك المعانیا  
فانك تعطي في نذاك المعاليا  
فيرجع ملكاً للمراقين والیا  
لسائلك الفرد الذي جاء عافياً<sup>١</sup>  
يرى كل ما فيها وحاشاك فانیا  
ولكن بأيام اشبن النواصیا  
ونفس له لم ترض الا التناهي  
وقد خالف الناس النفوس الدواعيا  
وإن كان يدنيه التكرم نائيا

### وقال أيضاً يمدحه

أود من الايام ما لا تودّه  
يباعدن حباً يجتمعن ووصله  
أبى خلق الدنيا حبيباً تديمه  
واسرع مفعول فعلت تغيراً  
رعى الله عيساً فارقتنا وفوقها  
بواد به ما بالقلوب كأنه  
إذا سارت الاحداج فوق نباته  
وحال كإحداهن رمت بلوغها  
واقعب خلق الله من زاد همه  
وأشكو اليها بيننا وهي جندّه  
فكيف بحب يجتمعن وصدّه  
فما طلبي منها حبيباً تردّه  
تكلّف شيء في طباعك ضدّه  
مهيّ كلّها بولي بجفنيه خدّه<sup>٢</sup>  
وقد رحلوا جيداً تناثر عقده<sup>٣</sup>  
تقاوح مسك الغانيات ورنده  
ومن دونها غول الطريق وبعده<sup>٤</sup>  
وقصر عما تشتهي النفس وجده<sup>٥</sup>

١ قد تهب الجيش الغازي لسائل واحد يأتيك طالباً لمعرفك .

٢ رعى الله نياقاً فارقتنا وفوقها ظباء (حسان) تستقي خدودها من دموعها .

٣ بواد به من الجوى ما بقلوب الهبين .

٤ وحال صعبة الخال كاحدى هذه الحسان .

٥ همه اي همه ووجده ماله . اي أنصب الناس من عظمت مطامعه وقصر ماله عن ادراكها .

فلا ينحلل في المجد مالك كلُّه  
 ودبَّره تدبير الذي المجد كفته  
 فلا مجد في الدنيا لمن قلَّ ماله  
 وفي الناس من يرضى بميسور عيشه  
 ولكنَّ قلباً بين جنبيّ ما له  
 يرى جسمه يُكسى شفوفاً ترُّبُهُ  
 وأمضى سلاحٍ قلَّد المرء نفسه  
 هما ناصرا من خانة كلِّ ناصر  
 أنا اليوم من غلمانهِ في عشيرةٍ  
 فمن ماله مال الكبير ونفسه  
 نجرّ القنا الخطيَّ حول قبابه  
 ابو المسك لا يفنى بذنبك عفوه  
 فيا ايها المنصور بالجَدِّ سعيه  
 تولّى الصبى عني فاخلفت طيبه  
 لقد شبَّ في هذا الزمان كهوله  
 ألا ليت يوم السير يخبر حره  
 وليتك ترعاني وحيرانُ ممرضُ  
 واني إذا باشرت أمراً أريده  
 وما زال أهل الدهر يشتبهون لي  
 يقال إذا أبصرت جيشاً وربّه  
 والقي الفمَ الضحّاك أعلم انه

فينحلّ مجدّ كان بالمال عقده  
 إذا حارب الاعداء والمال زنده  
 ولا مال في الدنيا لمن قلَّ مجده  
 ومركوبه رجلاه والثوب جلده  
 مدىّ ينتهي بي في مرادٍ احدّه  
 فيختار ان يكسى دروعاً تهدّه<sup>١</sup>  
 رجاء أبي المسك الكريم وقصده  
 وأسرة من لم يكثر النسل جدّه  
 لنا والدٌ منه يفديهِ وُلده  
 ومن ماله درّ الصغير ومهده  
 وتسردي بنا قُبّ الرباط وجرده<sup>٢</sup>  
 ولكنه يفنى بعذرك حقدّه  
 ويا ايها المنصور بالسمي جدّه<sup>٣</sup>  
 وما ضرّني لما رأيتك فقدّه  
 لديك وشابت عند غيرك مُردّه  
 فتسأله والليل يخبر برّده  
 فتعلمَ اني من حسامك حدّه<sup>٤</sup>  
 تدانت أقاصيه وهان أشدّه  
 اليك فلما لحت لي لاح فردّه  
 امامك ربُّ ربُّ ذا الجيش عبده<sup>٥</sup>  
 قريب بذى الكفّ المفدّاة عهدّه<sup>٦</sup>

١ يرى جسمه منطى بالحرير فيفضل ان يكسوه الدروع بدل الحرير .

٢ وتجري بنا الخيول .

٣ الجد ، الحظ .

٤ حيران اسم جبل اي لبتك كنت تراني وانا أسير مقابل حيران لتعلم مضائي وعزمي .

٥ و ٦ وكلما أبصرت جيشاً على الطريق كان يقال لي أترى هذا الجيش ان قائده عبد لمن أنت تقصده ، وكلما رأيت فما ضحاكاً اعلم انه قريب العهد بتقبيل يدك المفدّاة .

فزارك مني من اليك اشتياقه  
فإن نلت ما أملت منك فربما  
ووعدك فعل قبل وعدٍ لانه  
فكن في اصطناعي محسناً كمجرب  
إذا كنت في شك من السيف فابله  
وما الصارم الهندي كغيره  
وانك للمشكور في كل حالة  
فكل نوال كان أو هو كائن  
واني لفي بحر من الخير أصله  
وما رغبت في عسجدٍ أستفيده  
يحود به من يفضح الجود -جوده  
فإنك ما مر النحوس بكوكب

#### ومن مدائح

من الجآذر في زي الأعراب  
إن كنت تسأل شكاً في معارفها  
ما أوجه الحضر المستحسنات به  
حسن الحضارة مجلوب بتطرية  
أين المعيز من الآرام ناظرة  
أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها

حمر الحلى والمطايا والجلابيب<sup>٢</sup>  
فمن بلاك بتسديد وتعذيب  
كأوجه البدويات الرعابيب<sup>٣</sup>  
وفي البداوة حسن غير مجلوب<sup>٤</sup>  
وغير ناظرة في الحسن والطيب<sup>٥</sup>  
مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

١ التقريب نوع من عدو الفرس .

٢ الجآذر أولاد بقر الوحش تشبه بها النساء لجمال عيونها . يقول من هؤلاء البدويات الحسان حمر الحلى والثياب والراكبات على النياق الحمر ( هي أكرم النياق ) .

٣ الرعابيب الطويلات المثلثات الجسم .

٤ التطرية التكلف والصنعة .

٥ يقصد بالمعيز نساء الحضر والآرام «الظباء» البدويات .

ومن هوى كلّ من ليست بموهبة<sup>١</sup> تركت لون مشيبي غير مخضوب  
ومن هوى الصدق في قلبي وعادته رَغبت عن شعرٍ في الرأس مكذوب

\* \* \*

ليت الحوادثَ باعتني الذي أخذت مني بحلمي الذي أعطت وتجريبي<sup>٢</sup>  
فما الحداثة من حلمٍ بمانعةٍ قد يوجد الحلم في الشبان والشيب  
ترعرعَ الملك الاستاذ مكتسباً قبلَ اكتهاال أديباً قبل تأديب<sup>٣</sup>  
يُدبّرُ الملك من مصر الى عدن الى العراق فأرض الروم فالنوب  
يصرف الأمر فيها طينُ خاتمه ولو تطلّست منه كلّ مكتوب<sup>٤</sup>  
قالوا هجرتَ اليه الغيثَ قلت لهم الى غيوث يديه والشأبيب<sup>٥</sup>  
الى الذي تهب الدوالاتِ راحته ولا يمينُ على اثار موهوب  
ولا يروع بمغدورٍ به أحداً ولا يفرّج موفوراً بمنكوب<sup>٦</sup>  
وجدت أنفعَ مال كنت أذخره ما في السوابقِ من جري وتقريب<sup>٧</sup>  
لما رأينَ صروفَ الدهرِ تغدري وفينَ لي ووقتَ صمّ الأنايب<sup>٨</sup>  
وكيفَ أكفر يا كافور نعمتها وقد بلغنك بي يا كلّ مطاوي  
أنت الحبيب ولكني أعوذ به من ان أكون محباً غير محبوب

وقال يمدحه سنة ٣٤٧

فراقٌ ومن فارقتُ غير مذمّمٍ وأمٌ ومن يمتُّ خير ميمّمٍ

- ١ التمويه أي الطلي ويراد به التزيين .
- ٢ ليت الحوادث، ترجع لي ما سلبتني من الشباب وتأخذ ما اعطتني من العقل والتجربة .
- ٣ أي نشأ حاصلًا على عقل الكهول قبل أن يكون كهلاً .
- ٤ يدبر الامور بطين خاتمه الذي يختم به رسائله ولو أعمى النقش الذي فيه .
- ٥ قالوا هجرت المطر بتركك سيف الدولة فقلت الى امطار يدي كافور الساكبة .
- ٦ اي لا يندر بأحد ليروع به غيره ولا يسلب أحداً ليفزع غير المسلوب .
- ٧ وجدت انفع مال جري الخيول .
- ٨ النون في رأين واجعة الى الخيل أي لما رأيت الخيل غدر الدهر بي وقت لي بحلمي عن مواطن الغدر وكذلك وقت لي الرماح .

وما منزل اللذات عندي بمنزل  
 سجيّة نفسٍ ما تزال مليحة  
 رحلت فكم بالك بأجفان شادن  
 وما ربة القُرط المليح مكانه  
 فلو كان ما بي من حبيب مقنع  
 رمى واتقى رمي ومن دون ما اتقى  
 إذا لم أيّمل عنده واكرّم  
 من الضيم مرمياً بها كل مخرم<sup>١</sup>  
 عليّ وكم بالك بأجفان ضيغم<sup>٢</sup>  
 بأجزع من ربّ الحسام المصمّم  
 عذرت ولكن من حبيب معتم<sup>٣</sup>  
 هوى كاسر<sup>٤</sup> كفتي وقوسي وأسهمي

\* \* \*

إذا ساءَ فعلُ المرءِ ساءتِ ظنونه  
 وعادى محبّيه بقول عداته  
 أصادق نفسَ المرءِ من قبل جسمه  
 واحلّم عن خلي واعلم انه  
 وإن بذلَ الانسان لي جود عابس  
 وأهوى من الفتیان كلّ سَميدع<sup>٤</sup>  
 خطت تحته العيس الفلاةَ وخالطت  
 ولا عفة<sup>٥</sup> في سيفه وسانه  
 وما كلّ هارٍ للجميل بفاعل  
 فدى لأبي المسك الكرام<sup>٥</sup> فانها  
 اغرّ بمجدٍ قد شخصن وراه  
 إذا منعت منك السياسة نفسها  
 وصدق ما يعتاده من توهم  
 وأصبح في ليلٍ من الشك مظلم  
 وأعرفها في فعله والتكلم  
 متى اجزّه حلاً عن الجهل يندم  
 جزيت يجود التارك المتبسم  
 نجيب كصدر السميري المقوم  
 به الخيل كبات الخيس المرمر  
 ولكنها في الكف والطرف والقم  
 ولا كلّ فعّال له بتمم  
 سوابق خيل يهتدين بأدهم<sup>٥</sup>  
 الى خلق رحب وخلق مطهم  
 فقف وقفة قدّامه تتعلم

١ مليحة من الضيم اي خائفة منه . مخرم طريق في الجبال .

٢ رحلت فكم بحسناء تبكي عليّ وكم بطل .

٣ الحبيب المقنع كناية عن المرأة والحبيب المعتم عن الرجل ( يقصد سيف الدولة ) .

٤ السميدع : الشريف الشجاع .

٥ ابو المسك أي كافور . جعل الكرام جياداً وهو الادم في مقدمتهم .

يضيق على من رآه العذر ان يرى      ضعيفَ المساعي او قليل التكرم<sup>١</sup>  
ومن مثل كافور اذا الخيل احجمت      وكان قليلاً من يقول لها اقدمي  
شديد ثبات الطّرف والنقع واصل<sup>٢</sup>      الى لهواتِ الفارس المتلثم<sup>٣</sup>

\* \* \*

أبا المسك أرجو منك نصراً على العدى

وأملُ عزّاً يخضب البيض بالدمـ  
ويوماً يفيظ الحاسدين وحالة      أقيم الشقا فيها مقامَ التنعم  
ولم أرجُ الا أهل ذاك ومن يرد<sup>٤</sup>      مواطراً من غير السحائب يظلم  
فلو لم تكن في مصر ما سرت نحوها      بقلب المشوق المستهام المتيم  
ولا نبحت خيلي كلابُ قبائل      كأن بها في الليل حملات ديلم<sup>٥</sup>  
ولا اتبعت آثارنا عين قائفـ<sup>٤</sup>      فلم ترَ الا حافراً فوق منسم<sup>٤</sup>  
وسمنا بها البيداء حتى تغمّرت      من النيل واستدرت بظلّ المقطم

\* \* \*

وابلجَ يعصي باختصاصي مشير<sup>٥</sup>      عصيت بقصديه مشيري ولؤمي  
فساق إليّ العُرف غير مكدر<sup>٥</sup>      وسقتُ اليه الشكرَ غير مجهم  
قد اخترتك الأملاك فاختر لهم بنا      حديثاً وقد حكمت رأيك فاحكم<sup>٥</sup>  
فاحسن وجه في الورى وجه محسن      وايمنُ كفّ منهم كفّ منعم  
واشرفهم من كان أشرف همة<sup>٥</sup>      وأكثر اقداماً على كل مُعظم  
لمن تطلب الدنيا اذا لم ترد<sup>٥</sup> بها      سرورَ محبّ<sup>٥</sup> او مساءة مجرم

\* \* \*

١ رآه بمعنى رآه .

٢ الطرف المهر اي شديد الثبات حين اشتداد الوغى .

٣ اي ولولاك لما قطعت القفار حتى قبحت خيلي كلاب القبائل كافي من بعض عصابات الديلم .

٤ القائف هو الذي يتتبع الاثر ليعرف صاحبه .

٥ أي قد اخترتك واستغنيت بك عن كل الملوك فأحسن إلي احساناً يلهجون به .

ولو كنت أدري كم حياتي قسمتها      وصيرتُ ثلثيها انتظارك فاعلم  
ولكنّ ما يمضي من الدهر فانتُ      فجدُّ لي بخطّ البادر المتغنم  
رضيتُ بما ترضى به لي محبةً      وقدتُ اليك النفس قود المسلمم  
ومثلك من كان الوسيط فؤاده      فكلّمه عني ولم أتكلم

### مرثاته في أبي شجاع فاتك الرومي

وكان من المشهورين بالمكارم وقد توفي بمصر سنة ٣٥٠

الحزن يُقلق والتجمل يردعُ      والدمع بينهما عصي طبعُ  
يتنازعان دموعَ عينٍ مسهدٍ      هذا يجيءُ بها وهذا يرجع  
النوم بعد أبي شجاع نافر      والليلُ معي والكواكب ظلمعُ<sup>١</sup>  
اني لأجبن عن فراق أحبتي      وتحسُّ نفسي بالحمام فاشجع  
ويزيدني غضب الأعداي قسوةً      ويُلّمُّ بي عتب الصديق فأجزع  
تصفو الحياة لجاهل أو غافلٍ      عما مضى منها وما يتوقع  
ولمن يغالط في الحقائق نفسه      ويسومها طلب المحال فتطمع  
أين الذي الهرمان من بنيانه      ما قومه ما يومه ما المصرع؟  
تتخلف الآثار عن اصحابها      حيناً ويدركها الفناء فتتبع  
لم يُرض قلبَ أبي شجاع مبلغُ      قبل المات ولم يسهه موضع  
كنا نظنّ دياره مملوءةً      ذهباً فمات وكلّ دار بلقع  
وإذا المكارم والصوارم والقنا      وبناتُ أعوج كل شيء يجمعُ<sup>٢</sup>  
المجد أخسرُ والمكارم صفقةُ      من أن يعيش لها الهامُ الأروع  
والناس انزلُ في زمانك منزلاً      من ان تعايشهم وقدرك أرفعُ<sup>٣</sup>

١ النوم بعده لا يألف العين والليل يطول كأنه منهوك من التعب والكواكب عرجاء لا تحسن السير.

٢ كنا نظن دياره مملأ بالذهب والاموال ولكنه لجوده لم يترك فيها شيئاً ولم يجمع في حياته غير المكارم والسلاح والخيول .

٣ الناس في زمانك أقل قدراً من أن تعيش بينهم .

برّد حشاي ان استطعت بلفظة  
 ما كان منك الى خليل قبلها  
 ولقد أراك وما تلمّ ملّة  
 ويدك كأنّ نوالها وقتالها  
 يا من يبدّل كل يوم حلّة  
 ما زلت تخلمها على من شاءها  
 فظلت تنظر لا رماحك شرّع  
 بأبي الوحيد وجيشه متكاثراً  
 واذا حصلت من السلاح على البكا  
 وصلت اليك يدّ سواء عندها ال  
 من للمحافل والجمعاقل والسرى  
 ومن اتخذت على الضيوف خليفة  
 قبلاً لوجهك يا زمان فإنه  
 أموت مثل أبي شجاع فاتك  
 أبقيت أكذب كاذب ابقيته  
 ولّى وكلّ مخالمٍ ومنادمٍ  
 من كان فيه لكل قوم ملجأ  
 ان حلّ في فرس ففيها ربّها  
 او حلّ في روم ففيها قيصر  
 قد كان أسرع فارس في طعنة  
 لا قلبت أيدي الفوارس بعده  
 فلقد تضرّ اذا تشاء وتنفع  
 ما يستراب به ولا ما يوجع  
 الا نفاها عنك قلباً أصم  
 فرض يحق عليك وهو تبرّع  
 انسى رضيت بحلة لا تنزع  
 حتى لبست اليوم ما لا تخلع  
 فيما عراك ولا سيوفك قطع  
 يبكي ومن شرّ السلاح الادمع<sup>١</sup>  
 فحشاك رعت به وخذك تقرّع  
 بازي الأشيب والغراب الأبقع<sup>٢</sup>  
 فقدت بفقدك نيراً لا يطلع  
 ضاعوا ومثلك لا يكاد يضيّع  
 وجهه له من كل قبج برقع  
 ويميش حاسده الخصي الأوكع<sup>٣</sup>  
 وأخذت أصدق من يقول ويسمع  
 بعد اللزوم مشيّع ومودّع  
 ولسيفه في كل قوم مرتع  
 كسرى تذلل له الرقاب وتخضع  
 أو حلّ في عرب ففيها تبع<sup>٤</sup>  
 فرساً ولكنّ المنية أسرع  
 رحماً ولا حملت جواداً أربع

- ١ يقصد بالوحيد الفريد . وقوله بأبي للتفدية .  
 ٢ وصلت اليك يد الموت التي يتسارى بها العظيم والحقير .  
 ٣ الخصي الأوكع يقصد به كافوراً .  
 ٤ أي انه عظيم تظهر عظيمته أينما حل في الفرس أو في الروم أو العرب .



## وقال يرثي والده سيف الدولة ويعزيه عنها

سنة ٣٣٧

نُعدت المشرفية والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال  
ونزقبط السوابق مقربات ومن لم يعشق الدنيا قديماً  
ونصيبك في حياتك من حبيب رماني الدهر بالارزاء حتى  
فصرت اذا اصابني سهام وهذا أول الناعين طرّاً  
كان الموت لم يفجع بنفس صلاة الله خالقنا حنوط  
على المدفون قبل التراب صونا أطاب النفس أنك مت موتاً  
وزلت ولم ترني يوماً كريها رواق العز فوقك مسبطاً  
سقى مثواك غاد في الغواصي يرم بقبرك العافي فيبكي  
وما أهداك للجدوى عليه بعيشك هل سلوت فان قلبي  
نزلت على الكراهة في مكان تحجب عنك رائحة الخزامى  
بدار كل ساكنها غريب

١ علي أي سيف الدولة .

٢ سقى قبرك سحاب هاطل يشبه جود كفك .

٣ نزلت في مكان بعدت فيه عن ريح الشمال وريح الجنوب ( يعني القبر ) .

حَصَانٌ مِثْلُ مَاءِ الْمِزْنِ فِيهِ  
 يَمَلِّئُهَا نَطَاسِيٌّ الشُّكَايَا  
 إِذَا وَصَفُوا لَهُ دَاءً بِشَعْرِ  
 وَلَيْسَتْ كَالْأَنْثَى وَلَا اللَّوَاتِي  
 وَلَا مِنْ فِي جِنَازَتِهَا تِجَارٌ  
 مَشَى الْأَمْرَاءُ حَوْلِهَا حِفَاةٌ  
 وَلَوْ كَانَتِ النِّسَاءُ كَمَنْ فَقَدْنَا  
 وَمَا التَّانِيثُ لِاسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ  
 وَأَفْجَعُ مَنْ فَقَدْنَا مِنْ وَجَدْنَا  
 يَدْفَنُ بَعْضُنَا بَعْضًا وَتَمَشَى  
 وَكَمْ عَيْنٌ مَقْبَلَةٌ النُّوَاحِي  
 وَمَنْعُضٌ كَانَ لَا يَغْضِي لِحُطْبِ  
 أَسِيفِ الدَّوْلَةِ اسْتَنْجَدُ بِصَبْرِ  
 وَأَنْتِ تَعَلَّمِ النَّاسَ التَّعْزِي  
 وَحَالَاتِ الزَّمَانِ عَلَيْكَ شَتَى  
 رَأَيْتِكَ فِي الَّذِينَ أَرَى مَلُوكًا  
 فَانْفُتِقِ الْأَنْامَ وَأَنْتِ مِنْهُمْ  
 كَتُومٌ السَّرُّ صَادِقَةٌ الْمَقَالِ  
 وَوَاحِدُهُمَا نَطَاسِيٌّ الْمَعَالِي ١  
 سَقَاهُ أَسْنَتَهُ الْأَسْلَ الطَّوَالِ  
 تَعُدُّ لَهَا الْقُبُورَ مِنَ الْحِجَالِ  
 يَكُونُ وَدَاعِيهَا نَفْضُ النَّعَالِ  
 كَأَنَّ الْمَرُوءَ مِنْ زَيْفِ الرِّئَالِ ٢  
 لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ  
 وَلَا التَّذْكَيرُ فِخْرٌ لِلْهَلَالِ  
 قَسْبِيلُ الْفَقْدِ مَفْقُودُ الْمِثَالِ  
 أَوْآخِرْنَا عَلَى هَامِ الْأَوَالِي  
 كَحَيْلٍ بِالْجِنَادِلِ وَالرَّمَالِ  
 وَبَالٍ كَانَ يَفْكَرُ فِي الْهَزَالِ ٣  
 وَكَيْفَ بِمِثْلِ صَبْرِكَ لِلْحِجَالِ  
 وَحَوْضِ الْمَوْتِ فِي الْحَرْبِ السَّجَالِ  
 وَحَالِكَ وَاحِدٌ فِي كُلِّ حَالِ  
 كَأَنَّكَ مُسْتَقِيمٌ فِي مَحَالِ  
 فَانْفُتِقِ الْمَسْكَ بَعْضَ دَمِ الْغَزَالِ ٤

وَقَالَ يَصِفُ حَمِيَّ أَصَابَتِهِ وَيَعْرُضُ بِالرَّحِيلِ عَنْ مِصْرَ  
 مَلُوكِمَا يَجَلُّ عَنِ الْمَلَامِ وَوَقَعُ فِعَالُهُ فَوْقَ الْكَلَامِ ٥

- ١ يداويها طبيب الامراض ولكن ابنها طبيب المعالي .
- ٢ لم تكن من العامة فيسير وراءها أهل السوق والتجار ولكن الامراء مشوا حفاة ورائها كأنما الحجارة كانت من وبر النعام .
- ٣ وكم عين كانت تقبل دلالة أصبحت مكتحلة بالتراب وكم رجل كان لا ينكس رأسه لخطب أصبح منكساً في القبر . وكم ممن كان يفكر كثيراً في صحته وأصبح الآن بالياً بتأثير الحمام .
- ٤ ليس من الغريب ان تفوق الناس وأنت منهم فان المسك وهو من دم الغزال يفضله كثيراً .
- ٥ يخاطب صاحبيه فيقول ان من تلومانه (عل ركوب الاسفار) هو أعلى من أن يصل اليه الملام .

ذرائي والفلاة بلا دليل ووجهي والهجير بلا لثام  
فاني أستريحُ بندي وهذا وأتعبُ بالاناخة والمقام  
ولا أمسي لاهل البخل ضيفاً وليس قرى سوى مخّ النعام<sup>١</sup>  
ولمّا صار وُدّ الناس خبثاً جزيت على ابتسام بابتسام<sup>٢</sup>  
وصرتُ أشكّ فيمن أصطفيه لعلمي انه بعض الانام  
يحبّ العاقلون على التصافي وحبّ الجاهلين على الوسام<sup>٣</sup>  
وأنف من اخي لابي وامي اذا ما لم اجده من الكرام  
أرى الاجداد تغلبها كثيراً على الاولاد اخلاق اللثام<sup>٤</sup>  
ولستُ بقانع من كل فضل بان أعزى الى جدّ ممام<sup>٥</sup>  
عجبت لمن له قدّ وحسد وينبو نبوة القضم الكهام<sup>٦</sup>  
ومن يحدّ الطريق الى المعالي فلا يذر المطي بلا سنام<sup>٧</sup>  
ولم ار في عيوب الناس شيئاً كنعص القادرين على السنام

\* \* \*

أقت بأرض مصر فلا ورائي تحبّ بي الركاب ولا أمامي<sup>٨</sup>  
وملّتي الفراش وكان جنبي يملّ لقاءه في كل عام  
قليلٌ عائدي سقيم فؤادي كثيرٌ حاسدي صعبٌ مرامي

- 
- ١ وليس لي زاد البتة . إشارة الى ان النعام لا مخ له .
  - ٢ خبثاً اي خداعاً .
  - ٣ الوسام حسن المنظر . يقول ، العاقل يحب لاجل تصافي الود بينه وبين محبوبه اما الجاهل فيهم بالهيئة الخارجية .
  - ٤ اي ان الاخلاق اللثيمة قد تغلب الاصل الكريم فيجاء الولد لثيماً .
  - ٥ اي لا اقنع ان أنسب الى جد كريم بل ادرك الفضل بنفسي .
  - ٦ اي عجبت من الشباب القوي الذي اذا عرض له الامر العظيم رجع عنه رجوع السيف الذي لا يقطع .
  - ٧ من لا يذيب اسنمة الابل يجهاده في سبيل المعالي .
  - ٨ تحب بي الركاب أي تسير بي الابل ، ويريد بهذا البيت انه لزم الاقامة بها .

عليل الجسم ممتنع القيام شديد السكر من غير المدام.

\* \* \*

وزائرتي كانت بها حياة<sup>١</sup> فليس تزور الا في الظلام<sup>١</sup>  
بذلت لها المطارف والحشايا<sup>٢</sup> فعاقتها وباتت في عظامي<sup>٢</sup>  
يضيق الجلد عن نفسي وعنهما فتوسعه بأنواع السقام<sup>٣</sup>  
كان الصبح يطردها فتجري مداومها بأربعة سجام<sup>٤</sup>  
أراقب وقتها من غير شوق مراقبة المشوق المستهام<sup>٤</sup>  
ويصدق وعدما والصدق شر<sup>٥</sup> اذا القاك في الكرب العظيم<sup>٥</sup>  
أبنت الدهر عندي كل بنت جرحت مجرحاً لم يبق فيه<sup>٥</sup>  
جرحت مجرحاً لم يبق فيه فكيف وصلت انت من الزحام<sup>٥</sup>  
يقول لي الطبيب اكلت شيئاً مكان السيوف ولا السهام<sup>٥</sup>  
وما في طبه اني جواد<sup>٥</sup> وداؤك في شرابك والطعام<sup>٥</sup>  
تعود أن يُغَبَّر في السرايا<sup>٥</sup> اضر بحسه طول اللجام<sup>٥</sup>  
فأمسك لا يطل له فيرعى ويدخل من قَتام في قَتام<sup>٥</sup>  
ولا هو في العليق ولا اللجام<sup>٥</sup> ولا هو في العليق ولا اللجام<sup>٥</sup>

١ إشارة الى الحمى .

٢ المطارف : اردية الخبز . والحشايا الفرش .

٣ يريد ببنت الدهر الحمى وبنات الدهر شدائده فيقول : ايتها الحمى ، عندي كل نوع من انواع الشدائد فكيف لم ينعك اذحامن من الوصول الي .

٤ اللجام : الراحة .

٥ تعود ان يثير النبار بين الجيوش ويخرج من غبرة الى غبرة اي من معركة الى اخرى .

٦ فأمسك لا يرعى له الحبل فيرعى ولم يقدم له العليق فياكل ولم يكن تحت اللجام في السفر وقد شبه حالته مع كلفور بحالة هذا الجواد .

## المصري

ابو العلاء احمد بن عبد الله بن سليمان

٣٦٣ هـ - ٤٤٩ هـ

٩٧٤ م - ١٠٥٨ م



مصادر دراسته - عصره ونشأته - زندقته وإيمانه - شاعريته  
شعره في سقط الزند واللزوميات - مواقفه الشعرية

## مصادر دراسته

- نزهة الالباء للانباري ٤٢٥  
كتاب الانصاف والتحري - لكيال الدين ابن العديم  
وهو منشور ضمن كتاب اعلام النبلاء للطباخ ج ٤ من ص ٧٨  
معجم الادباء لياقوت ج ١ ص ١٦٢ - ٢١٦  
وفيه ما دار من المراسلات بين المعري وداعي الدعاة  
وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٧ ( تحت حرف احمد )  
ترجمة المعري للذهبي منشورة في ذيل رسائل المعري ( اكسفورد )  
مفتاح السعادة لطاش كبري زاده ج ١ ص ١٩١ - ١٩٢  
رسائل المعري ( طبع اكسفورد )  
اللزوميات مطبعة المحروسة ( مصر ١٨٩١ ) وبومباي ١٣٠٣ هـ  
د مصر ١٧٢٤  
شرح التنوير على سقط الزند مطبعة الاسلام ( مصر ) ١٣٣٤ هـ .

وما كتب عنه حديثاً :

- ترجمة مسهبة بالانكليزية للاستاذ مرغوليوث في مقدمة رسائل المعري  
ترجمة للاستاذ نكلسون في دائرة المعارف الاسلامية  
ذكرى أبي العلاء للدكتور طه حسين  
اعلام النبلاء للطباخ ج ٤ ص ١٧٥ - ١٨٠  
المهرجان الالفى للمعري نشر المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٤٥  
ورسائل وترجمات شتى في كتب الأدب والتاريخ لعرب ومستشرقين منها :  
ترجمة وشرح بعض اللزوميات لفون كريم في Z. M. D. G.  
المجلد ٣٠ و ٣١ و ٣٨ .

## عصره وبيئته

ذكرنا في فصل سابق ان اماره بني حمدان كانت أيام سيف الدولة في حروب متواصلة وان هذا الامير كان كثير السخاء على الادباء والعلماء ، وقد اضطره كل ذلك الى الانفاق والتشديد في جمع الاموال من رعيته . ولما مات خلفه ابنه ابو المعالي ثم ابنه ابو الفضائل ، وفي ايامها تفاقمت الخطوب وأصبحت اماره حلب يوم نشأ شاعرنا معتركا لاربع قوى رئيسية :

الاولى - الحمدانية وكانوا قد ضعف أمرهم وأخذت السيطرة تخرج من أيديهم .

الثانية - الفاطمية أصحاب الامر في مصر وكان لهؤلاء مطامع في حلب ، فلم يألوا جهداً في دس الدسائس وارسال الجيوش لفتحها .

الثالثة - قبائل البادية ، ومنهم المرداسية التي كان لها شأن يذكر في هذا الاضطراب السياسي .

الرابعة - الروم ، وغاراتهم على اماره بني حمدان معروفة . على انهم بينا كانوا أيام سيف الدولة يُعدّون أعداء المسلمين عموماً ، أصبحوا أيام المعري - بسبب تطاحن امراء المسلمين - عوناً لبعض هؤلاء الامراء على بعض وسبباً في توسيع شقة الخلاف بينهم . فمن ذلك انهم ناصروا ابا الفضل ابن حمدان على الفاطميين ، وكانت هؤلاء يحاصرون حلب<sup>١</sup> . وبهم استنجد حسان بن المفرج ولؤلؤ مولى ابي الفضل . فكان بين المسلمين

---

١ ذيل تجارب الامم للروذراوري ( امدروز ١٩١٦ ) حوادث سنة ٣٨١ .

حروب داخلية أدت الى تدخل الروم وانحيازهم الى أحد الفريقين ، مما زاد الطين بلة في تلك الفوضى السياسية . وانك لتلمح في شعر المعري شيئاً من ذلك فقد قال في مدحة له لاحد الامراء :

ايوعدنا بالروم ناس وانما هم النبت والبيض الرقيق سوام  
كأن لم يكن بين الخاض وحارم كتائب يُشجين الفلا ونخيام<sup>١</sup>  
كتائب من شرق وغرب تألبت فرادى اناها الموت وهو تُوام

ويؤخذ من هذه الابيات ان بلدة الشاعر كانت في يد أمير معادي للروم ، والارجح انها كانت قد استقلت يومئذ عن حلب ، وان اعداء ذلك الامير كانوا يتوعدونه باستنجد الروم عليه ، فنظم الشاعر قصيدته مشيراً الى بأس الامير والى انهزام كتائب الروم بين هذين المكانين وانهم لذلك لا يخشون بأسهم ولا يبالون بوعيدهم .

فاذا نظرنا الى الاحوال السياسية التي نشأ فيها ابو العلاء : نراها كثيرة الاضطراب والفتن والاهوال ، ولا شك ان ذلك شديد التأثير في احوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية ، فاشتدت فيها الضائقة والفساد وبرزت في الرؤساء الروح الاشعبية ، روح التكالب على المال والامارة مما يُعكس لنا جلياً في شعر شاعرنا الكبير :

مُلّ المقام فكم اعاشر امة امرت بغير صلاحها امراؤها  
ظلموا الرعيّة واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراؤها

\* \* \*

### مولده ونشأته

وُلِدَ المعري في المعزة وفيها نشأ . والمعروف من كتب التاريخ انه أصيب بجُدري وهو في الرابعة من عمره ذهب بنظره . على ان عمه لم

---

١ الخاض نهر قرب المعرة ، وحارم بلدة قرب انطاكية . يشجين الفلا أي يقص بهم الفلا لكثرتهم .



يكن في أول الامر كلياً ، فان النصوص كلها تشير الى ان الجدرى ذهب بيسرى عينيه وغشي يناما بياض . ويقول الانباري : « انه كان ضريباً اعمى ولم يكن اكمه كما توهم من لا علم له <sup>١</sup> » . وقد روى ابن العديم عن بعض اهل الادب حكاية نقلها عن رجل اسمه ابو منقذ انه رأى ابا العلاء وهو صبي دون البلوغ فقال في وصفه : وهو صبي دمى الخلق مجدور الوجه وعلى عينه بياض من الجدرى وكأنه ينظر باحدى عينيه قليلاً <sup>٢</sup> .

والذي يترجح لدينا من ذلك ان الشاعر لم يفقد بصره تماماً الا بعد بضع سنوات من مرضه . على ان ما فقده من باصرته استعاض عنه بحدة بصيرته ، فقد اجمع المؤرخون على شدة ذكائه وقوة حافظته ، ولهم في ذلك أقاصيص وروايات معروفة <sup>٣</sup> .

والمعري من بيت علم ورتاسة <sup>٤</sup> - فأبوه من العلماء ، وجدّه واپو جدّه وجدّ جدّه كلهم تولّوا قضاء المعرة . وقد بقي القضاء في بني أخيه الى ان دخلها الافرنج سنة ٤٩٢ هـ - أي الى ما بعد موت الشاعر بأكثر من اربعين سنة .

ومن آله ( آل سليمان ) فضلاء وعلماء وشعراء لا يتسع المقام لذكرهم ، وكانت الفتاوى ( على ما يستفاد من ياقوت وابن العديم ) في بيتهم على المذهب الشافعي أكثر من مئتي سنة .

في وسط علمي ديني كهذا الوسط نشأ شاعرنا فأخذ العلم والادب اولاً عن أبيه ثم عن جماعة من علماء المعرة ، وزار في حدائقه بعض المدن الشامية المعروفة بالعلم كانطاكية واللاذقية وطرابلس ، فاخذ العلم من علماءها

١ طبقات الادباء ٤٢٥ .

٢ الانصاف والتعري ( في اعلام النبلاء ج ٤ - ١٠٤ ) .

٣ راجع ترجمته في معجم الادباء ، وفي الانصاف والتعري ( طبياخ ٤ - ١٠١ ) .

٤ مفتاح السعادة ١ - ١٩١ .

٥ معجم الادباء ١ - ١٦٤ .

ومما وجدته في مكاتبها . ويؤخذ من رسالته الى خاله ابي القاسم ابن سبيكة انه لم يقصد بعد العشرين اهداً اجتداءً لعلم<sup>١</sup> . بقي في ذلك بضع سنوات ثم عاد الى المعرّة ، والظاهر انه بدأ حياته العلمية كسائر العلماء والشعراء ( في قرص الشعر للامراء ) ولكنه لم يكد يفعل ذلك حتى عدل عنه . فليس له في سقط الزند الا بضع مدائح فيمن يرجى عطاؤهم كسعد الدولة بن حمدان وسواه . وهذه المدائح من أوائل شعره ، أما سائر مديحه ففي فقهاء أو أدباء من طبقتهم اختصهم بالوداد والاطراء .

### فها به الى بغداد

ولما بلغ الخامسة والثلاثين من عمره ( أي سنة ٣٩٨ ) قام برحلة اولى الى بغداد ، ولا نعرف كثيراً عن هذه الرحلة . ثم رحل اليها ثانية سنة ٣٩٩ وأقام فيها سنة وسبعة اشهر<sup>٢</sup> .

وهنا لا بدّ من ان نتساءل لماذا رحل الى بغداد ولماذا لم يقيم فيها طويلاً ؟ والذي يؤخذ من مراجعة شعره ورسائله ومقابلتها بأقوال المؤرخين ان الاضطرابات السياسية في حلب والمعرّة أهابت به الى ترك وطنه وقصد بغداد<sup>٣</sup> . وكان ينوي الإقامة فيها واستخدام مواهبه في سبيل العلم ، ولكنه لم يوفّق الى امنيته ففي رسالته الى خاله ابي القاسم التي كتبها على اثر رجوعه من بغداد يقول : « وكنت ظننت ان الايام تسمح لي بالإقامة ، فاذا الضارية احباً بعراقها ، والعبد أشحّ بكراعها ، والغراب اضنّ بتمرته » . الى أن يقول : « فلما زينت الضروس الحالب ، ونزّت العنود تحت الراكب ، ومنعت القسّوع النازع ، وخيب رائدأ سحاب ، وكذب شائماً برق ، عادت لعيرها لّمسيس<sup>٤</sup> وذكر وجاره ثُعالة » . ثم

١ رسائل المعري ( اكسفورد ) ٣٢ .

٢ ابن خلكان ١ - ٤١ .

٣ ويروي الذهبي انه ذهب الى بغداد متظلاً من أمير حلب لمعارضته إياه في وقف له .

٤ مثل يضرب لمن يرجع الى ما كان عليه ويشير هنا الى رجوعه الى وطنه .

يقول : « ولما فاتني المقام بحيث اخترت ، اجتمعت على انفراد يجعلني كالظبي في الكناس الخ ، ١ .

ولعلّ ما في طبع المعري من الأنفة منعه من ان يحصل رزقه في بغداد على طريقة المدّاحين المستجدين من الشعراء ، فكان ذلك من الاسباب التي عجّلت في رجوعه . فقد ذكر في الرسالة الآنفه الذكر ان أهل بغداد قابلوه بالاكرام وانهم لما أحسّوا بتأهبه للرحيل اظهروا كسوف بال ، ثم يقول : « وانصرفت وماء وجهي في سقاء غير سرب ، ما أرقّت منه قطرة في طلب أدب ولا مال . وتظهر انفته الشديدة ايضاً في ما جرى له في مجلس الشريف المرتضى ، وكان هذا يبغض المتنبي ، وكان المعري يتعصب له . فجرى يوماً بحضورته ذكر المتنبي فتنقّصه المرتضى ، فقال المعري لو لم يكن للمتنبي من الشعر الا قوله « لك يا منازل في القلوب منازل ، لكفاه فضلاً ، فغضب المرتضى وأمر فسُحب برجله وأخرج من مجلسه ٢ ، وقال لمن بحضورته : أراد هذا الاعمى قوله :

واذا اتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

وفي شعره كثير مما يشير الى هذا الطبع فيه ، كقوله من قصيدة كتب بها الى الفقيه ابي حامد الاسفراييني عند دخوله بغداد :

ولا اثقل في جاهٍ ولا نشبٍ ولو غدوت اخا عُدُم واقناع  
وما كتبه في بغداد يخاطب اهل بلده :

إخواننا بين الفرات وجلتقٍ يد الله لا اخبرتكم بمحال  
انبتكم اني على العهد سالم ووجهي لما يبتذل بسؤال  
فاصبحت محسوداً بفضلي وحده على بُعد انصاري وقلّة مالي

رجل عزيز النفس مثله يأنف من السؤال ومن التزلف الى كبار القوم

١ راجع رسائل المعري ( اكسفورد ٣٠ - ٣٢ ) .

٢ معجم الادباء ١ - ١٧٠ .

في عصر كان التزلف هو جادة الاديب الى الرزق ، لا يُستغرب ان  
تضيق به الحال في عاصمة الخلافة حتى تحمله الى ان يقول :

تمّيت ان الخمر حلّت لنشوة تجهّلتني كيف اطمانت بي الحال  
فاذهل اني بالعراق على شفا رزي الاماني لا انيس ولا مال  
مقلّ من الاهلين يسري واسرة كفى حزننا بين مشت واقلال  
وكم ماجدي في سيف دجلة لم اشم له بارقا والمرء كالزمن هطّال  
سيطلبني رزقي الذي لو طلبته لما زاد والدنيا حظوظ واقبال

وبرغم ما في قصيدته التي ودع فيها بغداد من مدح لاهل تلك المدينة ،  
فان في قصائده الاخرى التي قالها في بغداد ما يتمّ على ما كان يشعر به  
من ضيق ومن تحنان الى وطنه<sup>١</sup> . وفي قصيدة بعث بها الى القاضي  
التنوخى يذكر ان الذي اهاب به الى تركها رجاؤه بقاء والدته ونفاذ ماله :

اارني عنكم امران ، والدة<sup>٢</sup> لم ألقها وبراء عاد مسفوتا

أما والدته فهانت قبل وصوله الى المعرة فجزع لذلك وراقها رثاء ابن  
مفجوع .

ولما عاد الى المعرة لزم منزله وعاش فيه على طريقة الفلاسفة المتقشفين .  
ويظهر من بعض رسائله انه فكّر كثيراً في ذلك ، فقد قال من رسائله  
لأهل المعرة : « فوجدت ما اصنعه في ايام الحياة عزلة تجعلني من  
الناس كبارح الأروى من سانح النعام . وما ألتوت نصيحة<sup>٣</sup> لنفسي .  
فأجمعت على ذلك واستخرت الله فيه بعد صلواته على نقر يوثق بخصائلهم ،  
فكلهم رآه حزماً ، وعدّه اذا تمّ رشداً ، وهو أمر ليس بنتيج الساعة  
ولا ربيب الشهر والسنة ولكنه غذي<sup>٤</sup> الحقب المتقدمة ، وسليل الفكر  
الطويل الخ<sup>٥</sup> . »

على ان زهد المعري لا يعني انقطاعاً عن العمل ، بل ترفماً عن

١ ولا يستبعد ان يكون اكثر ذلك في اثناء رحلته الاولى .

٢ رسائل المعري .

حطام الدنيا وغرورها . فالرجل كان كثير العمل حريصاً على التعليم والتأليف . وفي هذا الطور من حياته نظم لزومياته وصنّف أكثر كتبه ورسائله<sup>١</sup> . وكان منزله محبّة الطلاب يقصدونه من كل الآفاق<sup>٢</sup> ، وإلى ذلك يشير في اللزوميات :

يزورني الناس هذا ارضه يمنّ من البلاد وهذا داره الطيّب

وقد خرج منهم ائمة وقضاة ورؤساء في العلم : منهم الخطيب ابو زكريا التبريزي وابو المكارم الابهري وابو تمام ابن عيسى الانصاري وابو ظاهر الانباري وابو القاسم التنوخي وسواهم .

وبرغم تقشفه ولزومه منزله كان له من الوجاهة اسمى مقام . قال ابن العديم : « وما زالت حرفة ابي العلاء في علاء وبحر فضله مورداً للوزراء والامراء . وما علمت ان وزيراً مذكوراً وفاضلاً مشهوراً مرّ بمعرّة النعمان في ذلك العصر الا وقصده واستفاد منه<sup>٣</sup> . » . وما يدلّك على وجاهته ما نقله ياقوت والذهبي<sup>٤</sup> من ان أهل المعرّة لما اشتد عليهم صالح بن مرداس لم يجدوا بداً من ايفاد المعري مستشفعاً فيهم ، فقصد الامير ولما دخل عليه قال الامير : انت ابو العلاء ؟ فقال انا ذاك . فرفعه الى جانبه ، وبعد ان خاطبه المعري بأمرهم قال له اني قد وهبتها لك ايها الشيخ .

ولما أصبحت المعرة وحلب تحت سطوة الفاطميين بذل له المستنصر الفاطمي ما ببیت المال بالمعرة فلم يقبل منه شيئاً ، وكذلك داعي الدعاة لما عرف تزهد المعري وقلّة دخله كتب الى نائب الفاطميين بحلب بأن يُجري ما تدعو اليه حاجته وان يضاعف حرمة ويرفع منزلته عند الخاص والعام ،

---

١ من اراد ان يعرف عدد مؤلفاته فليراجع معجم الادباء والانصاف والتحريري وما نقله الذهبي عن القفطي .

٢ ابن خلكان ١ - ٤١ .

٣ أعلام النبلاء ٤ - ٢٤٤ .

٤ معجم الادباء ١ - ٢١٦ ورسائل المعري ( اكسفورد ) ١٣٠ .

فامتنع عن قبول ذلك<sup>١</sup> . وبين المعري وداعي الدعاة رسائل ومكاتبات نستدل منها على ما كانت لشاعرنا من المنزلة الرفيعة عند زعماء ذلك العصر .

ويؤيد كل ذلك ما ذكره الشاعر الفارسي ناصر خسرو الذي زار المعرة سنة ٤٣٩ أي قبل موت المعري بعشر سنوات ، فوصفه بقوله « انه رجل ذو نفوذ عظيم في بلدته وذو غنى ، ينفق على الفقراء والمعوزين ، مع انه يعيش عيشة الزهد والتقشف »<sup>٢</sup> .

وفي شعر المعري ورسائله ما قد يزكّي شهادة ناصر خسرو ، كقوله في اللزوميات مشيراً الى ما يعتقدونه الناس من حسن حاله :

مَنْ لِيَّ اِنْ لَا اَقِيْمَ فِي بِلَدٍ اَذْكُرُ فِيهِ بِغَيْرِ مَا يَجِبُ  
يُظَنُّ بِي الْيَسْرَ وَالِدِيَانَةَ وَالْمَعْلَمَ وَبَيْنِي وَبَيْنَهَا حُجُبُ  
ومن قصيدته :

تفهم يا صريع البين بشرى أتت من مستقلٍ مستقيلٍ  
يُستدل انه ارسل قدراً من المال الى أديب اسمه صريع البين ، ويسأله  
المعذرة على قلة ما ارسل اليه .

وكذلك في قصيدته :

ايبسط عذري منعم ام يخصني بما هو حظي من ألم عتاب  
يعتذر لفقير عن ان الهدية التي ارسلها اليه أقل من قدره وكان  
المعري يومئذ في الخمسين من عمره فقال :

فيا ليتني اهديت خمسين حبةً مضت لي فيها صحي وشبابي  
وقلّلت له - فترك ثلاثين اسوداً متى ما تكشفت تُلّفَ غير لباب  
لعل الذي انفذتُ يكفيه ليلةً لاسباغ طهرٍ حانٍ أو لشراب  
وفي البيت الثاني اشارة الى ان الهدية ثلاثين درهماً فقط .

١ الانصاف والتعري ٤ - ١٤٤ .

٢ نقلاً عن Encyc. of Islam من فصل للاستاذ نكلسون .

ومثلها قوله في رسالة أرسلها الى علوي « وقد بعثت بشيء من النفقة ،  
نفسي من قلته كل المشفقة »<sup>١</sup> .

ومما يؤيد ذلك ما ذكره ابن العديم مما قرأه بخط ابي الفرج محمد بن  
أحمد بن الحسن الكاتب الوزير « رورنامج » انشأه لولده الحسن يذكر  
فيه رحلته سنة ٤٢٨ الى الحجّ وعبوره بعمرة النعمان ، ويذكر اجتماعه بابي  
العلاء ومن قوله فيه : « وقصر همد علي أدب يفيدته وتصنيف يجيده ،  
ومتعلم يفضل عليه ومسترفد صعولك يحسن اليه » . قال : « وله دار حسنة  
يأويها ومعاش يكفيه ويمونه ، وأولاد أخ يخدمونه ويقرأون بين يديه ويدرسون  
عليه ويكتبون له ، وورّاق برسمه مستأجر ، ثم ينفق على نفسه من دخل  
معاشه نفقة طفيفة ، وما يفضل عنه يفرّقه على أخيه وأولاده واللانذين  
به والفقراء والقاصدين له من الغرباء »<sup>٢</sup> .

ولما قصده الخطيب التبريزي ليقراً عليه دفع اليه صرّة فيها ذهب ،  
وقال : « اوثر من الشيخ ان يدفعها الى بعض من يراه ليشتري لي ما تدعو  
اليه الحاجة مدة مقامي للقراءة واتوفر بذلك على الاشتغال » . وعلم المعري  
ان هذا الطالب كان فقيراً فأخذ الصرة وخبأها وتقدم الى وكيله ان يجري  
للخطيب ما تدعو اليه الحاجة مدة اقامته بالمعرة . ولما اتم دروسه وهمّ  
بالانصراف ودّع الشيخ ، فدفع اليه صرّته بعينها . ولما اصر عليه الخطيب  
قال المعري : لا سبيل الى رد الصرة عليّ ، وهذا ذهبك بعينه<sup>٣</sup> .

وهناك قصة نقلها الصفدي في نكست الهميان عن ابن سبط الجوزي  
عن رجل دخل المعرة أيام المعري وقد وُشيّ بشاعرنا الى محمود بن  
صالح انه زنديق - قال : فأمر محمود بحمله اليه وبعث خمسين فارساً  
ليحملوه ، فأنزلهم ابو العلاء دار الضيافة .

١ رسائل المعري ( اكسفورد ) ٣٥ .

٢ الانصاف والتعري ٤ - ١٥٢ .

٣ الانصاف والتعري ٤ - ١٥٢ .

ولا نعلم مبلغ هذه القصة من الصحة ولكنها اذا قرنت بما ذكرناه  
عن جاء ابي العلاء وحسن حاله في المعرة - بما لا سبيل الى الشك  
فيه - ترجح لدينا تصديقها .

ومع كل ذلك فأكثر الذين يترجمون للمعري من قدماء ومحدثين يذهبون  
الى فقر شاعرنا ، وانه كان يعيش من وقف له لا يتجاوز الثلاثين ديناراً  
يعطي نصفه لخادمه . فكيف نجتمع بين القولين - بين وجاهة المعري  
وكرمه من جهة ، وفقره وزهده من جهة أخرى ؟ - والجواب : ان  
المعري بعد ان استقر في المعرة وعكف على العلم والتعليم قصده الطلاب من  
الآفاق وكاتبه الكبراء والامراء ، فعظم شأنه وحسنت حاله . ولكنه لم يكن  
يستعمل من ماله إلا النزر اليسير ، وينفق الباقي في سبيل اللاندين  
والمعوزين . وهناسر العظمة في حياة المعري الزهدية . عاش عيشة الحكماء  
المتورعين عن الدنيا ، ولكنه لم يكن في ذلك كأبي العتاهية وأضرابه من  
الحريصين على المال المقبلين على حطام الحياة ، بل قنع باليسير اعتقاداً  
بحكمة القناعة ، وأحسنَ بما كان يفضل عنه اعتقاداً بشرف الاحسان .

### زندقته وایمانه

اختلف الناس في المعري فمن ناعت اياه بالتقى وحسن العقيدة ، ومن  
ناسب اليه الضلال والالحاد . وسبب ذلك ما يجردونه في لزومياته من النقد  
الموجه الى الزعماء والرؤساء ، وما يهاجم به احياناً بعض المذاهب والعقائد  
الدينية . فمن اتهموه في دينه ياقوت وابن الجوزي والصلاح الصفدي ،  
وجاراهم الذهبي فقال : « مات متحيراً لم يحتم بدين من الاديان نسأل  
الله ان يحفظ علينا ايماننا بكرمه » .

ومن ذهب الى انه صحيح العقيدة ابو الحسن الهكاري وابن العديم  
صاحب « الانصاف والتعري في دفع التجري عن المعري » . ومنهم السلفي  
فقد لخص أقوال الناس فيه ثم ختم ذلك بقوله : « ففي الجملة كان من



أهل الفضل الوافر ، قرأ القرآن بروايات وسمع الحديث بالشام على ثقات . وله في التوحيد واثبات النبوة وما يخصّ على الزهد واحياء طرق الفتوة والمروة شعر كثير<sup>١</sup> .

\* \* \*

ولا يزال الناس الى اليوم مختلفين في هذا الامر ، على انه لا بدّ قبل الحكم على المعري من ان نلقي نظرة على عصره وعلى ما كان له من الاثر في نفسه . فقد عاش شاعرنا ما بين منتصف القرن الرابع ومنتصف القرن الخامس الهجري - أي في ابان الحركة الفكرية عند العرب . في ذلك العصر تمّ نقل العلوم اليونانية ونبغ بين المسلمين كثيرون من العلماء والمفكرين والنقادين ، فكانت بغداد وكثير من المدن الشرقية الاخرى مراكز علمية احتكت فيها «الروحانية» السامية التي حلت الى الناس الايمان بالتوحيد والمعاد والآداب الدينية ، «بالعقلية» اليونانية التي حلت اليهم البحث المنطقي والنظريات العلمية . وكان من جراء ذلك الاحتكاك اشتداد الفرق الكلامية وتعدّد المنازع الفكرية بين مناصر للنصوص الدينية أو مضاد لها . ومن الانصاف هنا ان نقول ان هذا النزاع بين النقل والعقل كان يضعف أو يشتد بالنسبة الى الاحوال الاجتماعية او السياسية . على ان العصور الوسطى مدينة<sup>٢</sup> للغة العربية في انها (أي العربية) اتسمت يومئذ للتفكير العلمي ، فكانت الموثل الذي حفظت فيه ثمار العقول القديمة .

ولا شك ان هذا النزاع الفكري احدث في العقول ميلا الى النظر النقدي في الكون والحياة والدين والمعاد ، فتسرب الشك الى عقول بعض المفكرين ، واستولى عليهم روح الانكار ، فرفضوا ما لم تقبله عقولهم من تعاليم وسنن ، وفادوا بالرجوع الى المبادئ الاولية في الحياة الروحية والاجتماعية . ومن

---

١ راجع القول في عقيدة المعري واختلاف الناس فيه (اصلام النبلاء ، ص ١٦٣ الى ١٦٧ والذهبي في وسائل اكسفورد ص ١٣٠ - ١٣٥) ، راجع مفتاح السعادة ج - ١

- ١٩١ و ١٩٢ .

هؤلاء شاعرنا - فقد نشأ في هذا الجو الفكري المضطرب تواقاً الى المعرفة والى بلوغ الحقائق ، وفي نفسه اصطدمت «تقاليد» الدين بأحكام العقل فاضطرب وصار يتلمس طريقه توصلًا الى ما يشفي أوامه ، فلم يوفق تمام التوفيق : كان الايمان أساس حياته ولكنه قضى الحياة حائراً تتقاذفه لجج الشك والتشاؤم . ومن هنا هذا الاختلاف في الحكم عليه .

على اننا اذا دققنا في حياته وشعره وحاولنا ان نخترق الضباب الذي يحيط به رأيناه يظهر لنا في طورين مختلفين تفصل بينهما مدة اقامته في بغداد .

فالطور الاول طور الشباب ويمتد الى سنة ٤٠٠ هـ . وفي هذا الطور نراه مسلماً حقيقياً ، وبرغم ما قد تمّ عليه بعض اشعاره من روح التفكير لا نراه يختلف في تصرفه العادي عن سائر المؤمنين .

والطور الثاني طور العزلة . يبتدىء عقب رجوعه من بغداد ، ويمتد الى آخر حياته وفي هذا الطور يقف موقفين رئيسيين :

١ - تجاه الآخرة . وهو هنا حائر يجمع في نفسه التفكير الفلسفي والعاطفة الدينية الموروثة جمعاً غير محكم - فتارة تراه مؤمناً وطوراً مشككاً - ولهذا نجد في شعره بعض المتناقضات ، وسيأتي معنا تفصيل ذلك .

٢ - تجاه الحياة والانسان . وهو هنا صريح ثابت الرأي يغلب عليه التشاؤم والمرارة ، ويلخص هذا الموقف بالمبادئ التالية :

ان الطبيعة ثابتة لا تزول ( وهو مذهب الفلاسفة الطبيعيين )  
ان الانسان فاسد بطبيعته ولا يمكن اصلاحه .

ان الطمع أساس كل تصرفاته ومعتقداته .

ان الدين انما هو حسن الاخلاق وشرف المعاملة ( لا مجرد الفروض والسنن والايان ) .

ان حقيقة الحياة هي القناعة والبساطة .

ان الوجود علة الشقاء فالأفضل ان نتخلص منه بعدم التناسل .  
وله في المرأة آراء لا تخرج عن آراء عصره ، وسيظهر لنا كل ذلك  
في تحليلنا لشعره .

### شاعريته وشعره

للمعري مقام فريد بين شعراء العربية - لا من حيث أسلوبه وفنه -  
ولكن من حيث روحه ونظرة الى الدنيا . وقد رأينا ان حياته الفكرية  
تظهر في طورين مختلفين . وفي هذين الطورين تظهر حياته الشعرية أيضاً -  
الاول يتناول شعر الشباب منذ بدء عهده بالنظم الى اعتزاله ، ويدخل  
فيه أيضاً بعض ما نظمه بعد ذلك . وقد دوّن لنا هذا الشعر في سقط  
الزند - والثاني شعر العزلة ويتمثل لنا في لزومياته أو ديوانه المعروف  
بلزوم ما لا يلزم . ولنتقدم الى تحليل كل من هذين الطورين .

### الطور الأول - سقط الزند

في هذا الطور نجد المعري جارياً في سنن الأقدمين من الشعراء ، فيكثر  
في شعره ذكر النياق والرحيل والأحبة . ولكي تعرف مقدار ذلك نقول :  
خذ الجزء الاول من سقط الزند فهو يشتمل على أكثر من ثلاثين قصيدة ،  
وفي أكثر من ثلثها تجد للقصيدة مقدمة يصف بها المطايا أو يتكلم  
الفزل على الطريقة القديمة . أما الجزء الثاني من الديوان فاذا استثنيت  
« درعياته » رأيت نصفه على هذا المنوال القديم .

ومن أمثلة وصفه للمطايا قوله يذكر سريها في الليل :

وأسودَ لم تعرف له الانس والداً      كسانيّ منه حلةً وخاراً  
سرتُ بيّ فيه ناجياتٌ مياها      تجمّ اذا ماء الركائب غارا  
فخرّ قن ثوب الليل حتى كأنني      اطرتُ بها في جانبيه شرارا

الى ان يقول :

إذا قُبِدْتُ في منزل بتنوفةٍ حسبت مُناخاً أو طنته مئارا  
تظن غطيظ النوم نومة زاجرٍ فتقطع قيدا أو قبت هيجارا  
ثم يقول :  
ولست تحسّ الارض منها بوطاة فتفزع سرباً أو تروع صوارا  
تدوس أفاحيص القطا وهو هاجد فتعضي ولم تقطع عليه غرارا  
وينسج مقدمته على هذا النسق البدوي في نحو عشرين بيتاً ، ثم يتقدم  
الى المدروح ويصف بأسه في الحرب ، ثم يتناول وصف خيله وكرها  
في اثني عشر بيتاً لا تقول اذا قرأتها الا ان ناظمها فارسٌ من الفرسان  
البادية<sup>١</sup> .

وقس على ذلك عشرات من قصائده . وقد يلفت النظر متابعتة لأبي  
تمام في وصف المركب الذي حمله الى الأنبار ، وتشبيهه اياه بالناقة السريعة ،  
كقوله من قصيدة مطلعها « يا ناق جدّي فقد أفنت اناتك لي » .

على نجاة من الفرصاد أيدها ربّ القدوم بأوصال وأضلاع  
تُطلى بقارٍ ولم تجرب كأن طليت بسائل من ذفاري العيس مُنباع<sup>٢</sup>  
ولا تبالي بمحلٍ ان ألم بها ولا تهش لإخصاب وامراع  
أما غزله فظاهر الصناعة قليل الروتق ولا ينتظر ممن كان كالمعري  
غزل خارج من قلب متأثر يجمال الحبيب . فمن قوله في ذلك :

الله ايامنا المواضي لو ان شيئاً مضى يعود  
أبلى ودادي لكم زمان ألينُ أحداثه حديد  
لم يبيل من بذله ولكن يبلى على طيه الجديد

فانظر الى هذا الحب الذي يبلى لتقدم العهد عليه وقابله بشعور محب  
صادق الحب متم القلب . ومن غزله :

١ راجع هذه القصائد في سقط الزند ١ - ١٧٥ .  
٢ تطلّى بقارٍ كأنه لسواده عرق سائل من ذفاري الابل ( الذفاري مؤخر الاذن ) وعرق الابل  
أسود . ورب القدوم أي النجار . نجاة : ناقة سريعة .

ما يوم وصلك وهو أقصر من      نفس بأطول عيشه غالي  
 علقت حبال الشمس منك يدي      وجديدها في الضعف كالبالي  
 وأردت وِرْد الوصل من قمر      فصدرت عنه كوارد الآلِ  
 وطلبت عندك راحة وعلى      قدر اعتقادي كانت ادلاي  
 وظننت في البلوى مناي ولم      تكن المنيّة لي على بالِ  
 ما زلت أبلغ ما أهمّ به      حتى هممتُ بكوكب عالِ  
 ان فات سلوان الحياة فكل      الناس بعد مماته سالِ  
 إلى آخر الأبيات وأكثرها على هذا النسق من قلّة الطلاوة . وليس  
 غزل المعري بقليل في شعره ، ولكنه فنياً دون غزل المتنبي أو البحتري  
 أو أبي تمام - ناهيك بشعراء الحب المعروفين . ولا نرى الا ان المعري  
 كان يجري فيه جرياً صناعياً متبعاً فيه طريقة من تقدمه في النظم .  
 ومما يلزم ذكر المطايا والحبيب ذكر السيف والرمح والدرع ، وله  
 في ذلك أقوال كثيرة تدل على مهارته اللغوية في الوصف كقوله :

وكل أبيض هنديّ به شُطَب      مثل التكتسر في جاري بمنحدرِ  
 تغايرت فيه أرواح تموت به      من الضراغم والفرسان والجزرِ  
 روض المنايا على ان الدماء به      وان تخالفن أبدالاً من الزهرِ  
 ما كنت أحسب جفنًا قبل مسكنه      في الجفن يطوى على نار ولا نهرِ  
 ولا ظننت صغار النمل يمكنها      مشيً على اللجّ او سميً على السعيرِ  
 ومما يبرز في شعره ذكر الضواري والطيور ، فهو كثير التمثيل بالذئب  
 والضبع والأسد والأرقم والقطا والحمام والنعام والنسر والوعل والغراب .  
 ومثل ذلك كثرة ذكره للنجوم والأفلاك والصبح والظلام ، ونجتمزىء  
 منه بما يلي ، وهو من قصيدته « أرى العنقاء تكبر ان تصادا » :

لي الشرف الذي يطأ الثريا      مع الفضل الذي بهر العبادا  
 ولو ملأ السهى عينيه مني      أبرّ على مدى زحل وزادا  
 وقد أثبت رجلي في ركاب      جعلت من الزماع له بدادا

إذا أوطأتها قدّمي سهيل فلا سقيت خنصرة المهادا<sup>١</sup>  
كان ظمأهنّ بنات نعش يردن إذا وردن بنا الثّادا

\* \* \*

ومما يلاحظ في شعر المعري عموماً كثرة استشهاده بالحوادث الماضية  
ورجالها . ففي الجزء الثاني من سقط الزند مثلاً نحو ثلاثين شاهداً من  
هذا القبيل<sup>٢</sup> .

وفي هذا الطور من شعر المعري نراه شديد الشعور بأهمية نفسه كثير  
التفاخر بها ، يستلذ مدح المادحين ويؤله حسد الحساد .  
كقوله :

تعاطوا مكاني وقد فُتّهم فما أدركوا غير لمح البصر  
وقد نبحوني وما هجتهم كما نبح الكلب ضوء القمر

وله كثير من الشعر الفخري ، وهو بذلك غير المعري في اللزوميات  
حيث تعدّى طور الشباب وأنضجه اختبار الدنيا ، فلزم التواضع والزهد  
وصار يبتعد عن السخائف والظواهر<sup>٣</sup> .

أما أسلوبه فيكثر فيه الغريب من الألفاظ وغير المؤلف من المصطلحات  
وهو كثير الولع بأنواع البديع والمجاز ولا سيما الجناس والتمثيل وسنرى  
ذلك في كلامنا عن لزومياته .

\* \* \*

وإذا نظرنا إلى الرجل نفسه فإنا نراه في سقط الزند متمسكاً بمقائد

١ خنصرة محل بالشام .

٢ راجع من ذلك الصفحات التالية ٥٣ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ،  
١٢٩ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ، ٢٠٥ ،  
٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ .

٣ راجع فخره في الجزء الأول ٨٧ ، ١١٥ ، ١٤٧ ، ١٥٧ ، ١٨٢ . ومقابلة لذلك راجع  
من أمثلة تواضعه في اللزوميات ٢ - ١٥ و ٢٤٢ و ٢٤٧ و ج ١ - ٩٣ و ٩٧ و ١٠٠ .

دينه كسائر أهل زمانه . واذا كنت تلح فيه شيئاً من روح الشك  
والتأمل الفلسفي كقوله في مرثاة والده :

طلبت يقيناً يا جهينةُ عنهم ولن تخبريني يا جهين سوى الظن  
فإن تعهديني لا أزال مسائلًا فاني لم أعط الصحيح فاستغني

فذلك ضئيل جداً لا يكاد يظهر ازاء ما يظهر فيه من روح الاسلام  
والتعصب له والذود عن تعاليمه . وقد كان قبل سفره الى بغداد وقبل  
عزلته يناضل عن وجود الله وحدث الكون والبعث ، وكلامه في ذلك  
ثابت صريح ، كقوله يرد على الدهريين القائلين ان العالم قديم وانه لا  
بعث ولا حساب :

ضلّ الذي قال البلاد قديمة بالطبع كانت والأنام كنبثها  
وأمامنا يوم تقوم هجوده من بعد إبلاء العظام ورفتها  
وعلى كلٍّ فان التأمل والتشكيك ليسا الطابعين للذين طبع بها شعره  
قبل رجوعه من بغداد .

بقي علينا ان نذكر درعياته وهي قصائد في وصف الدرع يصفها  
على لسان رجل أسنّ فترك لبسها أو على لسان رجل رهنها ، وقد يصفها  
على لسان درع تخاطب سيفاً ، او رجل يبيع درعاً ، او رجل خانه  
آخر في درع ، او فارس سأل عن درع أبيه الى غير ذلك مما له علاقة  
بهذا الموضوع .

وان الذي يطالع هذه الدرعيات يعجب من رجل كأبي العلاء ينصرف  
الى موضوع كهذا الموضوع ، فيبدل جهده ويكدّ نفسه في اوصاف  
ومجازات وعبارات لا طائل تحتها ، وليس لها أقل علاقة بنفسه او حياته .  
ولا يسعنا ان نقول فيها الا انها في الارجح أداة استعمالها لاظهار مقدرة  
اللغوية . ولعل له فيها غرضاً آخر .

## اللزوميات

ينفرد هذا الديوان بمزيتين : خلوه من أبواب الشعر المطروقة ( المديح والثناء والفخر وما إليها ) ، وانصراف ناظمه الى نقد الحياة . وقد نظم كته ، كما عرفنا سابقاً ، بعد رجوع المعري من بغداد ولزومه في المعرّة ، ولذا فهو يمثل لنا نضج القوة الشعرية في الشاعر ونظراته الفلسفية في الكون وال عمران . على انه مع ذلك قلما يختلف من حيث الصناعة عن شعره السابق ، فانك ترى الشاعر هنا - في هذا الجو الفكري الانتقادي - شديد الكلف بالصناعة وقد قيّد نفسه تقييداً شديداً بلزوم ما لا يلزم ، فاضطر الى كثير من القوافي الغريبة والالفاظ الغامضة . وقد يستغرب الذي يطالع ديوانه من جمعه بين النقيضين : فحينما تراه يتجنب كد النفس ويسلس للعاطفة القياد فيأتي شعره من الطبقة الاولى متانة وعذوبة كقوله :

يرتجي الناس ان يقوم إمامٌ ناطقٌ في الكتيبة الخرساء  
كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء

وقوله :

قالوا فلانٌ جيّد لصديقه لا يكذبوا ما في البرية جيد  
فأميرهم نال الامارة بالحنا وتقيهم بصلاته متصيد

وقوله :

يا محلي عليك مني سلام سوف امضي وينجز الموعد  
أرجتو ان اعود اليهم لا ترجتوا فاني لا اعود  
ولجسي الى التراب هبوط ولروحي الى الهواء صعود  
وعلى حالها قدوم الليالي فنحوسٌ لمعشر وسعود

وهذا الضرب من شعره كثير . ومنه ما لا يحاربه فيه إلا القليلون كقوله :

رويدك قد غررت وأنت حرّ بصاحب حيلة يعظ النساء  
يحرم فيكم الصبباء صبغاً ويشربها على عهد مساء



يقول لكم غدوت بلا كساءٍ      وفي لذاتها رهن الكساءِ  
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى      فمن جهتين لا جهة اساءِ  
وقوله :

يسوسون الامور بغير عقل      فينفذ أمرهم ويقال ساسه  
فأف من الحياة وأف مني      ومن زمن رئاسته خساسة  
وحيثما هم في أودية الغرائب      اللفظية فيتمسّف ويأتيك بالمكدود  
المتكلف كقوله :

ترى الهمّ لا شيء سوى الاكل منه      له جسدا ما اسطاع حرّاً ولا بردا  
يُقلّ العصا مستثقل الطّمّر بعدما      علا فرساً واجتاب ماذية سردا  
ولا تترك الايام مردىً لظبيةً      من الأدم تختار الكباث ولا المردا  
ولم يُلّف منها فارد القمر مخلصاً      وقد بلغت احداثها القمر الفرداً<sup>١</sup>  
وقوله :

لعمر ابيك ما خالي بخالٍ      لشائمه ولا شهدي بهف  
فان أعطى القليل يكن هنيئاً      يجيء المستبيح بغير شف  
اذا ورد الفقير على احتياجي      اغثت لهيفه بالمستدف  
ولو كان الكثير لقلّ عندي      وأهون بالضعيف المستطف<sup>٢</sup>  
وقوله :

فقد لاحت مخايل صادقات      تروق العين بالدمع الولا ف  
فمن لك بالفريريات سارت      بأشباه نسين الى علاف  
واذا علمت ان الولا ف هو البرق اللامع لمعتين وان علاف اسم رجل  
من قضاة تنسب اليه الرجال ، علمت ما جناه عليه تقيده ولا سباً في  
قوله : أشباه نسين الى علاف .

---

١ الهم الشيخ الهرم . الطمر الثوب البالي . الماذية السرد الدرع . مردى مهلك . الكباث والمرد  
من ثمر الاراك . فارد القمر الحمار في بطنه بياض .  
٢ المستدف القليل . والمستطف المستقل .

ومن هذا القبيل قوله :

فامنح ضعيفك ان عراك ولو نزرأ ولا تصرفه بالكهر  
وارفع له شقراء تُرمح في دهاء مثل تارت المهر  
أي أمنح الضعيف ولا تصرفه بوجه عبوس وارفع له ناراً تتأجج في الظلام .  
وقوله :

غُبِقْنَا الْأَذَى وَالْجَاشِرِيَّةُ هَمْنَا وَنَادَى ظَلَامٌ لَا سَبِيلَ إِلَى الْجَشْرِ  
انكتب سطرأ ليس فيه تخوفٌ لربك ما أولى بنانك بالأشر  
وان بُتكت عشر فمن بعد ما جنت بكل فسيطٍ قص أكثر من عشرأ  
وقوله :

كبرت فأصبحت للراشدين كبرتٍ يعدُّ هدي دليلاً  
كبرت فما زال هذا الزمان كبرتٍ يحذُّ قليلاً قليلاً  
وإذا تأملت هذين البيتين لا تجد فيها الا تكلفه الجناس بين كبرت :  
الفعل ، وكبرت : الجار والمجرور ( أي كدليل ) في البيت الاول ، وبين  
الفعل ايضاً ولفظة برت ( بمعنى الفاس ) في البيت الثاني .  
وأمثال هذا الكلام المصنوع كثير جداً في شعر شاعرنا . فلا جرم  
إذا جاء القسم الوافر منه صعباً مبهماً حتى على اهل الادب . وإذا  
أردنا التدقيق في أسباب صعوبته وإبهامه وجدناها ترجع الى ما يلي :  
١ - شغفه بالمحسنات البيانية ولا سيما الجناس والطباق والتورية .  
٢ - كثرة الاشارات الى الحوادث التاريخية والى رجال التاريخ -  
المشهور منهم وغير المشهور .

٣ - استعماله لأوابد الكلام وشواذه .

٤ - اضطراره الى القوافي الغريبة للزومه ما لا يلزم .

فاذا أضفت الى ذلك ما في مواضعه الفلسفية الاخلاقية من معان

---

١ الفبوق الشرب مساء والجاشرية شرب السحر . الاشر القطع . بتكت اي قطعت . فسيط  
قلامة ظفر .

مجرّدة هي بطبيعتها صعبة المتناول ، علمت السر في هذا الايهام العام من معانيه .

ولا نذهب الى ما ذهب اليه بعض أعلام الباحثين من ان المعري كان يقصد ذلك ليخفي أغراضه<sup>١</sup> عن العامة . فان شاعرنا كان صريحاً ، وله في لزومياته كثير من النقد المرّ الذي بلغت به الصراحة أبعد مدى كبعض ما ذكرنا له آنفاً ، وكقوله :

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما دياناتكم مكر من القدماء  
أو قوله :

قد حُجِبَ النور والضياء وإنما ديننا رياء  
يا عالم السوء ما علمنا ان مصليك اتقيا  
وقوله :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهدت ويهود حارت والمجوس مضلته  
اثنان أهل الأرض : ذو عقل بلا دين ، وآخر دین لا عقل له  
وقوله :

في البدو خُرّاب أذوادٍ مسومةٍ وفي الجوامع والأسواق خُرّاب  
فهمؤلاء تسموا بالمدول او التجار واسم أولاك القوم أعراب  
وقوله :

مُلّ المقام فكم اعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها  
ظلموا الرعيّة واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراؤها  
وقس على ذلك مئات الأبيات في ديوانه .

ويمتاز المعري في لزومياته بدقة تشابيه وروعة حكمه : أما دقة التشبيه فيه فنتيج الخيال وحسن التعبير عن النفس ، واما الحكيم فليما في طبعه من صدق التأمل في الحياة والموت . ويختلف عن المتنبي ان حكم المتنبي ناشئة عن نفس رجل خاض غمرات الحياة سعياً وراها ، أما

١ راجع ذكرى ابي العلاء للدكتور طه حسين ص ٢٦٧ .

حكم المعري فناشئة عن نفس حكيم مفكّر عرف الحياة فزهدها .  
وليس من الانصاف ان نقرنه من هذا القبيل بأبي العتاهية ، فإن للمعري  
من دقة التأمل وصدق التضحية ومعرفة الكون ما لا نراه لشاعر القبور  
والنشور : كان أبو العتاهية واعظ الموت ، والمتنبي خطيب الحياة ، أما  
المعري فحكيم الموت والحياة .

### المواقف الشعرية في اللزوميات

تتناول اللزوميات منشأ الانسان ومصيره وما بينها . وللشاعر فيها  
موقفان رئيسيان : (١) تجاه الغيبيات ( الله والبعث والحساب )  
(٢) تجاه الانسان والطبيعة . واليك بيان ذلك :

### الغيبيات

هنا نرى موقفه مضطرباً ، ولكن اضطرابه اضطراب مؤمن يحاول  
ان يجمع بين العقل والنقل ، فيقع في شيء من الارتباك . ومن الخطأ  
ان نحكم عليه من شعره بالجهود فان الشواهد فيه على ايمانه بالله  
وبشكل من أشكال الخلود كثيرة ، بل هي اكثر من أصدادها .  
ويتضح ذلك من الامثلة التالية :

قال مستهزئاً بالتنجيم ومثبتاً قوة الله :

مق ينزل الامر السماوي لا يفدُ      سوى شبح رمح الكمي المناجد  
وان لحق الاسلام خطب يفضّه      فما وجدت مثلاً له نفس واجد  
إذا عظّموا كيوان عظمت واحداً      يكون له كيوان أول ساجد  
وقال :

والله حقّ وابن آدم جاهل      من شأنه التفريط والتكذيب

وقال :

الله لا ريب فيه وهو محتجب      بادٍ وكلّ إلى طبع له جذبا

وقال :

فَلَّكَ يدور بحكمة وله بلا ريب مدير

وقال :

أما الحياة فلا أرجو نوافلها لكنني لاهي خائف راجي  
رب السهاك ورب الشمس طالعة وكل أزهر في الظلماء خراج  
وفي الحشر يقول :

إذا كنت من فرط السفاه معطلا فيا جاحداً اشهد اني غير جاحد  
أخاف من الله العقوبة آجلاً وازعم ان الأمر في يد واحد  
ويقول :

ان أدخل النار فلي خالق يحمل عني مثقلات العذاب  
يقدر ان يسكنني روضة فيها نرامى بالمياه العذاب  
ومن ذلك هذان البيتان المشهوران :

قال المنجم والطبيب كلاماً لا تحشرُ الاجساد قلت اليكما  
ان صح قولكما فليست بخاسر أر صح قولي فالخسار عليكما  
ويلي هذين البيتين خمسة أبيات كلها على هذا النمط .  
وله مثل ذلك قصيدة مطلعها :

عجبي للطبيب يلحد في الخالق من بعد درسه التشريحاً

وليس الذي ذكرناه الا نزرأ بما ورد في أثناء الديوان من هذه المعاني  
الايمانية . ولكن شاعرنا في هذا الموقف كما قلنا مضطرب متحير - تراه  
آونة مؤمناً صريح الايمان - ثم تراه وقد غشيتة الشكوك والأوهام . فهو  
بين مدّ وجزر لا يستقر على حال واحدة .

ومن شكته هذه الأمثلة القليلة ، وهي قلّ من كثير :

أما الجسوم فللتراب مآلها وعييت بالارواح انسى تسلك

\* \* \*

دفنتم في الارض دفن تيقن . ولا علم بالارواح غير ظنون

ورومُ الفتى ما قد طوى الله علمه يمدّ جنونا أو شبيه جنون

\* \* \*

قد قيل ان الروح تأسف بعدما تنأى عن الجسد الذي غنيت به  
ان كان يصحبها الحجا فلعلها تدري وتأبه للزمان وغيبه  
او لا فكم هذيان قوم غابره في الكتب ضاع مداده في كتبه

\* \* \*

تقدّم الناس فيا شوقنا إلى اتباع الاهل والاصدقاء  
ما أطيب الموت لشرابه ان صح للاموات وشك التقاء

\* \* \*

اما اليقين فلا يقين وإنما اقصى اجتهادي ان اظنّ وأحدسا

\* \* \*

أما القيامة فالتنازع شائع فيها وما لخيئها أصعار  
وما يكاد يكون انكاراً قوله :

قلتم لنا خالقٌ حكيم قلنا صدقتم كذا نقول  
زعمتموه بلا مكان ولا زمان ألا فقولوا  
هذا كلام فيه خبيء معناه ليست لنا عقول

وقوله :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهةً وحقّ لسكان البسيطة ان يبكوا  
يحطّمنا صرف الزمان كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك  
وقوله :

خذ المرآة واستنجد نجوماً تُمِرّ بمطعم الأري المشور  
تدلّ على الحياة بلا ارتياب ولكن لا تدلّ على النشور

على أننا إذا دققنا في هذه الحيرة وهذا التناقض ، وراجعنا كل ما قاله  
المعري بهذا الصدد ، ثم عارضناه بسيرته وأقوال الناس فيه ، ترجّح لدينا  
ان شاعرنا لم ينقطع عن الايمان بالله وبالآخرة . ولكن صورة الله في نفسه

لم تكن صورته في نفس المؤمن العادي ، وإنما كان نظره إلى ما وراء الطبيعة نظرياً « لا أدرياً » متأثراً بالاسلام .

### الطبيعة والحياة البشرية

ويتلخص ذلك بما يلي :

الأديان ورؤساؤها - الشعب وزعماءه - الانسان وطبيعته ومصيره .  
وفي كل ذلك تراه ثابت النظر مستقرّ الرأي مقتنعاً بصحة ما يقول ،  
وإلى القارىء زبدة هذه النظريات :

### الاديان

إذا قوبل الاسلام بسائر الاديان فهو عند المعري مفضل على الجميع  
وانك لترى المعري في بعض مواقفه يتعرض للجدل ، فيهاجم اليهود  
والنصارى والفرق الاسلامية المختلفة ( كالمعتزلة والمرجئة وبعض الشيعة  
والصوفية ) ، وله فيها أشعار كثيرة لا يتسع لها المقام<sup>١</sup> .

ومع كل ذلك فله في الدين نظر عام يشمل كل الاديان على السواء  
وهو يتناول الدين من وجهتين : (١) العقائد والفروض او هيكل الدين .  
(٢) الفضائل والاعمال او روح الدين . اما الاولى فيحمل عليها حملة  
شعواء فيحذّر الناس من السنن والمذاهب ، ويزعم ان الدين من هذه  
الوجهة أداة يستعملها الرؤساء لجذب الدنيا اليهم .

انما هذه المذاهب أسباب لجذب الدنيا الى الرؤساء

وأقواله في ذلك لا تحصى فنكتفي بالإشارة اليها والى ما ذكر منها  
في غير هذا المقام .

وأما الوجهة الثانية فهي الدين الحق عنده . وعلى قدر استهزائه  
بخرافات الاقدمين وأوهامهم المذهبية ترى تعظيمه للروح الدينية التي يراد

---

١ راجع من ذلك اللزوميات ١ - ١٢٩ و ٢ - ١٧٢ .

بها التنزه عن الجشع والظلم والشهوات ، وبذلك يشارك المصلحين الروحانيين  
في كل مكان وزمان . ومن أقواله في هذا الباب :

الدين هجر الفتي اللذات عن يُسر في صحّةٍ واقتدارٍ منه ما عمرا

\* \* \*

ما الخير صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على الجسد  
وانما هو ترك الشر مطرحاً ونفضك الصدر من غلّ ومن حسد

\* \* \*

الدين انصافك الاقوام كلهم وأيّ دين لآبي الحق ان وجبا  
فالدين عنده ترك الشر وانصاف الجميع ، ولا دين لمن يرفض الحق .  
وقد كرّر هذا المعنى كثيراً في لزومياته ، ونجتمزىء هنا بقوله التهكمي فيه :

توهمت يا مغرور انك دين عليّ يمين الله ما لك دين

تسير إلى البيت الحرام تنسكاً ويشكوك جار بائس وخدين

وقوله :

سبح وصلّ وطف بمكة زائراً سبعين لا سبعا فليست بناسك  
جهلّ الديانة من إذا عرضت له أطاعه لم يُلّف بالناسك

#### الشعب وزعماءه

ولا يختلف نظره هنا عن نظره الى الدين ورؤسائه ، فهو يهاجم الأمراء  
والحكام وأصحاب الزعامة السياسية متهماً ايام بالجهل والجشع والاستبداد .  
فشان ملوكهم عزف ونزف وأصحاب الامور جباة خرج

\* \* \*

مُلّ المقام فكم اعاشر أمة أمرت بغير صلاحها امراؤها  
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراؤها

\* \* \*

ساس الانام شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان



مق يقوم إمام يستفيد لنا فتعرف العدل أجيالاً وغيطان  
ومع اشفاقه على الشعب لا يرى فيه غير الفساد العام كقوله :  
قد فاضت الدنيا بأدناسها على براياها وأجناسها  
وكلّ حيّ فوقها ظالم وما بها أظلم من ناسها

\* \* \*

كلّنا غادرٌ يميل إلى الظلم وصفو الأيام للتمكير  
ورجال الأنام مثل الغواني غير فرق التأنيث والتذكير

\* \* \*

عشٌ بخيلاً كأهل عصرك هذا وتبالة فان دهرك أبله  
قومٌ سوء فالشبل منهم يقول الليث فرساً والليث يأكل شبله  
وقس على هذا القول كثيراً من الأمثلة التي تعكس لنا بيئته أو نظره  
الاسود إلى أهل زمانه عموماً ، لا فرق في ذلك بين حاكم ومحكوم أو  
غني وفقير .

هم السباع إذا عنّت فرائسها وان دعوت لخير حوّلت حُمراً  
وكما انه يهاجم الرجال فينعتهم بالجشع والغدر واللؤم كذلك يهاجم  
النساء فينعتن بالضعف والرياء والحيانة والمكر ، ولا يرى هنّ الا  
الاحتجاب التام والتزام المنزل والانصراف الى شؤونه . وانك لترى سوء  
ظنه بين إذ يقول :

فوارسُ فتنةِ اعلامٍ غيِّ لقينك بالاساور مُعلّيات  
ودفنٌ - والحوادث فاجعات - لاحداهنّ إحدى المكرمات  
وهذان البيتان من قصيدة تفيف على التسعين بيتاً في كل بيت منها  
ذم للمرأة وتحقير لشأنها . ومثلها في اللزوميات كثير . ولا ندري ما  
الذي حمل المعري على الازدراء بالمرأة ووصفها بكل الشوائب ، ولكنه ولا  
شك جارى عصره ، بل تمادى في هذه الآراء الى الحد الأقصى - على انه  
عطف على الوالدات وأوصى بهن خيراً .

### الطبيعة البشرية

أما الطبيعة البشرية ففسادة عنده لا أمل باصلاحها ، والانسان مسير بقوتين : قوة داخلية هي الغريزة الوحشية التي لا يمكن تهذيبها :  
واللبّ حاول ان يهذب أهله فاذا البرية ما لها تهذيب

\* \* \*

لم يقدر الله تهذيباً لعالمنا فلا ترومنّ للأقوام تهذيباً  
ولا تصدّق بما البرهان يبطله فتستفيد من التصديق تكذيباً

\* \* \*

وجبلت الناس الفساد فضلّ من يسمو بحكمته الى تهذيبها  
وقوة خارجية هي قضاء جبار يدفع الانسان أمامه فلا ارادة له ولا  
اختيار . لكن كيف نجعل بين «حكمة الله» كما نراها في شعر المعري  
وبين جبروت القضاء ، وكيف نوفق بين القدر والحساب ؟ مسألة فلسفية  
دقيقة لا نرى الشاعر يوضحها او يهتم بتطبيقها تطبيقاً صحيحاً ، وإنما  
همته من ذلك ان يصف ما يشعر به أو يتوهمه ، ولذا لا ينتظر ان  
نراه هنا متمسقاً بالخواطر مطرد الفكر .

ومن هذا القبيل ذكره للعقل والنقل ، فانك تراه يهيب بالناس الى  
رفض الشرائع ناسباً اليها كل أسباب الفتن والاضطراب كقوله :

ان الشرائع ألفت بيننا إحناً وأودعتنا افانين العداوات  
ولا يرى من هادٍ غير العقل :

كذب الظنّ لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء

\* \* \*

تستروا بأمورٍ في ديانتهم وانما دينهم دين الزناديق  
نكذب العقل في تصديق كاذبهم والعقل أولى باكرام وتصديق

\* \* \*

إذا رجع الحصيف إلى حجاه تهاون بالشرائع وازدراها

ولكن أي عقل تتبع وأي نقل ترفض؟ هنا لا بد من الحذر فالمعري يندفع بتأثير التأمل الفلسفي إلى تقديس العقل دون النظر إلى عاقبة ذلك التقديس، وهو بذلك هدام ونعم الممول العقل، على شرط أن يستخدمه فيما يفيد - في تهذيب الشرائع ورفعها إلى مستوى الكمال الممكن، لا في التخلص منها تبعاً لنزعات الفوضى. والذي يلوح لنا أن المعري لم يكن فوضوياً، ولم يقصد الهدم المطلق، بل قصد الإصلاح الاجتماعي. على أنه اندفع إلى ذلك متأثراً من طبيعته ومن الفساد الذي حوله، فلم يسلك طريقاً يصح أن نسميها طريق الهداية العملية.

وليس من أثر واضح للفوضى في شعره إلا حمله على النسل، ودعوته الناس إلى الفناء وأقواله في ذلك معروفة نذكر منها هذين البيتين:

لو أن كل نفوس الناس رائية كراي نفسي تناءت عن خزاياها  
وعطّوا هذه الدنيا فما ولدوا ولا اقتنوا، واستراحوا من رزاياها

### كلمة ختامية

وهنا لا بد أن نسأل: ما العوامل التي أحلت المعري هذا المحل الرفيع في تاريخ الأدب العربي وخلّدت له هذا الاحترام في نفوس المتأدبين؟ والجواب عن ذلك:

- ١ - صراحته في مهاجمة ما كان يراه فاسداً.
- ٢ - صرفه الشعر إلى مواضيع عمرانية أخلاقية لم يسبق إليها.
- ٣ - تطبيقه الحكمة على نفسه وإظهاره مبادئها في حياته.
- ٤ - زهده الحقيقي وترفعه عن أغراض الدنيا.

نعم قد يؤخذ عليه بعض شذوذه الفكري الذي حمله أحياناً إلى أقصى التطرف وجعله هداماً لا يحسن البناء، وتحرّجه اللغوي الذي دفعه مراراً إلى ركوب أخشن المراكب توصلًا إلى معانيه. على أن المعري

برغم ذلك الشذوذ وذلك التحرج ، هو تلك الشخصية التي تجمع بين  
الاخلاص والشدة - الاخلاص في خدمة الحقيقة كما تتراءى له ، والشدة  
في مهاجمة أهل الفساد . وهو بذلك يختلف عن سائر الشعراء الذين لمعوا  
في تاريخ الادب العربي إذ ليس لاحدهم مها تسامت مكانته الفنية ما  
للمعري من النظر الى الحياة التي تعجّ حوله ومحاولة نقدها . كان الشعراء  
قبله لا يرون في الحياة إلا أنفسهم ولا يرون في الادب إلا ما يوصل الى  
أغراضهم ، فجاء المعري ينظر الى البيئة التي تحويه محاولاً رفعها واصلاح  
شؤونها . على انه لم يرَ فيها غير أوجه الفساد والظلام - ولم ينتبه الى  
عجالي الجمال التي تزيّن وجه الطبيعة والحياة - فجاء شعره قائم اللون  
كأنما هو مصباح تنفذ أشعته الينا من وراء زجاجة سوداء .

## المختار من شعر المعري

قارب في خضمّ مضطرب تتقاذفه الرياح وتترامى به الامواج - ذلك هو المعري في نظره الى الحياة .

ظلمات من كل جانب ، وعقل مفكر يحاول ان يرى من ورائها ما لا يرى ، فيرتد خائباً ناقماً على الدهر ووجوده ، ناعياً على الحياة مسراتها ، مهيباً بالناس : الى الفناء الى الفناء ، فما الوجود إلا شقاء في شقاء .

نخبة من سقط الزند

في المراثي

قال يرثي والده

نعمت الرضا حتى على ضاحك المزنِ      فلا جادني الا عبوس من الدّجنِ  
فليت فما ان شام سنتي تبسّمي      فم الطعنة النجلاء قدمي بلا سنّ  
كانّ ثناياه أوانس يُبتغى      لها حسنٌ ذكرٍ بالصيانة والسجنّ

\* \* \*

أبي حكمت فيه الليالي ولم تزل      رماح المنايا قاداتٍ على الطعنِ  
مضى طاهر الجثمان والنفس والكرى      وسهد المنى والجيب والذيل والرّدن

١ كرمت الرضا حتى على السحاب المتألق . فسوف يبقى فمي مطبقاً كأن اسنانه نساء مصونات في خدورهن .

فيا ليت شعري هل يخفُّ وقاره  
وهل يرد الحوضَ الرويَّ مبادراً  
حجاً زاده من جرأةٍ وسماحةٍ  
وبعض الحجاءِ داعٍ الى البخل والجبن<sup>١</sup>

\* \* \*

على ام دفر غضبةُ الله انها  
كعابٌ دُجاها فرعها ونهارها  
رأها سليل الطين والشيب شامل  
زمانَ تولتْ وأد حواءَ بنتها<sup>٢</sup>  
لأجدرُ أنسى ان تخونَ وان تُخني<sup>٣</sup>  
حيًا لها قامتْ له الشمس بالحسن  
لها بالثريا والسماكين والوزن<sup>٤</sup>  
وكم وأدت في إثر حواءَ من قرن

\* \* \*

جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذي  
إذا غُيبَ المرء استسرَّ حديثه  
تضلَّ العقول الهبرزيات رشدها  
وما قارنتْ شخصاً من الخلق ساعة<sup>٥</sup>  
وجدنا أذى الدنيا لذيذاً كأنما  
فما رغبت في الموت كُدُرٌ مسيرها  
يصادفن صقراً كلَّ يومٍ وليلةٍ  
وخوف الردي آوى الى الكهف أهله  
يراد بنا والعلم لله ذي المن<sup>٦</sup>  
ولم تخبر الافكار عنه بما يغني  
ولم يسلم الرأي القوي من الأفن<sup>٥</sup>  
من الدهر الا وهي افتك من قرن  
جنى النحل اصناف الشقاء الذي نجني  
الى الورد خمس<sup>٦</sup> ثم يشربن من أجن<sup>٦</sup>  
ويلقن شرأ من مخالبه الحُجن  
وكلّف نوحاً وابنه عمل السفن<sup>٧</sup>

١ أحد اسم جبل ، والمهن القطن .

٢ في هذا البيت وما قبله يصف أباه بالوقار ويقول : هل يخف وقاره يوم القيامة (يوم يصبح جبل أحد كالقطن) وهل يتسارع مع الناس ويذاحمهم الى الحوض. ان عقله قد زاده جرأة وسماحة في حين ان العقل يدعو أصحابه الى الحذر الشديد .

٣ ام دفر كناية عن الدنيا . وتخني تهلك .

٤ شبه الدنيا بالحسناء في قلة الوفاء وقال انها قديمة وأما آدم وهي شائبة وعلامات شيبها هذه النجوم - الثريا والسماكين والوزن .

٥ الهبرزيات القوية . والافن النقص والضعف .

٦ فما رغبت في الموت قطعاً تسير خمسة أيام حتى تصل الماء فتشربه فاسداً آسناً .

٧ اشارة الى قصة اصحاب الكهف وقصة نوح .

وما استعذبتَه روح موسى وآدم وقد وُعدا من بعده جنتي عدن

\* \* \*

أمولى القوافي كم أراك انقيادها  
هنيئاً لك البيتُ الجديدُ مستداً  
مجاورَ سَكْنٍ في ديار بعيدة  
طلبتُ يقيناً من جهينةَ عنهم  
فان تعهديني لا أزال مسائلًا  
لك الفصحاء العربَ كالعجم اللكن  
يمينك فيه بالسعادة واليمن  
من الحيِّ سقياً للديار وللسكن  
ولن تخبريني يا جهينُ سوى الظن  
فاني لم أعطَ الصحيح فاستغني

\* \* \*

أمرٌ بربع كنتَ فيه كأنما  
وما أكثرَ المثني عليك ديانةً  
يوافيك من رب الملا الصدق بالرضا  
فيا قبر واهٍ من ترابك ليثنا  
لأطبقتَ إطباقَ المَحارة فاحتفظ  
سأبكي اذا غنسى ابنُ ورقاء بهجةً  
ونادبةً في مسمي كل قينةٍ  
واحمل فيك الحزن حياً فان أمتُ  
وبعدك لا يهوى الفؤاد مسرَّةً  
أمرٌ من الاكرام بالحجر والركن<sup>١</sup>  
لو ان حياماً كان يثنيه من يُثني  
بشيراً وتلقاك الامانة بالأمن  
عليه وآمٍ من جنادك الحشن  
بلؤلؤةِ المجدِ الحقيقة بالحزن<sup>٢</sup>  
وان كان ما يعنيه ضدّ الذي أعني  
تغرّد باللحن البري عن اللحن<sup>٣</sup>  
وألقك لم أسلك طريقاً الى الحزن  
وان خان في وصل السرور فلا يهني

### دالته المشهورة

يرثي صديقه أبا الخطاب الجبلي وكان اديباً وفقهياً وقد مات شاباً

غير مجدي في ملتّي واعتقادي نوحُ بالكِ ولا تونتمُ شادِ  
وشبيهه صوتُ النعي اذا قيس بصوت البشير في كل ناد

١ الحجر ما حول الحطيم في مكة . والركن ركن البيت الحرام .

٢ افك ايها القبر كالصدفة وهو فيك كاللؤلؤة .

٣ اللحن الخالي من الخطأ .

أَبَكَتْ تَلَكُمِ الْهَامَةَ امْ غَنَّتْ عَلَى فَرْعِ غَصْنِهَا الْمِيَادِ  
صَاحِ هَذِي قَبُورِنَا تَمَلُّ الرَّحْبَ فَأَيْنَ الْقُبُورِ مِنْ عَهْدِ عَادِ  
خَفَّتِ الْوَطْءَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الْأَرْضِ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ  
وَقَبِيحِ بِنَا وَانْ قَدُمُ الْعَهْدِ هَوَانُ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ  
سُرَّانِ اسْطَعْتِ فِي الْهَوَاءِ رَوِيداً لَا اخْتِيَالاً عَلَى رِفَاتِ الْعِبَادِ  
رَبِّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لِحْداً مَرَاراً ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاحِمِ الْأَضْدَادِ  
وَدَفِينِ عَلَى بَقَايَا دَفِينِ فِي طَوِيلِ الْأَزْمَانِ وَالْآبَادِ  
فَاسْأَلِ الْفَرَقْدِينَ عَمَّنْ أَحْسَا عَنْ قَبِيلِ وَأَنْسَا مِنْ بِلَادِ  
كَمْ أَقَامَا عَلَى زَوَالِ نَهَارِ وَأَنَارَا لِمُدْلَجٍ فِي سَوَادِ  
تَعَبٌ كُلُّهَا الْحَيَاةُ فَمَا أَعْجَبُ إِلَّا مِنْ رَاغِبٍ فِي أَزْدِيَادِ  
إِنَّ حَزْنَاً فِي سَاعَةِ الْمَوْتِ أَضْعَا فُ سُرُورٍ فِي سَاعَةِ الْمِيلَادِ  
خُلِقَ النَّاسُ لِلْبَقَاءِ فَضَلَّتْ أُمَّةٌ يَحْسَبُونَهُمْ لِلنَّفَادِ  
إِنَّمَا يُنْقَلُونَ مِنْ دَارِ أَعْمَا لِي إِلَى دَارِ شَقْوَةٍ أَوْ رِشَادِ  
ضَبْعَةُ الْمَوْتِ رَقْدَةٌ يَسْتَرِيحُ الْجِسْمُ فِيهَا وَالْعَيْشُ مِثْلُ السَّهَادِ

\* \* \*

أَبْنَاتِ الْهَدِيلِ<sup>٢</sup> اسْعِدْنَ أَوْعِدْنَ قَلِيلَ الْعِزَاءِ بِالْإِسْعَادِ  
أَيُّهُ دَرَكْنَ فَانْتَنَّ اللَّوَاتِي تَحْسِنُ حَفِظَ الْوَدَادِ  
مَا نَسِيْتَنِّ هَالِكَا فِي الْأَوَانِ الْخَالِ أَوْدَى مِنْ قَبْلِ هُلْكَ إِيَادِ<sup>٣</sup>  
بِيدِ أَيْ لَا ارْتَضِي مَا فَعَلْتَنِّ وَاطْلُوقَكْنَ فِي الْأَجْيَادِ  
فَتَسْلِبْنَ وَاسْتَعْرَنَ جَمِيعاً مِنْ قَيْصِ الدَّجَى ثِيَابِ حِدَادِ  
ثُمَّ غَرَّدْنَ فِي الْمَأْتَمِ وَأَنْدَبْنَ بِشَجْوٍ مَعَ الْغَوَانِي الْخِرَادِ

\* \* \*

١ فاسأل هذين الكوكبين عما عرفاه وشهداه من احوال الناس .

٢ بنات الهديل الحمام .

٣ إشارة الى الخرافة ان الحمام لا تزال تبكي على هديلها الذي هلك قديماً .



قصد الدهر من أبي حمزة الأوا<sup>١</sup> بـ مولى حجبى<sup>٢</sup> وخذن اقتصاد<sup>١</sup>  
وفقيهاً افكاره شدن<sup>٢</sup> للنعمان ما لم يشده شعر زياد<sup>٢</sup>  
فالعراقي بعده للحجازي<sup>٢</sup> قليل الخلاف سهل القيادة  
انفق العمر ناسكاً يطلب العلم بكشف عن أصله وانتقاد  
ذا بنات<sup>٢</sup> لا تفسد الذهب الأحمر زهداً في المسجد المستفاد

\* \* \*

ودعا ايها الحفيان ذاك الشخص ان<sup>٢</sup> الوداع أيسر زاد  
واغسله بالدمع ان كان طهراً وادفناه بين الحشا والفؤاد  
واحبوا الاكفان من ورق المصحف كبراً عن أنفَس الابراد  
واتلوا النعش بالقراءة والتسبيح لا بالنحيب والتعمداد  
اسف<sup>٢</sup> غير نافع واجتهاد<sup>٢</sup> لا يؤدي الى غناء اجتهاد  
طالما اخرج الحزين جوى الحزن ن<sup>٢</sup> الى غير لائق بالسداد  
مثلاً فانت الصلاة سليماً ن<sup>٢</sup> فأنحى على رقاب الجياد  
وهو من سُخِّرَتْ له الانس والجن بما صح<sup>٣</sup> من شهادة صاد<sup>٣</sup>

\* \* \*

كيف أصبحت في محلك بعدي يا جديراً مني بحسن افتقاد  
قد اقر<sup>٢</sup> الطبيب عنك بعجز وتقضى تردد العواد  
وانتهى اليأس منك واستشعر الوجد بأن لا معاد حتى المعاد  
هجد<sup>٢</sup> الساهرون حولك للتمريض ويح<sup>٢</sup> لأعين الهجد  
كنت<sup>٢</sup> خل<sup>٢</sup> الصبا فلما أراد البين وافقت<sup>٢</sup> رأيه في المراد<sup>٤</sup>

١ ابو حمزة هو الفقيه الرثي . قصد الدهر منه رجلاً صالحاً عاقلاً .  
٢ في لفظة نعمان هنا تورية فالنعمان ملك الخيرة ، والنعمان الامام ابو حنيفة وهو المراد . وزياد  
هو النابغة المشهور وكان شاعر ملك الخيرة .  
٣ ان الحزن قد يخرج الانسان عن صوابه كما فعل سليمان من ضرب الخيل وذلك لما عرضت عليه  
فاشتغل بها حتى فاتته الصلاة . وهو الذي شهد له في سورة صاد اذ قيل - « فسخرنا له الريح  
تجري بأمره » - الآية .  
٤ الضمير في أراد راجع الى الصبا .

ورأيت الوفاءَ للصاحب الأول من شيمة الكريم الجوادِ  
وخلعت الشبابَ غضاً فيا ليتك أبليته مع الانسداد  
فاذهباً خيراً ذاهبين حقيقين بسُقيا روائحِ وغواد  
ومراثٍ لو أنهنَّ دموعٌ لمحونَ السطور في الانشاد

\* \* \*

زحلُّ أشرف الكواكب داراً من لقاء الردى على ميعاد  
ولنار المريخ من حدثان الدهر مطفٍ وان علت في انتقاد  
والثريا رهينةٌ بافتراق الشمل حتى تُعدَّ في الافراد  
كل بيت للهدم ما تبنتني الورق قاء والسيد الرفيع العماد  
بان أمر الإله واختلف الناس فداعٍ الى ضلال وهاد  
والفتى ظاعنٌ ويكفيه ظلُّ السدرِ ضرب الاطناب والاوراد<sup>١</sup>  
والذي حارت البرية فيه حيوانٌ مستحدثٌ من جماد  
والليب اللبيب من ليس يفتُر بكونٍ مصيره للفساد

### قصيدته الحكيمية

في رثاء جعفر بن علي بن المهذب

أحسنُ بالواجد من وجدهِ	صبرٌ يعيد النار في زندهِ
ومن أبي في الرزء غير الأسى	كان بكاه منتهى جهدهِ
فليذرف الجفنُ على جعفرِ	اذ كان لم يُفتح على نِدهِ
والشيء لا يكثر مداحه	الا اذا قيس الى ضدهِ
لولا غضى نجدٍ وقلامه <sup>٢</sup>	لم يثنَ بالطيب على رندهِ
ليس الذي يبكى على وصله	مثل الذي يبكى على صدّه

١ والانسان راحل يغنيه ظل السدر عن ان يبتي الخيام - اي انه قليل الاقامة في الدنيا فيجب ان لا يتم . والسدر شجر النبق .

٢ اي ان الرند خص بالثناء لمقابله بسائر الاشجار التي لا طيب لها . كالفضى والقلام .

كان الأسى فرضاً لو انّ الردى قال لنا افدوه فلم نَفدهِ  
هل هو الا طالعٌ للهدى سار من التراب الى سعده

\* \* \*

يا دهرُ يا منجزَ إيعاده وخلفَ المأمول من وعده  
أيُّ جديد لك لم تبده وايّ أقرانك لم تُرده<sup>١</sup>  
أرى ذوي الفضل وأصدادهم يجمعهم سيلك في مده  
ان لم يكن رُشد الفتى نافعاً فغيبه أنفسح من رشده  
تجربةُ الدنيا وأفعالها حثتُ أخا الزهد على زهده  
والقلب من أهوائه عابده ما يعبد الكافر من بُده<sup>٢</sup>  
إنّ زماني برزاياه لي صيرني أمرح في قِده<sup>٣</sup>  
كأننا في كفه ماله ينفق ما يختار من نقده  
لو عرف الانسان مقداره لم يفخر المولى على عبده  
أمر الذي مرّ على قربه يمجز أهل الأرض عن رده  
أضحى الذي أجتل في سنه مثل الذي عوجل في مهده  
والواحد المفرد في حتفه كالحاشد المكثّر من حشده  
وحالة الباكي لأبائه كحالة الباكي على وُلده

\* \* \*

ما رغبة الحيّ بأبنائه عمّا جنى الموت على جدّه<sup>٤</sup> ؟  
ومجده أفعاله لا الذي من قبله كان ولا بعده  
لولا سجاياه وأخلاقه لكان كالمعدوم في وجده

١ تده ، تهلكه .

٢ البد الصنم .

٣ اي لكثرة ائتلافي رزاياه الدهر وتقرني عليها صرت لا أبالي بها بل ازداد نشاطاً ومرحاً .  
والقد سير يقدر من جلد يوثق به الأسير .

٤ كيف يحنّز الحيّ بأبنائه من الموت وهو الذي فتك بأجداده .

تشتاق أيارَ نفوس الورى  
تدعو بطول العمر أفواهنا  
يُسْرَ ان مُدَّ بقاءُ له  
كم صائن عن قبلة خده  
وحامل ثقل الثرى جیده  
ورُبَّ ظمآنَ الى موردٍ  
وانما الشوق الى ورده<sup>١</sup>  
لمن تنهى القلب في وده  
وكل ما يكره في مده  
سَلَطَتِ الأرض على خده  
وكان يشكو الضعف من عقده  
والموت لو يعلم في ورده

\* \* \*

فيا أخا المفقود - في خمسة  
جاءك هذا الحزن مستجدياً  
سلم الى الله فكلّ الذي  
لا يعدم الأسمرُ في غابه  
ان الذي الوحشة في داره  
لا أوحشت دارك من شمسها  
كالشهب ما سلاك عن فقده<sup>٢</sup>  
اجرك في الصبر فلا تجده  
ساءك او سرّك من عنده  
حتفاً ولا الأبيض في غمده<sup>٣</sup>  
تؤنسه الرحمة في لده  
ولا خلا غابك من أسده

أمثلة من وصفه وفخره

قال متبرماً من بغداد ومتشوقاً إلى وطنه

مغاني اللوى من شخصك اليوم أطلال  
وأبغضتُ فيك النخلَ والنخل يانع<sup>٤</sup>  
حملتُ من الشامين أطيب جرعة<sup>٥</sup>  
وفي النوم مغنى من خيالك محلال<sup>٦</sup>  
وأعجبني من حبك الطلح والضال<sup>٥</sup>  
وانزرها والقوم بالقفر ضلال<sup>٦</sup>

١ كما ان النفوس تشتاق ايار لاجل ورده كذلك الانسان انما هو اخلاقه وسجاياه .

٢ يعزي اخا الفقيده ويقول ان في اولادك الخمسة ما يسليك عن فقده .

٣ الاسمر الرمح ، والابيض السيف .

٤ يخاطب الحبيبة ويقول ان المنازل منك خالية ولكن خيالك كثير الحلول في عيوننا عند النوم .

٥ وابغضت لاجلك النخل واحببت اشجار البادية لانك بدوية .

٦ أي حملت من الشام والجزيرة أطيب جرعة وأقلها ( أي رضابك ) .

فسقياً لكأسٍ من فمٍ مثل خاتمٍ  
 كأنّ الحزامي جمعت لك حلّةً  
 أتعلم ذات القسوطِ والشنّف أني  
 فيا دارها بالحزن انّ مزارها  
 بكت فكان العقند نادى فريده  
 تحلّسى النقا دُرّين دمعاً ولؤلؤاً  
 وغنّت لنا في دار سابور قينة  
 فقلت تغنّي كيف شئت فإنما

\* \* \*

تمنيت أنّ الحمر حلّت لنشوةٍ  
 فأذهلّ أني بالعراق على شفا  
 مقلّ من الاهلّين يسرٍ واسرةٍ  
 طويت الصباطي السجلّ وزارني  
 متى سألت بغداد عني وأهلها  
 اذا جنّ ليلى جنّ لبي وزائد  
 وماء بلادي كان انجع مشرباً  
 فيا وطني ان فاتني بك سابق  
 فان استطع في الحشر آتكَ زائراً  
 وكم ماجدٍ في سيف دجلة لم أثم

- ١ الحال : هنا الحائل أي المدل بعظم شأنه .
- ٢ أتعلم هذه الفتاة المتحلية في اذنها بالقرط والشنف ان لي فيها خصماً يتهددني ويزار علي كالاسد .
- ٣ بكت الحبيبة للفراق وقطرت دموعها على قدمها فصار القلب (الاسوار) والخلخال يناديان  
 الفريد في العقد لم تتحالف مع الدموع .
- ٤ وغنّت لنا في هذا المكان مغنية من الحمام .
- ٥ الآل : السراب .
- ٦ ماء بلادي أطيب ولو ان ماء بغداد كالصبياء .
- ٧ سيف دجلة أي شط دجلة . وكم من كريم هناك لم اقصده ولم أطمع بحوده .

من الغرّ تراك الهواجر معرّض<sup>١</sup> عن الجهل قذّاف الجواهر مفضال<sup>١</sup>  
 سيطلّبني رزقي الذي لو طلبته لما زاد والدنيا حظوظ<sup>٢</sup> واقبال  
 اذا صدقَ الجَدُّ افتري العمّ للفتى مكارم لا تُكري وان كذب الخال<sup>١</sup>

وقال في الشريف موسى بن اسحق مجيباً اياه عن قصيدة

عللاني فان بيض الاماني فنيته والظلام ليس بفاني  
 ان تناسيتما وداداً أناس فاجملاني من بعض من تذكران  
 ربّ ليلٍ كأنه الصبح في الحسنِ وان كان اسود الطيلسان  
 قد ركضنا فيه الى اللهو لما وقف النجم وقفة الخيران<sup>٢</sup>  
 كم اردنا ذاك الزمان بمدحٍ فشغلنا بدم هذا الزمان  
 فكأنني ما قلت والبدر طفل وشباب الظلماء في عنفوان  
 ليلتي هذه عروس من الزنج عليها قلائد من جمان  
 هرب النوم عن جفوني فيها هرب الامن عن فؤاد الجبان  
 وكان الهلال يهوى الثرياً فهما للوداع معتقان  
 قال صحبي في لجّتين من الهندس والبيد اذ بدا الفرقدان  
 نحن غرقى فكيف ينقذنا نجهان في حومة الدجى غرقان<sup>٣</sup> ؟  
 وسهيل كوجنة الحب في اللو ن وقلب المحب في الخفقان  
 مستبداً كأنه الفارس المعلم يبدو معارض الفرسان  
 يسرع الملح في احمرار كما تسرع في الملح مقلة الغضبان  
 ضرّجته دماً سيوف الأعداي فبكت رحمة له الشّهران

١ اذا خدم الحظ أحداً اخترع له الناس ( العم ) من الكارم ما ليس في غايه . وقد تلاعب في  
 جد وعم وخال تلاعباً بيانياً ظاهر التكلف .  
 ٢ تكلف المطابقة بين الجري والوقوف فقال كم جرينا فيه الى اللهو والنجم في الليل واقف  
 حائر . ( يصف الليل بالطول ) .  
 ٣ قال صحبي وقد دخلنا في أحشاء الظلام والقفر : نحن غرقى فكيف ينقذنا الفرقدان وهما  
 غرقان .

قدماه وراءه وهو في العجز كساعٍ ليست له قدمان<sup>١</sup>  
ثم شاب الدجى وخاف من الهجر فغطى المشيب بالزعفران  
ونضا فجره على نسرهِ الواقع سيفاً فهمً بالطيران  
وعلى الدهر من دماء الشهداء عليّ ونجده شاهدان<sup>٢</sup>  
فهما في أواخر الليل فجرا ن وفي أولياته شفقتان<sup>٣</sup>  
وجمال الأوان عقب جدودٍ كلّ جدّ منهم جمال أوان

\* \* \*

يا ابن مستعرض الصفوف ببدرٍ ومبيد الجموع من غطفان<sup>٤</sup>  
أحد الخمسة الذين هم الاغراض في كل منطقٍ والمعاني<sup>٥</sup>  
والشخوص التي خلقت ضياءً قبل خلق المريخ والميزان<sup>٦</sup>  
قبل ان تخلق السموات أو تؤمر أفلاكهنّ بالدوران  
لو تأتت لنطحها حملُ الشهبِ تردى عن رأسه الشرطان<sup>٧</sup>  
أو أراد السهاك طعناً لها عما د كسير القناة قبل الطعان<sup>٨</sup>  
أو عصاها حوت النجوم سقاه حتفه صائد من الحدثان

- 
- ١ خلف سهيل نجمان يقال لهما قدما سهيل . فهو معكوس الحال يمشي عاجزاً كمن لا قدمان له ،  
والشعريان نجمان .
  - ٢ النسر الواقع اسم نجم . قال ويلوح على الدهر من دماء الشهداء الامام علي وابنه الحسين  
شاهدان .
  - ٣ هذان الشاهدان هما الفجران الكاذب والصادق أي الحمرة التي ترى أول الصبح وكذلك  
الشفقتان أي الحمرة أو الصفرة التي تبقى في أفق المغرب بعد الغروب . ويزعم انها من آثار  
ما اريق من دم الشهداء ( يريد بذلك انها تلوح مدى الدهر ) .
  - ٤ يا ابن النبي الذي عرض صفوفه بواقعة بدر واباد هذه القبائل .
  - ٥ يريد بالخمسة الذين هم موضوع كل ثناء أعضاء العترة الشريفة - النبي وعلياً وفاطمة والحسن  
والحسين .
  - ٦ المريخ والميزان من النجوم .
  - ٧ الشرطان كوكبان مضيئان من برج الحمل يقال لهما قرنا الحمل .
  - ٨ يقصد السهاك المعروف بالرامح .

انت كالشمس في الضياء وان جا وزت كيوان في علو المكان<sup>١</sup>  
وسجايا محمد اعجزت في الوصف لطف الافكار والاذهان  
وجرت في الاثام اولاده الستة مجرى الارواح في الابدان  
اقبلوا حاملي الجداول في الاغهاد مستلثمين بالغدران<sup>٢</sup>  
يضربون الاقران ضرباً يعيد السعد نحساً في حكم كل قران  
وجلوا غمرة الوغى بوجوه حسنت فهي معدن الاحسان  
قد اجبنا قول الشريف بقول واثنا الحصى عن المرجان  
أما الدرر انما فضت من بحر مخلص الطريق للجريان  
ما امرؤ القيس بالمصلي اذا جا راه في الشعر بل سكيت الرهان<sup>٣</sup>

### وقال من قصيدة يفتخر ويذم الزمان

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل  
أعندي وقد مارست كل خفية  
تعدت ذنوبي عند قوم كثيرة  
كأنني اذا طلعت الزمان وأهله  
وقد سار ذكرني في البلاد فمن لهم  
بهم الليالي بعض ما أنا مضمرة  
واني وان كنت الاخير زمانه  
وأغدو ولو أن الصباح صوارم  
واني جواد لم يحل لجامه

عفاف وإقدام وحزم ونائل  
يصدق واش أو يخيب سائل  
ولا ذنب لي إلا العلاء والفواضل  
رجعت وعندني للأنام طوائف  
بإخفاء شمس ضوءها متكامل  
ويثقل رضوى دون ما أنا حامل  
لأت بما لم تستطعه الاوائل  
وأسري ولو ان الظلام جحافل  
ونضو يمان أغفلته الصياقل<sup>٦</sup>

١ كيوان اسم لرحل .

٢ يقصد بالجداول السيوف والغدران الدروع .

٣ المصلي هو الثاني في السباق . وسكيت الرهان الاخير .

٤ كأنني اذا فقت أهل الزمان عادرني فأصبحت وفي نفوسهم علي ثارات .

٥ رضوى اسم جبل بالمدينة .

٦ قوله لم يحل من التحلية . والنضو الياني السيف الياني . والصياقل الذين يصقلون السيوف .



وان كان في لبس الفقى شرف<sup>١</sup> له  
ولي منطق لم يرض لي كنه منزلي  
لدى موطن يشتاقه كل سيد  
ولما رأيت الجهل في الناس فاشياً  
فوا عجباً كم يدعي الفضل ناقص<sup>٢</sup>  
وكيف تنام الطير في وكناتها  
ينافس يومي في أمسي تشرفاً  
وطال اعترافي بالزمان وصرفه  
فلو بان عضدي ما تأسف منكبي  
إذا وصف الطائي بالبخل مادر<sup>٣</sup>  
وقال السهي للشمس انت خفية  
وطاولت الارض الساء سفاهة  
فيا موت زر ان الحياة ذميمة<sup>٤</sup>  
فما سيف الا غمده والحيائل  
على أنني بين السماكين نازل<sup>١</sup>  
ويقصر عن ادراكه المتناول  
تجاهلت حتى ظن أنني جاهل  
ووأسفاً كم يظهر النقص فاضل  
وقد نصبت للفرقدين الحبايل<sup>٢</sup>  
وتحسد اسحاري علي الاصائل  
فلست أبالي من تفول الفوائل  
ولو مات زندي ما بكته الانامل  
وعير قساً بالفاهة باقل<sup>٣</sup>  
وقال الدجى يا صبح لونك حائل  
وفاخرت الشهب الحصى والجنادل  
ويا نفس جدتي ان دهرك هازل

### أمثلة من لزومياته

وفيها تظهر نزعته الى التشاؤم من أعمال الانسان والزمان

١

أولو الفضل في اوطانهم غرباء<sup>١</sup> تشنّ وتناى عنهم القرباء<sup>٢</sup>  
وحسب الفقى من ذلة العيش أنه يروح بأدنى القوت وهو حياء  
وما بعد مرّ الخمس عشرة من صبا  
ولا بعد مرّ الاربعين صباء

١ السهاكان نجمان معروفان .

٢ شبه نفسه بالفرقدين في علو المقام وقال إذا كان مثلي تنصب له الحبايل فما قولك فيمن هم دولي .

٣ الطائي هو حاتم المشهور بكرمه . ومادر رجل من بني هلال معروف بالبخل . وقس هو الخطيب الجاهلي المشهور . وباقل يضرب به المثل في العي .

تواصلَ حبلَ النسلِ ما بينَ آدمَ      وبينى ولم يوصلِ بلامىَ باءُ<sup>١</sup>  
تشاءبَ عمرو<sup>٢</sup> إذ تشاءبَ خالد  
وزهدني في الخلقِ معرفتي بهم  
بعدوى فما أعدتني الثوباء<sup>٢</sup>  
إذا نزلَ المقدارَ لم يكِ للقطا  
وعلمي بأنَّ العالمينَ هباء  
على الولدِ يحني والد ولو انهم  
نهوض ولا للمُخدراتِ<sup>٣</sup> إباء  
وزادك بعداً من بنيك وزادهم  
ولاية<sup>٤</sup> على أمصارهم خطباء  
عليك حقوداً انهم نجباء

٢

إذا كان علم الناس ليس بنافع  
ولا دافع فالخُسر للعلماء  
قضى الله فينا بالذي هو كائن<sup>٥</sup>  
فتم وضاعت حكمة الحكماء  
وهل يأتق الانسان من ملك ربه  
فيخرج من أرض له وسما  
وقد بان ان النحس ليس بغافل  
له عمل في أنجم الفسما  
ومن كان ذا جود وليس بمكثراً  
فليس بحسوب من الكرماء

\* \* \*

افيقوا افيقوا يا غواة<sup>٥</sup> فانما  
دياناتكم مكر من القدماء  
أرادوا بها جمع الحطام فادركوا  
وبادوا وماتت سنة اللؤماء  
يقولون إن الدهر قد حان موته  
ولم يبق في الايام غير ذمماء<sup>٦</sup>  
وقد كذبوا ما يعرفون انقضاه  
فلا تسمعوا من كاذب الزعماء

٣

يرتجى الناس ان يقوم امام<sup>٧</sup> ناطق في الكتيبة الخرساء<sup>٧</sup>

- ١ و ٢ يريد بهذين البيتين ان حبل النسل انقطع فيه (أي انه لم يتزوج) وان التزوج كالثوباء  
عدوى تصيب الناس بعضهم من بعض اما هو فبقي سليماً منها .  
٣ المخدرات الاسود في آجامها .  
٤ المكثراي الكثير المال .  
٥ لا يقصد بالديانة هنا الايمان الحقيقي بل النظم والظواهر والطقوس الخارجية التي هي من  
وضع الانسان .  
٦ ذمء بقية الروح في الجسد .  
٧ إشارة إلى القول بظهور المهدي .

كذب الظنّ لا إمامَ سوى العقل مشيراً في صحبه والمساء  
فاذا ما اطعته جلب الرحمة عند المسير والإرساء  
إنما هذه المذاهب اسبابٌ لجذب الدنيا الى الرؤساء  
فانفرد ما استطعت فالقائل الصا دق يضحى ثقلاً على الجلساء

٤

يحسُن مرأى لبني آدمٍ وكلهم في الذوق لا يعذب  
ما فيهم برٌّ ولا ناسكٌ إلا الى نفعٍ له يجذب  
افضل من افضلهم صخرةٌ لا تظلم الناس ولا تكذب

٥

من ليّ أن لا اقيم في بلدٍ أذكر فيه بغير ما يجب  
يُظنّ بي اليسرُ والديانة والعلم وبينها حُجب  
كلّ اموري عليّ واحدة لا صفرٌ يتقى ولا رجب  
اقررت بالجهل وأدعى فهمي قومٌ قامري وامرهم عجب

٦

قد قيل ان الروح تأسف بعدما تنأى عن الجسد الذي غنيت به  
ان كان يصحبها الحجى فلعلها تدري وتفظن للزمان رعتبه  
أو لا فكم هذيان قوم غابر في الكتب ضاع مداده في كتبه

٧

انا صائم طول الحياة وإنما فطري الحمام ويوم ذاك أعتد  
لوان من ليل وصبح لوّنا شعري واضعفتي الزمان الأيد  
والناس كالاشعار ينطق دهرهم هم فمطلق معشرٍ ومقيّد  
قالوا فلانٌ جيّدٌ لصديقه لا يكذبوا ما في البرية جيّد  
فاميرهم نال الامارة بالخنا وتقيتهم بصلاته متصيّد  
كن من تشاء مهجناً أو خالصاً واذا رزقت غنىً فانت السيد

٨

لا تبدأوني بالعداوة منكم فسيحكم عندي نظير محمد

أيغيث ضوءُ الصبحِ ناظرَ مدالجٍ      ام نحن اجمع في ظلام سرمد  
ان السيوف تراح في اغهادها      وتظلّ في تعب اذا لم تفعد  
روح اذا اتصلت بشخص لم يزل  
هو وهى في مرض العناء المكمد  
ان كنت من ريح فيا ريح اسكني  
او كنت من هب فيا هب اخمد

٩

جرُّ ياغراب وأفسد لن ترى أحداً      الا مسيئاً وايّ الخلق لم يحجر؟  
فخذ من الزرع ما يكفيك عن عرض  
وحاول الرزق في العالي من الشجر  
وما ألومك بل أوليك معذرة      اذا خطفت ذبال القوم في الحجر  
قال حواء راعوا الاسد مخدرةً      ولم يفادوا بسلم ربة الوجر<sup>١</sup>  
ومن اتاهم بظلم فهو عندهم      كجالب التمر مفترأ الى هجر<sup>٢</sup>  
هم المعاشر ضاموا كل من صحبوا      من جنسهم وأباحوا كل محتجر  
لو كنت حافظ اثمار لهم ينعت      ثم اقتربت لما أخلوك من حجر

١٠

العالم العالي<sup>٣</sup> برأي معاشر      كالعالم الهاوي يحس ويعلم  
زعمت رجال ان سياراته      تسبق العقول وانها تتكلم  
فهل الكواكب مثلنا في ديننا      لا يتفقدن فها قد أو مسلم؟  
والنور في حكم الخواطر محدث      والأولي هو الزمان المظلم  
والخير بين الناس رسم دائر      والشر نهج والبرية معلم

١ أي اخافوا الاسد في عرينها وأقلقوا سائر الحيوانات في ارجوتها .  
٢ هجر : بلد مشهور بتمره في مقاطعة « الاحساء » .  
٣ يريد بالعالم العالي عالم الافلاك والعالم الهاوي عالم الانسان والطبيعة .

طبعٌ خلقت عليه ليس بزائل طول الحياة وآخر متعلمٌ

\* \* \*

ان جارت الامراءُ جاء مؤمراً  
ان شئت ان تكفى الحيام فلاتمش  
أحسن بدنيا القوم لو كان الفتى  
يتشبه الطاغى بطاغٍ مثله  
في الناس ذو حلم يسفته نفسه  
وكلاهما تصبٌ يحارب شيمه<sup>١</sup>  
اعنى واجور يستضم ويكلم<sup>٢</sup>  
هذي الحياة الى المنية سلم  
لا يقتضى وأدبهِ لا يحلم<sup>٣</sup>  
واخو السعادة بينهم من يسلم  
كيا يهاب وجاهل يتحلم  
غلبت فأض بحريها يتالم<sup>٤</sup>

١١

اركان دنيانا غرائزُ اربع<sup>١</sup>  
والله صير للبلاد واهلها  
والدهر لا يدري بما هو كائن  
والمرء ليس بزاهد في غارة  
والحي تخلق جسمه حركاته  
نبكي ونضحك والقضاء مسلط<sup>٢</sup>  
نشكو الزمان وما اتى بجنائيه  
متوافقين على المظالم ركبت  
يعضي بنا الفتيان ما أخذنا لنا  
جعلت لمن هو فوقنا اركانا  
طرفين : وقتاً ذاهباً ومكانا  
فيه فكيف يلام فيما كانا  
لكنه يتربق الامكانا  
فيكل وهو يحاذر الاسكانا  
ما الدهر أضحكنا ولا أبكانا  
ولو استطاع تكلماً لشكانا  
فينا وقارب شمرنا ازكانا  
نفساً على حالٍ ولا تركانا<sup>٤</sup>

١٢

قد اختل الانام بغير شك<sup>١</sup>  
وودوا العيش في زمن خؤون  
فجيدوا في الزمان أو العبوه<sup>٢</sup>  
وقد عرفوا أذاهُ وجربوه<sup>٣</sup>

١ يكلم أي يدمي .

٢ أدبهِ لا يحلم أي جلده لا يفسد والمعنى لو كان الانسان لا يصير الى زوال .

٣ أض أي رجع .

٤ الفتيان : الليل والنهار .

وينشأ ناشيء<sup>١</sup> الفتيانِ منّا  
وما دان الفتى بحجبي<sup>٢</sup> ولكن  
لعلّ الموت خيراً للبرايا  
أطاعوا ذا الخداع وصدّقوه  
وجاءتنا شرائع<sup>٣</sup> كلّ قومٍ  
وغتير بعضهم أقوال بعضٍ  
فلا تفرح إذا رُجبت فيهم  
صحبنا دهرنا دهرأً - وقديماً  
وغيظاً - به بنوه وغيظ منهم  
وهل ترجى الكرامة من اوانٍ  
وهل من وقتهم أبغى وأطفى  
أجلتوا مكثرأً وتنصّفوه

على ما كان عودّه أبوه<sup>٤</sup>  
يعلمه التدينَ أقربوه  
وان خافوا الردي وتهيبوه  
وكم نصح النصيح فكذبوه  
على آثار شيء رتبوه  
وأبطلت النهى<sup>٢</sup> ما اوجبوه  
فقد رفعوا الدنيء ورجّبوه<sup>٣</sup>  
رأى الفضلاء ان لا يصحبوه  
فعدّب ساكنيه وعدّبوه  
وقد غلب الرجال مغلبوه  
على أيّ المذاهب قلبّوه  
وغابوا من اقلّ وأنّبوه<sup>٤</sup>

١ الناشيء : الحدث اليافع .

٢ النهى : العقل .

٣ رجبه : عظمه وهابه .

٤ المكثّر : النفي . تنصّفوه أي خدموه .

## ابن الفارض

ابو القاسم (ابو حفص) عمر بن علي بن مرشد

٥٧٧ هـ - ٦٣٢ هـ

١١٨١ م - ١٢٣٥ م



نشأته - شخصيته - اثر الصوفية في شعره - اسلوبه الشعري - غزله

## مصادر دراسة شعره وتصوفه

- الشمع لابن السراج الطوسي ليدن ١٩١٤  
الرسالة القشيرية دار الكتب المصرية ١٣٣٠  
كشف المحجوب للحجويري ترجمة 1911 Nicholson  
الاحياء للفضالي وبهامشه عوارف المعارف للسهروردي مصر ١٣٠٢  
وفيات الاعيان لابن خلكان الطبعة الميرية  
الخطط والآثار للمقرئزي مطبعة النيل ١٣٢٥  
حسن المحاضرة للسيوطي ١٣٢١  
شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي مصر ١٣٥١  
قوانين حكم الاشراف لابي المواهب الشاذلي مطبعة ولاية سوريا ١٣٠٩  
شرح الديوان للبوريني والنابلسي مصر ١٣١٠  
» » » (شرح الدحداح) مرسليليا ١٨٥٣  
التائية الكبرى شرح الفرغاني (١٢٩٣ هـ) والقاشاني (١٣١٠)  
التائية الكبرى تحرير Von Hausman فيينا ١٨٥٤  
Nicholson, Studies in Islamic Mysticism, Cambridge, 1911  
Massignon-Encyc. of Islam. Tasawwuf.  
ابن الفارض والحب الإلهي لمحمد مصطفى حلمي مصر ١٩٤٥  
ومقالات شتى لأدباء عرب ومستشرقين .



## نشأته

يرجع ابن الفارض بنسبه الى بني سعد<sup>١</sup> . ووالده حمويّ الاصل قدم مصر يقطنها ، وكان يثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدي الحكام فلقّب بالفارض<sup>٢</sup> . ويستدل انه (الوالد) كان رجل فضل وجاه يتصدر مجالس الحكم والعلم ، حتى سئل ان يكون قاضي القضاة فامتنع ونزل عن الحكم . واعتزل الناس وانقطع الى الله تعالى بقاعة الخطابة في الجامع الازهر الى ان توفاه الله<sup>٣</sup> .

وفي مصر ولد شاعرنا ، ولا شك انه كان لوالده يد كبيرة في ثقافته وفي تكييف نزعاته النفسية . قال ابن العماد الحنبلي : « فنشأ تحت كنف أبيه في عفاف وصيانة وعبادة ، بل زهد وقناعة وورع ، وأسدل عليه لباسه وقناعه . فلما شب وترعرع اشتغل بفقهِ الشافعية ، وأخذ الحديث عن ابن عساكر<sup>٤</sup> . »

وقد ظهر فيه منذ أوائل شبابه ميل الى التدين والتلذذ بالتجرد الروحي على طريقة المتصوفين . فكان يستأذن والده في الانفراد للعبادة والتأمل . ويظهر انه كان في جبل المقطم مكان خاص يعرف بوادي المستضعفين يختلف اليه المتجردون<sup>٥</sup> ، فحُبّب الى ابن الفارض الخلاء فيه ،

١ قبيلة السيدة حليلة مرضعة النبي العربي .

٢ شذرات الذهب ٥ - ١٤٩ .

٣ عن سبطه في الديوان ص ٧ .

٤ شذرات الذهب ٥ - ١٤٩ . وابن عساكر هذا غير الحافظ الشهير صاحب التاريخ الكبير .

٥ الديوان ٦ .

فتزهد وتجرد وكان يأوي الى ذلك المكان أحياناً<sup>١</sup> . ثم انقطع عنه ولزم اباه . فلما توفي الوالد عاد الولد الى التجريد والسياسة الروحية او سلوك طريق الحقيقة فلم يفتح عليه بشيء<sup>٢</sup> (اي لم يكشف له من المعرفة ما يستغني به ولعله يريد هنا لم يوح اليه من الشعر شيء) ثم قيّض له رجل من الاتقياء أشار عليه ان يقصد مكة . فقصدتها وأقام فيها مجاوراً نحواً من ١٥ سنة . وهناك بين المناسك المقدسة نضجت شاعريته وكملت مواهبه الروحية . ثم عاد الى مصر ، وكانت يومئذ تحت سيادة الايوبيين ، وقد عُنوا كل العناية بفتح المدارس والمعاهد فيها ، فتجددت في أيامهم الروح الدينية والتعاليم السنية . حدث ذلك على أثر انتصاراتهم على الصليبيين تلك الانتصارات التي وطدت مركزهم في مصر والشام والحجاز ، وتركت لهم في تاريخ الشرق الاسلامي ذكرى خالدة .

والذي يلفت النظر ان عطف الايوبيين على السنة كان مقروناً بتزايد عدد الصوفية<sup>٣</sup> في مصر ، فكان التصوف يومئذ كان يعتبر مظهراً من مظاهر التدين ليس إلا . ولذلك نرى الجمهور يكرمون مشايخ الطرق ويعظمون شأنهم ، ونرى الحكام والامراء يقفون لهم « الخوانك »<sup>٤</sup> . ويذكر المقرئ ما ملخصه<sup>٥</sup> : ان صلاح الدين خصّص سنة ٥٦٩ بمصر داراً للصوفية كانت قبلاً لوزراء الفاطميين ، ووقف لهم وقفاً كبيراً ، فكانت اول خانكاه عملت بديار مصر ، وعُرفت بدويرة الصوفية . وكان سكانها من الصوفية يعرفون بالعلم والصلاح وترجى بركتهم . وولي مشيختها الاكابر والاعيان . قال : « وأخبرني الشيخ احمد بن علي القصّار انه أدرك الناس في يوم الجمعة يأتون من مصر الى القاهرة ليشاهدوا الصوفية عندما

١ شذرات الذهب ٥ - ١٤٩ .

٢ الديوان ٧ . شذرات الذهب ١ - ١٥٠ .

٣ راجع قائمتهم في حسن المحاضرة ١ ص ٢٤٣ - ٢٥٤ .

٤ جمع خانكاه وهي فارسية معناها البيت ويقصدون بها محلات خاصة لاقامتهم .

٥ الخطط (بولاق) ٢ - ٤١٥ .

يتوجهون منها الى صلاة الجمعة ، كي تحصل لهم البركة والخير بمشاهدتهم ، ثم يصف موكبهم الفخم ويكتب على ذلك بقوله : « انه كان من أجل عوايد القاهرة ، وقد بقي الامر كذلك الى أوائل القرن التاسع الهجري .

فلا نستغرب إذن ما نسمعه عن اكرام الناس لابن الفارض وقد رجع من مكة شيخاً متصوّفاً وشاعراً كبيراً ، حتى كان إذا مشى في المدينة يزدحم الناس عليه يلتمسون منه البركة والدعاء ، ويقصدون تقبيل يده<sup>١</sup> . قال ولده<sup>٢</sup> : « وكان إذا حضر في مجلس يظهر على ذلك المجلس سكون وهيبة ، وسكينة ووقار . ورأيت جماعة من مشايخ الفقهاء والفقراء ( المتصوفة ) واكابر الدولة من الامراء والوزراء والقضاة ورؤساء الناس يحضرون مجلسه وهم في غاية ما يكون من الادب معه والاتضاع له . وإذا خاطبوه فكأنهم يخاطبون ملكاً عظيماً » . وقال ابن العماد الحنبلي<sup>٣</sup> : « فأقام بقاعة الخطابة في جامع الازهر ، وعكفت عليه الائمة وقُصد بالزيارة من الخاص والعام ، حتى ان الملك الكامل كان ينزل لزيارته » .

قلنا اننا لا نستغرب ما رواه ولده ، وما نقله صاحب شذرات الذهب عن منزلة شاعرنا الدينية والاجتماعية ، على انه لا بدّ من القول انصافاً للتاريخ ان ابن خلكان الذي أدرك الشاعر وترجم له ، لا يذكر شيئاً من هذا القبيل . وكل ما يقوله من ذلك : « سمعت انه كان رجلاً صالحاً كثير الخير على قدم التجرد » . فهو يزكّي قول سبطه وولده ومن نقل عنها انه كان معروفاً بالصلاح والكرم وسلوك طريقة التصوف على انه يسكت عما ذهبوا اليه من تعظيم الخاصة والعامه له . ولا يلزم عن

١ الديوان ٦ .

٢ الديوان ٦ .

٣ شذرات الذهب ٥ - ١٥٠ .

٤ كان ابن خلكان في الرابعة والعشرين لما توفي ابن الفارض .

سكوته انكار ما ذهبوا اليه ، ولكنّ فيه ما يجوز لنا التحرّز بما قد يكون من قبيل الفلو او التفرّض .

### شخصيته

يجمع مؤرخوه على انه كان ورعاً وقوراً طيب الاقوال والافعال . والذي يراجع سيرته ويتفهم روح قصائده يتجلّى له في نفسه ثلاث مزايا بارزة :

انه كان شديد التأثر ( وخصوصاً بالجمال ) الى درجة الانفعال العصبي يسحره جمال الشكل حتى في الجمادات . ومن ذلك ما يروونه عن تأثره بحسن بعض الجمال ، أو ببُرنية حسنة الصنعة رآها في دكان عطّاراً . وقد يسحره جمال الالحان - فاذا سمع انشاداً جميلاً استخفته الطرب فتواجد ورقص ولو على مشهد من الناس . نقل عن ولده ان الشيخ كان ماشياً في السوق بالقاهرة فمرّ على جماعة من الحرسية يضربون بالناقوس ويغنون ، فلما سمعهم صرخ صرخة عظيمة ، ورقص رقصاً كثيراً في وسط السوق ، ورقص جماعة كثيرة من المارّين . وتواجد الناس الى ان سقط اكثرهم الى الارض . ثم خلع الشيخ ثيابه ورمى بها اليهم وحمل بين الناس الى الجامع الازهر ، وهو عريان مكشوف الرأس ، وفي وسطه لباسه . وأقام في هذه السكرة (النوبة العصبية) ملقى على ظهره مسجّياً كاليت ٢ .

ومما يذكر من هذه السكرات او النوبات التواجدية انه كان مرّة جالساً في الجامع الازهر على باب قاعة الخطابة ، وعنده جماعة من الفقراء والامراء ، وجماعة من مشايخ الاعجام المجاورين بالجامع وغيرهم . وكلما ذكروا حالاً من أحوال الدنيا مثل الطشت او الفرش قالوا هذا من زخم

١ شذرات الذهب ٥ - ١٥١ .

٢ الديوان ١٤ .

( أي وضع ) العجم . فبينما هم يتفاوضون في ذلك ويفخّمون « زخم العجم » رفع المؤذنون أصواتهم بالأذان جملة واحدة فقال الشيخ : « وهذا زخم العرب » وتواجد ، وصرخ كل من كان حاضراً حتى صار لهم ضجة عظيمة <sup>١</sup> .

فالرجل كان شديد التأثر العصبي وسرى اثر ذلك في شعره ولا سيما في قصيدته الكبرى نظم السلوك . والظاهر ان للطريقة الصوفية وما يلازمها من رياضة وأذكار وتأملات روحية تأثيراً بيناً من هذا القبيل . وقد روي في كتاب « كشف المحجوب » كثير من أخبار الصوفيين الذين ماتوا لشدة وجدهم <sup>٢</sup> .

٢ - ميله الى الخلوة والتقشف . وهو ظاهر منذ حدائته في ما ذكرناه سابقاً من اختلافه الى وادي المستضعفين ، وظاهر أيضاً في مجاورته بمكة ، وما رووه عن هيامه بأوديتها يستأنس بوحشتها . وقد عبّر عن ذلك بقوله :

وابعدني عن اربعمي بُعد اربعٍ شبابي وعقلي وارتياحي وصحتي  
فلي بعد اوطاني سكون الى الفلا وبالوحش انسي اذمن الانس وحشتي  
وكان أيام النيل يتردد الى المسجد المعروف بالمشتهى في الروضة ،  
ويحب مشاهدة البحر ( اي نهر النيل ) مساءً <sup>٣</sup> . وفي ذلك ما يشير الى  
حبه التأمل بالجمال الطبيعي والبعد عن ضجيج الناس ومتاعبهم .  
وقد قرن كل ذلك بقهر النفس تقشفاً وصياماً حتى نقل عن ولده انه  
كان للشاعر اربعينيات <sup>٤</sup> يحييها بالصيام والتأمل . وكانت تلك طريقة

١ الديوان ١٥ .

٢ كشف المحجوب ( فقه فكلسون من الفارسية الى الانكليزية ) راجع في النسخة الانكليزية

الصفحات ٤٠٦ - ٤١٠ .

٣ شذرات الذهب ٥ - ١٥٠ .

٤ الديوان ١٧ وشذرات الذهب ٥ - ١٥٠ . ومعنى الاربعينية اربعون يوماً .

عتمدها بعض المتصوّفين . ولهم في ذلك الحديث التالي يرفعونه الى النبي  
« من اخلص لله تعالى العبادة اربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه  
على لسانه <sup>١</sup> » . وقد عقد السهروردي فصلاً في هذه الطريقة ومعانيها  
وكيف يدخلها المرید وما يتطلب منه ، فليراجعه من يريد التعمق في  
ذلك <sup>٢</sup> . وخلصته ان مشايخ الصوفية متفقون على ان بناء امرهم على  
اربعة أشياء : قلة الطعام ، وقلة المنام ، وقلة الكلام ، والاعتزال عن  
الناس . فمن استطاع ان يحتمل الجوع ابتغاء الفرح الاعلى الذي ينسيه  
لهب الجوع فله ذلك . ولا يتحتم عليه الانقطاع التام عن الطعام والشراب  
طيلة الاربعين يوماً بل الاكتفاء بالقليل القليل من خبز وملح أو ما  
شاكل ، والقيام بما تتطلبه الخلوة من رياضة روحية حتى يفتح عليه  
ويكشف بشيء من المنح الالهية .

ويظهر مما رواه ان شاعرنا كان يقوم بهذه الرياضة الزهدية أحياناً  
ولعله الى ذلك يشير في قوله :

في هواكم رمضان عمره ينقضي ما بين احياء وطي  
ومها حاولنا غربة الاخبار التي يروونها عن تقشّفه وصيامه فاننا لا  
نرى محيصاً عن القول ان الرجل كان متصوّفاً وكان يسلك طريقة اهل  
الورع والزهد <sup>٣</sup> ، وقصائده ولا سيما التائية الكبرى تنضح بذلك نضحاً  
لا سبيل الى إنكاره .

٣ - كرم سجيته وحسن عشرته . قد يكون في امرىء ما كان في شاعرنا  
من حدّة التأثر والميل الى الطريقة الزهدية ، ويكون مع ذلك سيّء العشرة  
قليل الخير . اما ابن الفارض فقد اجمع الكل على نعته بسمو الخلق من  
رقة وايناس وكرم وترفع عن حطام الدنيا <sup>٤</sup> . فهو لم يكن من الذين

١ عوارف المعارف (هامش الاحياء) ٢ - ٢٢٣ .

٢ « » « الفصل الثامن والعشرون .

٣ راجع قصته مع السلطان الملك الكامل . الديوان ١٥ .

٤ ابن خلكان في ترجمته ، وشذرات الذهب ٥ - ١٥٠ .

يصطنعون التدين طمعاً بالحصول على المال أو شرف المقام ، بل كانت التدين طبعاً فيه يرفعه عن الشهوات والاطماع المعيبة . وقد عرف الناس له ذلك فأكرموه ورفعوه الى مصاف الصالحين .

ومن مزاياه البارزة السخاء . روي انه ركب مرة مع مكارى الى جامع مصر واشترط المكارى ان تكون اجرته « على الفتوح » اي بقدر ما يفتح على الشاعر من العطايا . قال الراوي - وكان يرافقه - وتبعنا فارس من جهة الامير فخر الدين فاستند إليّ فقال لي : قل للشيخ هذه مئة دينار يقبلها من الامير على الفتوح . فقلت ذلك للشيخ . فقال نحن ركبنا مع المكارى على الفتوح وأمر له بها . فرجع الفارس الى الامير وأخبره بذلك . فبعث اليه مثلها ، فقال اعطها للمكارى . ولما وصلنا الى الجامع اعتذر الشيخ الى المكارى ودعا له <sup>١</sup> .

وكان شديد المؤاخذة لنفسه . قال لولده <sup>٢</sup> : « حصلت مني هفوة انحصرت بسببها باطناً وظاهراً حتى كادت روحي تخرج من جسدي ، فخرجت هائماً كالهارب من أمر عظيم فعملته وهو مطالب به ، فطلعت المقطم وقصدت مواطن سياحتي وأنا أبكي واستغيث واستغفر فلم ينفرج ما بي . وقصدت مدينة مصر ودخلت جامع عمرو بن العاص ، ووقفت في صحن الجامع خائفاً مذعوراً ، وجددت البكاء والتضرع والاستغفار ، فلم ينفرج بالي ، فغلب عليّ حال مزعج لم أجد مثله قط ، فصرخت وقلت :

من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط ،

قال فسمعت قائلاً يقول بين السماء والارض ، اسمع صوته ولا أرى

شخصه :

« محمد الهادي الذي عليه جبريل هبط ،

١ الديوان ١٦ .

٢ الديوان ٣١ .

ولا ننكر انه لا يجوز التقييد بمثل هذه القصص والاستناد اليها في الحكم على شاعرنا ولكنها ترينا على الاقل رأي الذين ترجعوا له ، او كيفية تأثرهم بأخلاقه . والقصة الاخيرة ترجع الى أيام الشاعر فقد رواها ابن خلكان عن بعض أصحابه وانه ترنم يوماً وهو في خلوة بيت الحريري « من ذا الذي ما ساء قط ، فسمع البيت الثاني من قائل لم يرَ شخصه . ولا يذكر ابن خلكان دقائق القصة كما يرويها ولد الشاعر . وليس بالمعجب ان يكون ابن الفارض كما ذكرنا وان يوهمه الانفعال النفسي انه يسمع صوت شخص لا يراه . فما ذلك الشخص الا نفسه الواجدة ، التي كثيراً ما كان الوجد يفصلها عن العالم المحسوس .

\* \* \*

فرجل كابن الفارض شديد الاحساس والتأثر ، كثير الخلوة والتأمل ، ورع مترفع عن حطام الدنيا ، محبّ حسن الصحبة كثير الخير ، لا يُستغرب ان تفيض نفسه بقصائد الوجد والهيام ، وان ينال من معاصريه ومن تبعهم جميل الذكر والاكرام .

### اثر الصوفية في شعره

مرّ معنا في القسم الاول من هذا الكتاب شيء عن الطريقة الصوفية ومنشأها ، فلا لزوم لاعادته هنا . على انه لا بدّ لنا لدرس ابن الفارض وتفهم شعره ، من النظر في الصوفية ومصطلحاتها العامة فنقول :

« للقلب بابان ، باب مفتوح الى عالم الملكوت ، وباب مفتوح الى الحواس الخمس المتمسكة بعالم الملك والشهادة . فعلم الاولياء والانبياء يأتي من الباب الاول ، وعلم الحكماء ( العلماء والفلاسفة ) يأتي من الثاني . والفرق بين الفريقين ان الحكماء يعملون في اكتساب العلوم واجتلابها الى القلب ، واما الاولياء ( الصوفية ) فيعملون في جلاء القلوب وتطهيرها وتصفيتها



وتصقيلمها فقط حتى تتلأأ فيه جليّة الحق بنور الاشراق ، وهذا هو الكشف ، ١ .

فالصوفية اذن مجاهدةٌ لتطهير القلوب من الادران والانفراد بذكر الله توصلأ الى الحصول على الالهام النورانيّ - او الاتحاد الكامل بالحق الاعلى .

وفي خلال هذه المجاهدة تمرّ نفس الصوفيّ في قطوّرات شتى ، منها ما يدعى مقامات ، ومنها ما يدعى احوالاً . ويراد بالمقامات قيام العبد بين يدي الله والانقطاع اليه ، ولزوم العبادات والمجاهدات والرياضات الروحية . وبكلمة اوضح هي المسالك التي يتدرج فيها المتصوف نحو غايته المنشودة ، كالتوبة - والورع - والزهد - والفقر - والصبر - والتوكل - والرضا وغير ذلك ٢ .  
واما الاحوال فهي ما يحلّ بالقلوب من صفاء الاذكار - او هي اختبارات النفس اذ تمرّ في شتى المقامات . ومن ذلك القرب - المحبة - الخوف - الرجاء - الشوق - الانس - الطمأنينة - المشاهدة - اليقين ٣ .

وللصوفية مصطلحات يكثرون من ترديدها في اشعارهم ، وقد افرد لها ابن السراج الطوسيّ في اللّمع باباً خاصاً ذكر فيه نحواً من ١٥٩ نوعاً ، ثم شرحها شرحاً وافياً فليراجعها من شاء ٤ . وإنما نجتزئ هنا باشهرها واكثرها تردداً في الشعر الصوفي ، وخاصة في شعر ابن الفارض - ومنها :

الجمع والتفرقة : فالجمع هو اتحاد الواجد بالله عن سبيل الوجد ٥ ،

١ ملخصاً عن الاحياء للغزالي ٣ - ٢١ .

٢ من اراد معاني هذه الالفاظ من الوجهة الصوفية فليراجع اللّمع ٤٣ - ٥٤ او كتاب قوانين حكم الاشراق لابي المواهب الشاذلي .

٣ راجع معانيها في اللّمع ٥٤ - ٧٢ .

٤ اللّمع ٣٣٣ - ٣٧٦ .

٥ وفي جامع البدائع ( مصر ١٩١٧ ) ص ٨٧ ان كل واحد من الموجودات يعشق الخير المطلق عشقاً فردياً ، وان الخير المطلق يتجلى لماشقه وان غاية القربى منه هي قبول تجليه على اكمل ما في الامكان . وهو المعنى الذي يسميه الصوفية بالاتحاد .

والتفرقة تملئهُ بالبشرية :

فالاول عن طريق القلب والثاني عن طريق العقل - فمثال الجمع قوله :

لها صلواتي بالمقام اقيمها واشهد فيها انها لي صلت  
كلانا مصلِّ واحد ساجد الى حقيقته بالجمع في كل سجدة

الفناء والبقاء - الفناء رؤية حركات العبد ، والبقاء رؤية عناية الله .

كقوله :

وتلاني ان كان فيه اثتلافي بك عجل به - جعلت فداكا

وقوله :

ان كان في تلمي رضاك صباية - ولك البقاء - وجدت فيه لذاذا  
الحب والهوى - وما يتعلق به من كتمان - والم - ونحول - وشوق -  
وهجر - ووصل - وتهتك - وعدل وغيره من الوجهة الصوفية  
وهو الموضوع العام في شعر ابن الفارض ، والامثلة اكثر من ان  
تحصر هنا .

الوجد - ان ينقطع القلب عن العلاقات الدنيوية فيشاهد ويسمع ما لم  
يكن يتهيأ له من قبل :

يا اخا العذل في من الحق مثلي هام وجدأ به عُدمتُ إخاكا  
لو رأيت الذي سباني فيه من جمال - ولن تراه - سباكا

القبض والبسط - وهما حالان شريفان لاهل المعرفة (الصوفية) . اذا قبضهم  
الله حشمهم عن تناول المباحات حتى الاكل والشرب والكلام ،  
واذا بسطهم ردّهم الى هذه الاشياء حتى يتأدب الخلق بهم .

وفي رحمت البسط كلتي رغبةٌ بها انبسطت آمال اهل بسيطتي  
وفي رهبوت القبض كلتي رهبة ففيا اجلت العين منّي اجلّبت

السكر والصحو - (الغشية والحضور) فالسكر غيبة القلب عن مشاهدة  
الخلق ومشاهدته للحق بلا تغير ظاهر على العبد . ويختلف عن

الغشية بانها تظهر ) .

تهذب اخلاق الندامى فيهتدي بها لطريق العزم من لاله عزم  
وفي سكرة منها ولو عمر ساعة ترى الدهر عبداً طائماً ولك الحكم

والصحو رجوع القلب الى ما غاب عن عيانه لصفاء اليقين ،  
ويختلف عن الحضور بأن هذا دائم والصحو حادث .

المحو وصحو الجمع - وهما حالان تتلوان السكر والصحو . فالمحو  
صعقة السكر ثانية بعد الصحو الاول يتلوها صحو الجمع وهو  
الرتبة العليا وفيها يتم الاتحاد بالله واذ ذاك تتساوى الطوائع  
وتجتمع الاضداد فيصبح العابد والمعبود واحداً ، وكذلك  
الرسول والمرسل والمحب والمحبوب ، والحاضر والماضي ، والليل  
والنهار ، والصفة والذات .

فالوجود واحد - وليس هنالك زمان ، او سابق ذوات ،  
او اختلاف أديان ، أو أنا وأنت وهو ، بل روح واحدة  
هي حقيقة الحقائق التي تتجلى بمظاهر مختلفة في الوجود  
الحسّي .

ففي الصحو بعد المحو لم أك غيرها وذاتي بذاتي إذ تحلت تجلّت  
فكل الذي شاهدته فعل واحد بمفرده لكن بحجب الاكنة  
اذا ما ازال الستر لم تر غيره ولم يبق بالأشكال إشكال ريبة  
واذا بزغت أنوار التوحيد على قلب الصوفي كسف سلطانها سائر  
الانوار .

وفي حبها بعث السعادة بالشقا ضللاً وعقلي عن هداي به عقل  
وقلت لرشدي والتنسك والتقوى تخلتوا وما بيني وبين الهوى خلثوا  
الكشف - بيان ما يخفى على الفهم فيكشف عنه للعارف كأنه

رأي عين :

وما برحوا معنى ارام معي فإن نأوا صورة في الذهن، قام لهم شكل

\* \* \*

فالدجاجي لنا بك الآن غر حيث أهديت لي هدى من سناكا  
واقتباس الانوار من ظاهري غير عجيب وباطني ماواكا  
التجريد - ما تجرد للقلب من شواهد الالوهية اذا صفا من كدور  
البشرية :

ابعيني عى عنكم كما صمم من عدله في أذُنِّي  
أو لم ينه النهى عن عدله زاوياً وجه قبول النصح زي

\* \* \*

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا سرّ ارقّ من النسيم اذا سرى  
واباح طرفي نظرة امتلتها ففدوت معروفاً وكنت منكراً  
فدهشت بين جماله وجلاله وغدا لسان الحال عني مخبراً  
الشطح - كلام غريب يترجمه اللسان عن وجد يفيض عن قلب  
الواجد كما يفيض الماء الغزير اذا جرى في مجرى ضيق  
كقوله :

فخمر ولا كرم وآدم لي أب وكرم ولا خمر ولي امها ام  
وقوله في حالة الاتحاد :

فأتلو علوم العالمين بلفظة واجلو عليّ العالمين بلحظة  
واستعرض الآفاق نحوي بخطوة واخترق السبع الطباق بخطوة  
فمن قال أو من طال او صال انما يمتّ بامدادى له برقيقة  
وما سار فوق الماء او طار في هوا أو اقتحم النيران الأبهمتي  
ومنّي لو قامت بيت لطيفة لرُدّت اليه نفسه وأعيدت

## اسلوبه الشعري

نشأ ابن الفارض في عصر بلغت فيه الأناقة البديعية نثراً ونظماً أعلى درجاتها . فهو عصر القاضي الفاضل ، والعماد الاصبهاني ، وابن التعاويذي ، وابن النبيه ، والبهاء زهير ، وابن سناء الملك ، وابن الساعاتي ، وسواهم ممن عاصروا شاعرنا او سبقوه قليلاً . وقد عُرِفَت هذه الطبقة جميعها بولعها الشديد بالصناعة اللفظية وتكلف أنواع البديع . ولم يشذ عنهم ابن الفارض ، بل لعله أبعدهم شأواً في ذلك . فالتأنق البديعي عامٌ في جميع قصائده بل في اكثر أبياتها . وأكثر ما يظهر في ما يلي :

الجناس ( في أنواعه المختلفة ) - ومنه :

التام :

ليت شعري هل كفى ما قد جرى      مذ جرى ما قد كفى من مقلتي  
والمفتق :

جنة عندي رباها اعلمت      ام حلت عجلتها من جنتي

المشتق او شبهه :

دار خلد لم يدر في خلدي      انه من ينأ عنها يلق غي  
وكثيراً ما يعنى يجمع عدد من ضروب الجناس في بيت واحد . كقوله :  
وباينت بانات كذا عن طويلع      بسلعِ فسل عن حلةٍ فيه حلت  
ففيه الملتق والمحرّف وشبه المشتق .

فذاك هوى اهدى اليّ وهذه      على العود إذ غنت عن العود اغنت  
وفيه شبه المشتق والتام والناقص .

الطباق :

فلي بين هاتيك الخيام ضنينة      عليّ يجمي سمحة بتشتتي

\* \* \*

وبسط طوى قبض التنائي بساطه      لنا بطوى ولسى بارغد عيشة

\* \* \*

مني له ذل الخضوع ومنه لي عزّ المنوع وقوّة المستضعف  
الطيّ والنشر :

فضعفي وسقمي ذا كراي عواذلي وذاك حديث النفس عنها برجمة

\* \* \*

فقلبي وطرفي ذا بمعنى جاهها معنّى وذا مغرى بلين قوام

\* \* \*

وعقدي وعهدي لم يحلّ ولم يحلّ ووجدني وجدني والغرام غرامي  
وقد يحمله الشغف بهذه الصناعة على جمع بضعة من أنواع البديع -  
كقوله :

وقالوا: جرت حُمرأ دموعك قلت عن امورٍ جرت في كثرة الشوق قلتِ  
فحرت لضيف الطيف في جفني الكرى قرى فجرى دمعي دماً فوق وجنتي  
ففي هذين البيتين جناس وطباق ومراعاة نظير ومجاز مرسل .

وقوله :

أي صبا أيّ صبا هجت لنا سحرأ من اين ذيتاك الشذّي  
ذاك ان صافحت ريتان الكلا وتحرّشت بمخوذان كُلي  
فلذا تُروي وتروي ذا صدا وحديثاً عن فتاة الحيّ حيّ  
ففيه من الجناس التام والمحرّف، وفيه التناسب، والطباق، والطيّ والنشر.  
ومن مزايا أسلوبه توهم التناقض ، وهو ان يوهمك بوجود تناقض في  
المعنى ، والحقيقة غير ذلك . كقوله :

ما بين ضال المنحنى وظلاله ضلّ المتيم واهتدى بضلاله

\* \* \*

فلي بعد اوطاني سكون الى الفلا وللوحش انسي اذ من الانس وحشقي

\* \* \*

فلعلّ نار جوانحي ان تنظفي بهوبها وأودّ ان لا تنظفي

\* \* \*

وقلت لرشدي والتنسك والهوى تخلّوا وما بيني وبين الهوى خلّوا

\* \* \*

ومن أجلها أسمى لمن بيننا سعى واعدو ولا اغدو لمن دأبه العدل  
ومنها لطف العبارة والاشارة وحلاوة الجرس - ويكاد يكون مذهبه  
العام . ولا بدع فموضوعه حبّي والفاظه رقيقة مألوفة ، وهو يجمع بين سلاسة  
البحثري وصنعة ابي تمام جمعاً لطيفاً قد يملو به عن كليها . نعم  
تلك صفات الشعر الغزلي في كل زمان ، ولكن لابن الفارض نفساً  
خاصاً يمتاز به : انه لطف روعي ينعكس على اسلوبه فيحبّبه الى القلوب  
برغم ما فيه من عيوب سيأتي ذكرها . ولو أردنا التدليل على ذلك لاينا  
بأكثر ديوانه وانما نكتفي هنا بقوله :

يا اخت سعدٍ من حبيبي جثني برسالةٍ ادّيتها بتلطّفٍ  
فسمعتُ ما لم تسمعي ونظرت ما لم تنظري وعرفت ما لم تعرفي  
وقوله :

زدني بفرط الحب فيك تحييراً وارحم حشاً بلظي هواك تسعيراً  
واذا سألتك ان اراك حقيقة فاسمح ولا تجعل جوابي ، لن ترى  
ومن حسناته دقّة الوصف والتمثيل . وتظهر في بلاغة تشابيهه ،  
ووضوح رسومه الفكرية كقوله :

خافياً عن عائد لاح كما لاح في برديه بعد النشر طي  
فتشبيهه ما صار اليه من النحول باثر الطي في الثوب يدلّ على  
دقّة في الرسم تذكّر للشاعر . وقوله يصف شيوع الجمال الاسنى في  
كل شيء :

تراه ان غاب كل جارحة في كل معنى لطيف رائق بهج  
في نغمة العود والناي الرخيم اذا تألفا بين ألحانٍ من الهزج

وفي مسارح غزلان الخائل في برد الاصائل والاصباح في البلج  
وفي مساقط انداء الغمام على بساط نور من الازهار منتسج  
الى آخر هذه الابيات المشهورة .

وقوله يشبه تواجده بحال الطفل الذي يبكي من شدّة القهط ويحن الى  
الخلاص منه فيناغى ويهزّ فيجد في ذلك ما يسكّنه وينسيه شدّة القهط -  
( التائية ) :

إذا أن من اشدّ القهط وحنّ في نشاطٍ الى تفريج افراط شدّة  
يُناغى فيلغى كلّ كلّ اصابه ويُصغي لمن ناغاه كالمُنصتِ  
يُسكّن بالتحريك وهو بمهده اذا ما له ايدي مربّيه هزّت  
وجدت بوجدٍ آخذي عند ذكرها بتعبير قالٍ أو بالحن صيتِ  
وقس على ما ذكر كثيراً من لطائفه التي يشرح بها حاله فيصف تأثير  
الحب أو جمال المحبوب أو ضلال العذل ، وما الى ذلك بما يبلغ فيه  
الطبقات العليا من الخيال الشعري .

\* \* \*

### عيوب اسلوبه

على ان في شعر ابن الفارض عيوباً لا يحوز الاغضاء عنها أمّتها :  
تكرير المعاني - وذلك طبيعي في قصائد تدور على موضوع واحد ،  
وما اشبهه في ذلك بأبي العتاهية . على ان شاعرنا لا يكتفي بتكرير المعنى  
بل كثيراً ما يكرر العبارة وقد يكرّر البيت في أماكن شتى . كقوله :

أخذتم فؤادي وهو بعضي فما الذي  
يضرّكم لو كان عندكم الكلّ

فقد جاء في قصيدة أخرى :

أخذتم فؤادي وهو بعضي فما الذي يضرّكم لو تتبعوه يجملي



وورد هذا المعنى مراراً في مواضع اخرى .

وقوله :

كهلال الشك لولا انه انت عيني عينه لم تتأي  
وتراه في موضع آخر :

كأني هلال الشك لولا تأوهي خفيت فلم تهدّ العيون لرؤيتي  
وقوله :

ليت شعري هل كفى ما قد جرى مذ جرى ما قد كفى من مقلتي  
وقد ورد أيضاً بقوله :

قد كفى ما جرى دماً من جفون بك قرحى فهل جرى ما كفاكا  
وقوله :

فلو بسطت جسمي رأيت كل جوهر به كل حسن فيه كل محبة  
ومثله :

ولو بسطت جسمي رأيت كل جوهر به كل قلب فيه كل غرام  
وقوله عن العين :

فانسانها ميت ودمعي غسله واكفانه ما ابيض حزننا لفرقتي  
ومثله :

فسهدي حيّ في جفوني مخلّد ونومي بها ميت ودمعي له غسل  
وقس على ما ذكر ما لم يذكر .

وقلما تجد قصيدة من قصائده تخلو من مخاطبة سائق الظعن ، والتقدم  
اليه انت يحمل السلام الى الاحباب ، وان يذكر لهم صبتاً صريعاً نحيل  
الجسم الى درجة الخفاء .

ويكثر في شعره التنقص من العذّل واللائين ، وذكر ربح الصبّا التي  
يخصّها بحمل أخباره أو اخبار الحبيب .

ومن عيوبه الغموض - وهو امّا لبعد اشاراته وشطحاته أحياناً ، أو  
لتعسفه في الصناعة ؛ خذ قوله مثلاً :

تاب بدر التام طيف محيّاك لطرفي بيقظتي اذا حكاكا  
فتراءيت في سواك لعين بك قرّت وما رأيت سواكا  
وكذاك الخليل قلب قبلي طرفه حين راقب الافلاكا

ومعنى الابيات : ظهر لي البدر نائباً عنك مشبهاً محيّاك ، فما ظهر  
لي سواك لأن عيني لا تشاهد إلا جالك . وكذا ابراهيم الخليل كان  
يراقب النجوم باحثاً عن مبعثها العظيم . وفي هذا التركيب من التعسف  
ما ترى .

وله من هذا القبيل ما يلفت النظر : واغمض منه شطحياته وهي  
راجعة الى غرائب ما يصفه من أحواله الصوفية وهذه لا يفهمها إلا  
ارباب هذه الطريقة او المطلعون على اسرارها .

أما غموض البديع فمعروف وهو يشارك فيه كل أهل الصناعة ، وربما  
فاقمهم أحياناً لمحاولته الجمع بين عدة ضروب في معنى أو بيت واحد .

\* \* \*

وبرغم مقدرته اللغوية وشاعريته الممتازة لا يخلو ديوانه من هفوات  
لغوية أو اعرابية كقوله :

لو طويتم نصح جارٍ لم يكن فيه يوماً يالُ طيّا يالَ طي  
وصحيحه يالو طيّا يا آل طي ( وقد تقرأ بالطي ) .  
وقوله :

يضرّكم لو تتبعوه يجملي - الصواب : لو تتبعونه .

وقوله : تاب بدر التام طيف محيّاك - وصوابه : عن طيف محيّاك .  
وقوله : لعلّ اصيحاي بمكة يبردوا بذكر سليمى ما تجن الاضالع  
وصوابه : يبردون .

وقوله : فان لها في كل جارحة نصلُ وصوابه نصلاً . وقد يخرّجونه  
بتقدير ضمير الشأن فتصبح فانه الخ .

وهو يكثر من استعماله لغة « اكلوني البراغيث » كقوله :

وان كثروا اهل الصباية او قلتوا وقوله : وان مزجوه عذلي  
وما الى ذلك مما يلاحظ في تضاعيف ديوانه .  
ومن تساهله اللغوي قوله :

لم يرق لي منزل بعد النقا . وهو لطيف على ان فعل راق يتعدى  
رأساً فيقال راقني ذلك .

وليس ما ذكرناه بالذي يتفرد به ابن الفارض ، فقد مرّ معنا ما  
عيب على المتنبي وغير المتنبي ، وقلما يخلو ديوانه من مثل هذه الهفوات .  
واكثرها للمحافظة على الوزن .

### غزله

عُرف ابن الفارض بأنه شاعر الحب . والناس في ذلك طائفتان ، اهل  
الظاهر ، واهل الباطن . فأهل الظاهر هم القائلون بأنه لا يخرج عن سبيل  
العشاق او الغزليين الذين وصفوا الجمال الانساني ( ولا سيما جمال المرأة )  
وتأثيره في نفوس المحبين . وقد عزا اليه بعضهم ولعه بسماع الغناء من  
جواريه له وانه كان يرقص لذلك ويتواجد<sup>١</sup> . وعلى هذا الظاهر يفسّرون  
حبه وسماعه او على الاقل لا يتعرّضون لما في ذلك من رموز صوفية .  
ذكروا ان بعضهم في عصر الحافظ بن حجر كتب عن التائية شرحاً ،  
وأرسله الى بعض عظماء صوفية الوقت ليقرّظه ، فأقام عنده مدة ، ثم  
كتب اليه عند ارساله الجواب اليه :

سارت مشرقة وسرت مغرباً شتان بين مشرق ومغرب  
« ف قيل له في ذلك فقال : مولانا الشارح اعتنى بارجاع الضمائر والمبتدأ  
والخبر والجناس والاستعارة ، وما هنالك من اللغة والبديع ، ومراد  
الناظم وراء ذلك كله »<sup>٢</sup> .

١ شذرات الذهب ٥ - ١٥٢ .

٢ شذرات الذهب ٥ - ١٥١ .

ومن نظر إلى الديوان نظراً ظاهرياً ابن أبي حجلة . وقد قال في وصفه<sup>١</sup> : « هو من أرق الدواوين شعراً ، وأنفسها درّاً برّاً وبحراً ، وأسرعها إلى القلوب جرحاً ، وأكثرها على الطلول نوحاً - إذ هو صادر عن نفثة مصدور ، وعاشق مهجور ، وقلب بحر النوى مكسور » .

ولا يقصد ابن أبي حجلة بالعشق هنا النوع الصوفي الذي يرمز إلى الجمال الإلهي ، إذ المعروف عنه أنه كان من سيّتي الاعتقاد ابن الفارض<sup>٢</sup> بل يقصد ما يذهب إليه كثيرون من أن غزله غزل عادي كغزل ابن أبي ربيعة ، وعباس بن الأحنف ، والبيهاء زهير وسواهم . ولا ينكر أن شهرة شاعرنا قائمة عند الجمهور على هذه الوجهة الظاهرية ، فهم يحفظون قصائده ويرددونها لضربها على أوتار الغرام ، ولأنها تلائم ما يشعرون به من خوالج الوجد والهيام . على أن شعور الجمهور لا يحتم علينا أن ننظر إليها كذلك . ومهما حاولنا أن نضرب صفحاً عن تصوّفه فإن من قصائده ما لا يفسر إلا تفسيراً باطنياً أو رمزياً (صوفياً) . ومن ذلك قصيدته الخمرية ، واليك مثلاً منها :

ولو جلّيت سرّاً على اكمة غدا	بصيراً ومن راووقها يسمع الصمّ
ولو أنّ ركباً يتموا ترب أرضها	وفي الركب ملسوع لما ضرّه السمّ
تقدّم كل الكائنات حديثها	قديماً ولا شكل هناك ولا رسم
وقامت بها الأشياء ثم لحكمة	بها احتجبت عن كل من لا له فهم
وهامت بها روعي بحيث تمازجا	اتحاداً ولا جرم تخلّله جرم
وقالوا شربت الإثم كلّاً وانما	شربت التي في تركها عندي الإثم

والذي يقرأ هذه القصيدة ويتفهم معانيها ومراميها ، ثم يقابلها بخمريات أبي نواس مثلاً يرى فرقاً واضحاً برغم ما قد يتوهمه من تشابه الصفات في الخمرين النواسية والفارضية .

١ شذرات الذهب ١٥١ .

٢ الديوان ١١ .

وامم من هذه الخمرية واسمى تصوفاً تائيته الكبرى « او نظم السلوك »  
التي مطلعها :

سقتني حميتا الحب راحة مقلتي وكأسي محيتا من عن الحسن جلست  
وهي قصيدة فريدة في الادب العربي ، أو كما يقول المستشرق العلامة  
هامر في مقدمة ترجمته لها : « انها اسمى ما وصل الينا من هذا القبيل  
في أدب الشرق والغرب » . ويقابلها « بنشيد الانشاد » في التوراة فيقول :  
« هي نشيد انشاد العرب في الحب الصوفي ولستن قصرت عن « نشيد  
الانشاد » في الصور الطبيعية ، فانها تفوقه في الرموز التصوفية » .

\* \* \*

والمروي انه لم ينظمها على حدّ نظم الشعراء اشعارهم بل كانت  
تحصل له جذبات يغيب فيها عن حواسه فاذا أفاق أمل ما فتح الله  
عليه منها ، ثم يدع حتى يعاوده ذلك الحال .<sup>٣</sup>

ويصف ولده هذه الغيبوبة فيقول : « كان الشيخ في غالب اوقاته لا  
يزال دهشاً ، وبصره شاخصاً ، لا يسمع من يكلمه ولا يراه : فتارة  
يكون واقفاً ، وتارة يكون قاعداً ، وتارة يكون مضطجماً على جنبه ،  
وتارة يكون مستلقياً على ظهره مسجى كالميت . ويمرّ عليه عشرة أيام  
متواصلة ، أو أقلّ من ذلك وأكثر ، وهو على هذه الحالة - لا يأكل ولا  
يشرب ولا يتكلم ولا يتحرك - ثم يستغيث وينبعث من هذه الغيبة ، ويكون  
اول كلامه انه يملي من القصيدة « نظم السلوك » ما فتح الله عليه ،<sup>٤</sup> .

وعلى ما رووه من غيبته يعقب المستشرق الاستاذ نكلسون بقوله :  
« اننا لا نرى لزماً ان نشك في صحة ما رووه ففي التاريخ ما يزكّيه  
- هذا بلايك (Blake) فقد قال عن نفسه ان سكرة روحية كانت تغشاه

١ مقدمة الترجمة XX (فيينا ١٨٥٤) .

٢ مقدمة الترجمة VIII .

٣ و ٤ الديوان ١١ .

كلما أمسك القلم أو المرقم - وسانت كاترين اوف سيانا كانت تملي أحاديثها على كتبها وهي في حالة الوجد أو الغيبة (Ecstasy) . وكان جلال الدين الرومي ، إذا غاص في بحر المحبة ، أمسك بعمود في داره وأخذ يدور حوله وفي خلال ذلك ينظم ويملي <sup>١</sup> .

فليس من الغريب ان تأخذ «الحال» شاعراً رقيق الشعور شديد التأثير كابن الفارض . والذي يتأمل تأنيته العجيبة يرى فيها آثار تلك الحال ، كقوله :

ودلتني منها ذهولي ولم أفق عليّ ولم أقفُ التماسي بظنّتي  
فاصبحت فيها والهاً لاهياً بها ومن ولّيت شغلاً بها عنه ألهت  
وعن شغلي عني شُغلت فلو بها قضيت ردىّ ما كنت أدري بنقلتي  
وما زلت في نفسي بها متردداً لنشوة حسّي والمحاسن خمرتي  
وقوله :

يشاهدها فكري بطرف تخيّلتي ويسمعا ذكري بمسمع فطنتي  
ويُحضرها للنفس وهمي تصوّراً فيحسبها في الحسّ وهي نديقتي  
فاعجبُ من سكري بغير مدامة واطرب في سرّي ومنّي طربتي

ومما يشير الى انه نظم كثيراً منها على اثر تواجد او «حال» ان المعاني تتكرر فيها على طرق شتى . ففي نفس الشاعر شوق مستمر يحمله الى العلى ، وكثيراً ما يحجب عنه أبواب التأمل المنطقي . على انه يثير شعوره فيظهر في أبيات أو قطع قد تختلف لفظاً عما نظم قبلاً ولكنها لا تختلف معنى . ومن ذلك معظم ما نظمه في الجمع والاتحاد والفناء والصحو وما شاكل من هذه المعاني التي كانت تشغل عقله فاذا غاب تسارعت الى خاطره فإلى لسانه . واذا اعتُرض ان الصنعة البديعية فيها تعارض ذلك لتطلبها الدقيق في التركيب وامتلاك الحواس في اختيار الالفاظ المناسبة ، قلنا قد يكون ذلك صحيحاً ، ولكنه ليس بمحتم . وإذا كان رجل كابن

الفارض مشبع الروح بالتأملات الصوفية ، وكان مع ذلك واسع الاطلاع على لغة عصره الشعرية يخزن في ذاكرته الكثير من أوضاعهم وأساليبهم ، لم يستحل عليه حتى في حال ذهوله ان يبث شعوره بواسطة تلك الاوضاع والأساليب .

فالتائية الكبرى نشيد الوجد الروحي . فيها نشعر بذلك الحب الاسنى الذي يملك على الناظم حواسه فيسكره وينقله من عالم المادة الى عالم الروح . فيها ترى ذلك العراك المستمر بين الصلاح والشرّ وذلك الفوز النهائي الذي انما ينال بمشاهدة الجمال الإلهي :

وما هو الا ان ظهرت لناظري بأكمل اوصاف على الحسن اربت  
فحلّيت لي البلوى فخلّيت بينها وبينى فكانت منك اجمل زينة  
وما الحبّ الحقيقي إلا الذي ينتهي بتلاشي ارادة الحب او اتحاده  
في حقيقة المحبوب .

وغبّبت عن أفراد نفسي بحيث لا يزاحمني ابداء وصف بحضرتي  
وما انا أبدي في اتحادي مبدأي وأنه انتهاي في تواضع رفعتي  
أما الجمال فهو الجمال المطلق الذي يتجلّى في كل ما هو جميل في الطبيعة والانسان .

وصرّح باطلاق الجمال ولا تقل بتقييده ميلاً لزخرف زينة  
فكلّ مليح حسنه من جماها معار له بل حسن كلّ مليحة  
وحب الجمال هو حب الله نفسه وهو عند ابن الفارض أعلى من عبادة النسّاك ومن عبادة المثقلين أنفسهم بظواهر التقليد والنقل .

وطب بالهوى نفساً فقد سُدّت انفس العباد من العباد في كل أمة  
وفزّز بالعلو وافخر على ناسكٍ علا بظاهر اعمالٍ ونفس تزكّت  
وجز مُثقلاً لو خفّ طف مؤملاً بمنقول احكام ومعقول حكمة  
وحز بالولا ميراث ارفع عارف غدا همته ايثار تأثير همّة  
وتيه ساحباً بالسّحب اذبال عاشق بوصل على أعلى المجرّة جرّت

على ان الجمال الانساني لا يمكن مشاهدته الا بعد التجرد من اُثواب العقل والحس .

الى ان بدا مني لعيني بارق<sup>١</sup> وبان سنا فجري وبانت دجنتي  
هناك الى ما احجم العقل دونه وصلت وبني مني اتصالي ووصلتي  
واستار<sup>٢</sup> لبس الحس لما كشفتها وكانت لها اسرار<sup>٣</sup> حكمي ارخت  
رفعت حجاب النفس عنها بكشفي النقاب<sup>٤</sup> وكانت عن سؤالي<sup>٥</sup> مجيبي  
ومتى شاهدت النفس المتجرّدة الجمال الاسنى تساوت لديها الاسماء  
والصفات واصبحت هي والوجود<sup>٦</sup> الالهي شيئاً واحداً ، فرأت في كل  
الاشكال معنى واحداً .

تري صور الاشياء تجلى عليك من وراء حجاب اللبس في كل خِلقة  
تجمعت الاضداد فيها لحكمة فاشكالها تبدو على كل هيئة  
وكل الاديان مظاهر لدين واحد حتى عبّاد الاوثان ليست عبادتهم في  
الحقيقة إلا اتجاهاً نحو الجمال الإلهي المطلق .

فما قصدوا غيري وان كان قصدم سواي وان لم يظهر وا عقد نيّة  
ولشيوع مثل ذلك في شعره اتهمه البعض بالحلول<sup>١</sup> وكفروه ، حتى  
قال المناوي وهو من المدافعين عنه<sup>٢</sup> : « والحاصل انه اختلف في شأن  
صاحب الترجمة (ابن الفارض) وابن عربي ، والعفيف التلمساني (وفلان  
وفلان يعددهم) من الكفر إلى القطبانية ، وكثرت التصانيف من الفريقين  
في هذه القضية ، على ان شاعرنا يدافع عن نفسه فيقول :

وكيف وباسم الحق ظلّ<sup>٣</sup> تحقيقي تكون اراجيف الضلال مخيفتي  
ولي من أصحّ<sup>٤</sup> الرؤيتين اشارة<sup>٥</sup> تنزهه عن رأي الحلول عقيدتي  
وفي الذكر ذكر اللبس ليس بمنكر ولم اعد<sup>٦</sup> عن حكمي كتاب وسنة  
فان الفارض لا يعتمد في شعره الطريقة الجدلية ، ولا يدخل في نضال

١ الديوان ١٢ .

٢ شذرات الذهب ٥ - ١٥٢ .



فلسفي يدعمه بالادلة والبراهين ، بل هو يصور الوجود بالوان الجمال المطلق ، وينسج من عواطفه حلّة سداها ولحمتها الحب المُسكر ، حلّة تلبسها النفس فتحتجب عن علاقاتها المادية ، وتعلو في لوح الفضاء الى حيث تترجج بروح الكون . وفي ذلك المقام تطلّ على الوجود فلا ترى فيه إلا شكلاً واحداً ولوناً واحداً وقوّة واحدة .

الحبّ هو نشيد ابن الفارض . وهو - سواء نظرت اليه من جهة الظاهر أو جهة الباطن - حب سام يرفع النفس الى المثل العليا ، ويكشف لها عن جمال الوجود الاعظم .

وما ميّ ، وعُتب ، وريتا ، وسلى ، وليلى وسواهنّ عنده الأ مرايا تعكس لنا نور المحبوب الاسنى .

وما الوجد ، والشوق ، والوصل ، والهجر ، والعذل ، والتعذيب ، والدّل ، والنحول ، والموت ، والغدر ، والوفاء ، واللوم ، والعتاب ، والرضا ، واضراب هذه الاوضاع الغزليّة الا اختبارات نفس شديدة الاحساس في سعيها نحو مصدر الجمال .

وما مراتب الحجاز الا رمز للمراتب العلوية ، ولذلك تراه يردد ذكراها في أكثر قصائده ، فيقول مثلاً :

يا ساكني البطحاء هل من عودةٍ احيا بها يا ساكني البطحاء

\* \* \*

لا تمّلني عن هوى مرتبمي عدوّتي تسيما لربعٍ بتّمي

\* \* \*

قسماً بمكّة والمقام ومن اتى البيت الحرام ملتبياً سيّاحا  
مارتحت ريح الصبا شيخ الربى الأ واهدت منكم افراحا

تلك هي عاطفته الحجازية التي تبرز في أكثر قصائده . ومهما غلا المشككون فان في تلك العاطفة ما يبرّر قولنا بصوفيّة شاعرة ونبالة حبه .

## المختار من شعر ابن الفارض

نفس رقيقة ترتفع على اجنحة الحب الى العلى ثم تذوب في الفضاء  
الواسع تاركة وراءها نغماً لطيفاً يرجعه الشعر فيطرب السامعين .

### يائتته المشهورة

سائق الاطمعان يطوي البيدَ طَيِّ ١  
وبذاتِ الشيخِ عنِّي ان مرر  
وتلطفَ واجرِ ذكري عندهم  
قل تركتُ الصبَّ فيكم شبعاً  
خافياً عن عائِدِ لاح كما  
كهلالِ الشكِّ لولا أنَّه  
مسبلاً للنأي طرفاً جاد إن  
بين اهليه غريباً نازحاً

منعماً عرَّج على كئيبان طَيِّ ١  
تَبحيَّ من عُريبِ الجزعِ حي ٢  
علَّهم أن ينظروا عطفاً الي  
ما له مما يراه الشوقُ فَي  
لاح في بُرْدَيه بعد النشرِ طي  
أنَّ عيني عينه لم تتأي ٣  
ضنَّ نوءِ الطرفِ أن يسقطَ خي ٤  
وعلى الاوطان لم يعطفه لَي ٥

١ طي الاول مصدر طوى . والثانية اسم قبيلة .

٢ ذات الشيخ : موضع . الجزع : منعطف الوادي . والحى ( الثانية ) أي سلم .

٣ هو في الخفاء كالهلال الذي لم تثبت رؤيته ولولا انينه لما رأت عيني ذاته ( عينه ) .

٤ ساكباً دموع طرف يجود بالبكاء وان بجمل نجم « الطرف » عند سقوطه بالطر .

٥ لي أي عطف .

نشر الكاشح ما كان له  
 في هواكم رمضان عُمُرهُ  
 حائراً في ما اليه امرهُ  
 يا أهيل الود أنى تنكرو  
 وهوى الغادة عمري عادة  
 ومتى اشك جراحاً بالحشا  
 عجباً في الحرب أدعى بأسلاً  
 هل سمعتم أو رأيتم أسداً  
 وضع الآسي بصدري كفته  
 سقمي من سقم اجفانكم  
 رجوع اللاحى عليكم آسأ  
 أبعينيه عمى عنكم كما  
 ظل يهدي لي هدى في زعمه  
 ذابت الروح اشتياقاً فهي بعد نفاذ الدمع أجرى عبرتي  
 فهبوا عيني - ما اجدى البكا -  
 او حشا سال وما اختاره  
 بل أسيتوا في الهوى أو أحسنوا

\* \* \*

روح القلب بذكر المنحنى  
 لم يرق لي منزل بعد النقا  
 آه واشوقي لضاحي وجهها  
 وأعدهُ عند سمعي يا أخي  
 لا ولا مستحسن من بعد مي  
 وظها قلبي لذيتك اللُمي

١ بين سهر وجوع .

٢ الاحى أي الاسود الشعر .

٣ كي : جبان .

٤ هل عميت عينه عن جمالكم كما صمت أذني عن سماع عدله .

٥ تصغير لمى وهو سمرة في باطن الشفة أو ماء الثغر .

فبكلِّ منه والالحاظ لي      سكرة<sup>١</sup> واطرباً من سكرتي  
جنة<sup>٢</sup> عندي ربها ما أمحلت<sup>٣</sup>      أم حلت - عجلتها من جنتي<sup>٤</sup>  
دار خلدٍ لم يدُرْ في خلدي      أنه من ينأ عنها يلقَ غي

\* \* \*

خاطبَ الخطبَ دع الدعوى فما      بالرقي ترقى الى وصل رقي<sup>٥</sup>  
رُح معافى<sup>٦</sup> واغتم نصحي وإن      شئت ان تهوى فلبلوى تهى  
كم قتيلٍ من قبيلٍ ما له      قود<sup>٧</sup> في حبنا من كل حي  
أي تعذيب سوى البمد لنا      منك عذب<sup>٨</sup> حبنا ما بعد أي<sup>٩</sup>  
ان تشي<sup>١٠</sup> راضية<sup>١١</sup> قتلي جوى<sup>١٢</sup>      في الهوى حسي افتخاراً أن تشي  
ما رأت مثلك عيني حسناً      وكمثلي بكِ صبا لم تري  
نسب<sup>١٣</sup> أقرب<sup>١٤</sup> في شرع الهوى      بيننا من نسبٍ من أبوي  
ليت شعري هل كفى ما قد جرى      مذ جرى ما قد كفى من مقلتي  
ميركُم<sup>١٥</sup> عندي ما اعلنه<sup>١٦</sup>      غير دمع<sup>١٧</sup> عندمي<sup>١٨</sup> عن دمي<sup>١٩</sup>  
مظهِراً ما كنت أخفي من قديم      حديث<sup>٢٠</sup> صانه مني طي  
يا أصيحابي تمادى بيننا      ولبعد<sup>٢١</sup> بيننا لم يقض<sup>٢٢</sup> طي  
علتوا<sup>٢٣</sup> روحي بأرواح الصبا      فبريتاها يمود الميت<sup>٢٤</sup> حي  
أي صبا أي صبا هجت لنا      سحراً من أين ذيتاك الشذوي<sup>٢٥</sup> ؟  
ذاك ان صافحت ريتان<sup>٢٦</sup> الكلا      وتحرشت<sup>٢٧</sup> بجوذان<sup>٢٨</sup> كلي<sup>٢٩</sup>  
فلذا تروى وتروى ذا صدى<sup>٣٠</sup>      وحديثاً عن فتاة الهوي<sup>٣١</sup> حي<sup>٣٢</sup>  
سائلي ما شفني<sup>٣٣</sup> ، في سائل<sup>٣٤</sup> الديمع<sup>٣٥</sup> لو شئت<sup>٣٦</sup> غنى<sup>٣٧</sup> عن شفني<sup>٣٨</sup>

١ هي عندي جنة سواء اجذبت أم تحلت بالخصب ويشير بالجنة الثانية إلى السماء .

٢ رقي اسم فتاة ويكنى بها عن الجمال الاسنى .

٣ أي حبنا التعذيب .

٤ عندي أي أحر . دمي تصغير دم أي سال سائل من دمي .

٥ و ٦ أي انما ذلك الشذا لأنك لمست الكلا الناضر وتحوشت بنبات الحوذان في وادي الحبيب .

ولذا فانت تروى صاحب العطش وتروى الخبر الصادق ( الهوي ) عن فتاة الهوي .

عُتِبَ لَمْ تُعْتَبِ وَسَلَى اسَلَمْتُ وَحَى أَهْلَ الْحَى رُؤْيَةَ رَيِّ ١

## هو الحب

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل

فما اختارَه مَضْنَى به وله عقل  
وعش خالياً فالحب راحتُه عنا  
ولكن لديّ الموت فيه صباية  
نصحتك علماً بالهوى والذي أرى  
فان شئت أن تحيا سعيداً فمت به  
فمن لم يمت في حبه لم يعيش به  
تمسك بأذيال الهوى واخلع الحيا  
وقل لقتيل الحب وفيت حقه  
تعرض قوم للغرام واعرضوا  
رضوا بالاماني وابتلوا بمحظوظهم  
شهاداً والا فالغرام له أهل  
ودون اجتناء النحل ما جنت النحل  
وخل سبيل الناسكين وان جلتوا  
ولمدعي هيات ما الكحل الكحل  
يجانبهم عن صحتي فيه واعتلوا  
وخاضوا بحار الحب دعوى فما ابتلوا

\* \* \*

أحبة قلبي والمهبة شافعي  
عسى عطفة منكم علي بنظرة  
احبائي أنتم أحسن الدهر أم أسا  
لديكم اذا شتمت بها اتصل الحبل  
فقد تعبت بيني وبينكم الرسل  
فكونوا كما شتمت انا ذلك الخبل

اذا كان حظي المهجر منكم ولم يكن

ببعاد فذاك المهجر عندي هو الوصل  
وتعذيبكم عذب لدي وجوركم  
وصبري صبر عنكم وعليكم  
أرى أبدأ عندي مرارته تحلو

١ يا من تسألني عما أصابني انظر الى الدمع السائل تجد فيه جوابي . وعتب وسلى وري أسماء فتيات .

٢ إن حب الجمال الأسنى والتأدي فيه ( على طريقة الصوفية ) هو أفضل الطرق فسر به ولو خالفت أهل الطرق الاخرى .

أخذتم فؤادي وهو بعضي فما الذي  
يضركم لو كانت عندكم الكل  
نأيتم فغير الدمع لم أرَ وافياً  
فسهدي حي في جفوني مخلد  
هوى ظل ما بين الطلول دمي فمن  
جفوني  
تباله قومي إذ رأوني متيماً  
وماذا عسى عني يقال سوى غدا  
وقالت نساء الحي عناً<sup>٢</sup> بذكر من  
إذا انعمت نعم علي بنظرة  
وقد صدئت عيني برؤية غيرها  
وقد علموا أنني قتيل لحاظها  
حديثي قديم في هواها وما له  
وما لي مثل في غرامي بها كما  
حرام شفا سقمي لديها رضيت ما  
فحالي وإن ساءت فقد حسنت به  
ولي همة تعلقوا إذا ما ذكرتها  
جری حقها مجرى دمي في مفاصلي  
فنافس ببدل النفس فيها أخوا الهوى  
فمن لم يجد في حب نعم بنفسه  
ولولا مراعاة الصيانة غيرة  
لقلت لعشاق الملاحة اقبلوا

يضركم لو كانت عندكم الكل  
سوى زفرة من حر نار الجوى تعلقوا  
ونومي بها ميت ودمعي له غسل  
جری بالسفح من سفحه وبل  
وقالوا بمن هذا الفق مسه الخبل  
بنعم له شغل نعم لي بها شغل  
جفانا وبعد العز لذ له الذل  
فلا اسعدت سعدى ولا اجملت جل  
ولثم جفوني ترهبها للصداء يجلو  
فان لها في كل جارحة فصل<sup>٣</sup>  
كما علمت بعد وليس له قبل  
غدت فتنة في حسنها ما لها مثل  
به قسمت لي في الهوى ودمي حل  
وما حط قدرتي في هواها به اعلو  
وروح بذكرها إذا رخصت تفلو  
فاصبح لي عن كل شغل بها شغل  
فان قبلتها منك يا حبذا البذل  
ولو جاد بالدنيا اليه انتهى البخل  
ولو كثروا أهل الصباية أو قتلوا  
اليها على رأي وعن غيرها ولسوا

١ هوى هدر دمي بين طلول الاحبة فجرى من جفوني لذلك وابل من الدموع .

٢ عنا به أي ابعثوا ذكر من جفانا .

٣ الاصل فان لها نصلاً ولكنهم يخرجون الاعراب بتقديرهم ضمير الشأن فكأنه يقول فانه لها الخ .

وان ذكرت يوماً فخرّوا لذكرها  
وفي حبّها بعث السعادة بالشقا  
وقلت لرشدي والتنسك والتقى  
وفرّغت قلبي عن وجودي مخلصاً  
واصبو الى العذال حباً لذكرها  
فان حدثوا عنها فكلتي مسامحاً  
تخالفت الاقوال فينا تبايناً  
فشنع قوم بالوصال ولم تصل  
فما صدق التشنيع عنها لسقوتي  
وكيف ارجي وصل من لو تصوّرت

حماها المنى وما لضاقت بها السبل

ترى مقلتي يوماً ترى من أحبهم  
وما برحوا معنى أراهم معي فان  
فهم نضب عيني ظاهراً حيناً سرّوا  
لهم أبدأ مني حنوً وان جفّوا  
ويُعْتَبِنِي دَهْرِي وَيَجْتَمِعُ الشَّمْلُ  
نَاوًا صُورَةً فِي الذَّهْنِ قَامَ لَهُمْ شَكْلُ  
وَهُمْ فِي فَوَادِي بَاطِنًا أَيُّهَا حَلَّتْ  
وَلِي أبدأ مَنِي مِيلٌ إِلَيْهِمْ وَإِنْ مَلَّتْ

### أنا القليل

ما بين معترك الاحداق والمهج  
ودّعت قبل الهوى روحي لما نظرت  
لله أجفان عين فيك ساهرة  
واضلع نحلت كادت تقوّمها  
وادمع هملت لولا التنفس من  
وحبذا فيك اسقام خفيت بها  
أصبحت فيك كما أمسيت مكتئباً

أنا القليل بلا إثم ولا حرج  
عيناى من حُسنِ ذاك المنظر البهج  
شوقاً اليك وقلباً بالغرام شج  
من الجوى كبدي الحرّى من العوج  
نارِ الهوى لم أكّد أنجو من اللّجج  
عني تقومُ بها عند الهوى حججى  
ولم أقل جزعاً يا أزمة انفرجى

١ عقل الثانية مصدر عقل أي منع أو ربط .

أهفو إلى كل قلبٍ بالغرام له      شغلٌ وكلٌ لسانٍ بالهوى لهجـ  
عذب بما شئت غير البعد عنك تجد

أوفى محباً بما يرضيك مبتهجـ  
لا خير في الحبِّ إن أبقى على المهجـ  
حُلوَ الشائل بالأرواح ممتزج  
ما بين أهل الهوى في أرفع الدرج  
أغنته غرتهُ الغرّاً عن السرج<sup>١</sup>  
أهدى لعيني الهدى صبحٌ من البلج  
لعارفي طيبه « من نشره أرجي »  
وان خذ بقيةَ ما أبقيتَ من رمقـ  
من لي باتلافٍ روحي في هوى رشـ  
من مات فيه غراماً عاش مرتقياً  
محجّبٌ لو سرى في مثل طرته  
وان ضللتُ بيليلٍ من ذوائبه  
وان تنفسَ قال المسكُ معترفاً  
يا ساكنَ القلبِ لا تنظر إلى سكتني

واربح فؤادك واحذر فتنه الدعجـ  
فكم أماتت وأحيت فيه من مهجـ  
سمعي ، وان كان عذلي فيه لم يلج<sup>٢</sup>  
لثغره وهو مستحي من الفلج  
في كل معنى لطيفٍ رائق بهج  
تآلفا بين الحانٍ من الهزج  
برد الأصائل والأصباح في البلج  
بساط نور من الأزهار منتسج  
أهدى إليّ سحيراً أطيّب الأرج  
ريق المدامة في مستنزه فرج  
وخاطري أين كنا غير منزعج  
تبارك الله ما أحلى شمائله  
يهوى لذكر اسمه من ليج في عذلي  
وأرحمُ البرق في مسراه منتسباً  
تراه ان غاب عني كل جارحة  
في نعمة العود والناي الرخيم إذا  
وفي مسارح غزلان الخائل في  
وفي مساقط انداء الغمام على  
وفي مساحب أذيال النسيم إذا  
وفي التثامي ثغرة الكأس مرتشفاً  
لم أدر ما غربة الأوطان وهو معي

١ أي لو سرى في ليل أسود كشمرة لكان من غرته نور يفنيه عن السرج .  
٢ أي يهوى سمعي ان يسمع كلام العاذل لأنه يذكر الحبيب وان كان ( سمعي ) لا يقبل العذل .



## قلبي يحدثني

روحي فداك عرفت أم لم تعرف  
لم أقض فيه أسيّ ومثلي من يفي<sup>١</sup>  
في حبّ من يهواه ليس بمسرف  
يا خيبة المسعى إذا لم تُسعِف  
ثوب السقام به ووجدني المتلف  
من جسمي المضى وقلبي المدنف  
والصبر قائم واللقاء مسوّف  
سهرى بتشنيع الخيال المرجف  
جفني وكيف يزور من لم يعرف  
عيني وسحت بالدموع الذرف  
ألم النوى شاهدت هول الموقف<sup>٢</sup>  
ألمي وماطل ان وعدت ولا تفي  
يحاو كوصل من حبيب مسعف  
ولوجه من نقلت شذاه تشوّف  
ان تنطفي ، وأودّ ان لا تنطفي  
ناداكم يا أهل وديّ قد كُفي  
كرماً فاني ذلك الخلل الوفي  
عمري بغير حياتكم لم أحلف  
لمبشّري بقدمكم لم أنصف  
كلّفي بكم خلّق بغير تكلف  
حتى لعمري كدت عنه اختفي  
لوجدته أخفى من اللطف الخفي

قلبي يحدثني بانك متلفي  
لم أقض حقّ هواك ان كنت الذي  
ما لي سوى روحي وباذل نفسه  
فلئن رضيت بها فقد اسعفتني  
يا مانعي طيب المنام وماحي  
عطفاً على رمقي وما أبقيت لي  
فالوجد باق والوصال مما طلي  
لم اخل من حسد عليك فلا تضجع  
واسأل نجوم الليل هل زار الكرى  
لا غرو ان شحت بغمض جفونها  
وبما جرى في موقف التوديع من  
ان لم يكن وصلّ لديك فعدّ به  
فالمطل منك لديّ ان عزّ الوفا  
أهفو لانفاس النسيم تعلّة  
فلملّ نار جوانحي بهبوبها  
يا أهل وديّ أنتم ألمي ومن  
عودوا لما كنتم عليه من الوفا  
وحياتكم وحياتكم قسماً وفي  
لو أن روحي في يدي ووهبتها  
لا تحسبوني في الهوى متصنّماً  
أخفيت حبّكم فأخفاني أسيّ  
وكتمته عنّي فلو أبديته

١ اقضي الاولى أودي . والثانية أموت .

٢ الموقف يوم الحساب في الآخرة .

ولقد أقول لمن تحرّش بالهوى  
 أنت القليلُ بأيّ من أحببته  
 قل للعدول اطلت لومي طامعاً  
 دع عنك تعنفي وذوق طعم الهوى  
 برح الخفاء بحب من لو في الدجى  
 وهواه وهو أليتي وكفى به  
 لو قال تيهاً قف على جمر الغضا  
 لا تنكروا شففي بما يرضى وان  
 غلب الهوى فاطمت أمر صبايتي  
 منّي له ذلّ الخضوع ومنه لي  
 أليف الصدور ولي فؤاد لم يزل  
 لو اسمعوا يعقوب ذكر ملاحته  
 أو لو رآه عائداً يتوب في  
 كلّ البدور إذا تجلّى مقبلاً  
 إن قلت عندي فيك كل صبابة  
 كملت محاسنه فلو أهدى السنا  
 وعلى تفنّن واصفيه بحسنه  
 ولقد صرفت لحيته كلّي على  
 أسعد أخيّ وغنني بحديثه  
 لأرى بعين السمع شاهد حسنه  
 يا أخت سعدٍ من حبيبي جئتني

عرّضت نفسك للبلا فاستهدف  
 فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي  
 أنّ الملام عن الهوى مستوقفي  
 فإذا عشقت فبعد ذلك عنّف  
 سفر اللثام لقلّت يا بدرٍ اختف  
 قسماً أكاد أجلته كالصحف  
 لوقفت ممثلاً ولم اتوقف  
 هو بالوصال عليّ لم يتعطف  
 من حيث فيه عصيت نهي معنفي  
 عزّ المنوع وقوة المستضعف  
 مذ كنت غير وداده لم يالف  
 في وجهه نسي الجمال اليوسفي  
 سنة الكرى قدماً من البلوى شفي  
 تصبو إليه وكلّ قدّ اهيف  
 قال الملاحه لي وكلّ الحسن في  
 للبدر عند تمامه لم يخسف  
 يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف  
 يد حسنه فحمدت حسن تصرّفي  
 وانثر على سمعي حلاه وشتف  
 معي فاتحفني بذاك وشرف  
 برسالة ادّيتها بتلطّف

١ اليقي أي قسمي . والمصحف القرآن الكريم .

٢ أي وكل الحسن في .

٣ غنني بحديثه لأرى جماله عن طريق السمع وقد جعل السمع عيناً عن طريق الهجاز .

فسمعتُ ما لم تسمعي ونظرت ما  
ان زار يوماً يا حشايَ تقطّعي  
ما للنوى ذنبٌ ومن أهوى معي  
لم تنظري وعرفت ما لم تعرفي<sup>١</sup>  
كلّفاً به أو سار يا عين اذرفي  
ان غاب عن انسان عيني فهو في<sup>٢</sup>

### زدني بفرط الحب

زدني بفرط الحب فيك تحيّرنا  
واذا سألتك ان أراك حقيقةً  
يا قلب أنت وعدتني في حبّهم  
انّ الفرام هو الحياة فمت به  
قل للذين تقدّموا قبلي ومَن  
عني خذوا وبي اقتدوا ولي اسمعوا  
ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا  
واباح طرفي نظرةً املتها  
فدُهِشت بين جماله وجلاله  
فأدر لحاظك في محاسن وجهه  
لو ان كلّ الحسن يكملُ صورةً  
وارحم حشوي بلظي هواك تسعّرنا  
فاسمع ولا تجعل جوابي لن تری  
صبراً فحاذر ان تضيق وتضجرا  
صباً فحقتك ان تموت وتُعدرا  
بعدي ومن أضحي لأشجاني يرى  
وتحدّثوا بصباقتي بين الوری  
سرّاً ارقّ من النسيم اذا سرى  
فغدوت معروفاً وكنت منكراً  
وغدا لسان الحال عني نخبرا  
تلقى جميع الحسن فيه مصوراً  
ورآه كان مهلاً ومكبّراً

---

١ أيتها الفتاة المنتمية إلى قبيلة سعد انك حملت لي رسالة الحبيبة ولكنك لم تسمعي منها ولم تعرفي ما سمعت وعرفت أنا .  
٢ أي في القلب .

# فهرس

٢٣	الزنج	٥	توطئة
٢٣	القرامطة		
٢٤	الحشاشون		العوامل السياسية
	العوامل الهدامة الخارجية -		في الدولة العباسية
٢٥	غارات الروم	٧	نظرة عامة
٢٦	غارات الصليبيين	١٠	التنافس بين العناصر
	تطور الحياة الاجتماعية	١٣	تجزؤ الخلافة
		١٥	الامارات المستقلة في بلاد فارس
٢٩	الحضارة في فجر الاسلام	١٦	الامارات التركية
٣١	الحضارة في الدولة الاموية	١٦	الامارات العربية
٣٨	ظواهر الحضارة في العصر العباسي	١٧	الدولة الفاطمية
٣٨	نشوء قومية عربية جديدة	١٨	الدولة الاندلسية
٤٢	الامتزاج بالزواج	١٩	تأثير هذا التجزؤ في الادب
٤٣	تعرب الأمم المغلوبة	٢٠	الحركات الهدامة الداخلية
٤٤	حضارة بغداد	٢١	حركات الخوارج
٤٤	الجباية والمصادرة	٢١	حركات العلوية

الشعر في العصر العباسي	أمثلة من بذخ العباسيين - ملابس
٨٦ خصائص الشعر العباسي	٤٨ الموفق والمكتفي
٨٦ الشعر الوجداني والموضوعي	٤٨ جواهر المقتدر
التجدد في صناعة الشعر - رقة	٤٨ بذخ أم جعفر وأم المستعين
٨٧ العبارة	٤٩ بذخ الهادي والرشيد والواثق
٩١ التفنن في المعاني	٤٩ الولايم والأفراح والمساكن
٩٥ البديع اللفظي	٥٠ العمران الزراعي والتجاري
٩٧ التوسّع في المصطلحات اللفظية	بعض صور اجتماعية يعكسها
امراء الشعر المولد	٥٤ الأدب العباسي
ابو نواس - مصادر دراسته	٥٤ الجواري والغلمان
١٠٤ بيئته وعصره	٥٦ مجالس الشراب
١٠٦ ميله إلى الشعوبية	٥٧ التألق في الفنون العصرية
١١٠ مقامه الأدبي وأسلوبه	٥٨ انتشار المدارس والعلوم
١١١ شعره - المقلد والمجدد	٥٨ ظواهر الحركات الفكرية
١٢٢ شخصيته ونظره إلى الحياة	مجاري الحركات الفكرية
المختار من شعره	٦١ مصادرها الرئيسية - اليوناني
١٣١ دع عنك لومي	٦٥ المصدر الفارسي
١٣٢ دع الربع ما للربع فيك نصيب	٦٩ المصدر الهندي
١٣٣ ذكر الصبوح بسحره فارتاحا	المجاري الفكرية الكبرى: الفلسفة،
١٣٤ ما زلت استلّ روح الدنّ في لطف	٧٠ الكلام
١٣٤ عاج الشقي على رسم يسائه	٧٢ المعتزلة - نشأتها - مبادئها
١٣٤ خفيت عليك محاسن الخمر	٧٧ الأشعرية وتعاليمها
	٧٩ التصوّف، نشأته - مبادئه

١٦٤	شاعريته	١٣٥	ودار ندامى عطّلوها وادجوا
١٦٦	مزايا شعره - السهولة	١٣٥	وفتيان صدق قد صرفت مطيهم
١٦٧	رشاقة التعبير	١٣٦	غدوت على اللذات منتهك الستر
١٦٨	سرعة الخاطر	١٣٧	يا شفيق النفس من حَكَم
١٧١	عيوب شعره	١٣٧	اذا خطرت منك الهموم فداوها
	<b>المختار من شعره</b>	١٣٨	لا تخشعنّ لطارق الحدّان
١٧٢	نصبت لنا دون التفكّر يا دنيا	١٣٩	اني عشقت وما بالمشق من باس
١٧٢	بكيّت على الشباب بدمع عيني	١٣٩	اذا التقى في النوم طيفانا
١٧٣	لدوا للموت وابنوا للخراب	١٣٩	بعض أقواله في جنان
١٧٣	طلبت المستقرّ بكل أرض	١٤٠	يا دار ما فعلت بك الايام
١٧٤	أخويّ مرّاً بالقبور	١٤١	وعظمتك واعظة القتير
١٧٤	حتى متى يستفزني الطمع	١٤٢	سخّر الله للأمين مطايا
١٧٥	متى تنقضني حاجة المتكلّف	١٤٣	أنت يا ابن الربيع الزمتني النسك
١٧٥	بليت وما تبلى ثياب صباكا	١٤٣	أيا رب وجه في التراب عتيق
١٧٦	نعمي نفسي إليّ من الليالي	١٤٤	خلّ جنبيك لرام
١٧٧	لمن طلل اسائله	١٤٤	ألم ترني ابحت اللّهُو نفسي
١٧٨	ألا هل الى طول الحياة سبيل	١٤٤	أيا من بين باطية وزقّ
١٧٨	أتدري أيّ ذلّ في السؤال	١٤٥	دبّ فيّ الفناء سفلاً وعلوا
١٧٩	نادت بوشك رحيلك الايام		<b>ابو العتاهية - مصادر دراسته</b>
١٨٠	سكن يبقى له سكن	١٤٩	نسبه ونشأته
١٨١	الدهر ذو دول والموت ذو علل	١٥١	حياته الأدبية - انصرافه الى الزهد
	<b>ابو تمام - مصادر دراسته</b>	١٥٧	رسالته الشعرية
١٨٥	توطئة تاريخية	١٦٠	ابو العتاهية وابو نواس
		١٦١	حكّمه

٢٤٤	شعره في ديوانه	١٨٨	أم ممدوحيه
٢٤٤	مواضيعه الشعرية		شخصيته - عنفوانه - إعجابه
٢٤٩	مزيمته الفنية - الوصف	١٨٩	بنفسه
٢٥٦	غزله - حنينه الى وطنه	١٩٣	خصائصه الفنية
		١٩٣	التألق البديعي
		٢٠٠	تقننه المعنوي
	المختار من شعره	٢٠٦	شففه بالاغراب ودواعي غموضه
٢٦٠	اجيدك ما ينفك يسري لزينبا		
٢٦٣	سلام عليكم لا وفاء ولا عهد		
٢٦٤	انما الغي أن يكون رشيدا		
٢٦٦	أخفي هوى لك في الضلوع وأظهر	٢١٥	السيف أصدق انباء من الكتب
٢٦٨	ألم تر تفليس الربيع المبكر	٢١٩	من سجايا الطلول الا تجيبا
٢٧١	صنت نفسي عما يدنس نفسي	٢٢١	على مثلها من أربع وملاعب
٢٧٢	قل للسحاب اذا حدثه الشمال	٢٢٤	اهن عوادي يوسف وصواحيبه
٢٧٣	ميلوا الى الدار من ليلي نحيبها	٢٢٥	ديمة سمحة القيادة سكوب
٢٧٥	أفانق صب من هوى فأفبقا	٢٢٦	غدت تستجير الدمع خوف نوى غد
٢٧٧	رحلوا فأبي عزيمة لم تسكب	٢٢٨	الحق ابلج والسيوف عوار
		٢٣١	أجل أيها الربع الذي خف آهله
		٢٣٢	كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر
		٢٣٣	دموع أجابت داعي الحزن همع
	ابن الرومي - مصادر دراسته		
٢٨٣	سيرته		
٢٨٥	حاله مع ممدوحيه		
٢٨٨	حاله مع الزمان		
٢٨٩	عقليته وأثرها في شعره	٢٣٧	توطئة تاريخه - أطوار حياته الثلاثة
٢٩٥	شعره وشاعريته	٢٣٩	ممدوحوه
٢٩٥	القول بالوحدة في قصائده	٢٤١	ولعه بالخر
٢٩٨	مزاياه الفنية - طول النفس	٢٤٢	مذهبه السياسي

٣٤٦	عصبيته العربية ونسبه	٣٠٠	استيفاء المعنى وتقصي الاغراض
٣٤٩	شهرته الشعرية		
٣٥١	شراحه ونقّاده		
٣٥٣	شخصيته الشعرية		
٣٥٣	عواطف الشباب ونفثات الألم	٣٠٧	كفى بالشيب من ناه مطاع
٣٥٧	الجهاد والبطولة - في حلب	٣١٠	شاب راسي ولات حين مشيب
	الغيظ من الماضي والأمل بالمستقبل	٣١٢	بكاؤكما يشفي وان كان لا يجدي
٣٥٩	في مصر	٣١٤	أمامك فانظر أي نهجيك تنهج
٣٦٠	شعره في العراق وفارس	٣١٥	ذاد عن مقلتي لذيد المنام
٣٦١	المتنبي في حكمه	٣١٨	يا أخي أين ربيع ذاك اللقاء
		٣٢٠	يا خليلي تيمتني وحيد
		٣٢٢	مقطعاته الحكمية
	المختار من شعره		
			المتنبي - مصادر دراسته
٣٦٣	كم قتيل كما قتلت شهيد		
٣٦٥	في الخد ان عزم الخليط رحيلاً	٣٢٧	نشأته الأولى في العراق والشام
٣٦٧	فدينك من ربيع وان زدتنا كرباً	٣٢٨	أسباب سجنه وتلقيبه بالمتنبي
٣٦٩	على قدر أهل العزم	٣٣٠	تردده في الاقطار الشامية
٣٧٢	واحرّ قلباه	٣٣٢	في حلقة سيف الدولة
٣٧٤	كفى بك داء ان ترى الموت شافياً	٣٣٤	في مصر - عند كافور
٣٧٥	أودّ من الايام ما لا تودّه	٣٣٧	بين العراق وفارس
٣٧٧	من الجأذر في زيّ الاعاريف	٣٣٨	مقتله
٣٧٨	فراق من فارقت غير مذمّم	٣٣٩	مزاياه الخلقية - تماظمه
٣٨١	الحزن يقلق والتجمل يردع	٣٣٩	سوء سياسته
٣٨٣	نعدّ المشرفية والعوالي	٣٣٩	شعوره بالتفوق
٣٨٤	ملومكما يحل عن الملام	٣٤٣	طموحه الى المجد



		المعري - مصادر دراسته	
٤٣٠	الا في سبيل المجد ما أنا فاعل		
	أمثلة من لزومياته	٣٨٩	توطئة تاريخية - عصره
		٣٩٢	بيئته - رحلاته - طبعه
٤٣١	اولو الفضل في أوطانهم غرباء	٣٩٤	تزهده وجاهه وكرمه
٤٣٢	اذا كان علم الناس ليس بنافع	٣٩٨	زندقته وایمانه
٤٣٢	يرتجى الناس ان يقوم امام		النزاع الفكري في عصره وأثره في
٤٣٣	يحسن مرأى لبني آدم	٣٩٩	الشاعر
٤٣٣	من لي ان لا أقيم في بلد	٤٠٠	طوره الأول وطوره الثاني
٤٣٣	قد قيل ان الروح تأسف بعدما		شاعريته وشعره - سقط الزند -
٤٣٣	أنا صائم طول الحياة	٤٠١	لزومياته
٤٣٣	لا تبدأوني بالعداوة منكم	٤٠٤	سلاسته وتفقده
٤٣٤	جر يا غراب وافسد	٤٠٥	دقة تشابيهه وروعة حكمه
٤٣٤	العالم العالي برأى معاشر	٤١٠	المواقف الشعرية - الغبيبات
٤٣٥	اركان دنيانا غرائز أربع	٤١٣	الطبيعة والحياة البشرية - الاديان
٤٣٥	قد اختل الانام بغير شك	٤١٤	الشعب وزعماءه
		٤١٦	الطبيعة البشرية
		٤١٧	أسباب شهرته
	ابن الفارض - مصادر دراسته		
٤٣٩	نشأته		المختار من شعره
٤٤٢	شخصيته		
٤٤٦	أثر الصوفية في شعره	٤١٩	نقمت الرضا حق على ضاحك المزن
٤٥١	اسلوبه الشعري ومزاياه الفنية	٤٢١	غير مجد في ملتي واعتقادي
٤٥٤	عيوب اسلوبه	٤٢٤	أحسن بالواجد من وجده
٤٥٧	غزله	٤٢٦	مغاني اللوى من شخصك اليوم اطلال
٤٥٩	غيبوبته والتائية الكبرى	٤٢٨	عللاني فان بيض الاماني

٤٦٩	ما بين معترك الاحداق		المختار من شعره
٤٧١	قلبي يحدثني	٤٦٤	سائق الاطماع
٤٧٣	زدني بفرط الحب	٤٦٧	هو الحب



## هذا الكتاب

ترتكز هذه الدراسة على طريقة أطلق عليها المؤلف اسم «التخصص الأولي»، وعمادها أن يتناول الدارس فرعاً واسعاً من فروع الأدب، كالشعر مثلاً، فيختار نخبة من أمثاله، ويدرس كلا منهم درسا وافياً يجمع بين البحث العلمي والتحليل الأدبي وصولاً إلى غاية التقصي والتحليل.

وتطبيقاً لهذه الطريقة، اختار المؤلف، لدراسة الشعر في العصر العباسي، ثمانية من أبرز أعلامه هم: أبو نواس، وأبو العتاهية، وأبو تمام، والبحتري، وابن الرومي، والمنتبي، والمعري، وابن الفارض. وقوام خطته في هذه الدراسة العناية بمصادر هؤلاء الأعلام، وتحليل طائفة كبيرة من أعمالهم الشعرية.

إن لهذا الكتاب غرضين أساسيين أولهما علمي، وهو الجري في ميدان البحث الحر، وثانيهما أدبي، وهو التفقيه بالأدب نفسه.